892.709:B36tA v.3

بيومي، السباعي.

تاريخ الادب العربي - في العصر

892.709
B36tA
v.3

JAFET LIB.
- 8 OCT 1980

2 Oct 64

1 Feb 69

JAFET LIB.
- 8 DEC 1977

19 Jun 70

12 JUL 1970

18 DEC 1973

تجليد
صالح الدهر
بيروت - المز

892.709
B36tA
v.3

تاريخ الأدب العربي

الجزء الثالث

في

العصر العباسي بالمشرق

مشفوعا بكلمة عن العصر المغولي بعده هناك

تأليف

الباعي بيومي

وكيل كلية دار العلوم وأستاذ الأدب بها سابقا

١٣٧٢ هـ — ١٩٥٣ م

الطبعة الأولى

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

(صبحي وشركاه)

مطبعة لجنة البيان العربي

٨ شارع مصطفى باشا كامل - الظاهر

بسم الله الرحمن الرحيم

العصر العباسى

١٣٢ — ٦٥٦ هـ

تصوير عام

للحال السياسية فى هذا العصر الطويل

دالت الدولة الأموية وآلت إلى العباسيين والعرب فريقان : — فريق يحن إلى الدولة الدائلة ، ويود أن لو عاد الزمن بها على الأعقاب ، وآخر يرى أن ما فعله العباسيون من استئثارهم بالخلافة على أبناء عمهم العلويين ذوى الحق الأصيل افتراء وطغيان (١) ، فكان من الطبيعى حينئذ أن يولوا وجهة الدولة الجديدة عن العرب ، إلى غيرهم فى تثبيت قواعدها ، وتصريف شئونها ، ولم يك هناك غير سوى الفرس ، وإن كانوا فى عقيدتهم علويين ، ذلك لأنهم انساقوا فى تيار السلطان الجديد ، ولو إلى حين ، وبهذا تبدلت

---

(١) يزعم العباسيون أنهم أحق بالخلافة من أبناء على لأنهم فوق وراثتهم للعباس ، وإرث النبى فى عمومته دون أبناء على من فاطمة ومن غير فاطمة بالأولى ، قد تنازل لهم عن حقهم فى الخلافة هؤلاء الأبناء ، ذلك أن ابن الحنفية محمد بن على بن أبى طالب نزل مقيما بقرية الحميمة بالشراة من الشام لدى على بن عبد الله بن العباس . وحين دنت وفاته عنده تنازل له عن هذا الحق الذى آل بعد على إلى ابنه محمد هذا فأقام الدعاة وجعل عليهم النقباء وسرحهم إلى خراسان . ولكن العلويين ينكرون هذا التنازل ، ومن اعتد به منهم يجعله حجة على أبناء على من محمد بن الحنفية دون أبنائه من فاطمة البتول .

الدولة من عربية محضة ، إلى عربية يشوبها سلطان الفرس مع سلطان الخلفاء ؛ ثم كانت أن أسست عاصمتها الجديدة « بغداد » فى أحضان الفرس ، فكان ثم زيادة فى التجاور واختلاط ، ولكن سلطان الفرس على ما صار له من نفوذ ، لم يقو أن يتغلب فى القرن الأول على سلطان الخلفاء ، لقوة شخصيتهم ، وفتوة دولتهم ؛ والتاريخ لا يزال يحدثنا بما كان من فتك المنصور بأبى مسلم ، وفتك الرشيد بالبرامكة ، احتفاظاً للخلافة بالنفوذ ؛ ولذا عرف هذا القرن الأول ، بعصر سيادة الدولة ، واكتمال السلطان . غير أنه حدث فى آخره حيث آلت الخلافة إلى المعتصم أخى المأمون أن عمد بحكم فتوته وقوة بدنه ، وانسياقه لأشباع هذا النهم الجسمى ، بأعمال الرياضة والفروسية ، إلى عدد من الأتراك الخدم ، جعلهم فى هذا النوع من اللهو مخالطيه ومعاونيه ، وانساق فى سبيل الاستكثار منهم ، حتى بلغوا كما قال المؤرخون السبعين ألفا ، وصار لهم فى بغداد شـــغب واعتداء جأر له أهلوها بالشكوى منهم والاشمئزاز . وكأنه قد وجد بغداد لما فيها من جـد الأمر ، ومهام الشئون ملهية له ولهؤلاء ، أن ينساقوا فى هـذه السبيل الرياضية ، إلى حيث يريدون ، فهجرها بهم إلى مدينة أسسها لهـذا الضرب من المجون ، هى مدينة « سر من رأى » أو كما قد يقولون « سامرا » فابتعد بهـذا أن يلى أمور الدولة عن كثب ، كما ينبغى أن يكون ، وبدأ نفوذ الخليفة يتراجع فيها إلى الوراء ، بقدر ماعظم نفوذ الفرس المرحبين بهذا الانصراف ؛ ولكن الطبيعة قضت أن يستفيد أولئكم الخدم الأتراك بحكم اقترابهم من الخليفة جاها ونفوذا ، وما هو إلا أن عملوا على مشاركة الفرس فى النفـوذ ، ثم ما هو إلا أن استلبوه منهم ، واستبدوا به عليهم ؛ ولقـد زاد من نفوذ هؤلاء ، بقدر ما أضعف من نفوذ الفرس ، مجىء المتوكل على الله سنيا متشددا ، وإيغاله فى حرب الشيعة الذين كان المأمون على مذهبهم ، وجاء من بعده غير معـارض لهم المعتصم والواثق — والفرس كما علمت متشيعون مغرقون — فخلت للمتوكل وإن شئت فقـل

للخدم الأتراك السلطة فى بغداد ، واعتبر هذا عصرا ثانياً هو عصر الخدم أو العصر التركى الأول ، وجعل مبدؤه تولى المتوكل على الله سنة ٢٣٢ .

لم يقف هؤلاء الخدم طوال القرن الثانى من الدولة فى الاستبداد بأمورها عند حد فتناول طغيانهم أكثر ما تناول أشخاص الخلفاء ، وأول ما حدث من فظائعهم حدث المتوكل على الله ، فانهم جردوه من كل سلطة وكان قد فقد النصير من الفرس لاشتداده فى محاربة التشيع ، وإذ حاول الأبقاء على شىء من هيبة الخلافة ، تآمروا مع ابنه المنتصر على قتله وقتلوه ، فكان هذا فتحاً لطريق جديدة فى التخلص من الخلفاء ، وتوالت بعد هذا الحدث أحداث فى التعذيب والتقتيل ، والمعذبون المقتلون بمعزل عن المعين والنصير[1] ، حتى فقدت بغداد مكانتها وانصرف الناس عنها بعد انصرافهم إليها ، وحدثت الأمراء والولاة نفوسهم أن يستبدوا على الخلافة بما فى أيديهم من أرضين فأخذ النفوذ يتقلص عن بغداد إلى الأقاليم حتى أقفرت من كل خير وصلاح ، وزخرت بكل ما فى الطوق من شر وفساد ، وحمل خوف الخلفاء من أولياء العهود ، وخوف أولياء العهود من الخلفاء ، أن يستكثر كل فريق من أولئكم الخدم ليكونوا عليه حراساً وله جواسيس ، وفعلا كان ، حتى عجت بغداد بجيوشهم ، وصار من استعان بهم ألعوبة فى أيديهم[2] ؛ وامتد بهم الزمن على هذا السوء قرن

---

(١) قتلوا المعتز بجره من رجله خارج الدار وضربه الضرب المفضى إلى الموت بعد إيقافه فى الشمس يضع رجلا ويرفع أخرى من شدة الحر .

(٢) يؤيد ذلك مارواه الفخرى عنهم من أنه لما تولى المعتز ، أحضروا المنجمين وقالوا لهم : — انظروا كم يبقى الخليفة فى الخلافة وكم يعيش ؟ وكان فى المجلس أحد الظرفاء . فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ، قالوا فكم تقول ! فقال : « ما أراد الأتراك » فلم يبق فى المجلس إلا من ضحك .

ضعف للدولة ، وفتور ، أعقب قرنها السالف ، قرن الفتوة والسلطان ، وما زالت الحال على هذا النسق من البوار ، حتى طمعت إحدى الدويلات الناشئة من هذا الضعف بالأقاليم ، وهى دولة آل بويه فى تخليص بغداد منهم ، فخلصتها أيام المستكفى بالله ، سنة ٣٣٤ وبدأ بذلك عصر عباسى ثالث هو عصر الأوطان السياسية أو الدويلات .

مهد العصر العباسى الثانى وهو عصر الضعف والاستسلام لتفكك أوصال الخلافة ، واستبداد ذوى النفوذ فى الأقاليم ، فلم يكد يتنصف قرنه حتى بدت بوادر الانسلاخ عن الدولة على أيدى عدد من الأسر المختلفة الأجناس وإن بقى معظمها لا كلها يدين بالمظهر الدينى لخلفاء بنى العباس .

فمن الأسر الفارسية : —

السامانيون فيما وراء النهر من سنة ٢٦١ — ٣٨٩ هـ .

والبويهيون بفارس والعراق من سنة ٣٢٠ — ٤٤٧ هـ .

ومن التركية : —

الأخشيديون بمصر من سنة ٣٢٣ — ٣٥٧ هـ

والغزنويون بأفغانستان والهند من سنة ٣٥١ — ٥٨٢ هـ

ومن العربية . —

الحمدانيون بالشام من سنة ٣١٧ — ٣٩٤ هـ

والفاطميون بمصر من سنة ٣٥٧ — ٥٦٧ هـ

وقد شاء تغلب القوى على الضعيف ، أن يمحى معظم الدويلات ما ذكرنا وما لم نذكر ، على أيدى ثلاث منها تحولت إلى دولات ، هن الغزنوية ، وقد تغلبت على السامانية وغيرها فى تلك الأصقاع ، والفاطمية وقد تغلبت على الحمدانية بعد أخذها مصر من الأخشيديين ، ثم البويهية وقد تغلبت على بغداد سنة ٣٣٤ فاعتبر هذا بدء العصر العباسى الثالث كما

ذكرنا[1] وفيه خضع المسلمون لنفوذ الأتراك شرقا والعرب غربا والفرس وسطاً ، وبقى ذلك قرناً وبعض القرن حيث دخل السلاجقة الأتراك بغداد سنة ٤٤٧ فبدأ العصر العباسى الأخير .

لم تكد الدولة البويهية والفاطمية والغزنوية تتم القرن الأول من حكمها ، حتى تمخض التاريخ عن دولة عظيمة هى الدولة السلجوقية ، التى أنشأها رجلها الاول سلجوق بن بكباك بالتركستان سنة ٤٢٩ ، ولما شاهد ضعف آل بويه فى بغداد ، طمع فى اكتساح المملكة الإسلامية ، وتقرب إلى المسلمين قبل هذا الاكتساح ، بأن أسلم هو وأسرته ورجاله ثم تقدم إلى الغرب زاحفاً حتى دخل بغداد سنة ٤٤٧ فكان هذا إيذان العصر العباسى الأخير ، الذى مكث أكثر من قرنين ، إذ بقوا بها إلى حيث أخذها التتار منهم وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٥٦ .

ومن جسام الأحداث التاريخية فى هذا العصر . اختلاط الغربيين

---

(١) جد البويهين الأقرب بويه أبو شجاع ، ويرجع نسبهم إلى ملوك الفرس القدماء ويعرفون بالديلم لسكناهم البلاد المعروفة بهذا الاسم من قديم وقد أنجب بويه هذا فى ثلاثة أنجاد ، هم على وحسن وأحمد ، نبغوا فى الفروسية وأعمال الجيوش وتقدموا إلى الدولة بأقطاعهم الأرضين أيام الراضى بالله المتوفى سنة ٣٢٩ ، فكان على فى فارس وحسن بخوارزم وأحمد بشيراز ، ثم اتفقوا ثلاثتهم على تخليص بغداد من أيدى الأتراك فساروا إليها ودخلوها أيام المستكفى بالله فرحب بهم ولقب عليا عماد الدولة وحسنا ركن الدولة وأحمد معز الدولة ، ثم كان أن بقى معز الدولة ببغداد بلقب أمير الأمراء واستمر هذا اللقب للقائم منهم بعده فى بغداد إلى أن جاء عضد الدولة فأخذ لقب الملك وكذلك كان من بعده بها إلى أن أخذها السلاجقة الأتراك . . .

بالمشارقة لقيام الحروب الصليبية وانتهائها بتأسيس عدة إمارات بسورية وفلسطين مكثت نحو قرن من الزمان ، ثم تدفق عرب الأندلس إلى المغرب والمشرق بما تتابع وقوعه عليهم من اضطهاد وتعذيب .

تلك هى الحال السياسية العامة للعصر العباسى ومنها ترى أنه أربعة عصور لا يستحق هذه النسبة منها إلا العصر الاول ، عصر نفوذ الخلفاء .

وهذا هو الطابع العام لكل عصر فى حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم ، وما إلى الآداب والعلوم .

طابع كل عصر وأثره العام

فى حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم

لقد كان لتلون العصر العباسى بتلك الألوان السياسية التى حولته أربعة عصور ، الأثر الظاهر فى حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم .

« العصر الأول »

فى العصر الأول عصر قوة الخلافة وسلطان بغداد ، كان الخلفاء مصدر أدب وعلم ، كما كانوا مصدر سياسة ونفوذ .

فهم أهل كفاح وجلاد فى تثبيت سلطان الدولة الجديدة ، تلمحه فى إشراع الرماح ، وإشهار السيوف ، وتسمعه فى الخطب تقذف الحمم وتطير الشرر ، وتقرؤه فيما يصدرون من رسائل دامغة الحجة مفحمة البرهان ، ولذا كان عصر خطابة وكتابة ، وكان رجاله كتابا وخطباء .

وهم أهل حذق للأدب ومعرفة بالغة بفنونه يرون الشعر وينقدونه ، ويستمعون إلى الشعراء ويجزلون لهم العطاء ويؤرثون بينهم نار التنافس والتسابق بما يبينون من فاضل ومفضول ، ولهذا تزاحمت على أبوابهم الشعراء من عامة الأقطار ، فكانت للشعر نهضة كثر فيها القصيد وجاد .

ثم هم أهل علم يخالطون العلماء مخالطة حوار ونقاش ، عارفين لقيمهم ، حافظين لمكاناتهم ، حافزين لهم مشجعين إياهم على مد الدولة الجديدة بما تتطلبه حضارتها من علوم وفنون منذ عهد خليفتهم الثانى أبى جعفر المنصور ، ذلكم العلم الخضم ، الذى لم يأل جهدا فى وضع الأساس لنشأة العلوم المختلفة من شرعية ولسانية ، وفلسفية ، وقفاه من بعده خلفاؤه الأقربون وناهيك بالرشيد والمأمون ، حتى عد هذا العصر عن جدارة واستحقاق عصر النشأة العلمية فى متنوع العلوم والفنون ، وإنه لعجب عاجب تمكن العرب فيه أن ينقلوا إلى لغتهم جل علوم الفرس واليونان والهنود ،

بفضل ما لخلفائه من تنشيط حركة الترجمة وإغداق العطايا على النقلة والمترجمين (١) .

ومما يعد مظهرا جديدا فى هذا العصر ، ما صار للموالى فيه من رفعة شأن ومعرفة قدر ، بحكم مالهم من فضل تأسيس الدولة ، ومعاونة خلفائها فى النهوض بها ، بعد الذى كانوا يلاقونه على العهد الأموى من جفوة واحتقار ، بل تعذيب واضطهاد (٢) ، فصاروا ينفسون عن أنفسهم

---

(١) كان المنصور من أحسن رواة الحديث ، وكان ذا ذوق فى الشعر ينتقد الشعراء ويعرف المنحول والمسروق ، ثم كانت له دفاتر علم اشتد حرصه عليها حتى أوصى عند وفاته ابنه المهدى بها .

وكان الرشيد أكثر سابقيه رغبة فى العلم كما كان حفاظا للشعر نقادا للشعراء وكلاهما كان ذا فضل على الترجمة ، الأول من حيث الابتداع والإيجاد والثانى من حيث التنشيط والتشجيع .

أما المأمون ففضله على الترجمة وإحياء العلوم قد غطى على فضل الجميع وإن كان فى الناحية الأدبية أقل من أبيه .

(٢) حوادث الأمويين فى عدم التسوية بين الموالى والعرب بالرغم من تمتعهم بها فى صدر الإسلام كثيرة : منها أنهم كانوا يمنعون زواج المسلم منهم بالعربية ويطلقونها عليه إن فعل ويجلدونه . روى الأغانى أن رجلا من الموالى خطب بنتا من أعراب سليم وتزوجها ، فركب محمد بن بشير إلى والى المدينة يومئذ إبراهيم بن هشام فشكا إليه فأرسل إلى المولى ففرق بينه وبين زوجه وضربه مائتى سوط وحلق لحيته وحاجبيه وفى ذلك يقول ابن بشير :

وفى المائتين للمولى نكال وفى سلب الحواجب والخدود

ومنها خطبة المولاة إلى مولاها دون أبيها الذى لا ينكر ذلك ولا يتأذى منه .

وحوادث الحجاج فى إيذاء الموالى جاوزت كل حد وفاقت كل معقول ، فقد كان يسمهم بالوشم ويحصرهم فى دوائر لا يتعدونها ، ويأمر ألا يؤم بالكوفة منهم أحد فلا يغير عليه الخليفة من ذلك شيئاً .

ويجهرون إزاء العرب بمآثرهم وقابل العرب ذلك منهم بالإنكار والجحود ، ثم طالت الملاحاة بين الفريقين حتى علن أمر الشعوبية ، وعظم شأنها ، كل ذلك والخلفاء يتواصون بالموالى ويطلبون لهم من أبنائهم وذوى قرباهم مثل ما كان يطلب الخلفاء الراشدون للأنصار ، فكان من ذلك أن استفادوا وأفادوا فى نهضة هذا العصر والسير به قدماً إلى الأمام .

نعم إن إطلاق حرية البحث لهم فى التشيع منذ عهد المأمون الذى كان شيعياً ، والذى أباح لنفسه من غير تقزز أن يكون أحمد بن أبى دواد وزيره معتزلياً ، ويحيى بن أكثم وزيره أيضاً سنياً ، جعلهم يرسلون الفكر فى البحث الدينى من غير عنان ، حتى تعددت البدع الدينية ، وانتشرت الزندقة والإلحاد ، وغلبت الشهوات الجسمية على طائفة الماديين المستهترين ، فأباحوا ما لم يكن مباحاً ومدحوا ما كان قبل ذميما وشاع تسرى الجوارى ثم أعقبه تسرى الغلمان ، فزينوا وحجبوا كما كانت تزين وتحجب النساء ، غير أن هذا الضرب من الجنون واللهو ، كان مغلوباً على أمره إزاء جد الدولة وعلو شأنها كما هو الشأن الآن فى عواصم دول القوة والسلطان .

العصر الثانى

وفى العصر العباسى الثانى ، أخذ كل ما ذكرنا يتراجع إلى الوراء . لأن ملء شأ تقدمه كما رأيت ، كان قوة الخلفاء ، وأنهم علماء أدباء ، وأن أولياء عهودهم وأعيان دولتهم ، كانوا لهم فى ذلك محاكين وبهم مقتدين ، أما إذ احتبس الخلفاء وأولياء العهود فى القصور بعيدين عن مهام الدولة ومخالطة الشعب ، وأصبح الخدم أعياناً لا عهد لهم بالعلم والأدب ، وحتى عهدهم بمعرفة العربية اليسيرة جد قريب ، فقد انغمس أولئكم فيما تعج به القصور من أسباب اللهو ومتع الحياة ، فكان لهوهم مع السرارى المختلفات والقيان المغنيات ، مع ما يحف بهن من غلمان وخصيان . وما عدا جدهم مخالطة الخدم المذكورين ؛ فغلب عليهم اللهو والترف ؛ وانطلق هؤلاء

المصرفون لأمور الدولة فى تصريف أمورها انطلاقاً بعد بهم بعامل تكوينهم عن الناحية الأدبية العلمية ؛ وكان فى الناحية السياسية عاجزاً فى الأقاليم ، وفاسدا فى بغداد ، ومن أجل ذلك وقفت الدماء التى كانت جارية متدفقة فى شرايين الدولة بكل أسباب الحياة ، وتبدلت من حمرتها زرقة سامة قاتلة أو صفرة ناحلة مضعفة ، فأخذ العلم يهجر بغداد برحلة رجاله عنها ، بعد أن طال بهم انتظار الخيرة فيها ، وأخذ الشعراء يبحثون لهم عن مرتزق غيرها ، ولكن أنى تعود الحركة العلمية إلى دورتها ، أو يجد الشعراء من يعطى — وإن طلبوا — قبل فترة من الزمن يظهر فيها الكساد والبوار وتستعد خلالها حواضر جديدة لحمل العلم الذى كان بأيدى بغداد ، وإذن فليكن العصر الثانى عصر الضعف والخمول والضعة والانحطاط تموت فيه الخطابة ، ويضعف الشعر ، وتقف الحركة العلمية عن الدوران ، ولا يبقى فيه من المظاهر السالفة إلا الكتابة بحكم حاجة الملك والسلطان ، وقد منى فوق ذلك كله بما قيد الأفكار ، واحتبس الأنفاس عما كانت قد سبحت فيه من بحث حر طليق ، فقد جاء المتوكل أول ماجاء ضاغطا على الشيعة ، محاربا للتفكير ، بعكس ماكانت عليه حالها منذ أيام المأمون من انطلاق ؛ فقل النبوغ النفسى بقدر ما ضعفت آلة الكلام ، ثم وقف تيار الفلسفة بقلة النبوغ ، وظهر بهذا الضعف الخروج بمعانى الألفاظ عما حددت اللغة من معان ، وعز على رجال اللغة أن يقفوا إزاء ذلك جامدين ، فأخذوا يضعون المقالات أو الكتب منتقدين ما حدث من خروج ، ومحاولين إرجاعه إلى ما يريدون من إصلاح [١] ، وكذلك قام رجالى الأدب إزاء الكتابة والشعر جميعا [٢] ؛ على أنه مما ينبغى أن يدون حسنة لهذا العصر

---

(١) من آيات ذلك «فصيح ثعلب» المتوفى سنة ٢٩١ فقد اختار فيه الفصيح من كلام العرب ليعتصم به الناس عما ساد كلامهم من أخطاء . (٢) من ذلك فى الكتابة « أدب الكاتب » لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ و « نقد الشعر » لقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ ، ومنه فى الشعر « نقد الشعر » لقدامة المذكور .

قبل انتهاء الكلام فيه اطراد التقدم فى الخط العربى حتى استقر على القاعدة التى بين أيدينا الآن ، وضعها وضبطها ابن مقلة الخطاط الشهير المتوفى سنة ٣٢٨ هـ .

العصر الثالث

ظهرت النشأة الأولى للعلوم الإسلامية فى العهد الأموى بالبصرة والكوفة ، ولكنها لم تكد تؤتى أكلها بالتأليف والتدوين ، حتى سقطت الدولة الأموية وتأسست العباسية ، متخذة بغداد عاصمتها بل عاصمة العالم الإسلامى كله ، فاتجهت نحوها الأنظار من مختلف الأقطار ، وتحول إليها كل شىء من آداب وعلوم وفنون ، حتى كانت فى العصر العباسى الأول ، على ما قدمنا من ازدهار . ثم أصابها فتور وكساد فى العصر الثانى ، خضوعا لما ذكرنا من أسباب ، غير أن ذلك الفتور لم يكد يقضى على ما كان من نبوغ فى العصر الأول ، حتى تأسست الدويلات فى العصر الثالث الذى نحن بصدد الكلام فيه الآن ، وهو إن قضى فيما قضى على بغداد نفسها ، فقد خلق نفوذ الدويلات عدة حواضر وصلت ما كان قد انقطع ، حتى أصبحت كل منها بغدادا يؤمها الأدباء والشعراء ، ويقيم فيها العلماء والمؤلفون ، على أن آل بويه إذ دخلوا بغداد أعادوا لها سبق مجدها وعزها ، وسالف حضارتها وسلطانها ، ولكن لا على أن تكون منفردة كما كانت ، بل على أنها حاضرة من حاضرات ؛ نعم إن مركز الخلافة بقى لها وحدها دون الدويلات ، ولكن بعضها رفض هذا الخضوع كآل مروان بالأندلس منذ عهد الناصر وكالفاطميين منذ أن كان لهم وجود بمصر والشام ، ومن دان بهذا المركز لم يعد فى ذلك ، الناحية الدينية البحتة ، أما الدنيوية فقد كان فيها تام النفوذ مطلق السلطان ، ولعل هذا الانفصال بحاليه بين بغداد وحواضر الدويلات ، كان عاملا فعالا فى اشتداد التنافس بين رجالها وفى حفز الهمم إلى أن تسود كل صواحباتها ، فيما كان لبغداد وحدها منذ القديم ، فقويت الحركة العلمية بعامل التنافس والتشجيع ، وعلا نجم

الأدب ، وراجت سوق الفنون ، كما قويت بعامل آخر هو علم ملوك الدويلات وأمرائها ، ومن اختلط بهم فى سياستها من سادتها وعيونها ، فهذان عاملان قويان فوق العامل الأساسى الطبيعى عامل النشوء والارتقاء ، وإلى القارىء فى ذلك بضع شواهد وآيات ، عن آل بويه والغزنويين ، أما غير هذين ممن حكموا فى غرب الدولة بالأندلس وشمال أفريقية ومن حكموا وسطها بمصر والشام فقد تركنا التحدث عنهما إلى الجزأين الرابع والخامس إن شاء الله .

كان آل بويه علماء أدباء ، وكثير منهم شعراء يحبون العلم والأدب ، ويحثون رجالهما على التصنيف والتأليف ، ويفتحون أبوابهم للشعراء ، ويغمرونهم بالعطايا والصلات ، وكانوا لذلك لا يستوزرون ولا يستكتبون ، كما لا يولون ولا يستقضون ، إلا خيرة العلماء ونوابغ الكتاب ، فمعز الدولة استوزر الحسن المهلبى الأديب الشاعر ، وركن الدولة استوزر ابن العميد الغنى عن التعريف ، ومؤيد الدولة ابنه استوزر الصاحب بن عباد ، وكذلك استوزره فخر الدولة أخوه ؛ وكان عز الدولة بن معزها شاعراً وكذلك تاج الدولة بن عضد الدولة كأبيه ، وكذا أبو العباس بن ركن الدولة[1] ، ثم كان عضد الدولة المذكور على شاعريته نابغاً فى عدة فنون

---

(١) من شعر عز الدولة وكان أكثره فى الشرب والشراب قوله : —

اشرب على قطر السماء القاطر ... فى صحن دجلة واعص زجر الزاجر
مشمولة أبدى المزاج بكأسها ... درا نثيراً بين نظم جواهر
من كف أغيد يستبيك إذا مشى ... بدلال معشوق ونخوة شاطر
والماء ما بين الغصون مصفق ... مثل القيان رقصن حول الزامر

ومن شعر تاج الدولة وهو آدب آل بويه وقد نكب بالحبس من جهة أخيه أبى الفوارس قوله . —

هب الدهر أرضانى وأعتب صرفه ... وأعقب بالحسنى من الحبس والأسر
فمن لى بأيام الشباب التى مضت ... ومن لى بما أنفقت فى الحبس من عمرى

يستحث العلماء على التأليف ، ويغمرهم بالأموال ، ويقصده فحول الشعراء[١] ، ولا يكاد مجلسه يخلو من مباحثات ومباسطات فى العلم ، والأدب ، كما كان شغوفا بجيد الشعر يتعشقه ويحسن نقده ، عارفا لأساليب الكتابة ، ذا افتتان فى إنشائها[٢] فهو فى هذه النهضة أشهر ملوك آل بويه كما كان أشهر وزرائهم فيها الصاحب بن عباد المذكور ، فقد كان عالماً كاتباً شاعراً يقيم عنده العشرات من رجال العلم والأدب ، ويقصده منهم ومن الشعراء المئات ، فيكرم إقامة أولئك ويحسن وفادة هؤلاء .

ومن شعر أبيه عضد الدولة قوله فى خارج أرسل يطلب الأمان بعد أن ضيق عليه

أأفاق حين وطئت ضيق خناقه ... يبغى الأمان وكان يبغى صارما
فلأركبن عزيمة عضدية ... ناجية تدع الأنوف رواغما

ومن شعر أبى العباس مبدعاً : —

أدر الكأس علينا ... أيها الساقى لنطرب
من شمول مثل شمس ... فى فم الندمان تغرب
فمكث حين تجلت ... قمراً يلثم كوكب
ورد خديه جنى ... لكن الناطور عقرب
فإذا ما لدغت فالر ... يق درياق مجرب

(١) ألف له أبو على الفارسى كتاب « الإيضاح والتكمله » فى النحو ، وأبو إسحق الصابى كتاب « التاجى » فى أخبار آل بويه ، ورحل إليه المتنبى رحلات ملأت فم الزمان .

(٢) من شغفه بالشعر تمنيه أن يكون المصلوب بدل ابن بقية الوزير لتقال فيه قصيدة الأنبارى التى مطلعها : —

علو فى الحياة وفى الممات ... لحق تلك إحدى المعجزات

ومن تفننه فى الكتابة ما كتب به إلى أفتكين التركى صاحب دمشق إذ غره أخذه الشام من حكومة مصر وطلب منه المدد لمحاربتها نفسها فكتب إليه هذه الرسالة المتحدة الكلمات لولا النقط والشكل وهى « غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك فاخش فاحش فعلك بهذا تهدا » .

ولم يأل الغزنوتون جهداً فى نصرة العلوم والآداب — وإن كانوا أحدث فيها عهداً من آل بويه — مع اشتغالهم شرقا بالغزو والفتوح ، فقد كان مجلس سلطانهم محمود آهلا بالشعراء والأدباء والعلماء ، وهو الذى اقترح على الفردوسى إتمام الشاهنامه التى بدأ نظمها الدقيق باقتراح نوح ابن منصور السامانى ، وكان لا يسمع بشهرة أحد من هؤلاء إلا عمل على استدعائه إليه ، يدل على ذلك كتابه إلى أمير خوارزم مأمون بن مأمون وفيه يقول « علمت أن فى مجلسك جماعة من العلماء المبرزين فأرسلهم إلى ليتشرفوا بمجلسى ونستفيد من علمهم » ، وقد تلاه عليهم مأمون فقبل بعض وامتنع بعض ، غير أن هذه النصرة لم تك ذات بال بجانب نصرة آل بويه لما قدمنا من حداثة عهد رجالها بأدب العربية وعلومها واشتغالهم عنها بما دأبو فيه من غزو وجهاد .

بهذا التشجيع المصحوب بالتنافس الشديد للعلماء والأدباء فى المشرق ، زخرت بحار التأليف واطرد تيارها حتى نمت العلوم وتم نضجها ، فتكونت المعاجم اللغوية واستوت الفلسفة واستقرت قواعد الطبيعيات والطب وانتهى الإنشاء الكلامى إلى أسلوب أصبح قاعدة ، وظهرت الروايات والقصص ، واتسع خيال الشعراء وعمق فكرهم وتفرع التاريخ وانبسط تقويم البلدان واتسعت أبواب النقد الأدبى ، وحسب هذه السعة العلمية بياناً أن زادت فروع العلوم إذ ذاك لدى محصيها على ثلثمائة كما قسمتها كتب الإحصاء ، وكانت من بينها علوم لم يصل إليها التمدين الحديث إلا فى القرن الماضى أى بعد نحو ألف سنة من تاريخ كتابة العرب فيها كعلوم تدبير المنزل والسياسة والاقتصاد والعمران[1] ، فلا عجب أن عرف هذا العصر بعصر نضج العلوم . وقد أعقب هذا النضج وكثرة التأليف إنشاء المكاتب العامة وانتشارها فعرف بعصر المكاتب أيضاً ، ولنا أن

---

(١) فمن كتب تدبير المنزل كتب ذكرها ابن النديم لإبراهيم بن المهدى

نسميه فوق ذلك عصر المذهب الشيعى لأن آل بويه شيعيون أما ، الغزنويون فلم يكونوا فيه قد جاوزوا النظرة العامة للدين إلى نظرة تجعلهم شيعيين أو سنيين ، كما لنا أيضاً أن نسميه عصر توطن الآداب والعلوم ، ومن ثم بدت فيه نسبة رجالها إلى مدنهما كالبخارى والنيسابورى والرازى وهكذا بعد أن كانت النسبة قبله إلى الأصول كالحميرى والمازنى أو إلى الصنائع كالزجاج والنحاس .

العصر الرابع

جاء هذا العصر وقد تغير النظام السياسى فى شرق الدولة الإسلامية ، فحكمها السلاجقة فى الشرق بعد البويهيين والغزنويين ، فكان أن حدث فى كل من الدين واللسان أمر ذو بال نجم عنه ما وجه العصر توجيها خالف به سابقه كثيرا أو قليلا فى شتى الأمور .

فأما فى الدين فبعد أن كان للمذهب الشيعى الغلبة على المذهب السنى بنفوذ البويهيين ، ذهبت ريحه بذهابهم وجاء المذهب السنى يكتسحه ويعفى عليه بصولجان السلاجقة الأتراك ، والسلاجقة سنيون بحكم نشأة جنسهم أول ما اختط بالمسلمين مضادا للشيعة محارباً لها منذ عهد المتوكل على الله ، وكم وقف هذا التبدل فى التأليف الشيعى من حركات وحارب من فكر وأبطل من عادات .

وأما فى اللسان فقد كان البويهيون بفارس متعربين مبرزين . فكان للأدب منهم مدد منشؤه حذقهم أسلوبه وتذوقهم جماله ، فانقطع هذا المدد بتركية السلاجقة ، وكردية الأيوبيين ، وإن ابتعد الأولون عن محاربته ومخاصمة رجاله وحاول الآخرون تلمسه وتقريب ذويه . وبذلك نال صورتى

ولإبراهيم بن العباس الصولى ولعلى بن يحيى المنجم وغيرهم ولكنها ضاعت . وقد ألف فى السياسة على إجمالها أبو زيد البلخى ، وفى المدنية منها الفارابى

الأدب كتابته وشعره ضعف قلل من مقدارها ، وذهب بكثير من محاسنها وكان أنكى بالشعراء منه بالكتاب لأن الشعر جمال يستغنى عنه فيما يستغنى إذا لم يجد المتذوقين النصراء ، فى حين أن الكتابة من ضرورات الملك الحضرى يضطر إلى الإبقاء عليها ذووه وإن لم يفقهوا ما لها من حسن وجمال.

أما الناحية العلمية لحياة اللغة فقد كان هذا العصر عليها عصر بركة ونماء ذلك بأن العلماء استمروا فيه منطلقين بعد نضج العلوم إلى حيث أخرجوا الموسوعات الضخمة والمعاجم الجامعة فحق أن يدعى لذلك عصر الموسوعات[1] ثم كان شعور العلماء فيه باشتداد ضعف ملكة اللسان وحاجة النشء فى تنشئته على الملكة الصحيحة واستيعاب ما استبحر من علوم ، دافعاً للقوم أن يهيئوا للعالم أماكن دراسة يؤمها المتعلمون ويرتب لها العلماء المدرسون ، فكان من ذلك إيجاد المدارس بالمعنى الذى نعرفه الآن ووسم هذا العصر بعصر المدارس[2] . كما وسم بعصر الموسوعات وهذان أثران له جليلان .

ولقد وفد على مزاج اللغة فى المشرق أدبها وعلمها فى هذا العصر وافدان غربيان ، أحدهما فرنجى جاءت به الحملات الصليبية مما أسست فى

---

(١) لعل مما حملهم على تأليف هذه الموسوعات بعد الدافع الطبيعى لحركة التأليف ، مقاومة ماذهبت به الفتن من مؤلفات وأضاعت من جهود ، فكانوا يدونون الموسوعة جامعة لمتى العلوم مع حذف ما اعتادوا فى غيرها من أسانيد .

(٢) أول من قام بإنشاء المدارس فى هذا العصر نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى التركى ، فقد أسس المدرسة النظامية فى بغداد منسوبة إليه فكان لها شأن فى العالم الإسلامى كبير جعل غيره يقتدى به فى إنشاء مثلها حتى امتلأ العالم الإسلامى ولما ينته العصر بالمدارس المختلفة فى جميع الأنحاء . .

الشرق من إمارات ، وبما حدث بين رجالها ومسيحي المشارقة من تصاهر وزواج ، على ما هنالك من خلاف فى الأصول واللغات والآداب والعادات ، لابد أن يؤثر تأثيره ، ويأخذ طريقه غالبا غير مغلوب ، والثانى عربى هو نزوح الجماهير الأندلسية إلى المشرق يحملون طابعاً لم يك للمشارقة فى التفكير والتأليف وإنشاء الرسائل وقرض القريض حوكى فيما حلوه من بيئات[1] وبهذا ضعفت الفوارق بين أدب قرطبة وأدبى القاهرة وبغداد وقويت المشابهات .

تلك كلمات أرسلناها مجملات فى ميزات الأعصر العباسية اللغوية بعضها عن بعض رابطين بينها وبين ما أنتجها من أحداث السياسة وأمور الاجتماع ، وفيما يلى من دراسة موضوعات المنهج ، تفصيل لما أجملنا وإيضاح ، والله ولينا وهو المستعان .

---

(١) من أظهر ما كان لهذا الاختلاط فى عالم الفكر ، اتصال الفلسفة الأندلسية بفلسفة المشرق ، وفى عالم الأدب انتشار الموشحات .

ما طرأ على العرب ولغتها

من جراء امتزاج الأعجام بها

خالطت العرب بعد تمام الفتح فى العهد الأموى أشتاتا من الأمم مختلفين فى أجناسهم وديانانهم وفى لغاتهم واجتماعياتهم ، كما يحدث التاريخ العام عن طبقات الناس حين الفتح من أرض أندلس وشمال إفريقية ومصر والشام والعراق وفارس وماوراء فارس ، فتأثروا بهم كما أثروا فيهم ولكن تأثرهم لم يبد واضحا جلياً فى ذلك العهد لقصر زمنه نسبيا ولنرفع العرب فيه عن مخالطة الأعجام اقتداء بخلفائهم وذوى الأمر فيهم ، فكانت الأمة العربية ملوكا وسوقة ذات عصبية لجنسها ونعرة لقوميتها (١) ، ولكن ذهاب تلك العصبية وهذه النعرة بمجىء العهد العباسى كما أسلفنا جعل هذا الاختلاط يعمل عمله ويؤثر تأثيره فى كثير من نواحى الحياة ذات التأثير البين فى اللغة ، آدابها وعلومها .

ففى العهد الأموى بقى الجنس العربى متحصنا ، فكان زواج العربى من غير العربية نادرا ، وزواج العربية من غير العربى منكراً ، فلما جاء العصر العباسى رافعاً شأن الموالى أقبل الناس على زواج الأعجميات مسرعين ، لما لهن من فرط وجمـــال ووافر عقل ، ولما بدا على نسلهن من نجابة

---

(١) تتضح هذه النعرة فى شقيها بما روى من أن عبد الملك بن مروان حين خطب إلى عقيل بن علفة بنته قال له عقيل جنبنى هجناء أولادك يقصد مسلمة ابنه على ما عرف به مسلمة من واسع عقل وكامل خلق . وبما كان من أن عبد الملك حين عقد ولاية العهد لأبنائه تخطى مسلمة هذا ، لأن أمه غير عربية ، لا بغضاً له ولكن تعصبا لتلك النعرة أو خوفاً من الأمة المتعصبة لها .

وذكاء (١) وتسابقوا فى هذا المضمار وقدوتهم فيه الخلفاء وأبناء الخلفاء (٢) وإذ وقف حد الدين للزوجات عند أربع انطلقوا فى التسرى غير المحدود حتى ضاقت القصور بالقيان والأماء (٣) ، وما من شك فى أن هذا ينتج من التأثير الجسمى وبالتالى العقلى فى النشء الناشىء من الأعجميات الشىء الكثير ، فأما من الناحية الجسمية فلما هو مقرر ثابت من أن التزوج من البعيدات نسباً مؤد إلى فراهة الأجسام وقوة البنى ، فما بالنا بالبعيدات جنساً (٤) ، وأما من الناحية العقلية فلأن الأمم التى غلبتها العرب على سلطانها

---

(١) بقى أهل المدينة زاهدين فى التسرى حتى نشأ فيهم على بن الحسين ومحمد بن القاسم وسالم بن عبد الله وقد فاقوهم علما وورعا فرغبوا فيه ، ومما زاد إقبال الناس على زواج الأماء خفة كلفته حتى قالوا فى ذلك « الأمة تشترى بالعين وترد بالعيب » وقالوا فى مزيته جملة « عجبت لمن عرف الأماء كيف يقدم على الحرائر » .

(٢) لهذا كان خلفاء بنى العباس منذ الهادى أبناء سرارى ماعدا الأمين ابن زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، فالهادى وأخوه هرون أمهما رومية ، والمأمون أمه فارسيه ، والمعتصم أمه تركية ، والواثق أمه رومية ، والمتوكل أمه تركية ، وهكذا .

(٣) بلغ عدد جوارى الرشيد ألفين ، وعدد جوارى المتوكل أربعة آلاف ، وعلى ذلك يقاس ما كان لغيرهما من الخلفاء وما كان لغير الخلفاء من الأمراء والأغنياء .

(٤) لهذا يقول الحديث « اغتربوا لا تضووا » والضوى دقة العظم وقلة الجسم خلقة وأضوت المرأة ولدت الولد كذلك ولذا يقول الراجز .

أنذر من كان بعيد الهم تزويج أولاد بنات العم فليس ينجو من ضوى وسقم

ولهذا وجد فى العصر العباسى من ضرب بهم المثل فى الشجاعة حتى قال الأصمعى « ما ضرب رءوس الأبطال كابن الأعجمية » .

كانت ذات حضارة تبدو فى شتى الألوان ، وتختص كل واحدة بلون يكون فيها دون غيرها أكثر زهوا وأشد لمعانا ، وهذه الميزات جميعا كان الهجناء فيها ولها أقوى وأقبل من الصرحاء بعامل الأرث المؤرث والعرق الدساس . ولقد كان من هـــذا أن عجزت المرأة العربية عن مجاراة الأعجمية فى الزواج فضوعف هذا التأثير ، ثم كان أن اندس العربى بين الأعجام زارعا وصانعا بعيدا عن مهام الدولة وتصاريف الأمور يسوده من الموالى من كان قبل مسودا ، فذهبت من نفسه البقية الباقية للنعرة وسلم فى بناته ومن هن تحت ولايته أن يكن لهذا الجنس الغالب زوجات ، فافترشهن الأعجام ونسلوا منهن نسلا مقرفا جاء أكثر من الهجناء عددا وأشد منهم بالعجمة اتصالا ، على أن من بقى من العرب صريح العروبة لم يقو بديار العجمة على صد هذا التيار الأعجمى الشديد فكان فيه من المغرقين .

وفى العهد الأموى كانت للدين الإسلامى صولته وقوته ، دخل فيه من دخل مؤمناً إيماناً حقاً غير ملتفت إلى دينه السابق ولا عاد إياه بجوار الإسلام شيئاً ، وبقى على دينه من بقى ذمياً مستأمناً يحسد نفسه أن أبقاه المسلمون على دينه ويعد ذلك النعمة لا تعدلها نعمة ، فلم يتسرب إلى الدين الإسلامى من الديانات المختلفة — نصرانية ويهودية ومجوسية ، على افتراق كل ديانة من هذه الديانات طوائف وفرقا — شىء يزعزع من عقائد أبنائه ويفتح لهم فى ميادين التشكيك مجالا ، ولكن حين جاء العصر العباسى مستبدلا بصولة العرب صولة الفرس وكانوا مجوسا قد ساد مجوسيتهم آخر سلطانهم إلحاد وإباحية وزندقة ، فتحت فى الأبحاث الدينية أبواب كانت مغلقة ، وجرت على ألسنة هؤلاء المجوس ولو أنهم أسلموا أقاويل لم تكن تجرى ، وتخطت الأبحاث الدينية بالرغم من مقاومة الخلفاء للزندقة والإلحاد ، السياج الذى كان مضروبا ، وساعد على رواج هـذه الأبحاث التمكين لرجال الفرس فى السلطان . وإذ ساغ للمجوسية أن يصطبغ بأبحاثها كثير من أبحاث الفلسفة والدين فقد ساغ لليهودية والنصرانية أن تجريا وراءها

بغير عنان ، وأن ينشط اليهود والنصارى فى أمثال هذه البحوث متسترين وراء حاجة الدولة إلى علمـــائهم وتقريب خلفائها وخاصتها لكثير من شخصياتهم ، فكان من وراء ذلك تأثير فى الدين كبير ظهر أثره فى اللغة من آداب وعلوم .

وفى العهد الأموى كان للغة العربية بحكم التوسع فى الفتح وبسط السلطان ، طغيان على لغات الأمم المفتوحة أيما طغيان ، أزال منها ما أزال وبقى ما بقى ضعيف المقاومة مهيض الجناح ، كل هم ذويه أن يبقوا أمام الفاتحين آمنين على نفوسهم وأموالهم وما يؤثرون البقاء عليه من دين . أما لغاتهم فلن يأخذ بيدها ما صاروا ليه من ضعف ولن تجد من رجال الدولة الجديدة إلا الرغبة الملحة فى خضوعها للعربية أتم خضوع ، ثم كان تنزه العرب النازلين ديار العجمة عن مخالطة الأعجام ، وترفعهم أن يلوا مثل ما يلى أولئك من أعمال ، أو أن يقبلوهم معهم فيما خصوا به أنفسهم من مناصب الملك والسلطان ، حاجزاً قوياً وسداً محكما دون أن يتأثروا مرغمين بعامل المخالطة والجوار . أما إذ جاء العصر العباسى وزالت بمجيئه قوة الفتح وسطوة الغلب ، وتم للعرب مخالطة العجم ومشاركتهم فى الأعمال ، فقد حل عن عنق اللغات المغلوب أهلوها ما كان مضيقا عليها من خناق ، فتنفست الصعداء وأخذت تذكر ما كان لها من كيان ، وما ينبغى أن يكون عليه ذووها من حفاظ ، ومن ثم وقف غزو العربية لها حينا وانقلبت هى بعد ذلك الحين غازية كأنها تريد الانتقام ، حتى عقد لهـا لواء النصر فى التغلب كما سيأتى على ألسنة السواد ، وتسربت بما كان فى التوسع فى وضع العلوم وحركة النقل إلى التأليف والتصنيف فوجد فيها دخيل معرب ودخيل خلو من التعريب ، ثم كان أن وجدت فوق هذين سبيلا تظهر فيه أحيانا على ألسنة الأدباء ناثرين وشاعرين .

هذا وكما كانت النزعة العربية فى العهد الأموى غلابة فيما ذكرنا من نواحى الجنس والدين واللغة كانت كذلك غلابة فى ناحية الاجتماع .

فقد ظل أبناء العرب أيامه على بداوتهم محافظين على خشونة الجاهلية ، عاملين بعاداتها محيين لآدابها ، يقودهم فى ذلك ويشجعهم عليه آل البيت المالك حتى الخليفة المقيم بدمشق . وما غيروا فيه من أمور الاجتماع كان نصرا للعربية وفتحا على أبنائها ، إذ جعلوا الإسلام دولة عربية بعد أن كان دينا ، وأيدوا تلك الدولة العربية بنقل دواوين الحكومة إلى لغة رجالها ، وسكوا النقود العربية مستعيضين بها عن نقود الفرس والروم وكذلك فعلوا فى نقل الطراز (١) وما عدا الناس على عهدهم طبقة العرب السائدين عدنانيين وقحطانيين ، وطبقة الموالى المسودين مسلمين وذميين . نعم خدم الدولة وتقرب إليها بعض العرب النصارى والموالى ، مسلمين وغير مسلمين ، ولكن عددهم جميعاً كان جد قليل (٢) ثم جدت أمور لم تكن فى صدر الإسلام كاتخاذ السرير والحجاب (٣) ولكنها لم تعد أشخاص الخلفاء ومن حاكاهم من بعض الولاة فى تبسط واضح واكتفاء بالقليل .

أما أحوال الاجتماع فى العصر العباسى حيث نضج التمدين الإسلامى

---

(١) الطراز هو أن يرسم الملوك أو السلاطين صورهم أو علامات تختص بهم على الأثواب المعدة لاسمهم أو لباس بعض الطوائف من أتباعهم ، كما يرى الآن على ألبسة الجند والشرطة مثلا ، وأول من نقله إلى العربية عبد الملك بن مروان ولكنه استعاض عن الصور كتابة الأسماء وكلمات التفاؤل والدعاء لورود تحريم الصور فى بعض الأحاديث .

(٢) من تقريب الخلافة الأموية لنصارى العرب ، تقريبها الأخطل الشاعر وبخاصة فى عهد عبد الملك ، وممن خدم من الموالى غير المسلمين رجال الدواوين قبل تعريبها ، ومنهم مسلمين ، سالم القائم على ديوان الرسائل لهشام وختنه عبد الحميد صاحب ديوان مروان .

(٣) أول من اتخذ السرير والحجاب معاوية لما رأى منهما فى بلاد الروم ولما أنبأه به عما كان لمجلس الحاكم فى فارس ومصر ، عما له بتلك البلاد .

متأثراً بما خلف عليه من مدنيات ، فقد جاءت مغايرة كل المغايرة لما كانت عليه فى عهد الأمويين .

ساق هـذا التمدين الناس بعصاه إلى أن يكونوا طبقتين وتحت كل طبقات ، الأولى طبقة الخاصة وهى الخليفة وأهله ورجال دولته وأرباب البيوتات ، والثانية طنقة العامة وهى المزارعون وأهل القرى وسكان المدن من الصناع والتجار ، ثم حمل الخواص على أن يتخذوا لهم من العوام أتباعاهم الجند المحافظون والأعوان المرافقون والموالى المعتقون والخدم وهم الأرقاء والخصيان والجوارى من السودان والبيضان ، كما حملهم على أن يقربوا إليهم من العوام أيضاً أهل الفنون الجميلة من المصورين والمغنين ، وأهل الأدب والشعر من الأدباء والشعراء ، وذوى الحذق والنفاسة من نابغى الصناع وكبار التجار .

فهذه الطوائف جميعاً ما عدا الزراع كانت تعج المدن فى العصر العباسى وتفيض ، هذا إلى من يخالطهم فيها من ذوى المفاسد أعوان الشر أو المجون ، وإذ كانت هـذه الجموع فى غالبيتها أخلاطاً من غير العرب جنسا ، وعلى غير ما نشأت عليه العرب استعداداً ، فأنت خبير بما تنتجه فى أبناء العربية المخالطين وفى العربية حيث لا يوجد هؤلاء الأبناء من تأثير .

ولقد قضت هذه المدنيـة على كثير من مناقب العرب التى شبوا عليها فى بداوتهم وهذبها الإسلام فى صدر إسلامهم ، وحاطها الأمويون بالرعاية فى دولتهم ، كالاستقلال والشجاعة والنجدة والأنفة والعفة وغيرها مما جبلوا على مدحه ، والتفانى فى نصرته ، وتجلت له فى أدبهم صور رائعة باهرة ، فأصبحنا بعد هذه من العصر العباسى نشاهد الضعف والخور ، والقعود والاستسلام ، والغدر والخداع ، وذهاب الغيرة من نفوس الرجال

وضعف الثقة بهم فى قلوب النساء ، حتى غاض معين طاهر صاف وفاض آخر كله رجس وأقذار[١] .

وقد نقلت هذه المدنية العرب من التبسط فى معاشهم مطعما وملبساً ، ومسكنا ، فبعد أن أخذوا بطرف يسير من الحضارة مدة العصر الأموى فى هذه الأشياء انغمسوا فيها على العهد العباسى حتى الأذقان ، فابتنوا القصور المتنوعة تحف بها الحدائق وتجرى من تحتها الأنهار[٢] ، ولبسوا الحرير ونحوه مختلف الألوان والأشكال ، مفرقين بين الثياب فى الحياة الجادة العاملة والحياة الوادعة اللاهية[٣] ثم أكلوا كل ما لذ وطاب من ألوان

---

(١) لذلك تنوسيت المرأة العربية فى المدن فتنازلت عن عزتها فى سبيل إرضاء زوجها ، وصارت تهدى إليه الجوارى وتحبب إليه الاقتراب منهن ، حتى ذهبت غيرتها وضاعت كرامتها وعاد الرجل يظن بها الظنون فأقفل عليها الأبواب والنوافذ وسد فى وجهها الطرق والمسالك ومنعها الخروج والكلام ، وأصبح الطعن فى طباع المرأة شائعاً على ألسنة الناس ، حتى ألفت له القصص والروايات وأرسلت فيه الحكم ونظمت الأشعار .

(٢) اختلفت أساليب البناء فى الإسلام باختلاف البيئات فكانت فى كل بلد على نمط أهله ، ولكنها لم تلبث أن اتجهت كلها بذوق العرب واستخدامهم الابتكار إلى نمط خاص هو النمط العربى وإن بقى بين بعضه وبعض يسير اختلاف .

(٣) حاكت العرب الأمم المفتوحة فى كثير من ملابسها وظهر التغالى فى ملابس الخاصة على العهد العباسى ظهوراً بينا وبخاصة فى العراق ، إذ كان من الخلفاء منذ عهد المنصور حمل للناس على لباس خاص ، له فى كل طائفة طابع يميزها من غيرها ، وكان لا بد من جبة سوداء تغطى حين الدخول على الخليفة جميع الثياب تعرف بالسواد وهو شعار العباسيين بعد أن كان شعار الأمويين البياض .

ثم كانت ثياب اللهو والدعة تميز بألوانها الزاهية ، وصقلها اللامع وتعرف بثياب المنادمة .

الأطعمة ، وشربوا كل ما شف وراق من أنواع المشروبات[١] . فكان ذلك كله على ما صحبه من التغالى فى اتخاذ الأثاث والرياش ، واقتناء الأحجار الكريمة والمجوهرات مجالا لحياة اللغة أى مجال . [٢]

ثم تعددت هذه الزينات الدور الخاصة بخلفاء الدولة وعظمائها ، فظهرت متجلية فى مجالسهم التى كانت تبلغ من السعة المبلغ العظيم ، فترفع فوقها القباب ، وتزين جدرانها وسقفها بصور الذهب والفضة لما فى البر والبحر ، وتفرش أرضها بالبساط الواحد من الديباج ، وتسبل على نوافذها ستائر الحرير المطرزة بشارات الدولة وما قد يضم إليها من مأثور الكلام [٣] . ثم كان للخلفاء فى الموكب حين الخروج للاحتفال من الافتنان فى الزينة

---

(١) قد اتسعت مطابخ الخلفاء والأمراء لتعدد ألوان الأطعمة ، والتوسع عليها فى الإنفاق حتى صار لكل لون خدم عليهم رئيس .

ومما ساعد على انتشار المسكرات ، أن تناولها كان شائعاً قبل الفتح فى جميع البلاد وبخاصة بلاد فارس التى كان ملوكها مغرقين فى اللذات والمسكرات .

(٢) أخذ البذخ فى اقتناء المجوهرات مأخذه فى بغداد ، وقد احتذى بهم فى ذلك بقرطبة آل مروان ثم فاق الاثنين الفاطميون فى القاهرة ففاضت فى المدن الثلاث المجوهرات حتى كان تزين بها الخيل وسائر الحيوان ، وإن نظرة إلى ما كانت تزين به النساء عند الزفاف ولا سيما بنات الخلفاء والخاصة من الأمراء وذوى اليسار لتدل على ما بلغ إليه الترف فى تلكم الأنحاء .

(٣) وكانت تتعدد أماكن هذه المجالس بتعدد مايدور فيها ، فيعد بعضها لتصريف أمور الدولة وبعضها للأدب والشعر ، وبعضها للمناظرات والعلم ، وبعضها للغناء والأنس ، وهكذا .

وإظهار العظمة ما يأخذ بالألباب ويخطف الأبصار (١) .

وحينما أخذت العرب فى تشرب مدنيات الأمم التى غلبتها على أمرها وورثت حضارتها وسلطانها كانت هذه المدنيات فى أخريات أيامها قد سادها الشر وعمها الفساد ، فكثر من أبنائها الأشرار الفاسدون ، الذين نشروا الرذائل فى مدنية الإسلام ، وكان العرب معرضين لهـــا بعدوى المعاشرة والاختلاط ، فلم يكادوا يخطون فى مدنيتهم حتى كثرت الموبقات ، وتعددت المفاسد ، وغلبت الشهوات على الناس فصاروا لها عبيدا ثم انطلقو فى تيارها عن طواعية واختيار ، وكأن أبناء العرب وقد فقدوا شخصياتهم ، وصاروا وأبناء الأمم المذكورة سواء ثم أقل من السواء ، أصبحوا يحاكونهم محاكاة المغلوب للغالب فانغمسوا فى شرورهم غير مبالين ، وتعودوا من عاداتهم ما كانوا عنه مبعدين (٢) .

ولقد ولد هذا الاندفاع الشديد فى تيار الحضارة تقديسا المادة فى النفوس إشباعاً للنهم والجشع ، وسداً للكمالى الذى صار من الضرورات ، فأحب الناس المال حبا جما ، وانطلقوا وراء الحصول عليه انطلاقا أعمى لا يفرق بين حل وحرام ، فتنوعت طرق السلب والابتزاز ، وانتشرت حيل الغش والخداع ، وأصبحت الرشوة عاملا فعالا من عوامل نيل

---

(١) وكذلك كانت تختلف أشكال المواكب باختلاف الداعى إليها من أمر دينى كالأعياد ، أو دنيوى كزفاف أو ختان ، أو نصر أو ما إلى ذلك مما هو مفصل فى الكلام على أبهات الخلفاء .

(٢) لذلك كانت عادات الجاليات العربية فى كل قطر ، من عادات أهله وناهيك بما كان قد استقر من عادات الشر فى الأقطار الإسلامية قبيل الفتح أثراً محتوما لمدنيتين شاختا وأكل عليهما الدهر ، هما المدينة الفارسية شرقا والمدنية الرومانية غربا .

الغرض وابتناء الثروات (١)

على أن العرب على ما آذتهم به تلك المدنيات فى نواحى الاجتماع ، قد استفادوا من ورائها مغانم فى العلم والأدب ، عادت عليهم وعلى لغتهم بالخير والصلاح ، فقد جارى أبناء أمها سلائل العرب فى مضمار الأدب فكان منهم الكتاب والشعراء ثم بذوهم فى مضمار العلم فكانوا أكثر منهم عدداً وإنتاجاً فى التأليف والتصنيف ، هذا إلى أن أدباءهم كانوا اللقاح الأدبى الجديد ، كما كان علماؤهم التراجمة الماهرين فيما نقل من علم دخيل .

ذلك بمجمل ما كان للأعاجم بجنسياتهم ودياناتهم ولغاتهم واجتماعياتهم من تأثير فى العرب ، ظهرت نتائجه فى لغتها غرضاً ومقصدا ، معنى وخيالا ، لفظاً وأسلوبا ، على ما سنبينه فى هذه النواحى الثلاث عقب الكلام على غلبة الفرس فيه .

---

(١) فشا بانتشار الرشوة الأثراء السريع للوزراء ومن فى حكمهم من الولاة والعمال ، وتبع ذلك إقدام ذوى الأمر على استصفاء أموال هؤلاء لاعتقادهم أنها جمعت من حرام كلما احتاجوا إلى سد عجز مالى أو حفزهم حافز الانتقام .

غلبة الفرس فى هذا التأثر

وإلى أى درجة كان فى اللغة مداه

لقد كان للفرس دون غيرهم من سائر الأمم نصيب الأسد فى هذا الموضوع .

ذلك بأنهم شعب آرى أسس دولة عتيدة فى التاريخ القديم ذات علوم وآداب (١) : وهم أهل ذكاء وتعقل ، وفيهم استعداد فطرى يساعدهم على الأخذ بأسباب الحضارة ، ولذلك أحرزوا منذ القديم ، قسطا وافرا من الطبيعيات والرياضيات ورثوا فيه الآشوريين والبابليين ، واحتكوا بالهنود واليونان المتصلين بهم لغة وجنسا ، فنقلوا إلى لغتهم ما نبغت فيه هاتان الأمتان من علوم وفنون (٢) ، ثم كان أبين ما فضلوا غيرهم فيه ، النبوغ فى

---

(١) كانت السيادة قديما للفرس شرقا والروم غربا ولكن سلطان فارس كان أقدم عهدا وأكثر جندا ، امتلكوا مصر على فراعنتها زمنا وحاربو اليونان قبل المسيح ، فكانوا قبل بضعة وعشرين قرناً يجردون جيشاً قد يصعب اليوم على أعظم الدول حشده ونقله من أواسط آسيا إلى أفريقية وأوربة .

(٢) كان نقل الفرس لعلوم الهند جاريا منذ القديم يؤيد ذلك ما ذكر فى فتح الأسكندر بلاد فارس من أنه عثر فى عاصمتهم إصطخر على خزائن كتب ، فيها ما جمعه الفرس من علوم الهند والصين إلى تلك الأيام .

وقد نشطت حركة النقل بفارس أيام سابور بن أزدشير فقد بعث إلى بلاد اليونان من استجلب كتب الفلسفة وأمر بنقلها إلى الفارسية وخزنها فى خزائنه وشجع الناس على نسخها ودرسها .

ولما كان ما كان من اضطهاد جوستنيان قيصر للفلاسفة الوثنيين بعد

الأدب الآرى ، ذى الفكر الغواص والخيال المخصب البديع ؛ وما ظنك بقوم هذا شأنهم — قد نزل العرب بلادهم منذ الفتح الأول ، ثم أنشئوا أكبر دولة عرفها التاريخ فى أحضانهم وبمعونتهم ، ولما يمض على ذهاب سلطانهم من الزمن طويل — إلا أن يتشربوا مدنيتهم ، ويتخضروا بحضارتهم ، ويظهر أثر ذلك جلياً فى كلامهم ، وإن تغلبوا عليهم فى اللغة والدين .

أما الأتراك الذين شاطروا الفرس النفوذ فى العصر العباسى عهدا بعهد فلم يك لهم ما الفرس ولا شىء منه فى هذا الميدان لما يلى من أسباب .

اتصل الأتراك أول ما اتصلوا بالعباسيين خدماً مجلوبين من أمة لا عهد لها بعلم ولا سابقة عندها لحضارة ، وإنما هم قوم من البدو الأميين الذين لا يزالون يضربون فى الأرض ابتغاء الرزق سلباً ونهباً ، ويذرعون أواسط آسيا شرقاً وغرباً ، متقاتلين فيما بينهم ، ومقاتلين من يصادفهم من غيرهم ، عمادهم قوة أبدانهم ، وما يتخذونه سلاحاً بأيديهم دون أن يقيموا دولة أو ينشئوا حضارة ، فبقى هذا شأنهم حين صار لهم النفوذ فى العصر العباسى الثانى على الخلفاء ، غلظة فى غير رفق ، وقسوة لا تعرف الرحمة ولا التعقل إليها سبيلا ، وتنافر بين أحزابهم ، أيهم أكثر قوة وأشد فى النكاية إيغالا ، فهم صورة من صور الخسف والاستبداد والسخف ، والاستعباد ، تبقى ما بقى بطشها وسلطانها ، فإذا ما زايلتها القوة وتعداها النفوذ ؛ ذهبت غير مخلفة من الآثار ، إلا اللعنة وسوء الذكر ، أما حضارة تؤثر فى حضارة ، وأدب يؤثر فى أدب ، ولغة تتدخل فى لغة ، فلا شىء

إقفاله هياكلهم ومدارسهم ، فروا من وجهه إلى فارس حامية الوثنية إذ ذاك ، فاستقبلهم كسرى أنوشروان ورحب بهم وأقاموا عنده ينقلون الكتب اليونانية إلى الفارسية حتى نقلوا منها الكثير ثم أخذوا يؤلفون فى علوم الفلسفة وغيرها حتى شاع العلم اليونانى بفارس كما شاعت قبل علوم الهند والصين .

من ذلك عندهم يكون ، ولا أثر له فى وجودهم يبقى إذا أفناهم الزمان .

وحين مكن لهم الدهر فى عهدهم الثانى عهد السلاجقة الذى كان أطول العصور ، كانوا من تلك الناحية كما كان أسلافهم فى العهد السالف مقفرين فلم تجد العربية فى لغتهم ما تتأثر به من علوم وآداب لأنها لم تك لغة علوم وآداب ، وبقيت مصبوغة بالصبغة التى كانت من لغة فارس ، بل زادت الفارسية فيها تأثيرا عما كان لها قبل أن يكون للأتراك سلطان (١) وبهذا خلت العربية من كل أثر للتركية إلا بعض ألفاظ منها سرت إلى لغة التخاطب بدافع الاختلاط (٢) .

ومما وقف فى طريق أن تتأثر العربية بالتركية فى هذا العهد الأخير على فرض أن يكون لها تأثير . أنه جاء وقد استوفت العربية كل ما احتاجت إليه فى ترجمة العلوم والآداب ، جله من لغة فارس ، وقليله من اليونان ، والنادر من الهنود . ولعل من يقول وكيف تذكر ما تذكر عن الهندية واليونانية ، وفيض الهنود على العرب فى العلم عظيم ، وفيض اليونان أعظم وأوفر ، وهذا داع أن يكون تأثر العربية بلغتيهما على درجة لا تستقيم وقولك أنه نادر وقليل ، فنقول ، إن التأثر من الناحية العلمية المعنوية غير التأثر من ناحية الألفاظ والأساليب ، وحقيقة كان فيض العلم اليونانى

---

(١) كان أتراك المشرق إذا انتصروا لغير العربية جاء انتصارهم للفارسية دون لغتهم العاجزة أن تكون لغة علم وأدب ، يؤيد هذا ما سبق عن السلطان محمود الغزنوى من تكليفه الفردوسى إتمام نظم الشاهنامه الفارسية .

(٢) من ذلك سنجقدار لحامل الراية خلف السلطان ، ودوادار لمتولى الأحكام وتنفيذها ، وسردار لرئيس الجيش ، ونحوها من الكلمات المركبة من كلمتين تركيتين إحداهما دار بمعنى ممسك والأخرى مأخوذة من المعنى المراد كسنجق بمعنى الرمح وهكذا .

والهندى على العربية كما ذكرت ، ولكن أغلب ما نقل إليها منهما كان عن الفارسية التى نقلته قبل إليها ، فكان لهـــا فيه الاستئثار بتأثير اللفظ والأسلوب ، ثم الاشتراك مع هاتين اللغتين فى التأثير العلمى ، إذ لاتخلو الترجمة من أن يكون للمترجم فى معناها نصيب .

على هذا الضعف كان شأن اللغة التركية التى شارك أهلوها الفرس فى النفوذ . فاستقلت الفارسية بالتأثير البين فى العربية فى تلكم الأرجاء الشرقية المترامية الأطراف ، وبقى لها كيان شخصى أخذ يتزايد وينمو كلما تقدم بالدولة الزمن ، حتى عم آخر العهد قاصية فارس ، فكانت الفارسية فيها لغة أدب وتأليف ، ثم أخذ يزحف من الشرق إلى بغداد حتى رد أمته فارسية اللغة كما كانت أول الزمان ؛ أما وسط الدولة فكانت العربية وهى لغة غالبيته منذ القديم غلابة على ما وجدته من لغات أصبحت فى ذمة التاريخ ، وكذلك فعلت فى لغات غيرها ، وإن لم تكن لغة أهله قبل الفتح ، فلم يبق لشىء من تلك اللغات وجود ، وإذن كان للغة الفارسية بذلك وبمن نبغ فيها من أبناء العرب ونبغ فى العربية من أبنائها ، الاستئثار بتأثير اللفظ والأسلوب فى ميدان الآداب والعلوم[1]

---

(١) كان الدافع للفرس إلى تعلم لغة العرب أنهم وجدوا تعلمها وسيلة ناجعة فى الوصول إلى أعلى المناصب وآلة فعالة فى جلب الغنى الواسع ، فحذقوها وعملوا على نقل محاسن لغتهم إليها ، وكانوا لا يحصون كثرة .

أما الدافع إلى تعلم كثير من العرب لغة الفرس فهو الاستمتاع بقراءة آثارهم والتماس اللذة من الاطلاع على تاريخهم ، ولما تغذوا بلبانها كانوا أداة صدق فى تغذية العربية بكثير من ثمارها .

ولقد جنى الأدب العربى على أيدى من حذقوا اللغتين معا ثماراً شهية ناضجة ، كعبد الله بن المقفع ، والبديع الهمذانى من الأدباء ، والفخر=

إلا ما كان من مشاركة اليونانية لها فى الميدان العلمى ، حيثما ترجمت منها مباشرة إلى العربية بعض العلوم فى عهد المأمون ، وهذا ما سيظهر جلياً فيما نحن بجملوه عما جد باللغة فى تلكم النواحى الثلاث ، بعامل هذا التأثير مع العامل الطبيعى للنشوء والارتقاء إلى أن يفصل بعد بتفصيل الموضوعات

أولا — ناحية الأغراض والمقاصد

قد اتسعت مقاصد اللغة وأغراضها فى العصر العباسى اتساعا كبيراً ساعد عليه امتزاج المدنية الآرية بالسامية امتزاجاً تاماً ، وكان من وراء ذلك أن تناول التغيير أغراضاً بالإيجاد ، وأخرى بالسعة والازدياد ، كانت منها هذه الأغراض :

١ — تدوين العلوم على اختلاف أنواعها من شرعية ولسانية وكونية

٢ — الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية وبخاصة الفارسية ثم اليونانية .

٣ — إشاعة المذهب الشعوبى والرد عليه .

٤ — نشر الزندقة والإلحاد ومقاومتهما .

٥ — تعبيد طرق البحث والجدل والمناظرة والمحاضرة .

٦ — التحريض على متع الحياة ، وتحسين المجانة والخلاعة ، وامتداح الشرب والغناء .

٧ — الوعظ والارشاد عن طريق التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة .

٨ — ضبط أمور الدولة بتنويع الكتابة فى مختلف الدواوين .

٩ — وضع القصة والرواية .

١٠ — وصف جمال الطبيعة ومحاسن الحضارة ، كالرياض بما فيها من

= الرازى من الفلاسفة ، وموسى بن سيار من رجال الوعظ والارشاد ، وغير هؤلاء كثير .

ثمار وأزهار ورياحين ، والقصور وما حوت من أثاث ورياش وصور ورسوم ، ومجالس المنادمة والشراب ، ومصايد الوحوش والسمك والطيور ، وأنواع اللعب بالكرة والصولجان ، إلى غير ذلك من آيات الحضارة ومباهج الحياة .

١١٠ — النقد الأدبى على اختلاف مناحيه .

١٢ — تدريس العلوم المختلفة فى المدارس ، وتربية الأحداث .

ثانياً — ناحية المعانى والأخيلة

لقد فتح التوسع فى المقاصد وتعدد الأغراض أمام الناس أبواباً جديدة للمعانى والتخيلات ، إذ كان تدوين العلوم وترجمتها عاملا على نضج العقول وسعة الأفكار ، وكانت الملاحاة الجنسية والمذهبية باعثة على قوة المباحثة والمناظرة ، وخلق الحجج الجدلية إن أعوز البرهان ، وكذلك كان باعثاً عليها ما كان بين زهاد هذه الحياة المبيحين لأنفسهم الاستمتاع ، إلى غير حد بما فيها من لذة ونعيم ، ثم كان وضع القصة وخلق الرواية فاتحاً أمام الخيال أودية بعيدة ما بين الأطراف ، كما كانت طبيعة البلاد الخصبة ومجالى الحضارة فيها ، مطلقة للتصوير الحسى كل عنان ، فعاد هذا وغيره على المعانى والأخيلة بأطيب الثمرات وهـذا بعض ما كان ، مشفوعا لدقته دون ما تكتفاء بالتمثيل (١) .

١ — الاكثار من المعانى الدقيقة والجديدة ، التى تدل على حصافة عقل وغوص فكر وطول دراسة للعلوم العقلية وتفهم لمناحى الفلسفة .

من ذلك قول ابن المقفع فى الأدب الكبير : —

« إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبك ذلك فإنما هو أحد رجلين

---

(١) سنقصر التمثيل هنا على النثر وندع التمثيل من الشعر مع تفصيل القول إلى حيث الكلام على ناحية المعانى والأخيلة فى الشعر وهى غنية بالأمثلة والشواهد على كل ما نذكر هنا .

إن كان رجلا من إخوان الثقة فأنفع مواطنه لك ، أقربها من عدوك ، لشر يكفه عنك وعورة يسترها منك ، وغائبة يطلع عليها لك ، فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك ، وإن كان رجلا من غير خاصة إخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس . وتكلفه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى » .

٢ — إرسال الحكمة المقررة وضرب المثل الموضح ، لما رسخ فى أذهان القوم من فلسفة معينة وتجارب مفهمة ، ساعدتهم أن يكثروا من النوعين مجيدين .

من ذلك قول ابن المقفع فى كتاب كليلة ودمنة من باب عرض الكتاب « فالعلم لا يتم إلا بالعمل ، وهو كالشجرة والعمل به كالثمرة ، وإنما صاحب العلم يقوم بالعمل ليلتفع به ، وإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمى عالماً ، ولو أن رجلا كان عالما بطريق مخوف ، ثم سلكه على علم به سمى جاهلا ، ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك فى الطريق المخوف الذى قد جهله ، ومن ركب هواه ورفض ما ينبغى أن يعمل بما جربه هو أو أعلمه به غيره كان كالمريض العالم بردىء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله ، ثم يحمله الشره على أكل رديئه ، وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته ، وأقل الناس عذراً فى اجتناب محمود الأفعال وارتكاب مذمومها ، من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعض كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل إلى حفرة فوقعا فيها ، كانا إذا صارا فى قاعها ، بمنزلة واحدة ، غير أن البصير أقل عذرا عند الناس من الضرير إذ كانت له عينان يبصر بهما ، وذاك بما صار إليه جاهل غير عارف » .

٣ — إستخدام الحجج العقلية والبراهين المنطقية التى أصبحت أذهانهم الناضجة لا ترضى بغيرها ولا تقنع بسواها .

من ذلك ما كتبه أحمد بن يوسف على لسان طاهر بن الحسين إلى المأمون بقتل الأمين وهو :

« أما بعد فأن كان المخلوع قسيم أمير المؤمنين فى النسب واللحمة ، فقد فرق بينهما حكم الكتاب فى الولاية والخدمة ، بمفارقته عصمة الدين وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين ، لقول الله فيما اقتص علينا من نوح وابنه « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » ولا طاعة لأحد فى معصية الله ولا قطيعة ما كانت القطيعة فى ذات الله ، وكتابى إلى أمير المؤمنين وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وعده ، والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حقه ، الكائد له فيمن ختر عهده ونقض عقده ، حتى رد به الألفة بعد فرقتها وجمع به الأمة بعد شتاتها وأضاء به أعلام الدين بعد دروسها ، وقد بعثت إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهى رأس المخلوع وبالآخرة وهى البردة والقضيب والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين حقه الراجع إليه تراث آبائه الراشدين .

٤ — الأبداع فى التصوير والأغراب فى الخيال . وقد كثرت موادهما وتعددت ألوانهما فى أدب القصة من المنثور ، ومن خير ما تطالع فيه الأول أمثال كليلة ودمنة ، ومن خير ما تطالع فيه الثانى ، حكايات ألف ليلة وليلة وإنك لمصيب الاثنين معا فيما وضع بجانب هذه الكتب من مقامات ، وبخاصة للبديع والحريرى وسنختار مقامة لكل بعد .

٥ — الأقدام دون تهيب على المبالغة والتهويل جرياً على ما كان للفرس بهذا النوع من ولوع حملهم إليه التباعد بين طبقات الناس .

من ذلك ما كتب به أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف صاحب ديوان الرسائل لعضد الدولة عن نفسه إلى مؤيد الدولة شكراً على شكر سماه تهنئة

« وصل كتاب مولانا جوابا عما خدمت به حضرته المحروسة مهنئاً ، فحسبتنى وقد تأملت عنوانه ، مغلوطاً فى أو معنيا به غيرى ، إعظاما لتلك

الأيادى الغر والنعم الزهر التى أعددتها فى الشرف مناسب وإلى الأيام والليالى ذرائع » إل آخره .

٦ — وهذا كله إلى محص الأفكار وترتيب عناصرها ، حتى يأخذ بعضها بحجز بعض ويقل الشذوذ والاقتضاب .

ثالثاً — ناحية الألفاظ والأساليب

لقد كان تأثر اللغة فى هذه الناحية أظهر منه فى الناحيتين السابقتين ، لأنها فضلا على تأثرها بهما ، قد تأثرت من نواح غيرهما ، وهذى بعض مظاهر التأثر نسوقها عداكما فعلنا فى ناحية الأغراض .

١ — حدوث لغة تأليفية لتعليم العلوم ، وأخرى فنية لتعليم الصناعات روعى فى كلتيهما مقياس المنطق والفلسفة ، لا مقياس الأدب والبلاغة ، ولم تك هناك مندوحة دون حدوثهما بعد نشاط التدوين فى شتى العلوم وضعاً وترجمة وانتشار الصناعات .

٢ — نقل كلمات عربية إلى معان جديدة بطريق التجوز أو الاشتقاق أو القياس ، لمصطلحات العلوم والفنون والصناعات وما إلى ذلك من إدارات الحكومة ودواعى العرف العام .

٣ — دخول كثير من الكلمات الأعجمية فى كل ما تقدم ، وبخاصة على أيدى المترجمين والمؤلفين فيما نقل من علوم ، وذلك بعد تغييرها إلى ما يجعلها متفقة مع العربية مخارج حروف وأبنية أوزان إن كانت فى حاجة إلى تغيير ، وتسمى حينئذ بالكلمات المعربة ، كما يسمى هذا التغيير بالتعريب .

٤ — الدقة فى انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة الممثلة المعنى كل التمثيل .

٥ — التأنق فى صوغ العبارات المحكمة الرائعة المفهمة للغرض فى شدة أسر وقوة أداء .

٦ — التوسع فى استخدام أنواع التشبيه والتمثيل والكناية والمجاز .

٧ — الأكثار من محسنات البديع لفظية ومعنوية مع الازدواج المصحوب كثيراً بالسجع .

٨ — الشغف باستعمال ألفاظ القرآن ومحاكاة أساليبه واقتباس آياته والاستشهاد بها .

٩ — الانحدار إلى استعمال كثير من ألفاظ السخف والبذاء وعبارات الخلاعة والمجون .

١٠ — التوسع فى إدخال ألقاب التعظيم على الأسماء وبث عبارات الملق والخنوع فى ثنايا الكلام .

١١ — التغالى فى كل من الأطناب والإيجاز إلى درجة قد تسود مع الأول عشرات الأوراق فى بعض الرسائل والعهود والمنشورات ، وتصل بالثانى فى قصار الرسائل إلى حد التوقيع .

١٢ — ظهور جديد فى الوزن والقافية لم يكن معروفاً من قبل كما سيأتى بيانه فى الشعر (١) .

---

(١) من ذلك فى الوزن ، مايسمى الممتد وهو عكس المديد من غير جزء كقول القائل .

قد شجانى حبيبى واعترانى أذكار ليته إذ شجانى ما شجتنى الديار

ومنه فى القافية ما يسمى المسمط وهو أن يبتدىء الشاعر بأقسمة من قافية واحدة يأتى بعدها تقسيم من قافية أخرى يلتزمها دون سابقتها كقول بعضهم .

غزال هاج لى شجنا فبت مكابداً حزناً عميد القلب مرتهنا

بذكر اللهو والطرب

سبتنى ظبية عطـــل كأن رضابها عسل ينوء بخصرها كفل

ثقيل روادف الحقب

ذاك أظهر ما كان من جديد فى نواحى اللغة أدبها وعلمها ، وللفارسية تأثير فيه كبير ، من خير وشر فى الأغراض ، وحسن وقبيح فى المعانى والألفاظ : ولقد كان لجانب الخير والحسن الغلبة فى أوائل العصر ، ولكن لم يأت آخره حتى تغلب الشر والقبح باستكراه اللفظ والمعنى وضعف ملكة البيان .

وهناك ناحية للغة لم تلك من حسابنا فيما أسلفنا من قول ، هى ناحية التخاطب العام الذى جنت عليه الأعجميات أكبر جناية عرفت للعجمة على لغة الضاد حتى انتشرت العامية وكان حقاً أن تنفرد فى هذا العصر حيث الكلام عليها بعد .

انتشـــار العامية

واختـلافها باختلاف الأقاليم

عقدنا فى كتابنا الثانى من تاريخ الأدب العربى حيث الكلام على العهد الأموى ، فصلا لم نعقد مثله فى عصرى الجاهلية وصدر الإسلام هو « لغة التخاطب » عللنا فيه تنزه العصرين المذكورين عن اللحن والتحريف والدخيل ، وأبنا السبب فى نشأة تخاطب جديد فى العصر الأموى مشوب بهذه الأشياء ، قلنا من وصف لغته إذ ذاك : -

« فهذه اللغة الجديدة كانت خليطاً من العربى المشـوه بعضه باللحن والتحريف ، والأعجمى الذى يختلف باختلاف الأعجميات فى الأمصار ، من فارسية بالعراق ورومية بالشام وقبطية بمصر وهكذا ، ولـكنها لم تتناول بلحنها وتحريفها ودخيلها جميع المتكلمين ، فـكانت بعيدة عن ذلك كله على ألسنة النازحين من العرب أنفسهم وكذلك تقريباً على ألسنة أبناء الخاصة من أمهات عربيات ، أما أبناؤهم من غير العربيات وأبناء عامتهم مطلقاً فلم تخل لغتهم من شىء من هذا ، وقد يكون مصحوباً بلـكنة أعجمية أيضـا ، ولـكن هؤلاء جميعـاً كانت محادثتهم عربية فى مجموعهـا بالنظر إلى محادثة الأعاجم أهل البلاد الأصليين إلا من تعلموا العربية منهم ونبغوا فيها فقد كان مثلهم مثل العرب النازحين ، ولذلك سابقوهم فـكانوا مثلهم فى ميادين الأدب والشعر ، وأسبق منهم فى ميادين العلم والتأليف » . إلى أن قلنا :

« غير أن شيوع اللحن فى العصر الأموى لم يزعزع من عقيدة الناس فى لغتهم لأنها لغة القرآن وأساس الدين ، مع اصطباغ الدولة بالصبغة العربية المحضة ، فاستمروا يتهيبون اللحن ويذمونه ويفتخرون بالأعراب ويمدحونه » .

نريد بهذا القول وذاك أن لغة التحادث العام كانت عربية لما تتحول إلى عامية بعد :

أما فى العصر العباسى الذى نحن بصدد الكلام فيه ، فقد تحولت إلى عامة انتشرت بقوة العجمة على تتابع سننه الطوال ، فطاردت العربية من هذه الوجهة بكافة الأقاليم ، وبلغت شدتها فى بعضها القضاء عليها والعودة بالمحادثة إلى لغات سكانه الأصليين . نعم إن تلك المطاردة اختلفت قوة وضعفاً باختلاف الجهات ، ولكن التحادث لم يك بالعربية الصحيحة فى جهة ما حتى البادية فقد دخلتها العامية قبل انقضائه بزمن طويل ، وإليك فى هذا كله البيان .

ورث العصر العباسى إذن عن العهد الأموى لغة التحادث عربية صحيحة فى مجموعها ، وبذل خلفاؤه الأولون على بقائها صحيحة بمحاربة اللحن والتحريف أن يتسرب إلى ألسنة السواد وإن وقع من بعضهم ، جهوداً مشكورة حاكاهم فيها الولاة والأمراء — العرب محاكاة المخلص المتعصب ، والموالى محاكاة المتزلف المتقرب — وبذت هذه الجهود فى شتى الألوان دفاعاً عن لغة الدين والعلم والسلطان .

من ذلك أنهم بلغوا الذروة فى تكريم اللغة بتكريم رجالها علماء وأدباء ورواة وشعراء ، فكانوا يفسحون صدورهم لنقاش العلماء ، ويوسعون مجالسهم لمناظرة الأدباء ، ويهيبون بالرواة أن يجدوا فى جمع شواذ اللغط وضبط مأثورها ، ثم يقيمون المحافل لاستماع الشعراء باذلين فى كل ذلك عناية تحفز الهمم ، وما لا يستهوى النفوس .

ومنه أنهم كانوا القدوة الحسنة فى فصاحة العبارة وبلاغة المعنى ، والأسوة الطيبة فى العناية بتنشىء أبنائهم على مثل ما هم عليه من بيان ، فلم يفت واحداً منهم أن يستحضر لتأديب بنيه ، المبرزين من شيوخ الأدب وأكابر الرواة ، كالشرقى القطامى مؤدب المهدى ، والأحمر النحوى والكسائى مؤدبى الأمين ، والزبيدى مؤدب المأمون ، والمفضل الضبى مؤدب الواثق ، ويعقوب بن السكيت مؤدب المعتز ، وثعلب والمبرد مؤدبى ابنه عبدالله بن المعتز ، إلى غير هؤلاء ممن كان الخلفاء يأملون من وراء

ملازمتهم أبناءهم تثقيفاً عربياً يغنى عن الأرسال إلى البادية التى كان يحرض خلفاء الأمويين على تثقيف أبنائهم فيها .

ومنها قدرهم النبوغ العربى قدره بما يظهرون من تعظيم لأهله تنسى معه ضعة الأصول ولا يضن عليه من أجلها بكبار المناصب ، ونظرة إلى من قلدوا أعمال الدولة إذ ذاك ترينا كيف كان النبوغ الأدبى أمام ذوى الهمم المتحفزة خير وسيلة للتقدم ، وإلى أية غاية اتخذوه معارج عليها يظهرون[1] .

غير أن هذه الجهود وغيرها مما كانوا يبذلون لم تقو على صد تيار العجمة الزاحف بجيوشه من لحن وتحريف ودخيل ، والمتخذ طلائعه الغازية ألسنة من لا يترفع عنه من ضعفاء العرب ، ومن لا يتطلعون إلى رقى من الأعجام ، فكان بهؤلاء وهؤلاء شديد الوطأة ، قوى الزحف ، سريع الانتقال ، أنبأ عن وجوده فى العصر الأول على كره الخلفاء حتى على ألسنتهم ، وأعلى مكانة نفسه فى العصر الثانى فلم يكن من ظهوره على ألسنة الخاصة خجل ولا حياء .

فأما إعلانه عن وجوده فى العصر الأول فقد ظهر على ألسنة الخلفاء وخاصتهم على تهيبهم له وتقززهم منه . ذكروا أن أبا جعفر المنصور لحن فى مجلس به أعرابى فصر الاعرابى أذنيه ، ثم لحن ثانية فقال الاعرابى

---

(١) من الحوادث التى تؤيد هذا وهى كثيرة ، ما ذكر من أن المعتصم وكان أمياً ورد إليه كتاب بعض العمال فقرأه عليه وزيره أحمد بن عمار فاذا فيه ذكر الكلأ فقال المعتصم للوزير ما الكلأ ؟ فلم يدر ما هو فقال المعتصم خليفة أمى ووزير عامى ثم قال : أنظروا من بالباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات فأدخل عليه فسأله عن الكلأ فقال يا أمير المؤمنين هو العشب عامة فان كان رطبا فهو الخلا وإذا يبس فهو الحشيش ، فعرف المعتصم فضله واستوزره .

أف لهذا ، ثم لحن الثالثة فقال أشهد لقد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر . ودخل الفراء على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه فقال الرشيد أتلحن يافراء فقال يا أمير المؤمنين إن طباع أهل الحضر اللحن فاذا تحفظت لم ألحن وإذا رجعت إلى الطباع لحنت . وكان المأمون يقول أتكلم مع الناس كلهم على سجيتى إلا مع ابن الهيثم فانى أتحفظ إذا كلمته لأنه يعرف الأعراب ، وسمع المأمون بعض ولده يلحن فقال « ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده ويزين بها مشهده ويفل حجة خصمه بمسكتات حكمه ، ويملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه ، أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته فلا يزال الدهر أسير كلمته » إلى غير ذلك مما يدل على أن اللحن فى العصر الأول كان من طباع أهل الحضر لضعف ملكاتهم ، كما يدل على أنه كان شائعا على ألسنة السواد ، ولكنه يدل بأزاء هذين أنه كان إذا وقع من الخاصة استهجن وقوبل من السامعين بأكبار أمره فى المؤاخذة به . وقد بلغ من تأذى الرشيد باستماعه وعنايته بأصلاحه أن حاول إصلاح غناء الملاجين بدجلة ، وكان إذا ركب بها أعجبه غناؤهم وآلمه لحنهم فقال لجلسائه : قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه ، فقيل له ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية . وكان فى الحبس فوجه إليه يأمره بعمل الشعر دون أن يأمر باطلاقه ، فغاظه ذلك وعمل له شعراً فى الوعظ والتذكير بتقلب الأيام لينغص به على الرشيد سروره كلما سمعه . وكان الرشيد سريع التأثر يبكى للموعظة إذا مرت بأذنه فكان كلما سمعه تأثر ولج فى بكائه حتى يأمر من معه من اللاحين بالسكوت[1] .

---

(١) كان سبب حبس الرشيد له أنه لما تنسك ولبس الصوف ، أمره الرشيد أن يقول شعراً فى الغزل فامتنع فضربه وحلف ليحبسن حتى يقول الشعر فقال أبو العتاهية « كل مملوك لى حر وامرأتى طالق إن تكلمت سنة إلا بالقرآن أو بلا إله إلا الله محمد رسول الله » فخزن الرشيد

وأما إعلاؤه مكانة نفسه فى العصر الثانى ، فكان حيث فقد الأدب النصير من الخلفاء وأولياء العهود السابقين ، وخلف من بعدهم خلف نشئوا بين الأمهات والحواضن والأعجميات لا يخالطون إذا خالطوا غيرهن ، سوى الخدم الأعجام ، بعيدين فى كل ذلك عن الرواة والمؤدبين . ثم تولوا

بما فعله وأمر أن يحبس فى دار ويوسع عليه ولا يمنع من دخول من يريد إليه .

أما الشعر فهو كما رواه عن نفسه

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجموح
لدواعى الخير والشر م دنو وتروح
هل لمطلوب بذنب توبة منـــه نصوح
كيف إصلاح قلوب إنما هن قروح
أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح
فاذا المستور منا بين ثوبيه نضوح
كم رأينا من عزيز طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيل صائح الدهر الصدوح
موت بعض الناس فى الأ رض على قوم فتوح
سيصير المرء يوما جسدا ما فيه روح
بين عينى كل حى علم الموت يلوح
كلنا فى غفلة والمـ ـوت يغدو ويروح
لبنى الدنيا من الدنيـ ـيا غبوق وصبوح
رحن فى الوشى وأصبـ ـحن عليهن المسوح
كل نطاح من الدهـ ـر له يوما نطوح
نح على نفسك يامسـ ـكين إن كنت تنوح
لتموتن وإن عمر ت ما عمر نوح

الخلافة على هذا الضعف الشائن المعيب ففقدت الفصحى بذلك معين التشجيع والتأييد ، وتعدت العامية ألسنة السواد إلى ألسنة الخاصة فكان بها تحادثهم وخطابهم ما لم يحتفلوا بقول يذاع ، ومن هنا بدأت العامية تعمل عملها فى ألسنة الخواص حتى أفسدت عليهم فصاحتهم ، التى صارت لا تسعفهم حين النهوض لمقال إلا بالعربية الوسط ما لم يكونوا كتابا أو شعراء وبقيت على هذه الحال إلى نهاية العصر المذكور .

فلما جاء العصر الثالث ، جاء وقد ظهرت العامية على ألسنة الخواص ، وبالرغم من بلوغ الكتابة والشعر فيه الذروة كما أسلفنا ، وجدت تلك اللغة فى التحادث العام نصرة كبيرة من هؤلاء ، لأن غالبتهم فى الأصل أعجام لا يزال فى رءوسهم وان هزموا أمام العربية لغة كما هزموا دينا ، أن يفسحوا الطريق أمام لغاتهم الأولى على ألسنة السواد كى تشقه مكفسحة العربية لتحيا بعد موت وتقوى فيما هيء لها من حياة ، فبدأت العربية تتقلص من الأطراف مخافة مكانها لغات السكان الأصليين كالبربرية فى شمال أفريقية والفارسية فى خراسان .

ولقد صحب هذا التقلص ظاهرة لم يك حدوثها فى الحساب ، تلك أن من عنوا بالنطق الصحيح فى حديثهم العام ، أصبحوا مضغة فى الأفواه يسخر منهم ويستهزأ بهم ويحلو للناس ترداد حديثهم فى المجالس ترويحاً عن النفس وتفكهة للسامعين ، ثم استمرت هذه الظاهرة تكسب أنصاراً ومؤيدين حتى كانت فى العصر الرابع طلبة دعت العلماء إلى إجابتها بالتأليف والتصنيف (١)

أقبل هذا العصر الأخير شاملة عجمته جميع الأطراف وفاقدة حكامه ما كان لأمثالهم فى سابقة من صلة بالآداب ، فقدر على العربية جزر منتقص

---

(١) كما فعل أبو الفرج النحوى المتوفى سنة ٤٩٩ حيث ألف كتابا جمع فيه أخبار المتقعرين .

بعد أن كان لها مد ذو ازدياد ، ولم تلبث أن ولت أمام الأعجميات الأدبار ، مسرعة إلى باديتها عسى أن تجدها مقراً هادئاً كما كانت فى خوالى الأيام ، ولكنها لم تلبث أن ولت أمام الأعجميات الأدبار ، ولكنها لم تكد تنعم بهذا الهدوء طويلا حتى غزتها العجمة فى عقر دارها ، فارتدت فصيحتها عامية قبل أن يبلغ ذلك العصر منتهاه ، وكان من أفعل العوامل فى هذه الغارة التى قضت على البقية الباقية فى البادية عاملان .

أحدهما دينى هو انطلاق الآلاف من عامة الأقطار الاسلامية كل عام إلى مكة والبيت الحرام يهرعون إليه لتأدية فريضة الحج ثم ينقلبون إلى المدينة لزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام ، وهم على اختلاف ألسنتهم يخالطون العرب خلال ذلك مخالطة جوار طويل وصحبة دائبة لا تكاد تنقضى حتى تكون بوادر أمثالها من العام القابل على وشك الحدوث ، ولا يظنن ظان القلة فيمن كانوا يختلطون بهم من القبائل ، فان هذا ظن كان يكون لو أن ذهاب العرب إلى الأماكن المقدسة لم يكن إلا للحج ، أما وموسم الحج هو الموسم التجارى للعرب يقدمون إليه بماشيتهم وسلعهم مبكرين ، ثم لا ينصرفون إلا حيث ينصرف الناس ، فان من شأنه أن يجعل جماهيرهم تزاحم كل غريب ، واختلاطهم يطول زمنه إلى أبعد ما يكون ، فهذا الاختلاط الذى كان يبدأ فى القافلة منذ هبوط الأعجام بلاد الاعراب ولا ينتهى إلا حيث يسلمهم أولئك الاعراب إلى الأمصار عائدين ، استمر يحمل إلى البادية لغات من العجمة ذات ألوان لم تزل تغزو فصيحتها فى جوفها حتى خرت أمامها صرعى ما لها من مقيل ، قد أضر بكلماتها اللحن والتحريف ، وصحبها ما صحبها من أعجى دخيل ، ولقد كان لهذا الاختلاط مدد مقيم من أولئكم الذين يجمعون بين عامين فى هذه البلاد يحجون فى عام ويزورون فى عام ، وآخر أكثر إقامة ممن وهبوا أنفسهم لجوار الرسول حتى يوافيهم فى هذه الأماكن المقدسة أجلهم المحتوم فيفوزوا من الله بمغفرة ورضوان .

والآخر دنيوى هو انتشار الثورات فى الجزيرة وأطرافها لبعد مركز الخلافة فى العصر العباسى عنها ، إما من قبائلها على قوافل الحج فيضطر الخلفاء إلى تجهيز الاعجام لتأديبها وإعادة الأمن إلى نصابه فى ربوعها ، فتجوس تلك الجيوش ديار العربية الفصحى إذ غالبية هذه القبائل كانت من قيس عيلان وسكناها هاتيك الديار على مقربة من مكة والمدينة وما إليها من قرى الحجاز [1] وإما من أعجام يقصدون إلى أطرافها لنشر مذهب أو التهيؤ لخروج فيؤثرون فى لغتها بأقامتهم ، ويضاعف هذا التأثير ما قد يكون من بعث الخلفاء بالجند الأعاجم إليهم ، كما كان من الزط فى بادية البصرة والزنج بشواطىء الفرات ، والقرامطة بسواد الكوفة والبحرين واليمامة والحجاز ، وغيرهم ممن كانوا منبع قلاقل واضطرابات لا تزال تدعو فى إخمادها إلى جوس الأعجام مضارب الأعراب [2] . فبهذين العاملين مع عامل الاختلاط العام ، ردت لغة التخاطب الصحيحة بالبادية إلى عامية

---

(١) من تلك الثورات ما كان من بنى سليم وبنى هلال وفزارة وبنى كلاب فى خلافة الواثق بالله سنة ٢٣٠ وقد وجه إليهم الواثق جيشاً عظيما بقيادة بغا الكبير قضى قرابة السنتين فى حربهم حتى انتصر عليهم وعاد بكثير من ذوى الشغب فيهم إلى سامراء .

(٢) فأما الزط فهم قوم من الهنود سكنوا شواطىء الخليج الفارسى قديماً وعاشوا على النهب طويلا ، حتى إذا كانت الفتنة بين الأمين والمأمون استولوا على طريق البصرة ، وأخذوا يعيثون وينهبون ، وقد استمروا على ذلك طوال خلافة المأمون . ولما ولى المعتصم كان شرهم قد استفحل وزاد ، فجرد إليهم جيشاً هزمهم وعاد ببقاياهم وأسراهم إلى دار الخلافة سبعة وعشرين ألفاً فسرحتهم الدولة إلى شمالها ومنه نفذوا إلى أوربة حيث تعيش أنسالهم الآن بربوعها الوسطى تحت اسم « الفجر والنور » .

قبل انتهاء القرن الرابع الهجرى فذهب آخر مدد كان لها أمام الرواة[1] .

وأما الزنج فقد ظهروا فى خلافة المعتمد على الله بدعوة رجل فارسى ظهر أول ما ظهر بالبحرين سنة ٢٤٩ يدعو الأرقاء من العبيد إلى التحرير وقد أطاعه منهم خلق كثير خرجوا على سادتهم فتوجه إلى البصرة وشواطىء الفرات فحارب الدولة وهدد بغداد وبقى كذلك مصدر شغب حتى قتلته جيوش الخلافة سنة ٢٧٠ .

أما القرامطة فقد ظهروا أول ما ظهروا بسواد الكوفة على يد رجل من خوزستان فى آخر خلافة المعتمد على الله سنة ٢٧٩ وكانت دعواه إلى جعل الخلافة فى آل البيت فكثر أتباعه وظهر لهم نفوذ بالشام وكافة أرجاء الجزيرة العربية ، فأصبحوا فيها قطاع طرق ينهبون الحجيج ويعتدون على الأماكن المقدسة وساكنى مدنها بالسلب والتخريب دون أن تظفر عليهم الدولة بالغلب ، حتى إذا ما تبرأ منهم القائم على دعوة آل البيت فقدوا كثيراً من الأنصار فأمكنت الدولة هزيمتهم وقد مضى على عبثهم هذا أكثر من ثلث قرن .

(١) عن أهل البادية أخذ أبو عمرو بن العلاء عامة أخباره ، وعليهم عول الأصمعى فى غريب اللغة ، ومنهم استمد سيبويه والكسائى مراجع أحكام النحو . ومازالوا مستمد رواة الأدب وعلماء اللغة وأئمة النحويين إلى القرن الرابع حيث بدأ لسانهم يفسد، فكان هؤلاء يأخذون من بعضهم دون بعض كما كان يفعل ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ . ومنذ القرن الخامس لم يبق منهم أحد على الفصيحة إلا ما ذكره ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ عن أهل « عكاد » فقد قال فى لفظ عكوتين « هو اسم جبلين منيعين مشرفين على زبيد باليمن » ثم عاد يقول بعد أن ذكر أن مدن أحدهما الزرائب « وجبلا عكاد فوق مدينة الزرائب ، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم

على هذا النسق الذى ذكرنا تملكت العامية ألسنة السواد فى جميع الأقطار ، فلم ينطقوا بغيرها ونالت ألسنة الخواص فى تحادثهم العام فلم يحيدوا فيه عنها ، ولكنها كانت مع اشتراكها بجميع الجهات فى إفساد العربية الصحيحة باللحن والتحريف والدخيل ، تختلف فى إقليم عنها فى إقليم اختلافا يرجع إلى أثر العجمة قوة وضعفاً ، وإلى نوعها لفظاً وأسلوباً.

فمن الأول قلة الجاليات العربية أو كثرتها وبعد الأقليم عن مواطن العرب الأولى أو قربه منها ، فحيث كانت الجاليات قليلة والأقليم بعيداً ، يكثر الدخيل ولا يكاد اللحن والتحريف يترك من الألفاظ العربية صحيحاً ، ولهذا كانت العامية فى الأطراف القاصية - كخراسان شرقاً وبلاد المغرب غرباً وأرمينية شمالا والنوبة جنوباً - شديدة الوطأة على اللسان العربى ، لفظاً وأسلوباً ، ولولا شدته بقوة الدين وأنه لسان القرآن والحديث ، ما شق فى هذه القاصيات طريقه ؛ أما حيث تكثر العرب ويقترب الأقليم - كما فى العراق ومصر والشام - فان الدخيل يكون حينئذ قليلا ، واللحن والتحريف لا يضحى متغلغلا ، ومن ثم بقيت العامية عربية فى هذه الأقطار وارتدت فى تلك إلى لغات أهلها الأصليين ، على أنه إذا تعارض هذان العاملان كان لحال الجالية كثرة وقلة الغلبة على حال الأقليم بعداً وقرباً ، ولهذا كانت عامية الأندلس على بعدها ، خيراً من عامية بلاد المغرب وهى أقرب منها .

ومن الثانى التفاوت فى نوع الكلمات الدخيلة إذ كانت فى كل إقليم من لغة سكانه الأولين . ففى الشرق كانت غالبيتها فارسية وقلتها تركية ، وفى

من الحاضرة فى مناكحة ، وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه ، وأيد الفيروز ابادى المتوفى سنة ٨١٧ فى مادة عكد بقاءهم إلى أيامه على تلك اللغة ، كما أيد شارحه الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ بقاءهم كذلك حتى أيامه أيضاً .

الشام ومصر كان الدخيل من اليونانية والرومانية والقبطية ، وفى شمال أفريقية كان بربريا ، أما فى بلاد العرب فقد كان خليطاً من كل هذه اللغات وأكثر منها ولكنه كان قليلا .

ومنه أيضاً التفاوت فى نوع الأساليب الغازية إذ كان لكل أعجمية أسلوبها من حيث التقديم والتأخير ، والنفى والاثبات ، والتعريف والتنكير وهكذا مما له أثر فى تكوين الأسلوب .

وكما كانت العاميات تختلف بعضها عن بعض باختلاف الاقاليم ونازليها من العرب كما ذكرنا ، كانت العامية الواحدة تختلف فى الأقليم الواحد ، فتراها فى وقت غيرها فى آخر ، ولو لم تطرأ عوامل سوى مغالبتها الفصيحة ومغالبة الفصيحة إياها ، إذ لابد فى تلك المغالبة ، أن تنتهى بقوة إحداهما وضعف الأخرى ، وبأخرى يقرب هذا الانتهاء بما قد يكون من عوامل طارئة ، كما يشاهد على كلتيهما فى أوائل العصور وأواخرها .

وعلى الرغم مما ذكرنا للعامية من سلطان ، قدر الله عليها ألا تتعدى لغة التحادث العام إلى غيره من لغة العلم فى التأليف أو لغة الأدب فى الانشاء والقريض[1] ، وقدر للفصيحة أن تبقى حاملة اللواء فى هذه النواحى الثلاث على أيدى العلماء والكتاب والشعراء ، فثبتوا ثلاثتهم على نصرتها يقارعون الحوادث ويغالبون الأيام حتى كانوا النبراس الهادى فيما خيم أواخر العهد العباسى من غيم ، وأطبق بعد زواله على أيدى التتار من ظلام ، أما العلماء فلما رسخ فى نفوسهم من الحرص على خدمتها ، خدمة للقرآن والحديث حتى يبقيا مدداً مفهوماً للوعظ والتشريع ، وأما الكتاب فلما كان من حاجة الملوك إليهم فى ضبط أمور الدولة بمختلف الدواوين على ما هدى إليه الملوك من إبقاء الكتابة عربية كما ورثوها ، زلفى إلى الدين

---

(١) لم يظهر بها فى لغة العلم شىء هام ، ولا فى لغة الأدب إلا الزجل ، والقوما ، وكان وكان ، وبعض الموالياً .

وتقرباً من المحكومين ، وأما الشعراء فلأن الشعر مهما أبعد رجاله وضن عليهم بالصلات لابد أن يغلبهم ولو بالتنفيس عنهم فيما يشكون ومنه يألمون ، على أن حراسة الله للغة دينه وقرآنه أبت إلا أن يكون لها نصراء فى أشد العصور حلكة ، وأضيق الأيام حرجاً ، وهكذا يأبى سبحانه إلا أن يكون.

وبعد

فان لنثر اللغة جانبا أدبيا تراه ماثلا فى الخطابة والكتابة الأنشائية ، وآخر علمياً يظهر فى الكتابة العلمية « تدوين العلوم والفنون ».

وإنا لمتناولو الجانبين من الآن بالكلام ، بعد الذى قدمنا من مقدمات ، وعدهما يكون الكلام على الشعر إن شاء الله .

الخطـــابة

أولا — نماذجها

١ — لما بويع السفاح[١] صعد منبر الكوفة فقال :

الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة ، وشرفه وعظمه ، واختاره لنا وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه ، والقوام به والذابين عنه والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته ، وأنشأنا من أبائه وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته[٢] جعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عنتنا[٣] حريصاً علينا بالمؤمنين رءوفاً رحيما ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم فقال عز من قائل فيما أنزل من محكم القرآن « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » وقال « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » وقال وأنذر عشيرتك الأقربين » وقال « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » وقال « واعلموا أن ماغنمتم من شى فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفىء والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظيم .

وزعمت السبئية الضلال[٤] أن غيرنا أحق بالرياسة والخلافة منا ،

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس .

(٢) واحدة النبع وهو من شجر السهام .

(٣) يريد عزيزاً عليه ، عنتنا أى مشقتنا .

(٤) السبئية أتباع عبد الله بن سبأ من الغلاة القائلين بأحقية العلويين على أبناء عمهم العباسيين .

فشاهت وجوههم ، بم ولم أيها الناس ؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالهم وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة وأتم بنا النقيصة ، وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة فى دينهم ودنياهم ، وإخواناً على سرر متقابلين فى آخرتهم ، فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم ، فحووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خماصاً منها ، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها فأملى الله لهم حينا حتى آسفوه ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا ، وولى نصرنا والقيام بأمرنا ليمن بنا على الذين استضعفوا فى الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا وإنى لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله .

يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير[1] .

٢ — قال ذلك وكان موعوكا فاشتد به الوعك[2] فجلس على المنبر وصعد عمه داود بن على فقام على مرقاة دونه فقال :

الحمد لله شكرا شكرا ، الذى أهلك عدونا وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . أيها الناس الآن أقشعت حنادس الدنيا[3]

---

(١) بهذا لقب بالسفاح ، والمبير المدمر . (٢) ألم الحمى .

(٣) ظلماتها جمع حندس .

وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها وبزغ القمر من مبزغه ، وأخذ القوس باريها وعادت السهم إلى النزعة[١] ورجع الحق إلى نصابه ، فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم .

أيها الناس إنا والله ما خرجنا فى طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا[٢] ولا نحفر نهراً ، ولا نبنى قصرا ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبنى عمنا وما كرثنا من أموركم[٣] وبهظنا من شئونكم[٤] ولقد كانت أموركم ترمضنا[٥] ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم وخرقهم بكم ، واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقتكم ومغانمكم عليكم . لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تباتبا[٦] لبنى حرب بن أمية وبنى مروان . آثروا فى مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الآثام وظلموا الأنام ، وانتهكوا المحارم وغشوا الجرائم ، وجاروا فى سيرتهم فى العباد وسنتهم فى البلاد ، التى بها استلذوا تسربل الأوزار وتجلبب الآصار ، ومرحوا فى أعنة المعاصى وركضوا فى ميادين الغى ، جهلا باستدراج الله وأمنا لمكر الله فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق فبعدا للقوم الظالمين ، وأدا لنا الله من مروان[٧] وقد غره بالله الغرور ، أرسل لعدو الله فى عنانه حتى عثر فى فضل خطامه فظن عدو الله أن لن نقدر عليه ، فنادى حزبه وجمع مكايده

---

(١) جمع نازع وهم الرماة .
(٢) فضة ولا ذهبا .
(٣) نزل بنا واشتد علينا .
(٤) أثقلنا .
(٥) تحرقنا .
(٦) ضلالا وخسرانا وهلاكا .
(٧) يريد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى مروان .

ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحق ضلاله وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا .

أيها الناس إن أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة ، أنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن استحنفر فيه[1] شدة الوعك ، ادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها بابدال الدين وانتهاك حريم المسلمين ، الشاب[2] ، المتكهل المتمهل المقتدى بسلفه الأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها ، بمعالم الهدى ومناهج التقوى .

يا أهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم له تنتظرون وإليه تتشوفون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم وأدالكم على أهل الشام ونقل اليكم السلطان وعز الإسلام ، ومن عليكم بأمام منحه العدالة واعطاه حسن الأيالة[3] فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ولا تخدعوا عن أنفسكم فان الأمر أمركم ، فان لكل أهل بيت مصرا وإنكم مصرنا ، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين على ابن أبى طالب[4] ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد[5] ،

---

(١) توسع وزاد . (٢) كانت سنه عند استخلافه ثمانيا وعشرين سنة .

(٣) الأيالة السياسة من آل إليه أمر الناس ساسهم .

(٤) لأن الخلفاء قبله كانوا فى المدينة ، والأمويون منكرون

(٥) يعنى السفاح .

فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا .

٣ — ولما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، خطب أبو العباس السفاح بالشام فقال : —

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار » نكص بكم يا أهل الشام آل حرب وآل مروان يتسكعون بكم الظلم ويتهورون بكم مداحض الزلق ، يطئون بكم حرم الله وحرم رسوله ، ماذا يقول زعماؤكم غدا ، يقولون « ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار » إذن يقول الله عز وجل « لكل ضعف ولكن لا تعلمون » ، أما أمير المؤمنين فقد ائتنف بكم التوبة واغتفر لكم الزلة وبسط لكم الأقامة وعاد بفضله على نقصكم وبحلمه على جهلكم فليفرخ روعكم (١) ولتطمئن به داركم وليقطع مصارع أوائلكم « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

٤ — وخطب عمه عيسى بن على إذ ذاك بها فقال : —

الحمد لله الذى لا يفوته من طلب ، ولا يعجزه من هرب ، خدعت والله الأشقر (٢) نفسه إذ ظن أن الله مهلة « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » فحتى متى وإلى متى ، أما والله لقد كرهتهم العيدان التى افترعوها (٣) وأمسكت السماء درها والأرض ريعها ، وقحل الضرع (٤) وجفر الفنيق ، (٥) وأسمل جلباب الدين وأبطلت الحدود وأهدرت الدماء ، وكان ربك بالمرصاد فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها (٦) ، ولا يخاف

---

(١) ليخرج قلبكم ما به من خوف كما تخرج البيضة الفرخ.

(٢) يعنى مروان بن محمد ، وكان لونه كذلك .

(٣) المنابر التى علوها . (٤) يبس من اللبن

(٥) الفنيق الفحل الكريم يتخذ للفحلة ، وجفر أمسك عن الضراب .

(٦) طحنهم فسوى الطحنة بما هى عليه أى سحقهم .

عقباها ، ولكنا الله أمركم عباد الله لينظر كيف تعملون فالشكر الشكر فإنه من دواعى المزيد ، أعاذنا الله وإياكم من مضلات الأهواء وبغتات الفتن فإنما نحن به وله .

٥ — ولما حج أبو مسلم الخراسانى فى خلافة السفاح خطب بالمدينة فقال:

الحمد لله الذى حمد نفسه ، واختار الإسلام دينا لعباده ، ثم أوحى إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك ما أوحى واختاره من خلقه ، نفسه من أنفسهم وبيته من بيوتهم ، ثم أنزل عليه فى كتابه الناطق الذى حفظه بعلمه وأشهد ملائكته على حقه قوله « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ثم جعل الحق بعد محمد صلى الله عليه وآله فى أهل بيته فصبر منهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله على اللأواء (١) والشدة ، وأغضى من أغضى على الاستبداد والأثرة ، ثم إن قوما من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله جاهدوا على ملة نبيه وسنته بعد عصر من الزمان ، من عمل بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن ، إن رتق جور فتقوه ، أو فتق حق رتقوه ، بين ظهرانى قوم آثروا العاجل على الآجل والفانى على الباقى ، أهل خمور وما خور (٢) ، وطنابير ومزامير (٣) ، إن ذكروا لم يذكروا أو قدموا إلى الحق أدبروا ، جعلوا الصدقات فى الشبهات ، والمغانم فى المحارم ، والفىء فى الغى ، هكذا كان زمانهم وبه كان يعمل سلطانهم . وزعموا أن غير آل محمد أولى بالأمر منهم ، فلم وبم أيها الناس ؟ ألكم الفضل بالصحابة دون ذوى القرابة ، الشركاء فى النسب والورثة فى السلب مع ضربهم على الدين جاهلكم وإطعامهم فى الجدب جائعكم ، والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط ، وما زلتم بعد نبيه تختارون تيميا مرة وعدوياً مرة وأمويا مرة وأسدياً مرة وسفيانياً مرة

---

(١) الشدة ، فعله لئى كفرح . (٢) الماخور بيت البغاء .
(٣) جمع مزمار وطنبار أو طنبور ، وهى من أدوات الطرب .

ومروانياً مرة [١] ، حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته [٢] ، يضربكم بسيفه فأعطيتموها عنوة وأنتم صاغرون . ألا إن آل محمد أئمة الهدى ومنار سبيل التقى ، القادة الذادة ، بنو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنزل جبريل بالتنزيل ، كم قصم الله بهم من جبار طاغ وفاسق باغ ، شيد الله بهم الهدى وجلى بهم العمى ، لم يسمع بمثل العباس ، وكيف لا تخضع له الأمم لواجب حق الحرمة ، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبيه وإحدى يديه وجلدة بين عينيه ، أمينه يوم العقبة وناصره بمكة [٣] ورسوله إلى أهلها وحاميه يوم حنين عند ملتقى الفئتين [٤] ، لا يخالف له رسما ، ولا يعصى له حكما ، الشافع يوم نيق العقاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فى الأحزاب [٥] ، ها ، إن فى هذا أيها الناس لعبرة لأولى الأبصار .

٦ — وخطب أبو جعفر المنصور [٦] بالمدائن عند قتل أبى مسلم فقال : أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تسروا غش الأئمة فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت فى آثار يده وفلتات

---

(١) التيمى أبو بكر والعدوى عمر والأموى عثمان والأسدى عبد الله ابن الزبير والسفيانى من من بنى سفيان والمروانى من من بنى مروان .

(٢) يعنى نفسه لأنه مختلف فى اسمه أهو عبدالرحمن أم إبراهيم أم عثمان ، ومختلف فى نسبه أهو عربى أم فارسى أم كردى ، ومن جهل نسبه جهل بيته فهو يقصد بالبيت الأصل .

(٣) يعنى ما كان من العباس قبل إعلان إسلامه من إرسال أخبار وأمداد لرسول الله .

(٤) كان أحد من حول البغلة .

(٥) نيق العقاب الموضع الذى شفع به العباس يوم فتح مكة فى أهلها .

(٦) أخو السفاح واسمه عبد الله مثله .

لسانه وصفحات وجهه ، وأبداها الله لأمامه لأعزاز دينه وإعلاء حقه ، إنا لن نبخسكم حقوقكم ولن نبخس الدين حقه عليكم ، إنه من نازعنا عروة هذا القميص (١) ، أجزرناه خبى هذا الغمد (٢) ، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ثم نكث بنا فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه .

٧ — ولما أخذ المنصور عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الملقب بالنفس الزكية هو وأهل بيته من المدينة إلى العراق ، ألقاهم فى سجن الكوفة حتى ماتوا لامتناع عبد الله المذكور أن يسلم إليه ابنيه محمدا وإبراهيم مدعياً جهله مكانهما ، وكانت البيعة أواخر العهد الأموى لمحمد هذا خطب فى أهل خراسان فقال بعد الحمد والثناء والصلاة :

يأهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا ، وإن أهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب تركناهم والله الذى لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير فقام فيها على بن أبى طالب فتلطخ بالدماء وحكم عليه الحكمين فافترقت عنه الأمة واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده الحسن بن على فو الله ما كان فيها برجل ، قد عرضت عليه الأموال فقبلها ، فدس إليه معاوية « إنى أجعلك ولى عهدى من بعدى » فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه . فأقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة فيطلقها غدا ، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ؛ ثم قام من بعده الحسين بن على فخدع أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والإغراق فى الفتن ، أهل هذه المدرة (٣) السوداء — وأشار إلى الكوفة — فو الله ما هى بحرب فأحاربها ،

---

(١) يكنى عن الخلافة (٢) كناية عن السيف .

(٣) المدرة الطينة ، وأهل المدر سكان القرى وأهل الحضر سكان المدن ، أما أهل الوبر فسكان خيام الشعر فى البوادى .

ولا سلم فأسالمها ، فرق الله بيني وبينها ، فخذلوه وأسلموه حتى قتل ، ثم قام من بعده زيد بن على فخدعه أهل الكوفة وغروه ، فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه . وقد كان أتى محمد بن على فناشده فى الخروج [1] وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال له إنا نجد فى بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده عمى داود بن على ، وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وتم على خروجه ، فقتل وصلب بالكناسة[2]، ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراة[3] حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، فأقر الحق مقره وأظهر مناره وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا ، وثبوا علينا ظلما ، وحسداً منهم لنا وبغياً ، لما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم .

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم ليئست الخلتان الجهل والجبن

فإنى والله يأهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة ، بلغنى عنهم بعض السقم والتعرم[4] وقد دسست لهم رجالا فقلت قم يا فلان قم

---

(١) سأله ألا يخرج وفاعل ناشده يعود على محمد (٢) موضع قرب الكوفة .

(٣) إقليم بين دمشق والمدينة فيه قرية الحميمة منزل أسلاف الخلفاء العباسيين .

(٤) يعنى بالسقم الخلاف فى الرأى وبالتعرم التهيؤ للخروج .

يا فلان خذ معك من المال كذا، وحذوت لهم مثالا يعملون عليه، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا إليهم تلك الأموال فوالله ما بقى منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لى عند ذلك، بنقضهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج على، فلا ترون أنى أتيت ذلك على غير يقين؛ ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب ».

٨ — ولما فعل المنصور فعلته تلك خرج عليه بالمدينة محمد بن عبد الله المذكور وقام على منبرها فقال بعد الحمد والثناء: —

أيها الناس إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبى جعفر ما كان من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندة لله فى ملكه، وتصغيره الكعبة الحرام[1] وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى، وإن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين ثم قال: اللهم إنهم قد أحلوا حرامك، وحرموا حلالك، وعملوا بغير كتابك، وغيروا عهد نبيك صلى الله عليه وسلم، وآمنوا من أخفت، وأخافوا من آمنت، فأحصهم عدداً واقتلهم بدداً[2]، ولا تبق على الأرض منهم أحداً[3].

٩ — ولما قتل المنصور محمدا هذا وبعث برأسه إلى أبيه عبد الله فى السجن مع الربيع حاجبه قال عبد الله.

رحمك الله أبا القاسم فقد كنت من الذين يؤمنون بعهد الله ولا

---

(١) هذا زعم بعيد التصديق عن أبى جعفر (٢) متفرقين مبددين.

(٣) انتهى خروج محمد هذا بالمدينة وخروج أخيه ابراهيم بالبصرة بأن قتل المنصور كليهما.

ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، ثم تمثل .

فتى كان يحميه من الذل سيفه ويكفيه سوءات الأمور اجتنابها

التفت إلى الربيع فقال « قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا مدة ومن نعيمك مثلها والموعد الله تعالى » قال الربيع فما رأيت المنصور قط أكثر انكساراً منه حين أبلغته الرسالة .

١٠ — وخطب المنصور يوم جمعة ، فلما قال « الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا وحده لا شريك له » قام رجل فقال أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين فقطع الخطبة ثم قال :

« سمعا سمعاً لمن فهم عن الله وذكر به وأعوذ بالله أن أكون جباراً عتيداً ، وأن تأخذني العزة بالإثم لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ، وأنت أيها القائل والله ما أردت بها وجه الله ولكنك حاولت أن يقال قام فقال فعوقب فصبر ، وأهون بها ، ويلك لو هممت[1] فاهتبلها[2] إذ غفرت ، وإياك وإياكم معشر الناس أختها فان الحكمة علينا نزلت ومن عندنا فصلت فردوا الأمر إلى أهله توردوه موارده وتصدروه مصادره » فكان كأنه يقرؤها من كفه ثم عاد إلى خطبته يقول وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أيها الناس اتقوا الله . . .

١١ — ولما انهزم عبد الله بن على عم المنصور بعد خروجه عليه بالشام[3] وقدم عليه وفدها للاستعطاف قام الحارث بن عبدالرحمن الغفارى فقال : —

---

(١) بعقابك (٢) اغتنمها (٣) كان سبب خروج عبد الله بن على المنصور ما يزعمه من أن السفاح كان قال له « إن ظهرت على مروان الجعدى فأنت ولى العهد بعدى » وشهد له جماعة بذلك .

يا أمير المؤمنين إنا لسنا وفد مباهاة وإنما نحن وفد توبة، وإنا ابتلينا بفتنة استخفت كريمنا واستفزت حليمنا ، ونحن بما قدمنا معترفون وبما سلف منا معتذرون ، فأن تعاقبنا فيما أجرمنا وإن تعف عنا فبفضلك علينا ، فاصفح عنا إذ ملكت ، وامنن إذ قدرت ، وأحسن إذ ظفرت ، فطالما أحسنت إلى من أساء منا .

فقال المنصور قد فعلت ثم قال للحرسى هذا خطيبهم وأمر برد ضياعه عليه بالغوطة .

١٢ — وكان عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى إمام أهل الشام ، يتردد على المنصور ليعظه كطلبه فكان مما قال له ذات مرة .

يا أمير المؤمنين إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به ، والله سائلك عن صغيرها وكبيرها وفتيلها ونقيرها [1] ، ولقد حدثنى عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من راع يبيت غاشاً لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة » فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظراً ، ولما استطاع من عـــورانهم ساتراً ، وبالقسط فيما بينهم قائماً ، لا يتخوف محسنهم منه رهقا ولا مسيئهم عدواناً ، فقد كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين ، فأتاه جبريل فقال « يا محمد ما هذه الجريدة بيدك اقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً » فكيف من سفك دماءهم وشقق أبشارهم وأنهب أموالهم . يا أمير المؤمنين إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابياً لم يتعمده ، وهبط جبريل فقال يا محمد إن الله لم يبعثك جبارا تكسر قرون أمتك » . واعلم أن كل ما فى يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ولا ثمرة من ثمارها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقاب قوس

---

(١) نقير النواة قناتها ، والفتيل الخيط المستقر فيها .

أحدكم[١] من الجنة خير له من الدنيا بأسرها » إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ، ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل إليك ، ولو أن ثوباً من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لآذاهم فكيف من يتقمصه ، ولو أن ذنوبا من صديد أهل النار صب على ماء الأرض لآجنه فكيف بمن يتجرعه ، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن سلك فيها ويرد فضلها على عاتقه ، وقد قال عمر بن الخطاب « لا يقوم أمر الناس إلا حصيف العقدة ، بعيد الغرة ، لا يطمع الناس منه على عورة ، ولا يحنق فى الحق على جرة ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم .

واعلم يا أمير المؤمنين أن السلطان أربعة أمير يظلف[٢] نفسه وعماله فذلك له أجر المجاهدين فى سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتع[٣] ورتع عماله فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذاك الذى باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله فذاك شر الأكياس[٤] واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، وقد جاء عن جدك[٥] فى تفسير قول الله عز وجل « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » أن الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك وقال فما ظنكم بالكلام وما عملته الأيدى ، فأعيذك بالله أن يخيل إليك أن قرابتك برسول الله صلى الله عليه وسلم تنفع من المخالفة لأمره فقد قال « يا صفية عمة محمد ويا فاطمة بنت محمد استوهبا أنفسكما من الله إنى لا أغنى عنكما من الله شيئاً » ، وكان جدك الأكبر[٦] سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة فقال له « أى عم ،

---

(١) قاب القوس ما بين مقبضها وسيتها (٢) يكف (٣) أطلق لنفسه العنان فظلم (٤) جمع كيس وهو الحازم (٥) عبد الله بن عباس (٦) العباس .

نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها » نظراً لعمه وشفقة عليه أن يلى فيجور عن سنته جناح بعوضة فلا يستطيع له نفعاً ولا عنه دفعاً . ثم قال هذه نصيحتى إن قبلتها فلنفسك عملت ، وإن رددتها فنفسك بخست ، والله الموفق للخير والمعين عليـــه ، فقال المنصور بلى نقبلها ونشكر عليها وبالله نستعين .

١٣ — ولما تراجع المهدى[1] ووزراؤه وأهل بيته تدبير الرأى فى حرب خراسان كان مما قال المهدى فيما رآه رأيا استقر عليه .

الخطب أيسر مما تذهبون إليه وعلى غير ما تصفون الأمر عليه ، إنه لابد لولى عهدى أن يقود إلى خراسان البعوث ويتوجه نحوها بالجنود ، ويقدم إليهم رسله ويعمل فيهم حيلة ثم يخرج نشيطاً إليهم ، حنقاً عليهم ، يريد ألا يدع أحداً من إخوان الفتن ودواعى البدع وفرسان الضلال ، إلا توطأه بحر القتل ، وألبسه قناع القهر ، وقلده طوق الذل ، ولا أحداً من الذين عملوا فى قص جناح الفتنة وإخماد نار البدعة ونصرة ولاة الحق إلا أجرى عليهم ديم فضله وجداول نهله ، فإذا خرج مزمعاً به مجمعاً عليه ، لم يسر إلا قليلا حتى يأتيه أن قد عملت حيله وكدحت كتبه ، ونفذت مكايده ، فهدأت نافرة القلوب ووقعت طائرة الأهواء ، واجتمع عليه المختلفون بالرضا فيميل نظراً لهم وبراً بهم وتعطفاً عليهم ، إلى عدو قد أخاف سبيلهم ، وقطع طريقهم ، ومنع حجاجهم بيت الله الحرام ، وسلب تجارتهم رزق الله الحلال .

ثم كان مما قال فى وصاة ولى عهده موسى الهادى حين أزمع الشخوص إلى خراسان .

أى بنى ، إنك قد أصبحت لسمت وجوه العامة نصبا ولمثنى أعطاف

---

(١) هو أبو عبد الله المهدى بن المنصور .

الرعية غاية[1] ، فحسنتك شاملة ، وإساءتك نائية وأمرك ظاهر ، فعليك بتقوى الله وطاعته ، فاحتمل سخط الناس فيهما ولا تطلب رضاهم بخلافهما ، فان الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إيثارك رضاه ، وليس بكافيك من يسخطه عليك إيثارك رضا من سواه — إلى أن قال بعد أن أوصاه بالكرامة فى الخاصة والعدل فى العامة — ولا ينفكن فى ظل كرامتك نازلا وبعرى حبلك متعلقاً رجلان ، أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب وأعلام بيوتات الشرف ، له أدب فاضل وحلم راجح ودين صحيح ، والآخر له دين غير مغموز وموضع غير مدخول ، بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأى وأنحاء العرب ووضع الكتب ، عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب ويضع آداباً نافعة ، وآثاراً باقية من محاسنك وتحسين امرك وتحلية ذكرك ، فتستشيره فى حربك وتدخله فى أمرك ، فرجل أصبته كذلك فهو يأوى إلى محلتى ويرعى فى خضرة جنانى ، ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان وخيار الأمصار أقواما يكونون جيرانك وسمارك ، وأهل مشاورتك فيما تورد ، وأصحاب مناظرتك فيما تصدر ، فسر على بركة الله أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلا يهدى إلى الصواب قلبك ، وهادياً ينطق بالخير لسانك .

١٤ — وأوصى الرشيد على بن المبارك الأحمر مؤدب ولده الأمين فقال :

يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، وصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك امير المؤمنين ، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم

---

(١) السمت القصد ، والنصب بفتح فسكون ويحرك العلم المنصوب ، والغاية ، ومثنى من مشى ثان ، عطفه تدللا وكبرا .

بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه . أو تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان اباهما فعليك بالشدة والغلظة .

(١٥) ولما عقد الرشيد لجعفر بن يحيى البرمكى على الشام لهياج العصبية بها فشخص إليها فى عدة وعدد ثم عاد وقد أعاد الأمن والطمأنينة فيها دخل على الرشيد فقبل يديه ثم قال :

الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى آنس وحشتى ، وأجاب دعوتى ، ورحم تضرعى ، وأنسأ فى أجلى حتى أرانى وجه سيدى ، وأكرمنى بقربه وامتن على بتقبيل يده وردنى إلى خدمته ، فوالله إن كنت لأذكر غيبتى عنه ، ومخرجى ، والمقادير التى أزعجتنى ، فأعلم أنها كانت بمعاص لحقتنى ، وخطايا أحاطت بى — إلى أن قال بعد إطالة فى التزلف والتقرب — إن الله يا أمير المؤمنين لم يزل يبليك فى خلافتك بقدر ما يعلم من نيتك ، ويريك فى رعيتك غاية أمنيتك ، فيصلح لك جماعتهم ويجمع ألفتهم ويلم شعثهم ، حفظا لك فيهم ورحمة لهم ، وإنما هذا للتمسك بطاعتك والاعتصام بحبل مرضاتك ، والله المحمود على ذلك وهو مستحقه ، وفارقت يا أمير المؤمنين أهل كور الشأم وهم منقادون لأمرك ، نادمون على ما فرط من معصيتهم لك ، متمسكون بحبلك ، نازلون على حكمك ، طالبون لعفوك ، واثقون بحلمك ، مؤملون فضلك آمنون بادرتك ، حالهم فى ائتلافهم كحالهم كانت فى اختلافهم ، وحالهم فى ألفتهم كحالهم كانت فى امتناعهم ، وعفو أمير المؤمنين عنهم وتغمده لهم سابق لمعذرتهم ، وصلة امير المؤمنين لهم وعطفه عليهم متقدم عنده لمسألتهم . وايم الله يا أمير المؤمنين لئن كنت قد شخصت عنهم وقد أخمد الله شرارهم وأطفأ نارهم ونفى مراقهم وأصلح دهماءهم وأولانى الجميل فيهم ورزقنى الانتصار ، فما ذلك كله إلا ببركتك ويمنك وريحك ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة ، وتخوفهم منك

ورجائهم لك — إلى أن قال بعد عد نعم الرشيد عليه وبيان عجزه عن إيفائه بعض الشكر فى إطالة باسقة لهذا العجز — وأنا أسأل الله الذى رزقنى ذلك منك من غير استحقاق له ، إذكان الشكر مقصرا عن بلوغ تأدية بعضه بل دون شقص من عشر عشيره[1] أن يتولى مكافأتك عنى بما هو أوسع له وأقدر عليه ،وأن يقضى عنى حقك وجليل منتك فان ذلك بيده وهو قادر عليه .

١٦ — وخطب عبد الملك بن صالح بن على عم الرشيد بالشام وكان واليه عليها فى نفرة أرادها منهم فتثاقلوا فقال :

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » يأهل الشأم إن الله وصف إخوانكم فى الدين ، وأشباهكم فى الأجسام فحذرهم نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فقال « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، فقاتلكم الله أنى تصرفون ، جثث ماثلة وقلوب طائرة تشبون الفتن وتولون الدبر إلا عن حرم الله فانه دريئتكم[2]، وحرم رسوله فانه مغزاكم[3] أما وحرمة النبوة والخلافة لتنفرن خفافا وثقالا أو لأوسعنكم إرغاما ونكالا

١٧ — ولما غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح هذا لسعى كان به إليه بطمعه فى الخلافة ، حبسه ، وكان يستدعيه من الحبس أحياناً يؤنبه ، ويسمع منه ، فاستدعاه يوما ليسمع احتجاجه فيما بلغه عنه ، فدخل فسلم فلم يرد عليه ، فقال عبد الملك ليس هذا يوما أحتج فيه ولا أجاذب منازعا وخصما ، فقال الرشيد ، ولم ،قال لأن أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف

---

(١) الشقص السهم والنصيب والعشير العشر .

(٢) الدريئة هنا الحلقة يتعلم الرمى عليها وهو يرمى إلى ما فعل الحجاج بالكعبة . (٣) يعنى ما فعلت جيوش يزيد بالمدينة .

آخره ، قال الرشيد وما ذاك ؟ قال لم ترد السلام ، أنصف نصفة العوام ، فقال الرشيد السلام عليكم اقتداء بالسنة وإيثارا للعدل واستعمالا للتحية ، ثم التفت نحو سليمان بن أبى جعفر فقال وهو يخاطب بكلامه عبد الملك ،

أريد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد[١]

ثم قال أما والله لكأنى انظر إلى شؤبوبها قد همع ، وعارضها قد لمع[٢] وكأنى بالوعيد قد اورى ناراً تسطع فأقلع عن براجم بلا معاصم ورءوس بلا غلاصم[٣] ، فمهلا مهلا فبى والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر ، وألقت إليكم الأمور أثناء أزمتها فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل — فقال عبد الملك — .

اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفى رعيته التى استرعاك ، ولا تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب ، فقد نخلت لك النصيحة ، ومحضت لك الطاعة ، وشددت أواخى ملكك بأثقل من ركنى يلملم[٤] وتركت عدوك مشتغلا ، فالله الله فى ذى رحمك أن تقطعه بعد أن بللته[٥] ، بظن أفصح الكتاب لى بعضهه[٦] أو يبغى باغ ينهس اللحم ويالغ الدم[٧] فقد والله سهلت لك الوعور وذللت لك الأمور وجمعت على طاعتك القلوب فى الصدور . فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق فرجته ، كنت فيه كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب :

---

(١) هذا البيت متمثل به وهو من أبيات قالها عمرو بن معد يكرب الزبيدى فى قيس بن مكشوح المرادى (٢) الشؤبوب دفعة المطر ، وهمع هطل ، والعارض السحاب ، ولمع أضاء برقه (٣) البراجم جمع برجمة وهى مفصل الأصبع ، والغلاصم جمع غلصمة وهى رأس الحلقوم (٤) الأواخى جمع آخية وهى العروة ، ويلملم جبل بالمدينة معروف (٥) قويته بالصلة (٦) بقطعه (٧) ينهس اللحم يتناوله بمقدم أسنانه ، ويالغ الدم يشربه بأطراف لسانه ، وكلاهما يتفق ورفق الواشى .

ومقام ضيق فرجته ببنانى ولسانى وجـــدل

لو يقوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامى وزحل[1]

فقال له الرشيد أما والله لولا الأبقاء على بنى هاشم لضربت عنقك ثم رده إلى السجن فبقى به حتى أطلقه الأمين وعتد له على الشأم .

١٨ — وحدث أن ذكر الرشيد لعبد الملك وهو فى سجنه بما يعتقده فيه من إرادته الخلافة لنفسه فقال :

والله إن الملك لشىء ما نويته ولا تمنيته ، ولا نصبت له ولا أردته ، ولو أردته لكان إلى أسرع من الماء إلى الحدور ومن النار إلى يبس العرفج ، وإنى لمأخوذ بما لم أجن ومسئول عما لا أعرف ، ولكنه حين رآنى للملك قمينا وللخلافة خطيراً ، ورأى لى يداً تنالها إذا مدت وتبلغها إذا بسطت ، ونفساً تكمل لخصالها وتستحقها بفعالها ، وإن كنت لم أختر تلك الخصال ولم أصطنع تلك الفعال ، ولم أترشح لها فى السر ولا أشرت إليها فى الجهر ، ورآها تحن إلى حنين الوالدة الواهة وتميل إلى ميل الهلوك ، وخاف أن ترغب إلى خير مرغب وتنزع إلى أخصب منزع ، عاقبنى عقاب من سهر فى طلبها وجهد فى التماسها فان كان إنما جنى على أنى أصلح لها وتصلح لى وأليق بها وتليق بى ، فليس ذلك بذنب جنيته فأتوب منه ، ولا تطاولت له فأحط نفسى عنه ، وإن زعم أنه لا صرف لعقابه ولا نجاة من عذابه إلا بأن أخرج له من حد العلم والحلم والحزم فكما لا يستطيع المضياع أن يكون مصلحاً كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلا ، وسواء عليه أعاقبنى على علمى وحلمى أم عاقبنى على نسى وحسبى ، وسواء عليه عاقبنى على جمالى أم عاقبنى على محبة الناس لى ، ولو أردتها لأعجلته عن التفكير وشغلته عن التدبير ولما كان فيها من الخطب إلا اليسير .

---

(١) يريد الفيل فى قوته ، وفياله — وهو سائسه — فى دهائه ، وزحل تزحزح

١٩ — ولما كتب الأمين إلى داود بن عيسى واليه على مكة والمدينة يأمره بخلع المأمون والبيعة لموسى بن الأمين بعد أن أخذ كتابى الرشيد اللذين كانا بالكعبة، وكان داود أحد الشهود عليهما، جمع داود الناس وخطبهم منادياً بخلع الأمين ومبايعة المأمون فقال بعد الديباجة .

أما بعد يأهل مكة فأنتم الأصل والفرع والعشيرة والأسرة والشركاء فى النعمة، إلى بلدكم يفد وفد الله وإلى قبلتكم يأتم المسلمون وقد علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هرون رحمة الله عليه وصلاته حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم، من العهد والميثاق، لتنصرن المظلوم منهما على الظالم، والمبغى عليه على الباغى، والمغدور به على الغادر . ألا وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هرون قد بدأ بالظلم والبغى والغدر، وخالف الشروط التى أعطاها من نفسه فى بطن البيت الحرام، وقد حل لنا ولكم خلعه من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغى عليه المغدور به . ألا وإنى أشهدكم أنى قد خلعت محمد بن هرون من الخلافة كما خلعت قلنسوتى هذه من رأسى — ثم خلعها وقال — قد بايعت لعبد الله المأمون أمير المؤمنين بالخلافة، ألا فقوموا إلى البيعة لخليفتكم — فقاموا إليه فبايعوه للمأمون وخلعوا الأمين

٢٠ — ولما تولى الأمر عن الأمين، وتسلل عنه الأنصار إلى طاهر ابن الحسين، خطب من بقى معه فى بغداد فكان مما قال : الحمد لله الذى يرفع ويضع، ويعطى ويمنع، ويقبض ويبسط، وإليه المصير، أحمده على نوائب الزمان وخذلان الأعوان وتشتت الرجال وذهاب الأموال، وحلول النوائب وتوفد المصائب[1] حمداً يدخر لى به أجزل الجزاء ويرفدنى[2] أحسن العزاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كما شهد لنفسه وشهدت له ملائكته، وأن محمدا عبده الأمين ورسوله إلى المسلمين صلى

---

(١) نزولها وفوداً وجماعات (٢) يعطينى الرفد وهو العطاء .

الله عليه وسلم آمين : ثم أخذ يفصل ما ألمع إليه فى ديباجته إلى أن قال — الحمد لله حمد من أسلم لأمره ورضى بقدره والسلام .

٢١ — وخطب طاهر بن الحسين ببغـــداد يوم الجمعة بعد قتل الأمين فقال :

الحمد لله مالك الملك يؤتى من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، لا يصلح عمل المفسدين ولا يهدى كيد الخائنين . إن ظهور غلبتنا لم يكن من أيدينا ولا كيدنا(١) بل اختار الله للخلافة ، إذ جعلها عمادا لدينه . وقواما لعباده وضبط الأطراف وسد الثغور وإعداد العدة وجمع الفىء ، وإنفاذ الحكم ، ونشر العدل ، وإحياء السنة بعد إذبال البطالات(٢) والتلذذ بموبق الشهوات ، والمخلد إلى الدنيا مستحسن لداعى غرورها ، محتلب درة نعمتها ، ألف لزهرة روضتها ، كلف برونق بهجتها . وقد رأيتم من وفاء وعيد الله عز وجل لمن بغى عليه ، وما أحل به من بأسه ونقمته ، لما نكب عن عهده وارتكب معصيته وخالف أمره ، وغيره ناهية وعظته مؤدبه ، فتمسكوا بدقائق عصم الطاعة(٣) واسلكوا مناحى سبيل الجماعة واحذروا مصارع أهل الخلاف والمعصية الذين قدحوا زناد الفتنة وصدعوا شعب الألفة(٤) فأعقبهم الله خسارة الدنيا والآخرة .

٢٢ — وخطب المأمون حين بلغه بخراسان قتل الأمين وأقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة فقال بعد الحمد والثناء والصلاة :

أيها الناس إنى جعلت لله على نفسى — إن استرعانى أموركم ، أن

---

(١) أى لم يكن من قوتنا ولا من حيلتنا (٢) البطالات جمع بطالة ، وهى التمادى فى الخسر والضياع ، وإذبالها إذواؤها بكثرة الأمعان فيها .

(٣) جمع عصام وهو رباط القربة الذى به تحمل (٤) فرقوا مجتمعها

أطيعه فيكم ، ولا أسفك دما عمداً لا تحله حدوده وتسفكه فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ولا أثاثاً ولا نحلة تحرم على[1] ولا أحكم بهواى فى غضبى ولا رضاى إلا ماكان فى الله وله ، جعلت كله لله عهداً موكداً وميثاقا مشدداً ، وإنى أفى رغبة فى زيادته إياى فى نعمتى ، ورهبة من مسألته إياى عن حقه وخلقه ، فان غيرت أو بدلت كنت للغير مستأهلا وللنكال معرضا ، وأعوذ بالله من سخطه وأرغب إليه فى المعونة على طاعته ، وأن يحول بينى وبين معصيته .

٢٣ — ولما دخل المأمون بغداد وتلقاه وجوه أهلها قال رجل منهم :

يا أمير المؤمنين بارك الله لك فى مقدمك ، وزاد فى نعمتك ، وشكرك عن رعيتك ، تقدمت من قبلك وأتعبت من بعدك ، وآيست أن يعاين مثلك ، أما فيما مضى فلا نعرفه وأما فيما بقى فلا نرجوه ، فنحن جميعاً ندعو لك ونثنى عليك . خصب لنا جنابك وعذب ثوابك ، وحسنت نظرتك ، وكرمت مقدرتك ، جبرت الفقير وفككت الأسير ، فأنت يا أمير المؤمنين كما قال الأول .

ما زلت فى البذل والنوال وإطـ ... ـلاق لعان بجرمه غلق[2]
حتى تمنى البراء[3] أنهم عندك أسرى فى القيد والحلق

---

(١) النحلة العطية والهبة .

(٢) العانى الأسير ، والغلق المحبوس (٣) جمع برى . ككريم وكرام .

ثانياً — حياتها

أقبل العصر العباسى والناس قريبو عهد بالبداوة ، فيهم المقدرة على المشافهة والارتجال ، وفى ألسنتهم ملكة الفصاحة والبيان ، فالبادية هى البادية لم يصبها ما أصابها بعد من عى واستعجام ، والأمصار مليئة بجالية العرب الذين ارتشفوا أفاويق البلاغة ولدانا ، واستدروا أخلاقها يافعين وشبانا ، وعلى رأس هؤلاء خاصة فى الذروة مما ذكرنا ، من الخلفاء وذوى القرابة القريبة أعماما وأبناء أعمام ، ومن العلويين أصحاب الحق الأصيل خارجين على أولئكم العباسيين أو ناقمين ، ومن حولهم شيعة تشد أزرهم ، وتعمل على إنالتهم حقهم ، ثم من الولاة والقواد عرباً خلصاً أو موالى متعربين ، وهؤلاء جميعاً قضوا قبل إقبال العهد فترة كانت الدعوة فيها سرية ضد الأمويين ، لم يسروا عن أنفسهم فيها بقول ، ولم ينفسوا عن خناقهم بكلام ، هائمين فى البوادى أو متخفين فى الأمصار ، فما إن حان حين بنى مروان حتى كانوا فى خطابتهم كالقدر أخذ ماؤها فى الغليان فاضطرب وفار وصار حميما يصهر به ما فى بطونهم والجلود .

وهذا بيان ما تناولت الخطابة فى ذلك وفى غيره من أغراض بعد التمهيد له :

كان بنو العباس على جانب رفيع من قوة البيان وذرابة اللسان ، وحضور البديهة ومتانة الارتجال ، يدلك على ذلك ما سلف من أبى جعفر المنصور . إذ قطع عليه خطبة الجمعة بعض الحاضرين فقد قال ما قال كأنه يقرؤه من كفه ، ثم عاد إلى الخطبة بعد ، يصل ما كان بما يكون . ويدلك عليه أيضاً ما تقدم عن داود بن على فى تلك الخطبة القوية الضافية التى كانت منه إذا قطع الوعك على أبى العباس خطبته ، وهذا داود المذكور يقول محدثاً عن أنفسهم أنهم أمراء الكلام « ألا وإنا لا ننطق بطراً ،

ولا نسكت حصراً ؛ بل نسكت معتبرين وننطق مرشدين ، ونحن بعد أمراء القول، فينا وشجعت أعراقه ، وعلينا عطفت أغصانه ، ولنا تهدلت ثمرانه ، فنتخير منه ما أحلو لى وعذب ، ونطرح منه ما املوح وخبث » ثم هم بعد كثرة كثيرة ملأت الأمصار واحتلت المنابر والأعواد[1] .

١ — بهذه الكثرة فى العدد وتلك القوة فى اللدد ، كان بنو العباس نقمة ولعنة على الدولة الدائلة ، لا يزالون يذكرون اجتراءها على الدين ، واحتجانها الفيء ، وعدوانها على آل الرسول ، ويذكرون كيف كان جورها يقض منهم المضاجع ويرمض العيون ، ثم يذكرون كيف كان غضبهم عليها الله ، حتى آتاهم من نصره ما أزال دولة الظلم وقضى على رجال الطغيان ، فأبدل الأمة بهم دولة العدل ورجال الصلاح والإصلاح ، إلى غير ذلك من المعانى التى أكثروا فيها تعفية لآثار بنى مروان وتثبيتاً لهذا الملك الجديد ، وهأنت ذا تراها ماثلة فى كثير من خطبهم أول العهد ، وقد تقدم منها خطبة السفاح وخطبة عمه داود بالكوفة وكذا خطبته وخطبة عمه عيسى بالشأم ثم خطبة أبى مسلم بالمدينة عقب حجه .

---

(١) منهم الخليفتان الأخوان أبو العباس وأبو جعفر ، ومن بعدهما سائر الخلفاء إلى ما بعد العصر العباسى الأول ، ومنهم عبد الله وداود وصالح وسليمان وعيسى من أعمام الخليفتين الأولين ، ومنهم من أبناء هؤلاء الأعمام عبد الملك وإسماعيل وعبد الله أبناء صالح ، وداود بن عيسى ، وجعفر ومحمد ابنا سليمان ، ومن أبناء جعفر هذا سليمان وداود وأيوب إلى غير هؤلاء ممن قال الجاحظ فيهم :

« لم يكن لهم نظراء فى أصالة الرأى وفى الكمال والجلال وفى العلم بقريش والدولة وبرجال الدعوة ، مع البيان العجيب والغور البعيد والنفوس الشريفة والأقدار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار ، وكانوا يحملون عن هذه الأسماء إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك .

٢ — وما كادا الداعى إلى استخدام الخطابة فى التعمية على الدولة الدائلة ينقضى بانقضاء عهد السفاح الذى أفناهم قتلا وتشريداً ، ويحل بعده عهد المنصور حتى نبت لها داع جديد هو استخدامها فى مقاومة العلويين ، فقد خرجوا على المنصور يطلبون الحق لأنفسهم لأنهم أبناء على الذى يقربهم إلى رسول الله كما قرب العباسيين العباس ، ثم هم بعد أبناء فاطمة البتول بنت رسول الله ، وللعامة إلى أبنائها هوى متغلغل فى السواد ، وقد هال ذلك أبا جعفر حتى حرمه الرقاد ففعل ما ذكرنا من القبض على عبد الله بن الحسن وآله وإيداعهم السجون ، ووجه الجيوش إلى ولديه ، محمد بالمدينة وإبراهيم بالبصرة ، للقضاء على خروجهما بالقضاء عليهما وقد كان . وفى خلال ذلك كانت تستخدم الخطابة من العلويين تسويغاً للخروج وأداة لجمع الأنصار ، كما كانت تستخدم من المنصور تبييناً لعدم شرعية هذا الخروج ، وتبريرا للموقف الذى وقفه إزاءهم من قتال ، مطيلا فى ذلك ومكثرا من الأدلة ، والبراهين . على أن ذلك لم يكن لينتزع محبتهم من القلوب حتى قلوب قواده وعظماء دولته كأبى مسلم الخراسانى الذى قتله لميله إلى هؤلاء ، ثم استغل الخطابة كما تقدم بعد هذا الحدث الخطير فى تفهيم الناس أنه لم يك فيه من المعتدين .

٣ — هذا الوادى وذاك كانا أزخر الأدوية بتيار الخطابة ، فجرى فيهما عظيم اللجة قوى الاندفاع ، ثم كان كذلك فى واد ثالث اطردوا إياها هو استخدامها فى الثورات لتحميس الجيوش والنهوض بها إلى ميادين القتال ، أو لتثبيط همها والقعود بها حتى عن نصرة من يكون له فى نصرتها أمل ورجاء ، وإليك فى هذا مثلين مما كان أيام الفتنة بين الأمين والمأمون .

١ — أتى رجل طاهر بن الحسين وهو ناهض بجيشه الى جيش على بن عيسى بن ماهان فقال « أيها الأمير إن جندك قد هابوا هذا الجيش ، وامتلأت قلوبهم منه خوفا ورعباً . فلو أقمت بمكانك ودافعت » فلم يسمع له طاهر

إلا ريثما خطب جيشه يقول «يا أولياء الله وأهل الوفاء والشكر، إنكم لستم كهؤلاء الذين ترون من أهل النكث والغدر، إن هؤلاء ضيعوا ما حفظتم وصغروا ما عظمتم، ونكثوا الأيمان التي رعيتم، وإنما يطلبون الباطل، ويقاتلون على الغدر والجهل، أصحاب سلب ونهب، فلو قد غضضتم الأبصار وأثبتم الأقدام، قد أنجز الله وعده وفتح عليكم أبواب عزه ونصره، فجالدوا طواغيت الفتنة ويعاسيب النار عن دينكم، ودافعوا تحقكم باطلهم، فانما هي ساعة واحدة حتى يحكم الله بينكم وهو خير الحاكمين» ثم نهض به فدارت الدائرة على جيش ابن ماهان وقتل.

٢ — وذهب عبد الملك بن صالح إلى الشام فجمع أجنادها على نصرة الأمين ليده عليه في إطلاقه من سجن أبيه وتوليته، ثم سار بهم إلى الجزيرة فجمع رءوسها ووجوهها، ولكن ما إن تأهب بهما للمسير حتى قام رجل من أهل حمص فقال: «يا أهل حمص، الهرب أهون من العطب، والموت أهون من الذل، إنكم بعدتم عن بلادكم، وخرجتم من أقاليمكم، ترجون الكثرة بعد القلة والعزة بعد الذلة، ألا وفي الشر وقعتم، وإلى حومة الموت أنخيتم، إن المنايا في شوارب المسودة وقلانسهم، النفير النفير قبل أن ينقطع السبيل وينزل الأمر الجليل، ويفوت المطلب ويعسر المذهب ويبعد العمل ويقترب الأجل». وقام آخر من كلب فقال «يا معشر كلب إنها الراية السوداء والله ما ولت ولا عدلت ولا ذل نصرها ولا ضعف وليها، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم، وآثار أسنتهم في صدوركم، اعتزلوا الشر قبل أن يعظم وتخطوه قبل أن يضطرم، شامكم شامكم، داركم داركم، الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري، الاوإني راجع فمن أراد الانصراف فلينصرف معي» ثم سار هو والحمصي فسار معهما عامة أهل الشام، وحدث أن مات عبد الملك بن صالح، فأقفل الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان وكان معه جند الجزيرة الى بغداد. وانه لما يذكر من تلاعب الخطابة بعقول الناس، ما كان من الحسين هذا، فإنه ما كاد يصل بغداد بهذا

الجند المؤلب لنصرة الأمين حتى قام فيهم منادياً بخلعه يقول « يا معشر الأبناء إن خلافة الله لا تجاور بالبطر ونعمه لا تستصحب بالتجبر والتكبر وإن محمداً يريد أن يوتغ أديانكم[1] وينكث بيعتكم ، ويفرق جمعكم وينقل عزكم إلى غيركم ، وبالله إن طالت به مده وراجعه من أمره قوة ليرجعن وبال ذلك عليكم وليعرفن ضرره ومكروهه فى دولتكم ودعوتكم ، فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم ، وضعوا عزه قبل أن يضع عزكم ، فوالله لا ينصره منكم ناصر إلا خذل ، ولا يمنعه مانع إلا قتل ، وما عند الله لأحد هوادة ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده والحنث بأيمانه » قال ذلك فاذا السامعون يمكنون له فى خلع الأمين وحبسه والبيعة للمأمون .

وإنا لذاكرون هنا وفى هذا الموضوع عينه ماهو أغرب من ذلك فى تلاعب الخطباء بالعقول ؛ فقد حدث بعد هذا الخلع والحبس أن قام أسد الحربى[2] فقال « يا معشر الحربية هذا يوم له ما بعده ، إنكم قد نمتم وطال نومكم وتأخرتم فقدم عليكم غيركم ، وقد ذهب أقوام بذكر خلع محمد وأسره فاذهبوا بذكر إطلاقه وفكه » وإذا شيخ أقبل على فرس فصاح بالناس اسكتوا فقال « أيها الناس هل تعتدون على محمد بقطع منه لأرزاقكم ؟ قالوا لا . قال فهل قصر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا ما علمنا قال فهل عزل أحداً من قوادكم ؟ قالوا معاذ الله أن يكون فعل ذلك ، قال فما بالكم خذلتموه وأعنتم عدوه على اضطهاده وأسره ، أما والله ما قتل قوم خليفتهم قط إلا سلط الله عليهم السيف القاتل والحتف الجارف ، انهضوا إلى خليفتكم وادفعوا عنه وقاتلوا من أراد خلعه والفتك به » فنهضوا معه وقاتلوا الحسين فهزموا أصحابه وأسروه ، ثم دخل أسد الحربى على محمد

---

(١) يفسدها (٢) نسبة إلى حربية محلة ببغداد بناها حرب بن عبد الله الراوندى قائد المنصور .

فكسر قيوده وأقعده فى مجلس الخلافة ، ولولا أن خلع الأمين كان قد أعلن بالأمصار وخاصة مكة كما تقدم فى خطبة داود بن عيسى واليها ، وهجمت جيوش طاهر على بغداد وليس لأهلها نظام ، لما بعد أن يدوم انتفاعه بهذا الانتصار .

وللخطابة أغراض غير التى تقدمنا بها فى تلك النواحى الثلاث كانت فى العصر العباسى الأول ذات شأن واعتبار .

١ — منها أن يتخذها المستعطف المترضى أداة يستل بها ما يخشى من سخائم القلوب وغضبات النفوس ، فلا يكاد يمتطيها فى هذا الميدان حتى تبلغ به الذى أراد وفوق الذى أراد ، طالما حدثنا التاريخ إذ ذاك أنه كان يدخل بالمغضوب عليه على الغاضب وقلب الثانى على الأول حميم آن ، فيأخذ فى الترضى والاستعطاف فإذا هذا الحميم برد وسلام . وإذا هو قد انتقل بنفسه لدى صاحبه من وهدة العقاب إلى ذروة المكافأة والثواب ؛ وقد سبق ما كان من أبى جعفر المنصور للحارث الغفارى إذ استعطفه بعد خروجه عليه مع عمه عبد الله ، فشفع رضاه عنه برد ضياعه عليه . وهذه امرأة النفس الزكية تدخل على المنصور ومعها صبيان فتقول « يا أمير المؤمنين أنا امرأة محمد بن عبد الله وهذان ابناه أيتمهما سيفك ، وأضرعهما خوفك ، فناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تصعر لهما خدك ، فينأى عنهما رفدك ، أو لتعطفك عليهما شوابك النسب وأواصر الرحم ، فلا يتمالك أن يلتفت إلى الربيع فيقول اردد عليهما ضياع أبيهما ثم يقول كذا والله أحب أن تكون نساء بنى هاشم . بل هذا جعفر الصادق يدخل به عليه إذ مر بالمدينة من حجه وقد طلبه ليقتله فيسلم فيرد عليه « لا سلم الله عليك يا عدو الله تعمل على الغوائل فى ملكى » فيقول جعفر « يا أمير المؤمنين إن سليمان أعطى فشكر ، وان أيوب ابتلى فصبر ، وان يوسف ظلم فغفر ، وأنت على إرث منهم وأحق من تأسى بهم » فينكس أبو جعفر رأسه ملياً

ثم يرفعه قائلا ، الى أبا عبد الله فأنت القريب القرابة ذو الرحم الواشجة السليم الناحية ، القليل الغائلة ، ثم يصافحه بيمينه ويعانقه بشماله ويجلسه معه على فراشه منحرفاً له عن بعضه ، ويقبل عليه بوجهه يحادثه ويسائله ، ثم يقول يا ربيع عجل لأبى عبد الله كسوته وجائزته وإذنه . ومن بعد أبى جعفر طالما استعطف الخطباء الخلفاء فنالوا بقولهم غفران عظائم الذنوب وتخطوا ذلك إلى الحظوة برد ما صودر من أموالهم زائداً أسنى العطايا وأجزل الصلات كما فعل المأمون مغ عمه إبراهيم[1] وكما فعل المعتصم مع تميم بن جميل[2] وغير هذين وهذين كثير .

٢ — ومنها أن يتخذها المتوعد المتهدد أداة سخط وعقاب ، وسوط نقمة وعذاب ، حتى لترتعد فرائص من أمامه خوفا وفرقا ، ويطير لبه مما يسمع رعباً وجزعا ، استمع إلى داود بن على يقول وقد بلغه أن قوما أظهروا شكاة أبى العباس السفاح فقال ، أغدرا يأهل الختر والتبديل ، ألم يردعكم الفتح المبين عن الخوض فى ذم أمير المؤمنين ، كلا والله حتى تحملوا أوزاركم وأوزار الذين كانوا من قبلكم ، كيف قامت شفاهكم بالشكوى من أمير المؤمنين بعد أن حانت آجالكم فأرجأها وانبعثت دماؤكم فحقنها ، الآن

---

(١) لما عهد المأمون من بعده إلى على بن موسى الرضا من العلويين وسمع العباسيون ذلك أنكروه وخلعوه وبايعوا عمه إبراهيم هذا فطلبه المأمون فهرب وتوارى فجد فى طلبه حتى قبض عليه . ولم نذكر استعطافه لطوله . . .

(٢) كان تميم قد خرج على المعتصم بشاطىء الفرات وعظم أمره ، فوجه إليه المعتصم مالك بن طوق فظفر به وحمله موثقاً إلى المعتصم ، ولم نذكر استعطافه لطوله أيضاً .

يا منابت الدمن مشيتم الضراء ودببتم الخمر[1] أما وممد والعباس إن عدتم لمثل ما بدأتم لأحصدنكم بظبات السيوف ثم يغنى ربنا عنكم ونستبدل غيركم « ثم لا يكونوا أمثالكم » . وفى مثل هذا المعرض يقول أبو جعفر المنصور « أحرز لسان رأسه ، تنبه امرؤ لحظه ، نظر امرؤ فى يومه لغده ، فشى القصد وقال الفصل وجانب الهجر — ثم يقول وقد أخذ بقائم سيفه — أيها الناس إن بكم داء هذا دواؤه وأنا زعيم لكم بشفائه ، فليعتبر عبد قبل أن يعتبر به ، فأنما بعد الوعيد الإيقاع و « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله » .

٣ — وبين حالتى الترضى والتوعد كان ذو المكانة والسلطان ، يستخدم الخطابة فى معاتبة من ارتكب معه عصيانا فقدر عليه ، وأعقب هذه القدرة بصفح منه وغفران ، لمنزلة سالفة وخدمة مرجوة ، فأن لسانه حينئذ يعمد إلى منطق الشدة والتجبر ، ولكن قلبه يأبى إلا شوب الكلام بعامل الرحمة والحنان ، فيأتى قوله لذلك بين الشدة واللين ، كالذى كان من الأمين للحسين بن على بن عيسى إذ قال « يا حسين ألم أقدم أباك على الناس وأوله أعنة الخيل وأملأ يده من الأموال وأشرف أقداركم فى أهل خراسان وأرفع منازلكم على غيركم من القواد ، قال بلى ، قال فما الذى استحققت به منك أن تخلع طاعتى وتؤلب الناس على ، وتندبهم إلى قتالى ، قال الثقة بعفو أمير المؤمنين وحسن الظن بصفحه وتفضله ؛ قال فان أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك وولاك الطلب بثأرك ومن قتل من أهل بيتك »[2] ثم دعا له بخلعة

---

(١) الضراء الشجر الملتف ، والخمر كل ما وارى وستر ، وكلاهما كناية عن التخفى فى تدبير المكايد لؤما وجبنا .

(٢) يعنى أخذه بثأر أبيه من طاهر بن الحسين فانه قتله وبعض أهل بيته كما تقدم .

خلعها عليه وحمله على مراكب وأمره بالمسير إلى حلوان ولكنه إذ خرج هرب فى نفر من خدمه ومواليه فنادى الأمين فى الناس — إذ لم يعد هناك موضع لعفو — فركبوا فى طلبه فأدركوه وقتلوه . وكالذى كان من المأمون للفضل بن الربيع[1] إذ ظفر به فقد قال له « يا فضل أكان من حق عليك وحق آبائى ونعمهم عند أبيك وعندك أن تثلبنى وتسبنى وتحرض على دمى ، أتحب أن أفعل بك ما فعلته بى » فقال يا أمير المؤمنين إن عذرى يحقدك إذا كان واضحا جميلا فكيف إذا حفته العيوب وقبحته الذنوب ، فلا يضيق عنى من عفوك ما وسع غيرى منك فأنت كما قال الشاعر فيك .

صفوح عن الأجرام حتى كأنه ... من العفو لم يعرف من الناس مجرما
وليس يبالى أن يكون به الأذى ... اذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلما

٤ — ثم منها أن تكون أداة الحوار بين الخصماء الألداء أو المتحابين الأصفياء أو الراغبين فى التفاصح من البلغاء . فترى فيها حيث الخصام ناراً وجحيما ، وحيث التحاب جنة ونعيما ، وحيث الرغبة فى التفاصح علواً فى البلاغة كبيراً . فأما حوار الخصومة فقد سمعت منه فيما سبق بين الرشيد وعمه عبد الملك ، السؤال المفحم والرد المقنع . وأما حوار التحاب والتواد فإليك منه ما حدث به سعيد بن مسلم بن قتيبة قال ، دعا المنصور بالربيع فقال له يا ربيع سلنى ما تريد فقد سكت حتى أنطقت ، وخففت حتى أثقلت وقللت حتى أكثرت ، فقال والله يا أمير المؤمنين ما أرهب بخلك ولا أستقصر عمرك ولا أستصغر فضلك ولا أغتنم مالك ، وإن يومى بفضلك على أحسن من أمسى ، وغدك فى تأميلى أحسن من يومى ، ولو جاز أن يشكرك مثلى بغير الخدمة والمناصحة لما سبقنى لذلك أحد ، قال صدقت علىّ بهذا منك

---

(١) كان أول المناصرين للأمين لأنه من أبناء العرب وكانت ضلع الأمين معهم لعربية أمه وضلع المأمون عليهم مع الفرس لفارسية أمه .

أحلك هذا المحل فسلنى ما شئت ، قال أسألك أن تقرب عبدك الفضل وتؤثره وتحبه ، قال يا ربيع إن الحب ليس بمال يوهب ولا رتبة تبذل ، وإنما تؤكده الأسباب ، قال فاجعل له طريقاً إليه بالتفضل عليه ، قال صدقت وقد وصلته بألف درهم ولم أصل بها أحدا غير عمومتى لتعلم ماله عندى فيكون منه ما يستدعى به محبتى ، ثم قال وكيف سألت له المحبة يا ربيع ؟ قال لأنها مفتاح كل خير ، ومغلاق كل شر ، تستر بها عندك عيوبه ، وتصير حسنات ذنوبه ، قال صدقت . أما حوار التفاصح فخذ منه ما روى من أن خالد بن صفوان دخل على السفاح وعنده أخواله من بنى الحارث بن كعب[1] فقال ما تقول فى أخوالى فقال ، هم هامة الشرف وعرنين الكرم وغرس الجود ، إن فيهم خصالا ما اجتمعت فى غيرهم من قومهم لأنهم أطولهم لما ، وأكرمهم شيما ، وأطيبهم طعما ، وأوفاهم ذمماً وأبعدهم همما ، الجمرة فى الحرب والرفد فى الجدب والرأس فى كل خطب وغيرهم بمنزلة العجب ، فقال وصفت أبا صفوان فأحسنت فزاد أخواله فى الفخر حتى غضب لأعمامه فقال افخر يا خالد على أخوال أمير المؤمنين وأنت من أعمامه فقال « وكيف أفاخر قوما بين ناسج برد ودابغ جلد ، وسائس قرد وراكب عرد[2] ، دل عليهم هدهد وغرقهم جرذ وملكتهم امرأة » فأشرق وجه أبى العباس .

٥ — ولقد كانت الخطابة مركبا ذلولا فى التعازى والتهانى ، يبلغ به المعزون أرفع مراتب الصبر ويصل به المهنئون أبهج درجات البشر ، ذكر الطبرى أنه لما ماتت الباقونة بنت المهدى جزع عليها جزعا لم يسمع بمثله فجلس للناس يعزونه وأمر ألا يحجب عنه أحد ، فأكثر الناس فى التعازى

---

(١) أم السفاح ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان بن الديان الحارثى ولذا يقال له ابن الحارثية (٢) العرد الحمار .

فأجمع من حضر على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شيبة[1] له إذ قال : « أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما زرئت أجراً ، وأعقبك صبرا ، ولا أجهد الله بلاءك بنقمة ولا نزع منك نعمة ، ثواب الله خير لك منها ورحمته خير لها منك ، وأحق ما صبر عليه مالا سبيل إلى رده » وقد ذكرنا فيما سلف من نماذج ، تهنئة أحد وجوه بغداد للمأمون حين دخلها بعد قتل الأمين . وكثيراً ماكان يجمع بين التعزية والتهنئة فى الخلافة وفى غير الخلافة . فمن الأول ما ذكر فى صبح الأعشى من أن أعرابية تعرضت للمنصور عقب وفاة السفاح فقالت « يا أمير المؤمنين احتسب الصبر وقدم الشكو فقد أجزل الله لك الثواب فى الحالين وأعظم عليك المنة فى الحادثين ، سلبك خليفة الله وأفادك خلافة الله ، فسلم فيما سلبك واشكر فيما منحك ، تجاوز الله عنك يا أمير المؤمنين وخار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين » ومن الثانى ما ذكر من أن عبد الملك بن صالح دخل دار الرشيد — قبل غضبه عليه — فقال له الحاجب إن أمير المؤمنين قد أصيب الليلة بابن له وولد له آخر فلما دخل عليه قال : « سرك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرك ، وجعل هذه بهذه مثوبة على الصبر وجزاء على الشكر » .

٦ — ولقد اتخذ ذوو اللسن الخطابة رقى سحرية يتزلفون بها إلى أولى الأمر والنهى ، يغزون منهم القلوب ويحتلون السويداء ، بما يرتلون من آيات مدح وينظمون من عقود ثناء ، قال الحسن بن سهل للمأمون يوماً ، « الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك وسنى ما أعطاك ، إذ قسم لك الخلافة ووهب لك معها الحجة . ومكنك بالسلطان وحلاه لك بالعدل ، وأيدك بالظفر وشفعه لك بالعفو ، وأوجب لك السعادة وقرنها بالسيادة ، فمن

---

(١) هو ابن عم خالد بن صفوان المنقرى .

فسح له فى مثل عطية الله لك ؟ أم من ألبسه الله من زينة المواهب ما ألبسك أم من ترادفت نعمة الله عليه ترادفها عليك ؟ أم هل حاولها أحد وارتبطها بمثل محاولتك ؟ أم أى حاجة بقيت لرعيتك لم يجدوها عندك ؟ أم أى قيم للإسلام انتهى إلى عنايتك ودرجتك ؟ تعالى الله تعالى ما أعظم ما خص القرن الذى أنت ناصره ، وسبحان الله أى نعمة طبقت الأرض بك . إن الله تعالى خلق السماء فى فلكها ضياء يستنير بها جميع الخلائق ، فكل جوهر زها حسنه ونوره ، فهل لبسته زينته إلا بما اتصل به من نورك ، وكذلك كل ولى من أوليائك سعد بأفعاله فى دولتك ، وحسنت صنائعه عند رعيتك ، فإنما نالها بما أيدته من رأيك وتدبيرك ، وأسعدته من حسك وتقديرك . . .

ولقد صار الحسن بهذا وزيراً للمأمون وتزوج المأمون من ابنته بوران .

وقيل للمهدى عن شبيب بن شبة للاُيقاع به ، إن شبيبا يستعمل الكلام ويستعد له ، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لرجوت أن يفتضح ، فأمر رسولا فأخذ بيده حتى أصعده المنبر وقال خذ فى مدح أمير المؤمنين فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه حق الصلاة عليه ثم قال : « أيها الناس ألا إن لأمير المؤمنين أشباهاً أربعة ، الأسد الخادر ، والبحر الزاخر ، والقمر الباهر والربيع الناضر ، فأما الأسد الخادر فأشبه منه بأسه ومضاءه ، وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وعطاءه ، وأما القمر الباهر فأشبه منه نوره وضياءه ، وأما الربيع الناضر فأشبه منه حسنه وبهاءه ثم نزل وهو يقول :

وموقف مثل حد السيف قمت به أحمى الذمار وترمينى به الحدق
فما زلقت وما ألقيت كاذبة إذا الرجال على أمثـــاله زلقوا

فكان بعد هذا أعز على أمير المؤمنين قبله .

٧ — وكثيرا ما كانت إجالة الراى فى مهام الأمور على ألسنة ذوى البصائر والعقول . تلبس الأسلوب الخطابى ، فيقف كل مدل برايه موقف

الخطيب يجود لفظه كما يمحص معناه ، ويعمل على التأثير بالقول كما يؤثر بالفكر ، وإن كان الموقف موقف مشاورة لا يعدو الرغبة فى الوصول إلى أحزم الآراء . وعندك فى هذا ما صدر عن المهدى وأهل بيته ورجالات دولته من تدبير الرأى فى حرب خراسان وهو كثير ، وقد سبق منه بعض ما كان من المهدى فى إبداء رأيه ووصايته لولى عهده موسى الهادى ، وإليك بعض ما كان من موسى هذا فى الموضوع ، وهو وحده من لم يسبق لنا عنه دون سائر الخلفاء إلى المأمون اختيار . قال « أيها المهدى لا تسكن إلى حلاوة ما يجرى من القول على ألسنتهم وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم ، الحال من القوم ينادى بمضمرة شر وخفية حقد ، قد جعلوا المعاذير عليها ستراً ، واتخذوا العلل من دونها حجابا ، رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير والأمور بالتطويل ، فيكسروا حيل المهدى فيهم ، ويفنوا جنوده عنهم حتى يتلاحم أمرهم وتتلاحق مادتهم ، وتستفحل حربهم وتستمر الأمور بهم ، والمهدى من قولهم فى حال غرة ولباس أمنة قد فتر لها وأنس بها وسكن إليها » إلى أن قال « والرأى للمهدى وفقه الله ألا يقيل عثرتهم ولا يقبل معذرتهم حتى تطأهم الجيوش وتأخذهم السيوف ، ويستحر بهم القتل ويحدق بهم الموت ، ويحيط بهم البلاء ويطبق عليهم الذل ، فان فعل بهم ذلك ، كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم ، وهزيمة لكل بادرة شر منهم ، واحتمال المهدى فى مئونة غزوتهم هذه يضع عنه غزوات كثيرة ونفقات عظيمة » . . .

٨ — ولم تقف الخطابة إبان ازدهارها فى هذا العصر أن تكون ذات باع بطول وقوة تجول فى نواحى الوصايا والنصائح والعظات ، وهذه كلمات ثلاث تكاد تكون متحدة المدلول ولكنا عطفنا بعضها على بعض عطف تغاير على أمل التفرقة بينها فى المراد .

فأما الوصايا فانا نقصد بها ما جاوز ناحية التزهيد وكان من كبير

بشأن صغير تربطهما لحمة نسب وقرابة ، وإنما أقحمنا كلمة شأن لتشمل ماوجه الخطاب فيه لغير الموصى به ولكنه من أجله يكون ، كوصية الرشيد السابقة للأحمر مؤدب ولده الأمين وكوصية السيدة زبيدة على بن عيسى حين الذهاب لقتال المأمون من قبل ابنها الأمين إذ تقول : « يا على إن أمير المؤمنين وإن كان ولدى ، إليه تناهت شفقتى وعليه تكامل حذرى ، فإنى على عبد الله منعطفة مشفقة ، لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابنى ملك نافس أخاه فى سلطانه وغاراه[1] على ما فى يده ، فاعرف لعبد الله حق والده وإخوته ، ولا تجبهه بالكلام فانك لست نظيره ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ولا ترهقه بقيد ولا غل ، ولا تمنع منه جارية ولا خادما ، ولا تعنف عليه فى السير ولا تساور فى المسير[2] ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سفه عليك فلا تراده » وطوال الوصايا فى هذا العصر كثيرات ، كوصايا أبى جعفر المنصور لولى عهده المهدى ، وكوصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله إذ ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما .

وأما النصائح فهى كالوصايا فى مجاوزتها ناحية التزهيد ولكنها تخلو من قيد الرابطة فى القرابة والسن ، ومثلها فى هذا العهد ما حدث من يزيد بن عمر بن هبيرة[3] . إذ دخل يوماً على أمير المؤمنين المنصور فقال له حدثنا فقال « يا أمير المؤمنين إن سلطانكم حديث ، وإمارتكم جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوة عدلها ، وجنبوهم مرارة جورها ، فوالله يا أمير المؤمنين لقد محضت لك النصيحة » . وكذلك قوله له أيضاً « يا أمير المؤمنين توسع توسعا قرشياً ، ولا تضق ضيقاً حجازياً » : وكثيراً ما وجهت النصائح فى هذا العصر توجيهاً عاماً لفشو الحكمة فيه كقول مسلم بن قتيبة « لا تطلبن

---

(١) خاصمه . (٢) لا تحتد فيه .

(٣) كان والى العراقين لمروان بن محمد .

حاجتك إلى واحد من ثلاثة ، لا تطلبها إلى الكذاب فإنه يقربها وهى بعيدة ويبعدها وهى قريبة ، ولا تطلبها إلى الأحمق فإنه يريد أن ينفعك وهو يضرك ولا تطلبها إلى رجل له عند قوم مأكلة فأنه يجعل حاجتك وقاء لحاجته ، والنصائح على العكس من الوصايا يغلب فيها الإيجاز .

أما العظات فهى خلو من القيدين السالفين ، وإنما قيدها أن ترمى إلى التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة بمختلف الطرق وشتى الأساليب ، كالذى رأيته فيما اخترنا بالنماذج من عظة الأوزاعى للمنصور وهى من العظات الطوال ، ومن قصارها ما كان من ابن السماك[1] إذ دخل على الرشيد يوما ، وبينا هو عنده إذ استسقى الرشيد ماء فأتى بقلة فلما أهوى بها إلى فيه ليشرب ، قال له ابن السماك « يا أمير المؤمنين ، بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها ؟ قال بنصف ملكى ، قال اشرب هنأك الله ، فلما شربها قال له أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريه ؟ قال بجميع ملكى ، قال فما اغترارك بملك قيمته بولة » فبكى هرون وانصرف ابن السماك .

تلك أهم النواحى التى توضح ما كان للخطابة فى العصر العباسى الأول من أغراض يرمى إليها الخلفاء وغير الخلفاء سوى ما كان من الخطب الدينية فى الجمع والمواسم يلونها بأنفسهم فيحفلون بها ويطيلون ، وقلما تصدر منهم فى هذه الناحية القصار ، وهذا نموذج من قصارها يوم جمعة عن محمد بن سليمان بن على عامل البصرة فى خلافة المنصور إذ لا يتسع المقام لطوالها قال :

الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأستغفره وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد

---

(١) هو محمد بن صبيح الزاهد العابد الكوفى ، قدم بغداد زمن الرشيد ثم عاد إلى الكوفة فمات بها سنة ١٨٣

أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، من يعتصم بالله ورسوله فقد اعتصم بالعروة الوثقى وسعد فى الآخرة والأولى ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا بعيدا وخسر خسرانا مبيناً . أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يطيعه ويطيع رسوله ، ويتبع رضوانه ويتجنب سخطه فإنما نحن له وبه . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعة الله وأرضى لكم ما عند الله ، فإن تقوى الله أفضل ما تحاث الناس عليه وتداعوا إليه وتواصوا به ، « فاتقوا الله ما استطعتم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون »

هذا وإن فيما قدمنا من نماذج خالصة وأخرى شبنا بها الكلام على الأغراض ، لمراءة ترينا أن الخطابة فى العصر العباسى الأول قد ارتفعت إلى درجة من البيان لا تقل إن لم تزد عما كان لها فيه عهد الأمويين ، ذلك بأن رجالها فيه كانوا كرجال العصر المذكور من حيث السليقة العربية فى بيانهم ، وتوافر الدواعى إلى الكلام أمامهم ، ثم هم على ذلك يغلب فيهم العنصر الهاشمى ولبنى هاشم فى ميادين القول سبق لا ينال . وأهم الطوابع التى تميز بها خطابة هذا العصر بعد شمول أغراضها كما سلف هو ما نسوقه الآن على سبيل الإجمال .

١ — طبعها بطابع دينى لا تزال تعتز به وتستمد منه وهذا أمر ما كان لرجالها عنه فكاك ما داموا يعتقدون أنهم جند الله المؤزرون للقضاء على دولة الظلم وإقامة معالم الدين ، ولذلك امتلأ كلامهم بجور بنى أمية واجترائهم على الحرمات والتحدث عن أنفسهم حديث الحاكمين العادلين ، ومن هنا عادوا إلى التعهد للسامعين بمثل ما كان يتعهد به الخلفاء الراشدون كما رأيت فى خطب السفاح والمنصور وأعمامهما وكما هو ثابت فى خطب من بعدهم من الخلفاء وقد تقدمت منها واحدة للمأمون .

٢ — كثرة الاستعانة فيها بالقرآن الكريم اقتباساً واستشهاداً ، ومن

أقدر من بنى هاشم فى دينهم وعدالتهم وقوة عارضتهم وفصاحتهم أن يكونوا لآيه مستغلين فى شن الغارة على بنى أمية ومن كانوا لهم أنصاراً ومشايعين ، وقد كانت الآيات تواتيهم كما يواتى الذلول عن طواعية واختيار ، حتى تسنى لكثير منهم فى بعض مواقفه أن يجعل جل خطبته من القرآن . خطب المنصور بمكة بعد بناء بغداد فقال « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ، أمر مبرم وقول عدل وقضاء فصل ، والحمد لله الذى أفلج حجته وبعدا للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غرضاً والفيء إرثاً وجعلوا القرآن عضين[1] ، لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكم ترى من بئر معطلة وقصر مشيد ، أمهلهم الله حتى بدلوا السنة واضطهدوا العترة[2] وعندوا واعتدوا واستكبروا وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً » . وعلى وتيرتها كانت خطبه عبد الملك بن صالح فى أهل الشام وقد ذكرت بالنماذج .

٣ — وكذلك كثرة الاستشهاد بالشعر وإن لم تفضل فيه خطابة الأمويين .

خطب داود بن على فقال « أيها الناس حتام يهتف بكم صريخكم[3] ، أما آن لراقدكم أن يهب من نومه ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون أغركم الأمهال حتى حسبتموه الأهمال هيهات منكم وكيف بكم ، والسوط كفى[4] والسيف مشهر :

حتى تبيد قبيلة فقبيلة ويعض كل مثقف بالهام[5]

وتقوم ربات الخدور حواسرا يمسحن عرض ذوائب الأيتام

وخطب صالح أخوه فقال « يا أعضاد النفاق وعبد الضلالة ، أغركم

---

(١) جمع عضه ، أى فرقا من سحر وكهانة وشعر . (٢) العشيرة الأقربين
(٣) الصريخ هنا المغيث (٤) كثير الكفاية (٥) المثقف هنا المغفر .

لين أساسى وطول إيتاسى حتى ظن جاهلكم أن ذلك لفلول حد وفتور جد وخور قناة ، كذبت الظنون إنها العترة بعضها من بعض ، فأما إذ قد استوبلتم العافية[1] فعندى فطام وفكاك وسيف يقد الهام وإنى أقول :

أغركم أنى بأكرم شيمة ... رفيق وأنى بالفواحش أخرق

ومثلى إذا لم يجز أحسن سعيه ... تكلم نعماه بفيها فتنطق

لعمرى لقد فاحشتنى فغلبتنى ... هنيئاً مريئاً أنت بالفحش أرفق

٤ — السهولة البادية فى وضوح مفرداتها وسلاسة تراكيبها مع بقائها جزلة الأسلوب قوية الأداء ، نتيجة للحضارة التى صقلت اللغة كما صقلت كل شىء ، فأصبحت الكلمات الغريبة فيها قليلة الوجود ، والتراكيب العسيرة بها نادرة الاستعمال ، ثم خطت نحو مزاوجة الجمل وتساوى الفقرات خطوات كانت الأساس لما بنى بعد من محسنات . وإن فيما قرأت لها لشواهد على ما ذكرنا كثيرة كخطبة شبيب فى المديح ، على أنى أزيد هنا شاهداً مما كان آخر هذا العصر الأول يؤذن بما كان مقدوراً للنثر بعده من صناعات. دخل رجل على المأمون يتظلم من عامل له فقال : « يا أمير المؤمنين ، ما ترك لى فضة إلا فضها ، ولا ذهبا إلا ذهب به ، ولا غلة إلا غلها[2] ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا علقاً إلا علقه ، ولا عرضاً إلا عرض له ، ولا ماشية إلا امتشها[3] ، ولا جليلا إلا أجلاه[4] ولا دقيقاً إلا دقه[5] .

٥ — ظهورها على ألسنة الموالى بجانب ظهورها على ألسنة العرب ، وذلك لما صار إليه الفرس من نباهة الشأن وتولى كثير منهم أزمة الحكم مع إجادتهما العربية وحذقهم آدابها كما رأيت فيما اخترنا لأبى مسلم وطاهر بن الحسين وجعفر البرمكى والحسن بن سهل وغيرهم ممن عهد إليهم بكبار

---

(١) عددتموها وبيلة وخيمة (٢) حازها واحتبسها (٣) أخذ كل ما فى ضرعها (٤) رفعه (٥) كسره .

الشئون . على أنه لا يفوتنا التنبيه هنا عما ظهر فى خطب هؤلاء وأمثالهم من التعمل البادى فى الصياغة ، والخنوع الممعن فى الضراعة تأثراً منهم بما هو من طابع الفارسية وطباع أهلها ، ولذا يبدو على تراكيبهم فى بعض العبارات سقم أو استكراه لا تكاد تجد له من مثيل فى هذا العصر على ألسنة العرب الخالصين .

كان هذا شأن الخطابة فى العصر العباسى الأول ، حتى إذا ما أقبل العصر الثانى كانت قد ماتت الحاجة إلى الدعاية ضد الأمويين بما عفا من آثارهم وتثبت من أقدام العباسيين ، ومن كان فى نفسه هوى أموى توجه به إلى الأندلس حيث أسست الدولة الثانية لبنى مروان ، وبذلك أقفر الوادى الأول للخطابة وذهب داعيه ، ثم أعقبه إقفار الوادى الثانى وهو مقاومة العلويين — لما قاموا به من هجرة المشرق إلى المغرب الأقصى بعد أن أخفقوا فى خروجهم على أبى جعفر وخروجهم على الرشيد ، وبعد أن أخفق المأمون فى عقد ولاية العهد من بعده لعلى بن موسى الرضا منهم ، ثم جاء المتوكل معلنا على شيعتهم سيف البطش والجبروت ، وكذلك كان الخدم الأتراك ، فبقوا فى المغرب الأقصى بين بنى مروان فى الأندلس والأغالبة فى أفريقية (تونس) — وكلاهما يود لهم البقاء — إلى أن ضعف أمر بنى العباس فزحفوا شرقا إلى أن امتلكت الدولة الفاطمية مصر والشام . وبموت هذين الداعيين أقفر الوادى الثالث ونضب للخطابة أكبر معين . أما العيون الأخرى التى كانت تمد سائر الأغراض فقد جفت بعاملين جديدين ، أحدهما تجريد الخلفاء على أيدى الخدم الأتراك من السلطة الدنيوية التى كانت تجعلهم مرغوبين مرهوبين ، وإذا ماتت الرغبة فى شخص والرهبة منه ، تقطعت بينه وبين الناس أواصر للكلام ، وثانيهما ضعف أولئكم الخدم فى المقدرة على الكلام وفى فهم ما يلقى إليهم من بيان ، ضعفا حال بينهم وبين أن يسدوا ذلك الفراغ للخلفاء ومن كان على شاكلتهم من أعوانهم

موالى إلى الفرس المتعربين ، وبذلك تم القضاء تقريباً على كل ماكانت تتناول الخطابة فى غير الناحية الدينية من أغراض .

أما الناحية الدينية فقد استمر أولئكم الخدم يسمحون للخلفاء فيها بكل ما يودون ، فبقوا يزاولون الخطب فى الجمع والأعياد . ويخرجون إلى هذه المواسم كما كان أسلافهم فى مواكب الأبهة والجلال[1] فبقى للخطب الدينية فى هذا العصر على ألسنتهم وألسنة محاكيهم من فصحاء الولاة والعمال شبه ماكان لها فى سابقه من شأن واعتبار . ومما ساعد على هذا أن ذيل العفاء لم يك قد تم سحبه على ما للعربية من مكانة فى التخاطب العام ، ولذلك يذكر المؤرخون عن الراضى بالله المتوفى سنة ٣٢٩ أى قبيل انقضاء هذا العصر بسنوات ، أنه آخر خليفة له خطب كثيرة وأنه كان كأسلافه الأوائل يجالس فى بيته العلماء والأدباء .

ولما أقبل العصر الثالث بسط آل بويه سلطانهم على بغداد ، بسطاً لم يبق معه للخليفة إلا صورة الخلافة جوفاء ، فقد سلبوا خلفاءه ماكان قد بقى لهم فى سابقه من نفوذ دينى فحالوا بينهم وبين الظهور فى المواكب للناس ، حتى لم يكن للخليفة فى الدولة إلا مرتب يتسلمه كاتبه لنفقاته جعله

---

(١) كانت هذه المواكب تسترعى أنظار الشعراء فيبدعون فى تصويرها ما شاء لهم البيان كما حدث من البحترى فى رائيته التى يقول فيها :

بالبر صمت وأنت أفضل صائم وبسنة الله الرضيـــة تفطر

فقد أجاد فيها وصف موكب المتوكل فى خروجه إلى المسجد ليصلى بالناس أحد أعياد الفطر ، كما أجاد وصف خطبته الواعظة فى هذا العيد وستأتى فى نماذج الشعر بعد .

معز الدولة للمستكفى بالله خمسة آلاف درهم كل يوم[1] فقطع بذلك المدد الروحى الذى كان للخطابة من كلام الخلفاء . ثم أخذ ضعف اللسان العام يتناول الخاصة وأهل البادية بعد أن تناول السواد ، فقضى بذلك على المقدرة الخطابية العامة أتم قضاء ، وأصبحت الخطابة حرفة تسند فى بغداد بعد الخلفاء وفى سائر الحواضر بعد الولاة والعمال ، إلى علماء يختارون على سبيل التعيين ويلقب كل منهم بالخطيب .

ثم جاء العصر الرابع فجرى الأمر فيه على ما كان فى الثالث من بقاء الحجر على الخلفاء وتعيين الخطباء من العلماء ، ولقد اشتهر من خطباء الحواضر فى العصرين رجال كانوا ذوى مقدرة على البيان وامتلاك لنواصيه فأغنوا فى هذه الناحية غناء عظيما وصاروا مدداً لمن هم دونهم ممن يلون الخطابة فى غير حواضرهم وفى سائر المدن وأمهات القرى ، حتى دونت خطب بعضهم فى دواوين[2] غير أن هؤلاء لقلتهم وللضعف الذى أخذ

---

(١) بدأ اضطهاد آل بويه للخلفاء منذ وجودهم ببغداد ، فان المستكفى الذى لقب أحمد بن بويه إذ دخلها بلقب معز الدولة ولقب أخويه كما تقدم وأمر أن تضرب ألقابهم على الدراهم والدنانير ، لم يبقه معز الدولة بعد ذلك إلا أربعين يوماً ثم خلعه أشنع خلعة بجعل رجلين من أتباعه يجذبانه عن سريره ويجعلان عمامته فى عنقه إلى حبث اعتقل ، على زعم أنه يدس عليه ويكيد له .

(٢) من هؤلاء فى كل الدولة على حسب سنى وفاتهم فى العصرين ، أبو يحيى بن نباتة خطيب سيف الدولة بحلب المتوفى سنة ١٣٤ وله ديوان خطب مشهور طبع فى بيروت ، والخطيب البغدادى الحافظ أبو بكر أحمد بن على صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة ٤٦٣ ، والخطيب التبريزى يحيى بن على الشيبانى المتوفى سنة ٥٠٢ والخطيب الرازى عمر بن الحسين والد الفخر صاحب التفسير المتوفى سنة ٥١٢ وزكى الدين الدمشقى خطيب أول جمعة صليت ببيت المقدس بعد استعادته من الصليبيين سنة ٥٦٤ ثم خطيب الفسطاط إبراهيم بن منصور والعراقى المتوفى سنة ١٦٣

يحل بالعربية فى العصر الأخير ، لم يصدوا عن الخطابة الدينية ما اعتورها من خمول ، فقد سار القائمون بها فى طريق الاضمحلال مسرعين ، وكان أول ما بدا عليهم من ضعف ، عجزهم جملة عن الارتجال ، ثم عجزهم عن المشافهة بعد إعداد ، فكانوا يدونون خطبهم ثم يلقونها على المنابر من أوراق ، ولشد ما كان الخطب فادحا حينما عجزوا عن تحضيرها بأنفسهم ، وأخذوا يكتبون خطب غيرهم ، فيلقونها غير ملائمة للبيئة ولا مطابقة لمقتضيات الأحوال ، حتى كان من وراء ذلك أن هبت جماعات تضع خطبا لكل جمعة من جمع العام يملئونها بما ساد الكلام آخر العصر من أسجاع ، ولا يلمون فيها من نواحى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بشىء ذى بال على نحو ما كنا نسمع من جميع خطباء المساجد بمصر منذ فترة من تاريخنا الحديث ، وما نسمع الآن من مجموعهم فى هذا الوقت المقيم الذى حاد فيه بعض الخطباء الحديثين عما كان عليه إجماع سابقيهم حيدة نقابلها بالغبطة متمنين لها دوام التقدم وسرعة الذيوع والانتشار .

الكتابة

قلنا إن لنثر اللغة جانباً أدبياً هو الخطابة والكتابة الأنشائية ، وآخر علمياً هو لغة التدوين والتصنيف ، وإننا سنسوق الكلام على هذا الترتيب وبعده يكون الكلام على الشعر ، وقد فرغنا من الكلام على الخطابة ، وآن أن نشرع فى الكلام على الكتابة جريا على مارسمنا من نظام ، غير أننا مضطرون فيها إلى تصدير لم نضطر إلى مثله فى الخطابة ، هو سوق كلمة عن أنواعها فى هذا العصر الطويل ، فقد لبست فيه أثواباً عدة ذات تغاير فى الأشكال والألوان ، دفع إليها نظام العصر وأنم نسجها طول مداه .

فكانت منها الكتابة الديوانية وهى التى يتولاها رجال الدواوين على النحو الفنى الذى نراه من كتبة الوزارات الآن . ومنها ديوان الرسائل والتوقيعات ، وديوان الخراج والنفقات ، وديوان الضياع والاقطاعات ، وديوان الجيش وديوان الشرطة وغيرها إلى ما يشمل عدد المصالح العامة فى تصريف الأمور ، وهى مع اشتراكها جميعاً فى ضم عدد من الكتبة يتولى عملا فنياً ، مختلفة بعضها عن بعض فى نوع الكتابة تبعاً لاختلاف المهمة الملقاة على كل ديوان ، والنظام الكتابى الذى يقتضى إنجازها فيه ، حتى إن نقل كاتب من أحـــدها إلى غيره ، كثيراً ما تأباه طبيعة العمل الجديد ، لأن لكل ديوان صبغة فنية وتعاليم يحذقها كتبته ولا يلم بها الكاتب الجديد إلا بعد تمرين ، غير أن الكتابة فيها جميعاً ما عدا ديوان الرسائل والتوقيعات لاتحتاج بعد معرفة فنيته إلى روية وإجهاد ، إذ لاتعدو القيد فى الدفاتر أو التحرير من غير مشقة فى الأنشاء فهى خلو من المسحة الأدبية للغة كما هى الآن . أما فى الديوان المذكور ، فكانت مع فنيتها ذات صبغة أدبية تتطلب من الكاتب تجويد العبارة والتحليق بالأسلوب إلى مستوى من البيان رفيع ، تتسامى إليه طوائف الكتاب .

وكان منها خارج الدواوين ما ينشئه الكتاب من رسائل على نمط ما فى ديوان الرسائل وإن كانت إخوانيات ، وما يصورونه من القصص والمقامات ثم ما يدونه العلماء فى التأليف والتصنيف ، ومع ما للغة العلمية من فنية خاضعة للطابع العلمى وإن كانت مختلفة باختلاف العلوم والفنون ، جاءت بعيدة عن الصبغة الأدبية بخلاف الرسائل الأخوانية ، وكتابة القصص والمقامات فإنها ذات جانب أدبى رفيع جعلها نظيرة ما فى ديوان الرسائل كما جاءت الكتابة العلمية نظيره من سائر الدواوين .

ولما كان الأدب وحيانه ينظران إلى الناحية الأدبية دون غيرها ، صارت الكتابة الأنشائية فى ديوان الرسائل والتوقيعات ، وخارجه فى الرسائل الأخوانية والقصص والمقامات من أبحاثهما فى الصميم ، دون كتابة الدواوين الأخرى لبعدها عنهما البعد كله ، أما الكتابة العلمية فإنهما يلمان بها الألمـــام اليسير لما هو معروف من صلتهما بكثير من العلوم والفنون ، وعلى هذا الذى يقتضيه الأدب وحيانه سيقع منا الكلام مع عدم التوسع الكثير فى التدوين والتصنيف . وبعده يكون الكلام بافاضة فى الشعر إن شاء الله .

الكتابة الانشائية

أولا – نماذجها

ا – فى الرسائل والتوقيعات

١ – لما خرج محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية على المنصور كتب إليه المنصور .

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ، أما بعد فإنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم ، ولك عهد الله وذمته وميثاقه ، وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، إن تبت من قبل أن أقدر عليك ، أن أؤمنك على نفسك وولدك وإخوانك ، ومن بايعك ومن تابعك وجميع شيعتك ، وأن أعطيك ألف درهم وأنزلك من البلاد حيث شئت وأقضى لك ما شئت من الحاجات ، وأن أطلق من فى سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ، ثم لا أتتبع أحداً منكم بمكروه ، فإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام .

٢ – فكتب إليه محمد بن عبد الله . بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد أما بعد « طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين

استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتنى ، وقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم إنما طلبتموه بنا ، ونهضتم فيه بشيعتنا وخبطتموه بفضلنا ، وأن أبانا عليا عليه السلام كان الوصى والإمام ، فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء ، وقد علمت أنه ليس أحد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا ، وأنا ابنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية دونكم (١) وبنو ابنته فاطمة فى الإسلام من بينكم ، فأنا أوسط بنى هاشم نسباً وخيرهم أما وأبا ، لم تلدنى العجم ولم تعرق فى أمهات الأولاد ، وأن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لنا ، فولدنى من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاما وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً على بن أبى طالب ، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى القبلة ، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة (٢) ، ثم علمت أن هاشماً ولد علياً مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل جدى الحسن والحسين (٣) ، فمازال الله يختار لى حتى اختار لى فى النار ، فولدنى

---

(١) ينتهى نسبها إلى كعب بن لؤى وكانت زوجاً لعبد المطلب بن هاشم فأولدها عبد الله أبا رسول الله وأبا طالب أبا العلويين واسمه عبد مناف ثم الزبير وعبد الكعبة .

(٢) أبوه عبد الله بن حسن بن حسن بن على ، وأمه فاطمة بنت الحسين ابن على ، فهو يرجع إلى رسول الله من الجهتين .

(٣) يرجع على إلى هاشم من قبل أبيه أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ومن قبل أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، ويرجع الحسن إلى عبد المطلب من

أرفع الناس درجة فى الجنة وأهون أهل النار عذاباً ، فأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار ، ولك عهد الله إن دخلت فى بيعتى أن أؤمنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته إلا حدا من حدود الله أو حقاً لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك فى فى ذلك ، فأنا أوفى بالعهد منك وأحرى بقبول الأمان ، فأما أمانك الذى عرضت على ، فأى الأمانات هو ؟ أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن على أم أمان أبى مسلم والسلام [١] .

٣ — فكتب إليه المنصور — بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ، أما بعد فقد أتانى كتابك وبلغنى كلامك فإذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة ، ولا الآباء كالعصبة والأولياء ، ولقد جعل العم أبا وبدأ به على الوالد الأدنى فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام « واتبعت ملة آبائى إبراهيم واسحاق ويعقوب » . ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعة ، فأجابه أثنان أحدهما أبى وكفر اثنان أحدهما أبوك [٢] ، فأما ما ذكرت من النساء وقراباتهن ، فلو أعطين على قرب الأنساب وحق الأحساب ، لكان الخير كله لآمنة بنت وهب ، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه . فأما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب ، فإن الله لم يهد أحداً من ولدها للاسلام ، ولو فعل ،

قبل أبيه على بن أبى طالب ومن قبل أمه فاطمة بنت رسول الله ، ويرجع محمد هذا إلى رسول الله من الجهتين كما تقدم .

(١) هؤلاء الثلاثة أمنهم المنصور ثم غدر بهم ، وابن هبيرة هذا هو يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراقين لمروان بن محمد .

(٢) المجيبان حمزة والعباس ، والكافران أبو لهب وأبو طالب ، والثانى أهون أهل النار عذابا .

لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير فى الأخرة والأولى ، وأسعدهم بدخول الجنة غداً ، ولكن الله أبى ذلك فقال « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » فأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم على بن أبى طالب وفاطمة أم الحسن ، وأن هاشما ولد عليا مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين ، فخير الأولين والآخرين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلده هاشم إلا مرة واحدة ولم يلده عبد المطلب إلا مرة واحـــدة ، وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله ، فإن الله عز وجل أبى ذلك فقال « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ولكنكم بنو ابنته ، وإنها لقرابة قريبة ، غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم ، فكيف تورث الأمامة من قبلها ؟ ولقد طلب بها أبوك بكل وجه ، فأخرجها تخاصم ومرضها سراً ودفنها ليلا ، فأبى الناس إلا تقديم الشيخين ، ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر بالصلاة غيره ، ثم أخذ الناس رجلا فلم يأخذوا أباك فيهم ، ثم كان من أصحاب الشورى فكل دفعه عنها وبايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان ، وحارب أبوك طلحة والزبير ، ودعا سعداً إلى بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعد ، وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلمه إلى معاوية بخرق ودراهم ، وأسلم فى يديه شيعته وخرج إلى المدينة ، فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير حله ، فإن كان لكم فيها شىء فقد بعتموه . فأما قولك إن الله اختار لك فى الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذاباً فليس فى الشر خيار ولا من عذاب الله هين ، ولا ينبغى لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار ، وسترد فتعلم وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . وأما قولك إنك لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد ، وإنك أوسط بنى هاشم نسباً وخيرهم أماً وأباً فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرا ، وقدمت نفسك على من هو خير منك أولا وآخراً وأصلا وفصلا ، فخرت على إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وعلى والد ولده . فانظر ويحك أين تكون من الله غداً ، وما ولد فيكم مولود بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على بن الحسين وهو لأم ولد ، ولقد كان خيراً من جدك حسن بن حسن ، ثم ابنه محمد بن على خير من أبيك ، وجدته أم ولد ، ثم ابنه جعفر ، وهو خير منك ، ولقد علمت أن جدك علياً حكم حكمين وأعطاهما عهده وميثاقه على الرضا بما حكما به فاجتمعا على خلعه ، ثم خرج عمك الحسين بن على على ابن مرجانه (١) ، فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ، ثم أتوا بكم على الأقتاب بغير أوطئة كالسبى المجلوب ، إلى الشام (٢) ، ثم خرج منكم غير واحد فقتلكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه ، ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك فى أدبار الصلاة المكتوبة كما تلعن الكفرة ، فعنفناهم وكفرناهم وبينا فضله وأشدنا بذكره ، فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا لما ذكرنا من فضل على أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر ، كل أولئك مضوا سالمين مسلماً منهم وابتلى أبوك بالدماء ، ولقد علمت أن مآثرنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم ، وكانت للعباس دون أخوته ، فنازعنا فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر عليه ، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس من عمومته أحد حياً إلا العباس فكان وارثه دون بنى عبد المطلب ، وطلب الخلافة غير واحد من بنى هاشم ، فلم ينلها إلا ولده ، فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، وبنوه القادة الخلفاء ، فقد ذهب بفضل القديم والحديث : ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها لمات عماك طالب وعقيل جوعا ، أو يلحسا

---

(١) هو عبيد الله بن زياد بن أبيه ، ومرجانة أمه .

(٢) الأقتاب جمع قتب وهو الرحل على قدر السنام ، والأوطئة جمع وطاء وهو ما يقابل الغطاء .

جفان عتبة وشيبة [١] ، فأذهب عنهما العار والشنار ، ولقد جاء الإسلام والعباس يمون أبا طالب للأزمة التى أصابتهم ، ثم فدى عقيلا يوم بدر [٢] ، فقد منا كم فى الكفر وفديناكم من الأسر ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحزنا شرف الآباء ، وأدركنا من ثأركم ما عجزتم عنه ، ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام .

٤ — وكتب عبد الله بن المقفع « المتوفى سنة ١٤٣ » إمام الطريقة الكتابية فى العصر العباسى الأول « طريقة الترسل » فى التعريف بكتاب كليلة ودمنة ، فكان مما كتب فى أول باب عرض الكتاب : وهو من إنشائه .

هذا كتاب كليلة ودمنة ، وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التى ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول فى النحو الذى أرادوا ، ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم ، ويحتالون فى ذلك بصنوف الحيل ، ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل ، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير ، فاجتمع لهم بذلك خلال ، أما هم فوجدوا متصرفا فى القول وشعابا يأخذون منها ، وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوا ، فاختاره الحكماء لحكمته ، والسفهاء للهوه ، والمتعلم من الأحداث ناشط فى حفظ ما صار إليه من أمر يربط فى صدره ولا يدرى ما هو ، بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم ، وكان

---

(١) يؤيد الكرة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر « من لقى منكم العباس فلا يقتله فإنه أخرج كارها » وطالب وعقيل ابنا أبى طالب أسرا يوم بدر ، فكانا من الآكلين على جفان العباس وكان يطعم يوم بدر ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة كانا من المطعمين لقريش يوم بدر أيضاً .

(٢) كما فدى نوفل بن الحارث أيضاً ، أما طالب فقدى نفسه .

كالرجل الذى لما استكمل الرجولية وجد أبويه قد كنزا له كنوزاً وعقداً له عقوداً ، استغنى بها عن الكدح فيما يعمله من أمر معيشته فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب .

٥ — ومما كتب فى الدرة اليتيمة وهى رسالة دونها للخليفة المنصور فى وجوب طاعة الناس لبنى هاشم ، ويسميها الجاحظ الهاشمية ، قوله على ما ذكر أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ فى كتابه المنثور والمنظوم (١) .

فتفكروا فيما جمع الله لأمير المؤمنين فى معدنه وفى سيرته ، وفيما ظاهر عليكم من النعمة والحق والحجة بذلك ، وفيما عسى لقائل أن يبتغى فيه الغمز والمقال ، فلعمرى إن للشيطان من أهواء الناس وألسنتهم فى الأمر لنصيباً وإن له لمستراحا حين يستوفيهم أمنيته ويصدق عليهم ظنه ويوحى إليهم بمكايده ، فجعل الله كيده ضعيفاً وحزبه مغلوباً ، وجعله وإياهم نصيباً لجهنم من أجزائها المقسومة لأبوابها وحطبها ووقودها وحصبها ليعدل لها . فمن كان سائلا عن حق أمير المؤمنين فى معدنه ، فإن أعظم حقوق الناس منزلة وأكرمها نسبة ، وأولاها بالفضل ، حق رسول الله صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة وإمام الهدى ووارث الكتاب والنبوة والمهيمن عليهما وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بعثه الله بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا ، ثم هو باعثه يوم القيامة مقاماً محموداً ، شرع الله

---

(١) الدرة اليتيمة مفقودة الآن ، ولم تعرف إلا بالتنبيه عنها أو النقل منها فى بعض الكتب ، وأما الرسالة المطبوعة باسمها فى بيروت فهى الأدب الكبير ، أخذ اسم الدرة اليتيمة خطأ ، لأن مشتملاتها لا تتفق وما تذكر تلك الكتب عن مشتملات الدرة بل تتفق مع مشتملات الأدب الكبير المنوه عنها فى كثير من الكتب وهى السلطان ثم الصديق .

له دينه وأتم به نوره ، ومحق به رءوس الضلالة وجبابرة الكفر ، وخوله الشفاعة وجعله فى الرفيق الأعلى صلى الله عليه وسلم .

٦ — ومما كتب فى رسالة الصحابة وهى رسالة دونها للخليفة المنصور أيضاً ، لتكون دستوراً فيما يجب على كل ذى مصاحبة للسلطان فى عمل ، نحو هذا العمل حتى يحسن القيام به ، قوله من أولها :

أما بعد ، أصلح الله أمير المؤمنين وأتم عليه النعمة وألبسه المعافاة والرحمة ، فإن أمير المؤمنين حفظه الله يجمع مع علمه ، المسألة والاستماع ، كما كان ولاة الشر يجمعون مع جهلهم العجب والاستغناء ، ويستوثق لنفسه بالحجة ، ويتخذها على رعيته فيما يلطف له من الفحص على أمورهم ، كما كان أولئك يكتفون بالدعة ، ويرضون بدحوض الحجة وانقطاع العذر ، فى الامتناع أن يجترىء عليهم أحد برأى أو خبر ، مع تسليط الذئاب ؛ وقد عصم الله أمير المؤمنين حين أهلك عدوه وشفى غليله ، ومكن له فى الأرض وآتاه ملكها وخزائنها ، من أن يشغل نفسه بالتمتع والتفيش[1] ، والتأثل والأخلاء ، وأن يرضى ممن آوى منهم بالمتاع به وقضاء حاجة النفس منه ، وأكرم الله أمير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغاره إياه ، وذلك من أبين علامات السعادة وأنجح العوامل على الخير . وقد قص الله عز وجل علينا من نبأ يوسف بن يعقوب أنه لما تمت نعمة الله عليه وآتاه الملك وعلمه من تأويل الأحاديث ، وجمع له شمله وأقر عينه بأبويه وإخوته ، أثنى على الله عز وجل بنعمته ، ثم سلا عما كان فيه ، وعرف أن الموت وما بعده هو أولى فقال « توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين » . وفى الذى قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجع ذا الرأى على تناوله بالخبر فيما ظن أنه لم يبلغه إياه غيره ، وبالتذكير بما قد إنتهى إليه ، ولا يزيد صاحب

---

(١) التفيش هو إدعاء المفاخر باطلا .

الرأى على أن يكون مخبرا أو مذكرا ، وكل عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله .

٧ ، ٨ — ومما كتب فى الأدب الكبير وقد جعل بابه الأول فى السلطان والثانى فى الصديق ، وهو الكتاب المطبوع باسم الدرة اليتيمة خطأ كما تقدم ، قوله فى أول الباب الأول بعد الديباجة .

إن ابتليت بالأمارة فتعوذ بالعلماء ، واعلم أن من العجب أن يبتلى الرجل بها ، فيريد أن ينتقص من ساعات نصبه وعمله فيزيدها فى ساعات دعته وشهوته ، وإنما الرأى له والحق عليه أن يأخذ لعمله من جميع شغله ، فيأخذ من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولهوه ونسائه . فإذا تقلدت شيئاً من الأعمال ، فكن فيه أحد رجلين ، إما رجلا مغتبطاً به محافظاً عليه مخافة أن يزول عنه ، وإما رجلا كارها فالكاره عامل فى سخرة إما للملوك إن كانوا هم سلطوه ، وإما لله إن كان ليس فوقه غيره . وإياك إذا كنت والياً أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية ، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلمة من الثلم يتقحمون عليك منها ، وبابا يفتتحونك منه وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منها ، واعلم أن قابل المدح كمادح نفسه ، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده فأن الراد له محمود والقابل له معيب .

ثم قوله فى آخر الباب الثانى يصف صاحباً له :

إنى مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس فى عينى ، وكان رأس ما أعظمه عندى صغر الدنيا فى عينه ، وكان خارجاً من سلطان بطنه ، فلا يشتهى مالا يجد ولا يكثر إذا وجد . وكان خارجاً من سلطان فرجه ، فلا يدعوه إلى مئونة ولا يستخف له رأياً ولا بدناً . وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم إلا على ثقة أو منفعة . وكان أكثر دهره صامتاً فإذا قال بذ القائلين وكان يرى متضاعفاً مستضعفاً . فإذا جاء الجد فهو الليث عادياً . وكان لا يدخل فى دعوى ولا يشترك فى مراء ولا يدلى بحجة حتى يجد قاضياً

عدلا وشهودا عدولا . وكان لا يلوم أحدا على ما قد يكون العذر فى مثله حتى يعلم ما اعتذاره . وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء ، ولا يصحب إلا من يرجو عنـــده النصيحة لهما جميعاً . وكان لا يتبرم ولا يتسخط ، ولا يتشهى ولا يتشكى ، ولا ينتقم من المولى ولا يغفل عن العدو ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه بحيلته وقوته ، فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

٩ — ومما كتب فى الأدب الصغير وهو آداب منثورة فى غير موضوع قوله عن صناعة الكتابة :

ومن أخذ كلاما حسناً عن غيره فتكلم به فى موضعه وعلى وجهه فلاترين عليه فى ذلك ضئولة ، فإنه من أعين على حفظ كلام المصيبين وهدى للاقتداء بالصالحين ، ووفق للأخذ عن الحكماء ولا عليه أن يزداد ، فقد بلغ الغاية ، وليس بناقصه فى رأيه ولا غامطه من حقه ألا يكون هو استحدث ذلك وسبق إليه ، فإنما إحياء العقل الذى يتم به ويستحكم ، خصال سبع . الأيثار بالمحبة ، والمبالغة فى الطلب ، والتثبت فى الاختيار ، والاعتقاد للخير ، وحسن الوعى ، والتعهد لما اختبر واعتقد ، ووضع ذلك موضعه قولا وعملا .

١٠ — وكتب إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة .

أما بعد فإن من قضى الحوائج لأخوانه . واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لا لهم ، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره ، فهو زرع لا بد لزراعه من حصاده أو لعقبه من بعده ، وكتبت إليك ولحالنا التى نحن بها فيما نذكر لك حاجة ، أول ما فيها معروف تستوجب به الشكر علينا ، وتدخر به الأيادى قبلنا .

١١ — وكتب إلى بعض أصدقائه وقد تفارقا يخبره ويستخبره . كان

من خبرى بعدك أنى قدمت بلد كذا فتهيأ لى بعض ماشخصت له ، والمحمود على ذلك الله عز وجل ، وأنا إلى أن يأتينى خبرك محتاج ، فأما جملة خبرى فى فراقك ، فقلبى مكة كل ما سواك حرام فيها .

١٢ — وكتب إلى صديق ولدت له جارية .

بارك الله لكم فى الابنة المستفادة وجعلها لكم زينا وأجرى لكم بها خيراً . فلا تكرهها فإنهن الأمهات والأخوات والعمات ومنهن الباقيات الصالحات ، ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم ، ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم .

١٣ — وكتب يعزى صديقاً عن بنت له .

جدد الله لك من هبته ما يكون خلفا لك عما رزئته ، وعوضاً من المصيبة به ، ورزقك من الثواب عليها أضعاف ما رزأك منها فما أقل كثير الدنيا فى قليل الآخرة مع فناء هذه ودوام تلك .

١٤ — وكتب يعزى من ولد .

إنما يستوجب على الله وعده من صبر لله بحقه ، فلا تجمعن إلى ما فجعت به من ولدك الفجيعة بالأجر عليه والعوض منه ، فأنها أعظم المصيبتين عليك وأنكى المرزئتين لك ، أخلف عليك بخير وذخر لك جزيل الثواب .

١٥ — وكتب أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنىء بمولود .

أما بعد فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سروراً إلا كنت به بهجا ، أعتد فيه بالنعمة من الله الذى أوجب على من حقك وعرفنى من جميل رأيك ، فزادك الله خيراً وأدام إحسانه إليك . وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاما سريا أجمل صورته وأتم خلقه وأحسن فيه البلاء عندك فاشتد سرورى بذلك وأكثرت حمد الله عليه فبارك الله فيه وجعله بارا تقيا يشد عضدك ويكثر عددك ويقر عينك .

١٦ — وكتب عمرو بن مسعدة وزير المأمون عن لسانه إلى الحسن ابن سهل يهنئه بولود .

أما بعد فإن هبة الله لك هبة لأمير المؤمنين ، وزيادته إياك فى عددك زيادة له فى عدده ، لمحلك عنده ومكانك من دولته ، وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاما سريا فبارك الله لك فيه وجعله باراً تقياً مباركا سيداً زكيا .

١٧ — وكتب طاهر بن الحسين وزير المأمون إلى نصر بن شبث حين قويت شوكته وهزم جيوش الخلافة .

أما بعد فإنك يانصر بن شبث قد عرفت الطاعة وعزها وبرد ظلها وطيب مرتعها ، وما فى خلافها من الندم والخسارة . وإن طالت مدة الله بك ، فإنه إنما يملى لمن يلتمس مظاهرة الحجة عليه ، لتقع غيره بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم . وقد رأيت إذ كارك وتبصيرك لما رجوت أن يكون لما أكتب به إليك موقع منك ، فإن الصدق صدق والباطل باطل ، وإنما القول بمخارجه وأهله الذين يعنون به . ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك منى فى مالك ودينك ونفسك ، ولا أحرص على إنقاذك والانتياش لك [١] ، من خطئك منى ، فبأى أول أو آخر أو ساطة أو إمرة إقدامك يانصر على أمير المؤمنين ، تأخذ أمواله وتتولى دونه ما ولاه الله ، وتريد أن تبيت آمنا مطمئناً أو وادعا ساكنا أو هادئا ، فهو عالم السر والجهر ، لئن لم تكن للطاعة مراجعاً وبها خانعا لتستوبلن وخم العاقبة [٢] ، ثم لأبدأن بك قبل كل عمل ؛ فأن قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت فتنة فى الأرض وفساداً كبيراً ، أما لأطأن بمن معى من أنصار الدولة كواهل رعاع أصحابك ومن تأشب إليك [٣] ، من أدانى

---

(١) انتاشه أنقذه . (٢) لتجدن العاقبة وبيلة وخيمة . (٣) التف بك .

البلدان وأقاصيها وأوباشها ، ومن انضوى إلى حوزتك من خراب الناس ، ومن لفظه بلده ونفته عشيرته لسوء موضعه فيهم ، وقد أعذر من أنذر والسلام .

١٨ — وكتب محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم عن لسان الخليفة إلى أحد العمال .

أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره ، ولاتخلو من إحدى منزلتين ليس فى واحدة منهما عذر يوجب حجه ولايزيل لائمة ، إما تقصير فى عملك دعاك للاخلال بالحزم والتفريط فى الواجب ، وإما مظاهرة لأهل الفساد ومداهنة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت منك محلة النكر بك وموجبة العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة والأخذ بالحجة ، والتقدم فى الاعتذار والأنذار ، وعلى حسب ما أقلت من عظيم العثرة يجب اجتهادك فى تلافى التقصير والأضاعة والسلام .

١٩ — وكتب إلى إبراهيم بن العباس الصولى أيام مقامه بالأهواز فى تقصيره بنفسه يقول :

قلة نظرك لنفسك حرمتك سناء المنزلة ، وإغفالك حظك حطك عن الدرجة ، وجهلك بقدر النعمة أحل بك اليأس والنقمة ، حتى صرت من قوة الأمل معتاضا شدة الوجل ، ومن رجاء الغد متعوضا يأس الأبد ، وركبت مطيه المخافة بعد مجلس الأمن والكرامة ، وصرت معرضا للرحمة بعد ما اكتنفتك الغبطة ، وقد قال الشاعر :

إذا ما بدأت امرأ جاهلا ببر فقصر عن حمله
ولم تره قابلا للجميل ولا عرف الفضل من أهله
فسمه الهوان فإن الهوان دواء لذى الجهل من جهله

وقد فهمت كتابك وإغراقك وإطنابك ، وإضافة ما أضفت بتزويق الكتب بالأقلام ، وفى كفاية الله غنى عنك يا إبراهيم وعوض منك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٢٠ — وكتب إبراهيم بن العباس الصولى إلى ذى نعمة يتوصل : لا أزال أبقاك الله أسأل الكتاب إليك ، فمرة أتوقف توقف المخفف عنك من المئونة ، ومرة أكتب كتاب الراجع منك إلى الثقة والمعتمد منك على المقيل ، لا أعدمنا الله دوام عزك ولا سلب الدنيا بهجتها بك ولا أخلانا من الصنع لك ، فأنا لا نعرف إلا نعمتك ولا نجد للحياة طعما إلا فى ظلك ، ولئن كانت الرغبة إلى بشر من الناس خساسة وذلا ، لقد جعل الله الرغبة إليك كرامة وعزا ، لأنك لا تعرف حرا قعد به دهره إلا سبقت مسألته بالعطية ، وصنت وجهه عن الطلب والذلة .

٢١ — وكتب أبو عثمان عمرو الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ إمام الطريقة الكتابية فى العصر العباسى الثانى « طريقة الازدواج » من رسالة فى مدح التجار وذم عمل السلطان ، بعد أن ذكر احتجاج حشوة الاتباع يقول :

وهذا الكلام لا يزال ينجم من حشوة أتباع السلطان (١) ، فأما عليتهم ومصاصهم (٢) ، وذوو البصائر والتمييز منهم ، ومن فيقته الفطنة وأرهقه التأديب وأرهفه طول التفكير ، وجرى فيه الحياء ، وأحكمته التجارب ، فعرف العواقب ، وأحكم التفصيل وأنطلق غوامض التحصيل ، فإنهم يعترفون بفضيلة التجار ويتمنون حالهم ، ويحكمون لهم بسلامة الدين وطيب الطعمة ، ويعلمون أنهم أورع الناس أبد وأهنؤهم عيشا وآمنهم سربا ، لأنهم فى أفنيتهم كالملوك على أسرتهم ، يرغب إليهم أهل الحاجات وينزع إليهم ملتمسو البياعات (٣) ، لا تلحقهم الذلة فى مكاسبهم ، ولا يستعبدهم الضرع لمعاملاتهم ، وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه وقاربه بخدمته ، فإن أولئك لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم ممن هم لهم خول مملوءة ، قد لبسها الرعب وألفها الذل ، وصحبها ترقب الاحتياج ، فهم من هذا

---

(١) توابع البطانة . (٢) مصاص كل شىء خالصه . (٣) السلع .

فى تكدير وتنغيص خوفا من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب وتغيير الدول واعتراض حلول المحن ، فان هى حلت بهم وكثيراً ما تحل فناهيك بهم مرحومين يرق لهم الأعداء فضلا عن الأولياء ، فكيف لا يميز بين من هذا ثمرة اختياره وغاية تحصيله ، وبين من قد نال الوفاء عنه والدعة وسلم من البوائق مع كثرة الأثراء وقضاء اللذات من غير منة لأحد ولامنة يعتدبها . وكم بين من هو من نعم المفضلين خلى وبين من قد استرقه المعروف واستعبده الطمع ولزمـــه ثقل الصنيعة وطوق عنقه الامتنان واسترهن بتحمل الشكر .

٢٢ — ومن كلامه يصف الكتاب .

الكتاب — نعم الذخر والعقدة ، ونعم الجليس والعمدة ، ونعم النشرة والنزهة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل والزميل ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء ملىء علماً وظرف حشى ظرفا وإناء شحن مزاحا ، إن شئت كان أعيا من باقل وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل ، وإن شئت سرتك نوادره وشجتك مواعظه . ومن لك بواعظ مله وبناسك فاتك وناطق أخرس . ومن لك بطبيب أعرابى ورومى هندى وفارسى يونانى ونديم مولد ونجيب ممتع ، ومن لك بشىء يجمع الأول والآخر والناقص والوافر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والغث والسمين والشكل وخلافه والجنس وضده ، وبعد فما رأيت بستاناً يحمل فى ردن وروضة تنقل فى حجر وناطقاً ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى ، آمن من فى الأرض وأكتم للسر من صاحب السر ، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة . ولا أعلم جاراً آمن ، ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية ، ولا أقل إملالا ولا إبراما ، ولا أبعد من مراء ولا أترك لشغب ، ولا أزهد فى جدال ، ولا أكف عن

قتال من كتاب ، ولا أعم بياناً ولا أحسن مواتاة ، ولا أعجل مكافأة ، ولا شجرة أطول عمراً ولا أطيب ثمرا ، ولا أقرب مجتنى ولا أسرع إدراكا ، ولا أوجد فى كل إبان من كتاب ، ولا أعلم نتاجا فى حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده ، يجمع من السير العجيبة والعلوم الغريبة وآثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمعه كتاب . ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غبا ووروده خمسا ، وإن شئت لزمك لزوم ظلك وكان منك كبعضك . والكتاب هو الجليس الذى لا يطريك ، والصديق الذى لا يقليك ، والرفيق الذى لا يملك والمستمع الذى لا يستزيدك والجار الذى لا يستبطئك والصاحب الذى لا يريد استخراج ما عندك بالملق ، ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق ، والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجود بيانك وفخم ألفاظك وبجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك ، يطيعك بالليل طاعته بالنهار وفى السفر طاعته فى الحضر ، وهو المعلم إن افتقرت إليه لم يحقرك ، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة ، وإن عزلت لم يدع طاعتك وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك ، ومتى كنت متعلقا منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء ، وإن أمثل ما يقطع به الفراغ نهارهم وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم نظر فى كتاب ، لا يزال لهم فيه ازدياد فى تجربة ، وعقل ومروءة وصون عرض وإصلاح دين وتثمير مال ورب صنيعة [١] وابتداء إنعام ، ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر إلى المارة بك [٢] مع ما فى ذلك من التعرض للحقوق التى

---

(١) رب الصنيعة تربيتها . (٢) المارة جماعة المارين . جمع مار

تلزم ، ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس ، ومن حضور ألفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الردية وجهالتهم المذمومة ، لكان فى ذلك السلامة والغنيمة ، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع ، ولو لم يكن فى ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى واعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما تشتهيه ، لقد كان له فى ذلك على صاحبه أسبغ النعم وأعظم المنن ، وجملة الكتاب وإن كثر ورقه فليس مما يمل لأنه وإن كان كتابا واحدا فإنه كتب كثيرة فى خطابه والعلم بالشريعة والأحكام والمعرفة بالسياسة والتدبير .

٢٣ — ومن كلامه فى محاسن الضحك ومنافعه وقد ساقه إليه الاستطراد فى مقدمة كتابه البخلاء .

وإذا كان البكاء ما دام صاحبه فيه فانه فى بلاء ، وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ ، ودل على السخف وقضى على صاحبه بالهلع ، وشبه بالأمة اللكعاء (١) وبالحدث الضرع كذلك (٢) ، فما ظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه فى غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه ، ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة والحلى والقصر كأنه يضحك ضحكا ، وقد قال الله جل ذكره « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا » فوضع الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت ، وإنه لا يضيف إلى نفسه القبيح ولا يمن على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ومن مصلحة الطباع كبيرا وهو شىء فى أصل الطباع وفى أساس التركيب ؛ لأن الضحك أول خير يظهر من الصبى ، وقد تطيب به نفسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذى هو علة سروره ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وبيسام وبطلق وبطليق . وقد ضحك النبى صلى الله عليه وسلم وفرح

---

(١) اللئيمة الحمقاء (٢) المستكين

وضحك الصالحون وفرحوا ، وإذا مدحوا قالوا هو ضحوك السن وبسام العشيات وهش إلى الضيف وذو أريحية واهتزاز ، وإذا ذموا قالوا هو عبوس وهو كالح وهو قطوب وهو شتيم المحيا (١) وهو مكفهر أبدا وهو كريه الوجه ومقبض الوجه وحامض الوجه وكأنما وجهه بالخل منضوح . وللضحك موضع وله مقدار وللمزح موضع وله مقدار ، متى جازهما أحد أو قصر عنهما أحد ، صار الفاضل خطلا والتقصير نقصا ، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر ، ومتى أريد بالمزح النفع وبالضحك الشيء الذى جعل له الضحك صار المزح جدا والضحك وقارا .

٢٤ — وكتب إلى الفتح بن خاقان فى يوم عيد مهنئا :

أخرتنى العلة عن الوزير « أعزه الله » ، فحضرت بالدعاء فى كتابى لينوب عنى ويعمر ما أخلته العوائق منى ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير ، ودون الأعياد المستقبلة فيما يحب ويحب له ، ويقبل ما توسل به إلى مرضاته ، ويضاعف الأحسان إليه على الأحسان منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية ، ولا يريه فى مسرة نقصا ولا يقطع عنه مزيدا ، ويجعلنى من كل سوء فداءه ، ويصرف عيون الغير عنه وعن حظى منه .

٢٥ — وكتب إلى قليب المغربى معاتبا :

والله يا قليب لولا أن كبدى فى هواك مقروحة ، وروحى بك مجروحة لساجلتك هذه القطيعة ومادتك حبل المصارمة ، وأرجو الله تعالى أن يديل صبرى من جفائك ، فيردك إلى مودتى وأنف القلى راغم ، فقد طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند اللقاء .

٢٦ — وكتب مستنجزا عدة طال مطلها

---

(١) كريه الوجه .

أما بعد فقد رسفنا فى قيود مواعيدك ، وطال مقامنا فى سجون مطلك ، فأطلقنا أبقاك الله من ضيقها وشديد غمها ، بنعم منك مثمرة أو لا مريحة .

٢٧ — وكتب الحسن بن وهب المتوفى سنة ٢٦٥ فى الشكر :

من شكرك على درجة رفعته اليها أو ثروة أفدته إياها ، فان شكرى لك على مهجة أحييتها وحشاشة أبقيتها ورمق أمسكت به وقمت بين التلف وبينه . فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهى إليه ، ومدى يوقف عنده ، وغاية من الشكر يسمو إليها الطرف ، خلا هذه النعمة التى قد فاقت الوصف وأطالت الشكر وتجاوزت قدره وأنت من وراء كل غاية . رددت عنا كيد العدو وأرغمت أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل وكنف كريم ، فكيف يشكر الشاكر ، وأين يبلغ جهد المجتهد .

٢٨ — وكتب أبو الحسن على بن العباس الرومى المتوفى سنة ٢٨٢ مستعطفا

ترفع عن ظلمى إن كنت بريئا ، وتفضل بالعفو إن كنت مسيئا ، ووالله إنى لأطلب عفو ذنب لم أجنه ، وألتمس الإقالة مما لا أعرفه ، لتزداد تطولا وأزداد تذللا ، وأنا أعيذ حالى عندك بكرمك من واش يكيدها ، وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها ، وأسأل الله تعالى أن يجعل حظى منك بقدر ودى لك ، ومحلى من رجائك بحيث أستحق منك .

٢٩ — وكتب عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ إلى عليل يرجو شفاءه :

أذن الله فى شفائك ، وتلقى دائك بدوائك ، ومسح بيد العافية عليك . ووجه وفد السلامة إليك ، وجعل علتك ماحية لذنوبك مضاعفة لثوابك .

٣٠ — وله يذكر كيف يكون اكتساب المحامد واستيجاب الشرف :

لن تكسب « أعزك الله » المحامد وتستوجب الشرف إلا بالحمل على النفس والحال ، والنهوض بحمل الأثقال ، وبذل الجاه والمال . ولو كانت المكارم تنال بغير مئونة لاشترك فيها السفل والأحرار ، وتساهمها الوضعاء من ذوى الأخطار ، ولكن الله تعالى خص بها الكرماء الذين جعلهم أهلها

تخفف عليهم حملها وسوغهم فضلها ، وحظرها على السفلة لصغر أقدارهم عنها وبعد طباعهم منها ونفورها عنهم واقشعرارها منهم .

٣١ — وكتب أبو الفضل محمد بن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ إمام الطريقة الكتابية فى العصر العباسى الثالث « طريقة السجع » إلى عضد الدولة ، فى انقراض العلوم بتملك الجهلة الظالمين ، ونمائها بتملك العلماء العادلين ، رسالة كان من فصولها قوله

وقد يعد أهل التحصيل فى أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها وانتقاض مررها [1] ، والأحوال الداعية إلى ارتفاع حل الموجودة منها وعدم الزيادة فيها ؛ الطوفان بالنار والماء ، والموتان العارض من عموم الأوباء ، وتسلط المخالفين فى المذاهب والآراء ، فإن كل ذلك يخترم العلوم اختراما وينتهكها انتهاكا ويجتث أصولها اجتثاثاً . وليس عندى الخطب فى جميع ذلك يقارب ما يولده تسلط ملك جاهل تطول مدته وتتسع قدرته ، فإن البلاء به لا يعدله بلاء وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته ، والبلوى بمن هذه صورته ، تعظم النعمة فى تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذى أحله الله من الفضائل بملتقى طرفها ومجتمع فرقها ، وهى نور [2] ، نوافر بمن لا قت حتى تصير إليه ، وشرد نوازع حيث حلت حتى تقع عليه ، تتلفت إليه تلفت الوامق ، وتتشوف نحوه تشوف الصب العاشق ، وقد ملكتها وحشة المضاع وحيرة المرتاع .

فان تغش قوما بعده أو تزرهم فكالوحش يدنيها من الأنس المحل

٣٢ — وكتب عن ركن الدولة إلى بلكا بن ، نداد خورشد عند استعصائه عليه ، رسالة قامت فى رد غوايته مقام الكتائب ، يقول فيها على ما ذكر الثعالبى فى اليتيمه :

---

(١) جمع مرة وهى قوة الحبل وانتقاضها انفكاكها . (٢) جمع نوار وهى البقرة الوحشية .

كتابى وأنا متأرجح بين طمع فيك ويأس منك وإقبال عليك وإعراض عنك ، فانك تدلى بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول [١] وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يحبط أعمالك ويمحق كل ما يرعى لك ، لا جرم ، إنى وقفت بين ميل إليك وميل عليك ، أقدم رجلا لصدمك وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضنا بالنعمة عندك ، ومنافسة فى الصنيعة لديك ، وتأميلا لفيئتك وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك . فقد يغرب العقل ثم يثوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ويذهب الحزم ثم يعود ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأى ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة إلى رخاء وكل غمرة فالى انجلاء . وكما أتيت من إساءتك بما لم يحتسبه أولياؤك ، فلا بدع أن تأتى من إحسانك بمالا ترتقبه أعداؤك ، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت واخترت ما اخترت ، فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت وسوء ما آثرت ، وسأقيم على رسمى فى الأبطاء والمماطلة ما صلح ، وعلى الاستيناء [٢] والمطاولة ما أمكن ، طمعا فى إنابتك وتحكيما لحسن الظن فيك ، فاست أعدم فيما أظاهره من إعذار وأرادفه من إنذار ، احتجاجا عليك واستدراجا لك ، فان يشأ الله يرشدك ، ويأخذ بك إلى حظك ويسددك ، فإنه على كل شىء قدير وبالأجابة جدير

وزعمت أنك فى طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها وحلبت شطريها ، فنشدتك الله لما صدقت عما سألتك . كيف وجدت ما نزلت عنه ؟ وكيف تجد ما صرت إليه ؟ ألم تكن

---

(١) الغلول كالأغلال الخيانة (٢) الانتظار

من الأول فى ظل ظليل ونسيم عليل وريح بليل وهواء ندى وماء روى ومهاد وطى وكن كنين ومكان مكين وحصن حصين ، يقيك المتالف ، ويؤمنك المخاوف ، ويكنفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من طوارق الحدثان ، عززت به بعد الذلة وكثرت بعد القلة وارتفعت بعد الضعة وأيسرت بعد العسرة وأثريت بعد المتربة واتسعت بعد الضيقة ، وظفرت بالولايات وخفقت فوقك الرايات ووطىء عقبك الرجال وتعلقت بك الآمال وصرت تكاثر ويكاثر بك ، وتشير ويشار إليك ، ويذكر على المنابر اسمك وفى المحاضر ذكرك ، ففيم الآن أنت من الأمر وما العوض عما عددت والخلف بما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ونفضت منها كفك وغمست فى خلافها يدك ؟ وما الذى أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ أظل ذو ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب ؟ قل نعم كذلك ، فهو والله أكتف ظلالك فى العاجلة وأروحها فى الآجلة إن أقمت على المحايدة والعنود ووقفت على المشاقة والجحود . تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابى إليك فستنكرها ، والمس جسدك وانظر هل يحس ، واجسس عرقك هل ينبض ، وفتش ما انحنت عليه أضلاعك هل تجد فيه قلبك ؟ وهل حلا بصدرك أن تظفر بفوت سريع أو موت ، مريح ، ثم قس غائب أمرك بشاهده وآخر شأنك بأوله .

٣٣ ـ وكتب الى أبى عبد الله الطبرى فى الشوق

كتابى إليك وأنا بحال لو لم ينغصها الشوق اليك ولم يرنق صفوها النزوع نحوك ، لعددتها من الأحوال الجميلة ، وأعددت حظى منها فى النعم الجليلة . فقد جمعت فيها بين سلامة عامة ونعمة تامة ، وحظيت منها فى جسمى بصلاح وفى سعيي بنجاح . لكن ما بقى أن يصفو لى عيش مع بعدى عنك ، ويخلو ذرعى مع خلوى منك ، ويسوغ لى مطعم ومشرب مع انفرادى دونك ، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى وناظم لشمل أنسى ، وقد حرمت رؤيتك وعدمت مشاهدتك ، وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع

أنس بيت بلا نظام . وقد قرأت كتابك جعلنى الله فداءك فامتلأت سرورا بملاحظة خطك ، وتأمل تصرفك فى لفظك . وما أقراظهما فكل خصالك مقرظ عندى ، وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح فى ضميرى وعقدى ، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك ، فان كان كذلك وإلا فقد « غطى هواك وما ألقى على بصرى [1] »

٣٤ — وكتب إليه أبو القاسم إسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ الملقب بالصاحب لطول ما صاحبه ، جوابا عن كتابه إليه فى وصف البحر يقول .

وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادرا عن شط البحر ، يوصف ماشاهد من عجائبه وعاين من مراكبه ، ورأى من طاعة آلاته للرياح كيف أدارتها ، واستجابة أدواتها لها متى نادتها . وركوب الناس أشباحها والخوف بمرأى ومسمع ، والمنون بمرقب ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك ، والأرواح بين نجاة وهلك ، إذا فكروا فى المكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر ، وإذا لاحت لهم غرر المطالب الكثيرة حبب إليهم الغرر ، وعرفت ما قاله من تمنيه كونى عند ذلك بحضرته وحصولى على مساعدته ؛ ومن رأى بحر الأستاذ كيف يزخر بالفضل وتتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم ، لم يعتب على الدهر ، فيما يفيته من منظر البحر ، ولا فضيلة له عندى أعظم من إكبار الأستاذ لأحواله ، واستعظامه لأهواله ، كما لا شىء أبلغ فى مفاخره ، وأنفس فى جواهره ، من وصف الأستاذ له ، فانى قرأت منه الماء السلسال

---

(١) من قول عروة بن أذينة

قالت وأبثتها شجوى وبحت به ... قد كنت عندى تحب الستر فاستتر

ألست تبصر من حولى فقلت لها ... غطى هواك وما ألقى على بصرى

لا الزلال[١] والسحر الحرام لا الحلال ، وقد علمت أنه كتب ولما يخطر بفكره سعة صدره ، ولو فعل ذلك لرأى البحر وشلا لا يفضل عن التبرض وثمدا لا يكثر عن الترشف [٢]

وكم من جبال جبت تشهد أنك الـ جبال وبحر شاهد أنك البحر

٣٥ — وكتب إلى صديق أهدى إليه مصحفا فأجاد نعت القرآن والخط.

البر « أدام الله الشيخ » أنواع تطولى به أبواع ، فان يكن فيها ما هو أكرم منصبا وأشرف مسبا ، فتحفة الشيخ ، إذ أهدى مالا تشاكله النعم ولا تعادله القيم ، كتاب الله وبيانه وكلامه وفرقانه ، ووحيه وتنزيله ، وهداه وسبيله ، ومعجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودليله ، طبع دون معارضته على الشفاه ، وختم على الخواطر والأفواه ، فقصر عنه الثقلان ، وبقى ما بقى الملوان . لائح سراجه واضح منهاجه منير دليله عميق تأويله ، يقصم كل شيطان مريد ، ويذل كل جبار عنيد ، وفضائل القرآن لا تحصى فى ألف قرآن . فأصف الخط الذى بهر الطرف وفاق الوصف ، وجمع صحة الأقسام وزاد فى نخوة الأقلام ،[٣] بل أصفه بترك الوصف ، فأخباره آثاره وعينه قراره [٤] وحقا أقول إنى لا أحسب أحدا ما خلا الملوك جمع من المصاحف ما جمعت وابتدع فى استكتابها ما ابتدعت ، وإن هـذا المصحف لزائد على جميعها زيادة الفرعة على الغرة [٥] ، بل زيادة الحج على العمرة

لقد أهديتـه علقا نفيسا وما يهدى النفيس سوى النفيس

---

(١) الزلال الصافى السهل الأساغة ، والسلسال الذى لا ينقطع ، فهو يريد أنه قرأ السلسال لا الزلال وحده (٢) الوشل الماء القليل ، ولا يفضل عن التبرض : لا يزيد عن أن ينقطع بعد قليل أخذ ، والثمد الماء القليل غير المتصل ، ولا يكثر عن الترشف : لا يزيد عن أن يتناول بالأفواه .

(٣) فى نخرها (٤) معاينته قرار له بما أقول (٥) يريد زيادة الشعر على الجبهة

٣٦ — وكتب إبراهيم بن هلال بن هرون الصابى المتوفى سنة ٣٨٤ ، إلى الصاحب يعتذر له من تأخر كتبه عنه ، ويثنى عليه فقال :

أنا أعتذر إلى سيدى « أطال الله بقاءه » من تأخر كتبى عن حضرته الجليلة ، بعذر إذا تأمله حق تأمله ، وعرضه على نقده وتمييزه ، وعرف صدق منطقه وخلوص مصدره ، علم أننى مواصل بباطن مرادى وإن صرمت بظاهر فعلى ، وملازم بخافى مقصدى وإن أخللت ببادى مسلكى ، وهو أننى جربت مكاتبته « أيده الله » مواظبا عليها مكبا ، ومراخيا بين أوقاتها مغبا ، لأتبع أحب الأمرين اليه وأوقعهما لديه ، فلما لاح لى أن الاجمام أنفق والترفيه أرفق ، ووثقت بأن رأيه على فى الحالين محروس النواحى والجوانب ، محمى الشرائع والمشارب ، اقتصرت على أن أتعرف أخباره وأسر باستقامتها وانتظامها ، وأتنسم أحواله وأسكن إلى اطرادها والتئامها ، وأبتهج بما يصير اليه « أيده الله » من ذروة مرتبة يعتليها وغارب مرقبة يمتطيها ، وأنا أول المتحدثين عنهما والسامعين بهما ، على أنه لم يستوف بعد حظه ، ولم يستوعب قسطه ، فأن للدنيا مواعيـــد فيه ، لا بد أن ينتجزها بمساعيه .

٣٧ — ومن كتاب له عن عضد الدولة الى أخيه مؤيد الدولة ، إذ قبض على ذى الكفايتين على بن محمد بن العميد وكان أبوه صدر وزراء أبيهما ركن الدولة ، يستشفع له :

وهذا غلام أفسدته سجية ركن الدولة الشريفة فى شدة الاحتمال والصبر على الأدلال ، واجتمع له الى ذلك ، التقلب فى نعمة حازها حياز وارث لها ، لم يكدح فى تأثيلها ولامسه النصب فى تثميرها ، ولا اهتدى إلى طريق استيفائها ولا تحزن من طرق دواعى انتقالها ، ومن ألزم اللوازم فى حكم الرعاية ، أن نحفظه من سكر نعمة نحن سقيناه بكأسها ، وأن نعذره من هفوة قد شاركناه فى إيجاد أسبابها ، وأن تكون نفسه محروسة ، والبقية

من ماله بعد أخذ فضلها المفسد له متروكة ، وأن يتحدث الناس بأن سيدى الأمير أصاب غرض الحزم فى القبض عليه ثم طبق مفصل الكرم فى التجاوز عنه .

٣٨ — وكتب رسالة عن لسان صديق له بعث بها مع رسول إلى عظيم يخطب اليه كريمته جاء فيها :

ولو لم يكن للخاطب إلى المخطوب إليه سبب غير ابتدائه إياه بالثقة والتماس المشابكة ورضاه به شريكا مفوضا فى الولد واللحمة والمال والنعمة ، لكفاه وأجزاه ولأغناه عن كل ما سواه ، حتى إنه لو خطب الى زاهد لوجب عليه أن يرغب أوالى معتاص [١] للزمه أن ينقاد ، لأن هذا المطلب إذا صدر عن الأحرار إلى الأحرار استهجن عنه الرد والمقابلة له بصد ، فكيف وقد انتظمت بيننا دواعى الأجابة وارتفعت دواعى المدافعة ؟ وبالله جهد المقسم ، إن والدى « أيدهما الله تعالى » يسومانى التأهل منذ سنين كثيرة ، فأحمل نفسى على التقاعس عما آثراه مع ماافترض على من طاعتهما . اشتطاطا منى فى شرائط أحببت أن تجتمع لى فى الخبيئة [٢] التى أواصلها ، وقلما تتكامل إلا فيمن طهر الله أصله وجمل أمره وأظهر فضله . وقد دعانى بالدعاء الى ذلك كثير من الرؤساء الأكابر وذوى الأخطار الأفاضل ، بفارس والبصرة وبغداد ، فامتنعت من أجل شذوذ بعض شرائطى عليهم . حتى إذا أوجدنيها الله فى جهتك الجليلة وجمعها إلى فى منازلك المصونة ، بعثتنى البواعث وحفزتنى الحوافز إلى أن يتألف بيننا الشمل ويتصل بنا الحبل ، فكتبت اليك هذه الرقعة خاطبا كريمتك فلانة ، على أن أكون لها كالجفن الواقى لمقلته والصدر الحاوى لمهجته ، ولك كالولد المطيع لأبيه ، ولأخيها كالأخ العاضد لأخيه ، فان رأيت ياسيدى أن تتأمل ما كتبت به

---

(١) عاص ممتنع (٢) المخبوءة

من هذه الجملة وتسمع من موصلها ما تحمله عنى من تفصيلها ، وتتوخى بأجابتى إلى ما سألت تحقيق ظنى وتصديق أملى ، فعلت إن شاء الله

٣٩ — وكتب أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ بعد إبلاله[1]، من مرض ، يعاتب صديقاً لم يعده فى مرضه ولم يهنئه بشفائه،

كتابى وقد خرجت من البلاء خروج السيف من الجلاء وبروز البدر من الظلماء ، وقد فارقتنى المحنة وهى مفارق لا يشتاق إليه ، وودعتنى وهى مودع لا يبكى عليه ، والحمد الله تعالى على محنـــة يجليها ، ونعمة يفيلها ويوليها . كنت أتوقع أمس كتاب سيدى بالتسلية ، واليوم بالتهنئة . فلم يكاتبنى فى أيام البرحاء بأنها غمته ، ولا فى أيام الرخاء بأنها سرته ، وقد اعتذرت عنه إلى نفسى وجادلت عنه قلبى ، فقلت ، أما إخلاله بالأولى فلأنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها ، وأما تغافله عن الأخرى فلأنه أحب أن يوفر على مرتبة السابق إلى الابتداء ، ويقتصر بنفسه على محل الاقتداء ، لتكون نعم الله تعالى موقوفة من كل جهة عليه ومحفوفة من كل بيئة به ، فإن كنت أحسنت الاعتذار عن سيدى فليعرف لى حق الاحسان وليكتب إلى بالإستحسان ، وإن كنت أسأت فليخبرنى بعذره فإنه أعرف منى بسره ، وليرض منى بأنى حاربت عنه قلبى واعتذرت عن ذنبه حتى كأنه ذنبى ، وقلت يانفس اعذرى أخاك وخذى منه ما أعطاك ، فمع اليوم غد ، والعود أحمد .

٤٠ — وكتب إلى تلميذ له قطع زيارته بعد أن أتم تخريجه :

إن كنت « أعزك الله » لا ترانا موضعاً للزيارة فنحن فى موضع الاستزارة ، وإن كنت تعتقد أنك قد استوفيت ما كان لدينا فسقط حقنا عنك وبقى حقك علينا ، فقد يزور الصحيح الطبيب بعد خروجه من دائه واستغنائه عن دوائه ، وقد تجتاز الرعية على باب الأمير المعزول فتتجمل

---

(١) شفائه

له ولا تعيره عزله ، ولو لم تزرنا إلا لترينا رجحانك كما طالما رأينا نقصانك ، لكان ذلك فعلا صائباً وفى القياس واجباً .

٤١ — وكتب بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ إمام القصص « مع اجادة الرسائل » فى العصر الثالث إلى صديق هنأه بمرض الخوارزمى الذى عاداه بعد مناظرته إياه ، يقول :

الحر « أطال الله بقاءه » ولا سيما إذا عرف الدهر معرفتى ووصف أحواله صفتى ، إذا نظر علم أن نعم الدهر مادامت معدومة فهى أمانى فان وجدت فهى عوارى ، وأن محن الزمان وإن طالت فستنفد وإن لم تصب فكأن قد ، فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها فى نفسه ولا يعدمها فى جنسه ، والشامت إن أفلت فليس يفوت وإن لم يمت فسوف يموت ، وما أقبح الشماتة بمن أمن الأمانة ! فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة وعقب كل لفظة ، والدهر غرثان طعمه الأخيار وظمآن شربه الأحرار[1] ، وهل يشمت المرء بأنياب آكله أو يسر القاتل بسلاح قاتله ؟ وهذا الفاضل « شفاه الله » وإن ظاهرنا بالعداوة قليلا فقد باطناه ودا جميلا ، والحر عند الحمية لا يصطاد ، ولكنه عند الكرم ينقاد ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد . فلا تتصور حالى إلا بصورتها من التوجع لعلته والتحزن لمرضته ، وقاه الله المكروه بحوله ووقانى سماع السوء فيه بلطفه ، والسلام عليك ورحمة الله .

٤٢ — وكتب إلى بعض إخوانه . وقد أخبره بموت أبيه يعزيه ويحذره التبذير والتقتير .

وصلت رقعتك يا سيدى والمصاب لعمر الله كبير وأنت بالجزع جدير ولكنك بالعزاء أجدر ، والصبر عن الأحبة رشد كأنه الغى وقد مات

---

(١) الطعم بالكسر ما يطعم ، والشرب كذلك ما يشرب .

الميت فليحى الحى ، والآن فاشدد على مالك بالخمس فأنت اليوم غيرك بالأمس ، قد كان ذلك الشيخ « رحمه الله » وكيلك ، تضحك ويبكى لك ، وقد مولك بما ألف فى سراه وسيره ، وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره ، وسيعجم الشيطان عودك ، فإن استلانه رماك بقوم يقولون ، خير المال ما أتلف بين الشراب والشباب وأنفق بين الحباب والأحباب (١) ، والعيش بين الأقداح والقداح (٢) ، ولولا الاستعمال لما أريد المال ، فإن أطعتهم فاليوم فى الشراب وغداً فى الخراب ، واليوم واطربا للكاس وغدا واحربا من الأفلاس . يا مولاى ، ذلك الخارج من العود يسميه الجاهل نقراً والعاقل فقراً ، وذلك المسموع فى الناى هو الآن فى الآذان زمر وغداً فى الأبواب سمر (٣) ، والعمر مع هذه الآلات ساعة والقنطار فى هذا العمل بضاعة . فإن لم يجد الشيطان مغمزاً فى عودك من هذا الوجه رماك بآخرين يمثلون الفقر حذاء عينيك ، فتجاهد قلبك وتحاسب بطنك وتناقش عرسك وتمنع نفسك وتبوء فى دنياك بوزرك وتراه فى الآخرة فى ميزان غيرك ، لا ، ولكن قصداً بين الطريقين وميلا عن الفريين ، لا منع ولا اسراف فالبخل فقر حاضر وضير عاجل وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه ، فليكن لله فى مالك قسط وللمروءة قسم . صل الرحم ما استطعت ، وقدر إذا قطعت ، فلأن تكون فى جانب التقـــدير خير لك من أن تكون فى جانب التبذير .

٤٣ — وكتب أبو منصور عبد الملك الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ يهنىء بقدوم من سفر :

وأهنىء سيدى ونفسى تطيب بما يسر الله من قدومه سالماً ، وأشكر

---

(١) الحباب بالفتح فقاقيع الخمر ، والأحباب الأصحاب . (٢) الأقداح جمع قدح بالتحريك وهى الكأس ، والقداح جمع قدح بكسر فسكون وهو السهم للميسر والصيد ، والأول المراد . (٣) للمصادرة استيفاء للديون .

الله على ذلك شكراً دائماً . جعل الله قدومك مقروناً بالخيرة التامة العامة ، والكفاية الشاملة الكاملة . غيبة المكارم مقرونة بغيبتك وأوبة النعم موصولة بأوبتك ، فوصل الله قدومك من الكرامة بأضعاف ما قرن به سفرك من السلامة ، وهنأك بأيابك وبلغك غاية محابك . ما زلت بالنبأ معك مسافراً وباتصال الذكر والفكر ملاقياً . إلى أن جمع شمل سروري بأوبتك وسكن فرند قلبي بعودتك .

٤٤ — وكتب أبو محمد القاسم بن علي الحريري المتوفى سنة ٥١٦ إمام الطريقة الكتابية في العصر العباسي الرابع « التزام السجع مع استخدام البديع » إلى الرئيس أبي الفتح هبة الله بن الفضل بن صاعد بن التلميذ الكاتب ، في التعارف قبل اللقاء : —

جزى الله خيراً والجزاء بكفه ... بني صاعد أهل السيادة والمجد
هم ذكروني والمهامه بيننا ... كما ارفض غيث في تهامة في نجد

— ولو أخذت في وصف شغفي بمناقب سيدنا — أطال الله بقاءه ، وأدام علاءه ، وحرس نعماءه ، وكبت حساده وأعداءه — وما أنا بصدده من مدح سودده ، وشرح تطوله وتوده ، لكنت بمثابة المغترين ، في محاولة عد رمل يبرين . لكنني راج أن أحظى من ألمعيته الثاقبة ، وبصيرته الصائبة بما يمثل له عقيدتي ويطلعه على نخيلة مودتي ، وما أملك في مقابلة مفاتحته التي أخلصت له إيجاب الحق وفضيلة السبق ، إلا الثناء الذي أتلو صحائفه والدعاء الذي أقيم في كل وقت وظائفه ، والله سبحانه يحسن توفيقي لما يشيد مباني المودة التي أعتدها أفضل مقاني العدة . ثم إني لفرط اللهج باستملاء فضائله النيرة واستطلاع محاسنه المسيرة ، أسائل عن خصائصه الركبان ، وأطرب بسماعها ولا طرب النشوان . ولما حضر الشيخ الأديب الرئيس أبو القاسم بن الموز — أدام الله تمكينه — ألفيته موالياً مغالياً وداعية إليه وداعياً ، فازددت كلفاً بما وعيته منه وشغفاً بما استوضحته عنه ، واستدللت على كمال سيدنا باستخلاص شكر مثله ، وتحققت وفور أفضاله وفضله ،

فافتتحت المكاتبة بتأدية هذه الشهادة ، واستمداد سنة المواصلة المعتادة ، والتكرمة التى تقتضيها بواعث السيادة ، ولرأيه فى الوقوف على ما كتبته والتطول فيه بما توجبه أريحيته ، علوه إن شاء الله تعالى .

٤٥ — وكتب رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ فى التهنئة بالقدوم من سفره .

بلغنى إياب سيدى زانه الله بصنوف المعالى وصانه من صروف الليالى ، من سفرته الميمنة والتى أسفرت عن نيل المراد ، وتسهيل البغية إلى دار إقامته ومستقر كرامته ، لم يؤثر فيه نصب السير وعناؤه ، وكلال السفر ووعثاؤه ، فبلغ سرورى بذلك مبلغاً يضاهى ما كنت بصدده من الجزع لغيبته ، فحمدت الله تعالى على ما يسر له من الرجوع إلى مغانيه ، والطلوع على بلدة جر فيها ديول أمانيه ، وسألته جلت قدرته ، أن يجعل ما أنعم به عليه من قرب الدار ودنو المزار ، موصولا بطول العمر والبقاء مقرونا بدوام العز والعلاء ، إنه سميع الدعاء .

ب — فى القصص والمقامات[1]

سنكتفى فى هذا النوع من الإنشاء بنموذج من كل عصر لأمام من أئمة الكتابة فيه .

١ — قال ابن المقفع فى باب عرضه كتاب كليلة ومنة وهو من إنشائه :

ويجب على العاقل أن يصدق بالقضاء والقدر ، ويأخذ بالحزم ويحب للناس ما يحب لنفسه ، ولا يلتمس صلاح نفسه بفساد غيره ، فإنه من فعل ذلك ، كان خليقاً أن يصيبه ما أصاب التاجر من رفيقه فإنه يقال :

إنه كان رجل تاجر وكان له شريك فاستأجرا حانوتاً وجعلا متاعهما فيه ، وكان أحدهما قريب المنزل من الحانوت ، فأضمر فى نفسه أن يسرق عدلا من أعدال رفيقه ، ومكر الحيلة فى ذلك ، وقال إن أتيت ليلا لم آمن أن أحمل عدلا من أعدالى أو رزمة من رزمى ولا أعرفها فيذهب عنائى

---

(١) إنما انتقلنا إلى نماذج القصص والمقامات دون تمثيل للتوقيعات ، لأن إيجاز نماذجها حسن إلينا تركها إلى حيث الكلام عليها .

وتعبى باطلا ، فأخذ رداءه وألقاه على العدل الذى أضمر أخذه ثم انصرف إلى منزله ، وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله فوجد رداء شريكه على بعض أعداله فقال والله هذا رداء صاحبي ، ولا أحسبه إلا قد نسيه ، وما الرأى أن أدعه ها هنا ولكن أجعله على رزمه فلعله يسبقنى إلى الحانوت فيجده حيث يحب ، ثم أخذ الرداء فألقاه على عدل من أعدال رفيقه وأقفل الحانوت ومضى إلى منزله ، فلما جاء الليل أتى رفيقه ومعه رجل قد واطأه على ما عزم عليه ، وضمن له جعلا على حمله ، فصار إلى الحانوت فالتمس الأزار فى الظلمة فوجده على العدل فاحتمل ذلك العدل وأخرجه هو والرجل وجعلا يتراوحان على حمله حتى أتى منزله ورمى نفسه تعبا ، فلما أصبح افتقده فإذا هو بعض أعداله فندم أشد الندامة ، ثم انطلق نحو الحانوت فوجد شريكه قد سبقه إليه ففتح الحانوت ووجد العدل مفقودا ، فاغتم لذلك غما شديدا وقال واسوأتاه من رفيق صالح قد ائتمننى على ماله وخلفنى فيه ، ماذا يكون حالى عنده ولست أشك فى تهمته إياى ، ولكنى قد وطنت نفسى على غرامته ثم أتى صاحبه فوجده صاحبه مغتما فسأله عن حاله فقال : إنى قد افتقدت الأعدال وفقدت عدلا من أعدالك ولا أعلم بسببه وإنى لا أشك فى تهمتك إياى ، وإنى قد وطنت نفسى على غرامته ، فقال له يا أخى لا تغتم فان الخيانة شر ما عمله الانسان ، والمكر والخديعة لا يؤديان إلى خير وصاحبهما مغرور أبدا وما عاد وبال البغى إلا على صاحبه . وأنا أحد من مكر وخدع واحتال ، فقال له صاحبه وكيف كان ذلك ؟ فأخبره بخبره وقص عليه قصته . فقال له رفيقه : ما مثلك إلا مثل اللص والتاجر ، فقال له وكيف كان ذلك ؟ قال :

زعموا أن تاجرا كان له فى منزله خابيتان إحداهما مملوءة حنطة والأخرى مملوءة ذهبا ، فترقبه بعض اللصوص زمانا ، حتى إذا كان بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل فتغفله اللص ودخل المنزل وكمن فى بعض نواحيه ، فلما هم بأخذ الخابية التى فيها الدنانير أخذ التى فيها الحنطة وظنها التى فيها الذهب ،

ولم يزل فى كد وتعب حتى أتى بها منزله ، فلما فتحها وعلم ما فيها ندم . فقال له الخائن : ما أبعدت المثل ولا تجاوزت القياس ، وقد اعترفت بذنبى وخطئى عليك ، وعزيز على أن يكون هـذا كهذا ، غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء ، فقبل الرجل معذرته وأضرب عن توبيخه وعن الثقة به . وندم هو عندما باين من سوء فعله وتقديم جهله

٢ — وقال الجاحظ من قصة أهل البصرة عن المسجديين فى كتابه البخلاء :

قال أصحابنا من المسجديين : اجتمع ناس فى المسجد ممن ينتحل الاقتصاد فى النفقة والتنمية المال من أصحاب الجمع والمنع ، وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذى يجمع على التحاب ، وكالحلف الذى يجمع على التناصر ، وكانوا إذا التقوا فى حلقهم تذاكروا هـذا الباب وتطارحوه وتدارسوه التماسا للفائدة واستمتاعا بذكره .

فقال شيخ منهم : ماء بئرنا كما قد علمتم ملح أجاج لا يقربه الحمار ولا تسيغه الأبل وتموت عليه النخل ، والنهر منا بعيد وفى تكلف العذب علينا مئونة ، فكنا نمزج منه للحمار فاعتل منه وانتقض علينا من أجله ، فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفا وكنت أنا والنعجة[1] كثيرا ما نغتسل بالعذب مخافة أن يعترى جلودنا من الملح مثل ما اعترى جوف الحمار ، فكان ذلك الماء العذب الصافى يذهب باطلا ، ثم انفتح لى فيه باب من الأصلاح ، فعمدت إلى المتوضأ فجعلت فى ناحية منه حفرة وصهرجتها[2] وملستها حتى صارت كأنها صخرة منقورة ، وصوبت إليها السيل ، فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافيا لم يخالطه شئ ، والحمار لا تقزز له من ماء الجنابة ، وليس علينا حرج فى سقيه منه ، وما علمنا أن كتابا حرمه

---

(١) يعنى زوجته (٢) كصرجتها : طليتها بالصاروج وهو النورة وأخلاطها ،

ولا سنة نهت عنه ، فربحنا هذه منذ أيام وأسقطنا مئونة عن النفس والمال وهذا بتوفيق الله ومنه .

فأقبل عليهم شيخ فقال : اشتكيت أياما صدرى من سعال كان أصابنى ، فأمرنى قوم بالفانيد السكرى (١) ، وأشار على آخرون بالحريرة تتخذ من الشاهنج والسكر ودهن اللوز (٢) وأشباه ذلك ، فاستثقلت المئونة وكرهت الكلفة ، فبينا أنا أدافع الأيام إذ قال لى بعض الموفقين : عليك بماء النخالة فاحسه حارا ، فحسوت فإذا هو طيب جدا وإذا هو يعصم فما جعت ولا اشتهيت الغذاء فى ذلك اليوم إلى الظهر ثم ما فرغت من غدائى وغسل يدى حتى قاربت العصر ، فلما قرب وقت غدائى من وقت عشائى طويت العشاء وعرفت قصدى ، فقلت للعجوز لم لا تطبخين لعيالنا فى كل غداة نخالة فإن ماءها جلاء للصدور ، وقوتها غذاء وعصمة ثم تجففين بعد النخالة فتعود كما كانت فتبيعينها بمثل الثمن الأول وتكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين . قالت أرجو أن يكون الله قد جمع بهذا السعال مصالح كثيرة لما فتح الله لك بهذه النخالة التى فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك وما أشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق .

ثم اندفع شيخ منهم فقال . لم أر فى وضع الأمور مواضعها وفى توفيتها غاية حقوقها كمعاذة العنبرية : قالوا وما شأن معاذة ؟ قال أهدى إليها العام ابن عم لها أضحية (٣) فرأيتها كئيبة حزينة مفكرة مطرقة ، فقلت لها مالك يا معاذة ؟ قالت أنا امرأة أرملة وليس لى قيم ولا عهد لى بتدبير لحم الأضاحى وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ولست أعرف وضع جميع أجزائها فى أماكنها ، وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا فى غيرها شيئا لا منفعة فيه ، ولكن المرء

---

(١) معرب بانيد : ضرب من الحلوى (٢) الحريرة دقيق يطبخ بلبن أو دسم ويحلى ، والشاهنج دقيق البر (٣) شاة للتضحية

يعجز لا محالة ، ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر تضييع الكثير. أما القرن فالوجه فيه معروف وهو أن يجعل كالخطاف ويسمر فى جذع من جذوع السقف فتعلق عليه الزبل والكيران (١) وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان والحيات وغير ذلك . وأما المصران فأنه لأوتار المندفة (٢) وبنا إلى ذلك أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس واللحيان وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق (٣) ثم يطبخ فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللأدام والعصيدة ولغير ذلك ، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها فلم ير الناس وقودا قط أصفى ولا أحسن لهبا منه وإذا كانت كذلك فهى أسرع فى القدر لقلة ما يخالطها من الدخان . وأما الأهاب فالجلد نفسه جراب ، وللصوف وجوه لا تدفع . وأما الفرث والبعر فحطب إذا جفف عجيب . ثم قالت بقى الآن الانتفاع بالدم وقد علمت أن الله عز وجل لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه وأن له مواضع يجوز فيها ولا يمنع منها ، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به صار كية فى قلبى وقذى فى عينى وهماً لا يزال يعاودنى « قال الشيخ » ثم لم ألبث أن رأيتها قد تطلقت وتبسمت فقلت ينبغى أن يكون قد انفتح لك باب الرأى فى الدم قالت أجل ذكرت أن عندى قدورا شامية جددا وقد زعموا أنه ليس شىء أدبغ لها ولا أزيد فى قوتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم وقد استرحت الآن إذ وقع كل شىء موقعه ، قال ثم لقيتها بعد ستة أشهر فقلت لها كيف كان قديد تلك الشاة (٤) قالت بأبى أنت لم يجئ وقت القديد بعد ، لنا فى الشحم والألية (٥) والعظم المعرق وغير ذلك معاش ولكل

---

(١) الزبل ككتب جمع زبيل وهو القفة أو الجراب أو الوعاء والكيران جمع كير وهو زق ينفخ فيه الحداد (٢) المصران جمع مصير وهو المعى والمندفة آلة ندف القطن (٣) يؤكل ما عليه من اللحم (٤) لحمها المجفف (٥) ما ركب العجز من شحم ولحم

شيء إبان . فقبض صاحب الحمار والماء العذب قبضة من حصا ثم ضرب بها الأرض وقال ، لا تعلم أنك من المسرفين حتى تسمع بأخبار الصالحين

٣ — المقامة الأسدية للبديع :

حدثنا عيسى بن هشام قال. كان يبلغنى من مقامات الأسكندرى ومقالاته ما يصغى إليه النفور وينتفض له العصفور ، ويروى لنا من شعره ما يمتزج بأجزاء النفس رقة ويغمض عن أوهام السكهنة دقة ، وأنا أسأل الله بقاءه حتى أرزق لقاءه ، وأتعجب من قعود همته بحالته ، مع حسن آلته (١) ، وقد ضرب الدهر شئونه بأسداد دونه ، وهلم جرا ، إلى أن اتفقت لى حاجة بحمص ، فشحذت إليها الحرص ، فى صحبة أفراد كنجوم الليل ، أحلاس لظهور الخيل (٢) ، وأخذنا الطريق نلتهب مسافته ، ونستأصل شأفته ، ولم نزل نفرى أسنمة النجاد بتلك الجياد حتى صرن كالعصى ورجعن كالقسى ، وتاح لنا واد فى سفح جبـــل ذى آلاء وأثل (٣) ، كالعذارى يسرحن الضفائر وينشرن الغدائر ، ومالت الهاجرة بنا إليها ونزلنا نغور ونغور (٤) ، وربطنا الأفراس بالأمس ، وملنا مع النعاس ، فما راعنا إلا صهيل الخيل ونظرت إلى فرسى وقد أرهف أذنيه ، وطمح بعينيه ، يجذ قوى الحبل بمشافره ويخد خد الأرض بحوافره ، ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبوال وقطعت الحبال ، وأخذت نحو الجبال وطار كل واحد منا إلى سلاحه فإذا السبع فى فروة الموت قد طلع من غابه منتفخاً فى إهابه كاشراً عن أنيابه ، بطرف قد ملىء صلفاً ، وأنف قد حشى أنفاً وصدر لا يبرحه القلب ولا يسكنه الرعب ، وقلنا خطب ملم وحادث مهم ، وتبادر إليه من سرعان الرفقة فتى .

---

(١) استعداده فيما يزاول (٢) جمع حلس بالكسر وهو الملازم .

(٣) شجران ، فالآلاء الصفصاف والأثل الطرفاء (٤) نغور بالتضعيف نهبط ، ونغور ننام فى الغور .

أخضر الجلدة فى بيت العرب يملأ الدلو إلى عقد الكرب

بقلب ساقه قدر وسيف كله أثر (١) وملكته سورة الأسد فخانته أرض قدمه حتى سقط ليده وفمه ، وتجاوز الأسد مصرعه إلى من كان معه ، ودعا الحين أخاه بمثل ما دعاه ، فصار إليه وعقل الرعب يديه فأخذ أرضه وافترش الليث صدره ، ولكنى رميته بعمامتى ، وشغلت فمه حتى حقنت دمه ، وقام الفتى فوجأ بطنه (٢) ، وقد هلك الفتى من خوفه والأسد للوجأة فى جوفه ، ونهضنا فى أثر الخيل فتألفنا منها ما ثبت ، وتركنا منها ما أفلت ، وعدنا إلى الرفيق لنجهزه .

فلما حثونا الترب (٣) فوق رفيقنا جزعنا ولكن أى ساعة مجزع

وعمدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها وسرنا ، حتى إذا ضمرت المزاد ونفد الزاد أو كاد يدركه النفاد ، ولم نملك الذهاب ولا الرجوع ، وخفنا القاتلين الظمأ والجوع ، عن لنا فارس فصمدنا صمده ، وقصدنا قصده ولما بلغنا نزل عن حر فرسه ينقش الأرض بشفتيه ، ويلقى التراب بيديه ، وعمدنى من بين الجماعة فقبل ركابى وتحرم بجنابى ، ونظرت فإذا هو وجه يبرق برق العارض المتهلل وقوام متى ترق العين فيه تسهل ، وعارض قد اخضر ، وشارب قد طر ، وساعد ملآن ، وقضيب ريان ، ونجار تركى (٤) ، وزى ملكى ، فقلنا مالك لا أبالك فقال ، أنا عبد بعض الملوك هم من قتلى بهم ، فهمت على وجهى حيث ترانى ، وشهدت شواهد حاله على صدق مقاله ، ثم قال أنا اليوم عبدك ومالى مالك ، فقلت بشرى لك وبك ، أداك سيرك إلى فناء رحب وعيش رطب ، وهنأتنى الجماعة وجعل ينظر فتقتلنا ألحاظه ، وينطق فتفتننا ألفاظه ، فقال يا سادة إن فى سفح الجبل عينا ، وقد ركبتم

---

(١) قدر الرجل مكانته وأثر السيف على وزنه فرنده وجوهره وحده .

(٢) وجأ شق . (٣) أهلناه . (٤) النجار الأصل .

فلاة عوراء فخذوا من هنالك الماء ، فلوينا الأعنه إلى حيث أشار ، وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان وركبت الجنادب العيدان[١] ، فقال ألا تقيلون فى هذا الظل الرحب ، على هذا الماء العذب ، فقلنا أنت وذاك ، فنزل عن فرسه وجلى منطقته[٢] ، ونحى قرطقته[٣] ، فما استترعنا إلا بغلالة تنم على بدنه ، فما شككنا أنه خاصم الولدان ، ففارق الجنان ، وهرب من رضوان ، وعمد إلى السرج فحطمها وإلى الأفراس فحشها[٤] ، وإلى الأمكنه فرشها ، وقد حارت البصائر فيه ، ووقفت الأبصار عليه ، فقلت يافتى ما ألطفك فى الخدمة وأحسنك فى الجملة فالويل لمن فارقته وطوبى لمن رافقته ، فكيف شكر الله على النعمة بك ، فقال ماسترونه منى أكثر أتعجبكم خفتى فى الخدمة ، وحسنى فى الجملة فكيف لو رأيتمونى فى الرفقة أريكم من حذقى طرفاً ، لتزدادوا بى شغفاً ، فقلنا هات فعمد إلى قوس أحدنا فأوتره وفوق سهماً[٥] ، فرماه فى السماء وأتبعه بآخر فشقه فى الهواء ، وقال سأريكم نوعاً آخر ثم عمد إلى كنانتى فأخذها ، وإلى فرسى فعلاه ورمى أحدنا بسهم أثبته فى صدره ، وآخر طيره من ظهره فقلت ويحك ما تصنع ، قال اسكت بالكع والله ليشدن كل منكم يد رفيقه أو لأغصنه بريقه فلم ندر ما نصنع وأفراسنا مربوطة وسروجنا محطوطة وأسلحتنا بعيدة وهو راكب ونحن رجالة والقوس فى يده يرشق بها الظهور[٦] ، ويمشق بها البطون والصدور[٧] ، وحين رأينا الجد أخذنا القد[٨] ، فشد بعضنا بعضا ، وبقيت وحدى لا أجد من يشد يدى ، فقال اخرج باهابك عن ثيابك ، فخرجت ثم نزل عن فرسه ، وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر وينزع ثيابه وصار إلى وعلى خفان جديدان فقال اخلعها لا أم لك ، فقلت هذا خف لبسته رطباً فليس

---

(١) الجنادب جمع جندب وهو نوع من الجراد يفرح للحر ولكن الرمضاء قد يشتد عليه فيصعد منها العيدان (٢) حزامه (٣) قباءه (٤) ربطها.
(٥) وضعه فى الفوق ليرميه (٦) يثبتها فيها (٧) يمزقها (٨) الجلد والسير .

يمكننى نزعه فقال على خلعه ، ثم دنا إلى لينزع الخف ومددت يدى إلى سكين كان معى وهو فى شغله ، فأثبته فى بطنه وأبلته من متنه ، فمازاد على فم فغره ، وألقمه حجره ، وقمت إلى أصحابى فحللت أيديهم وتوزعنا سلب القتيلين وأدركنا الرفيق وقد جاد بنفسه وصار لرمسه ، وصرنا إلى الطريق ، ووردنا حمص بعد ليال خمس ، فلما انتهينا إلى فرضة من سوقها (١) ، رأينا رجلا قد قام على رأس ابن وبلية بحراب وعصية وهو يقول :

رحم الله من حشا فى جرابى مكارمه
رحم الله من رنا لسعيد وفاطمه
إنه خادم لكم وهو لاشك خادمه

قال عيسى بن هشام فقلت إن هذا الرجل هو الأسكندرى الذى سمعت به وسألت عنه فإذا هو هو ، فدلفت إليه (٢) ، وقلت احتكم حكمك فقال ردهم فقلت :

لك درهم فى مثله مادام يسعدنى النفس (٣)
فاحسب حسابك والتمس كيما أنيل الملتمس

وقلت له ، درهم فى اثنين فى ثلاثة فى أربعة فى خمسة حتى انتهيت إلى العشرين ، ثم قلت لغلامى وكم معك قال عشرون رغيفاً فأمرت له بها وقلت ، لا نصر مع الخذلان ولا حيلة مع الحرمان .

٤ — المقاومة السنجارية للحريرى (١) .

حدث الحارث بن همام قال . قفلت ذات مرة من الشام أنحو مدينة السلام ، فى ركب من بنى نمير ورفقة أولى خير ومير ، ومعنا أبو زيد

---

(١) طريق منه . (٢) أسرعت . (٣) أى حتى ينتهى النفس الواحد .

(١) سنجار بلدة مشهورة بعراق العجم .

السروجى[١]، عقلة العجلان[٢]، وسلوة الثكلان وأعجوبة الزمان والمشار إليه بالبنان فى البيان، فصادف نزولنا سنجار أن أو لم بها أحد التجار فدعا إلى مأدبته الجفلى[٣]، من أهل الحضادرة والفلا، حتى سرت دعوته إلى القافلة وجمع فيها بين الفريضة والنافلة، فلما أجبنا مناديه وحللنا ناديه أحضر من أطعمة اليد واليدين[٤]، ماحلا بالفم وحلى بالعين، ثم قدم جاما[٥]، كأنما جمد من الهواء أو جمع من الهباء أو صيغ من نور الفضاء أو قشر من الدرة البيضاء، وقد أودع لفائف[٦] النعيم وضمخ بالطيب العميم وسيق إليه شرب من تسنيم[٧] وسفر عن مرأى وسيم وأرج نسيم. فلما اضطرمت بمحضره الشهوات وقرمت[٨]، إلى مخبره اللهوات وشارف أن تشن على سربه الغارات وينادى عند نهبه يالثارات. نشز أبو زيد كالمجنون وتباعد عنه تباعد الضب من النون[٩]، فراودناه على أن يعود وألا يكون كقدار[١٠] فى ثمود، فقال والذى ينشر الأموت من الرجام لا عدت دون رفع الجام، فلم نجد بداً من تألفه وإبرار حلفه، فأسلناه[١١]، والعقول معه شائلة والدموع عليه سائلة، فلما فاء إلى مجثمه وخلص من مأثمة سألناه لم قام ولأى معنى استرفع الجام؟ فقال إن الزجاج نمام وإنى آليت مذ أعوام ألا يضمنى ونموما مقام، فقلنا له وما يمينك الصرى[١٢]، وأليتك الحرى؟ فقال:

إنه كان لى جار لسانه يتقرب وقلبه عقرب، ولفظه شهد ينقع وخبؤه سم منقع، فملت لمجاورته إلى محاورته واغتررت بمكاشرته[١٣]، فى معاشرته،

---

(١) سروج بلدة قرب حران. (٢) محبس المتعجل. (٣) الدعوة العامة. (٤) أى مما يقطع بيد ومما لا يقطع إلا بيدين. (٥) ظرفا من زجاج (٦) جمع لفيفه: مالف من الحلوى. (٧) عين بالجنة. (٨) نهمت. (٩) النون الحوت، والضب أشد الحيوان تبدياً. (١٠) عاقر ناقة صالح. (١١) رفعناه. (١٢) المصر عليها بعزم. (١٣) بسبب تبسمه.

واستهوتنى خضرة دمنته لمنادمته وأغرتنى سمته بمنا سمته[١]، فمازجته وعندى أنه جار مكاسر[٢]، فبان أنه عقاب كاسر، وآنسته على أنه حب موانس فظهر أنه حباب[٣]، موالس، وما لحته ولا أعلم أنه عند نقده ممن يفرح بفقده، وعاقرته ولم أدر أنه بعد فره، ممن يطرب لمفره، وكانت عندى جارية لا يوجد لها فى الجمال مجارية، إن سفرت خجل النيران وصليت القلوب بالنيران، وإن بسمت أزرت بالجمان[٤]، وبيع المرجان بالمجان، وإن رنت هيجب البلابل[٥]، وحققت سحر بابل، وإن نطقت عقلت لب العاقل واستنزلت العصم من المعاقل، وإن قرأت شفت المفئود[٦]، وأحييت الموءود وخلتها أوتيت من مزامير آل داود، وإن غنت ظل معبدها عبداً وقيل سحقاً لأسحر وبعدا، وإن زمرت أضحى زنام[٧]، عندها زنيما بعد أن كان لجيله زعيما وبالأطراب زعيما. وإن رقصت أمالت العمائم عن الرءوس، وأنستك رقص الحبب فى الكئوس، فكنت أزدرى معها حمر النعم وأحلى بتمليها جيد النعم، وأحجب مرآها عن الشمس والقمر، وأذود ذكراها عن شرائع[٨]، السمر، وأنا مع ذلك أليح[٩]، من أن تسرى برياها ريح، أو يكهن بها سطيح، أو ينم عنها برق مليح، فاتفق لو شك الحظ المبخوس ونكد الطالع المنحوس، أن أنطقتنى بوصفها حمياً المدام عند الجار النمام، ثم ثاب الفهم بعد أن صرد السهم[١٠]، فأحسست الخبال والوبال وضيعة ما أودع ذلك الغربال، بيد أنى عاقدته على عكم ما لفظته وان يحفظ السر ولو أحفظته، فزعم أنه يخزن الأسرار كما يخزن اللئيم الدنيا روأنه لا يهتك الأستار ولو عرض لأن يلج النار، فما إن غبر على ذلك الزمان إلا يوم أو يومان حتى بدا لأمير تلك المدرة، ووليها ذى

---

(١) بمحادثته. (٢) ملازم لكسر بيتى. (٣) ثعبان. (٤) اللؤلؤ.
(٥) الوساوس والهموم. (٦) المصاب فى فؤاده. (٧) زامر المتوكل.
(٨) موارد. (٩) أشفق. (١٠) خرج من القوس.

المقدرة ،أن يقصد باب قيله مجدداً عرض خيله ، ومستمطراً عارض نيله ، وارتاد أن تصحبه تحفة تلائم هواه ليقدمها بين يدى نجواه ، وجعل يبذل الجعائل لرواده ويسنى المراغب لمن يظفره بمراده ، فأسف ذلك الجار المختار إلى بذوله ، وعصى فى ادراع العار عذل عذوله : فأتى الوالى ناشراً أذنيه وأبثه ما كنت أسررته إليه ، فما راعنى إلا انسياب صاغيته ، إلى (١) وانثيال حفدته على (٢)، تسومنى إيثاره بالدرة اليتيمة ، على أن أتحكم عليه فى القيمة ، فغشينى من الهم ما غشى فرعون وجنوده من اليم ، ولم أزل أدافع عنها ولا يغنى الدفاع ، وأستشفع إليه ولا يجدى الاستشفاع . وكلما رأى منى ازدياد الاعتياص (٣) ، وارتياد المناص ، تجرم وتضرم وحرق على الأرم (٤) ، ونفسى مع ذلك لا تسمح بمفارقة بدرى ، ولا بأن ينزع قلبى من صدرى ، حتى آل الوعيد إيقاعاً والتقريع قراعاً ، فقادنى الأشفاق من الحين إلى أن قضته سواد العين بصفرة العين (٥) ، ولم يحظ الواشى بغير الأثم والشين ، فعاهدت الله تعالى منذ ذلك العهد ، ألا أحاضر نماما من بعد ، والزجاج مخصوص بهذه الطباع الذميمة ، وبه يضرب المثل فى النميمة فقد جرى عليه سليل يمينى ولذلكم السبب لم تمتد إليه يمينى .

فلا تعذلونى بعد ما قد شرحته ... على أن حرمتم بى اقتطاف القطائف (٦)
فقد بأن عذرى فى صنيعى وإننى ... سأرتق فتقى من تلددى وطارفى
على أن مازودتكم من فكاهة ... ألذ من الحلوى لدى كل عارف

قال الحارث بن همام فقبلنا اعتذاره ، وقبلنا عذاره ، وقلنا له قدماً وقذت النميمة (٧) خير البشر ، حتى انتشر عن حمالة الحطب ما انتشر ، ثم سألناه عما أحدث جاره القتات ودخلله المفتات (٨) بعد أن راش له نبل السعاية ،

---

(١) حاشيته . (٢) الحفدة هنا الخدم والأتباع . (٣) الامتناع .
(٤) الأضراس .
(٥) قضته بادلته والعين الأولى الباصرة والثانية الذهب .
(٦) تناول الفطائر . (٧) آلمت وآذت (٨) مخالطه الكذاب .

وجذم حبل الرعاية ، فقال أخذ فى الاستخذاء والاستكانة ، والاستشفاع إلى بذوى المكانة ، وكنت حرجت على نفسى ألا يسترجعه أنسى أو يرجع إلى أمسى ، فلم يكن له منى سوى الرد ، والاصرار على الصد ، وهو لا يكتئب من النجه [١] ، ولا يتئب [٢] ، من وقاحة الوجه ، بل يلط [٣] بالوسائل ، ويلح فى المسائل ، فما أنقذنى من إبرامه ، ولا أبعد عليه نيل مرامه ، إلا أبيات نفث بها الصدر الموتور ، والخاطر المبتور ، فإنها كانت مدحرة لشيطانه ومسجنة له فى أوطانه ، وعند انتشارها بت طلاق الحبور ، ودعا بالويل والثبور ، ويئس من نشر وصلى المقبور ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، فناشدناه أن ينشدنا إياها ويشقنا رياها . فقال أجل خلق الانسان من عجل ، ثم أنشد لا يزويه خجل [٤] ولا يثنيه وجل .

وندیم محضته صدق ودی ... إذ توهمته صدیقا حمیما
ثم أولیته قطیعة قال ... حین ألفیته صدیدا حمیما
خلته قبل أن یجرب إلفا ... ذا ذمام فبان جلفا ذمیما
وتخیرته کلیما [٥] فأمسی ... منه قلبی بما جناه کلیما [٦]
وتظنیته معینا رحیما ... فتبینته لعینا رجیما
وتراءیته مریدا [٧] فجلی ... عنه سبکی له مریدا [٨] لئیما
وتوسمت أن یهب نسیما ... فأبی أن یهب إلا سموما
بت من لسعه الذی أعجز الرا ... قی سلیما [٩] وبات منی سلیما [١٠]
وبدا نهجه غداة افترقنا ... مستقیما والجسم منی سقیما
لم یکن رائعا [١١] خصیبا ولکن ... کان بالشر رائعا [١٢] لی خصیما
قلت لما بلونه لیته کا ... ن عدیما ولم یکن لی ندیما

---

(١) الردع و لزجر . (٢) لا يستحى . (٣) يلتصق. (٤) لا يصرفه .
(٥) متكلما . (٦) مكلوما . (٧) بضم الميم محبا . (٨) بفتح الميم متمردا .
(٩) ملدوغا. (١٠) صحيحا. (١١) جميلا معجبا . (١٢) مخيفا .

بغض الصبح حين نم إلى قلـــبى لأن الصباح يلفى نموما
ودعانى إلى هوى الليل إذ كان ن سواد الدجى رقيبا كتوما
وكفى من يشى ولوفاه بالصد ق أثاما فيما أتاه ولوما (١)

قال فلما سمع رب البيت قريضه وسجعه ، واستملح تقريظه وسبعه (٢) بوأه مهاد كرامته وصدره على تكرمته (٣) ثم استحضر عشر صحاف من الغرب (٤) فيها حلواء القند والضرب (٥) وقال له لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنه ولا يسع أن يجعل البرىء كذى الظنه ، وهذه الآنية تنزل منزلة الأبرار فى صون الأسرار ، فلا تولها الأبعاد ولا تلحق هودا بعاد ، ثم أمر خادمه بنقلها إلى مثواه ليحكم فيها بمايهواه ، فأقبل علينا أبو زيد وقال اقرءوا سورة الفتح وأبشروا باندمال القرح ، فقد جبر الله ثكلكم وسنى أكلكم وجمع فى ظل الحلواء شملكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، ولما هم بانصراف مال إلى استهداء الصحاف فقال للآدب إن من دلائل الظرف ، سماحة المهدى بالظرف . فقال كلاهما لك والغلام فاحذف الكلام وانهض بسلام ، فوثب فى الجواب وشكر شكر الروض للسحاب ، ثم اقتادنا أبو زيد إلى حوائه وحكمنا فى حلوائه ، وجعل يقلب الأوانى بيده وينض عددها على عدده (٦) ثم قال لست أدرى أأشكو ذلك التمام أم أشكر ، وأتناسى فعلته التى فعلها أم أذكر ، فانه وإن كان أسلف الجريمة ، ونمم النيمة فمن غيمه انهلت هذه الديمة ، وبسيفه انحازت لى هذه الغنيمة ، وقد خطر ببالى أن أرجع الى أشبالى ، وأقنع بما تسنى لى وألا أتعب نفسى ولا أجمالى ، وأنا أودعكم وداع محافظ وأستودعكم خير حافظ ، ثم استوى على راحلته راجعا ، فى حافرته (٧) ولاويا إلى زافرته (٨) فغادرنا بعد أن وخدت عنسه وزايلنا أنسه ، كدست غاب صدره أو ليل أفل بدره .

---

(١) مخفف لؤم . (٢) مدحه وذمه . (٣) وسادته . (٤) الفضة (٥) السكر والشهد (٦) يفرقها على صحبه (٧) طريقه التى جاء منها . (٨) ناكصا إلى عشيرته .

ثانياً – حياتها

١ – الرسائل

أساليبها ومميزاتها وطبقات رجالها

١ – فى العصر الأولى – ما كاد العصر الأموى يشارف منتهاه حتى تحولت كتابة الرسائل من ترسل طبيعى لا أثر للصناعة فيه ، الى ترسل صناعى أرسى أساسه سالم كاتب هشام بن عبد الملك ، وأعلى بناءه عبد الحميد صاحب ديوان مروان آخر خلفاء الأمويين ، وقد عرفت حيث وقع الكلام منا على الأنشاء إذ ذاك أن عبد الحميد أظهر تلك الصناعة أكثر ما أظهر ، فى رسوم رسمها للمبادىء والخواتيم ، وفى جولات بعيدة الأطراف بين طرفى القلة والاكثار ، ثم تنويع الرسائل الأخوانية الى أنواع ، وفى طرق أبواب لم تكن معروفة قبله للناس . غير أن صناعته هذه وقد جاءت آخر العصر لم تقض القضاء كله على الترسل الطبيعى لدى جمهرة الناس ، فكان للكتابة حينذاك طابعان ورثهما العباسون فيما ورثوا عن الأمويين . وإذ كان صدر العصر العباسى الأول إن هو إلا دفعة لطريقة عبد الحميد فان لنا أن نتوقع فيه تراجع الترسل الطبيعى إلى الوراء واطراد الأنشاء الصناعى إلى الأمام حتى يعظم هذا ويفنى ذاك ، وهذا ما كان ، فلم نكد نلمح الأسلوب الفطرى فى كلام الخليفتين الأولين وأضرابهما كما رأيت فى الرسائل التى سقناها بين المنصور ومحمد بن عبد الله بجوار ما كان يصدر عن جماعة الكتاب حتى توارى بعدهما واحتضنه التاريخ ، ولذا نصدف عنه ونعتبر الكتابة منذ جاء العصر العباسى صناعة حمل لواءها بعد عبد الحميد صديقه المخالط عبد الله بن المقفع واتبعه فيما رسم الجميع ، وحق لذلك أن نخصه بكلمة لا غنى عنها فى الموضوع .

نشأ ابن المقفع بالبصرة حيث كان والده يتولى خراج فارس لخالد بن عبد الله القسرى والى العراق ، وهى حينئذ حلبة العربية ومجتمع الرواة وقرارة المربد « عكاظ الإسلام » والحاضرة التى يفد إليها فصحاء الأعراب ، والدولة إذ ذاك عربية محضة لا تستكتب فارسيا فى الدواوين العربية إلا إذا أجاد العربية كأهلها ، فدفع به أبوه وهو خير من يعرف ذلك ، إلى تعلم العربية فى هذه البيئة الغنية بها الصالحة لتلقى الأحداث عليها ، فحذق فنونها وتخرج فى آدابها . وكان من حسن حظه وحظ العربية معا أن كان ولاؤه وولاء أبيه فى بيت خطابة ومعدن فصاحة هو بيت الأهتم المنقرى ، فكان فى نشأته قرين خالد بن صفوان وابن عمه شبيب ابن شيبة وناهيك بهما فصاحة منطق وذرابة لسان . ولما تمت آلته فى العربية تمامها فى الفارسية لغة آبائه وأجداده ، تطلع إلى التخرج فى صناعة الكتابة ، وكان عبد الحميد المذكور كاتبا لمروان بن محمد والى الجزيرة إذ ذاك ، فتقرب عبد الله إليه تقرب الصديق الملازم ، وأخذ يتأثر كتابته ذات الديباجة العربية والعقلية اليونانية ويحتذى فنه ذا النواحى المبتدعة والطرائق المستحدثة ، ضاما إلى ذلك ما أفاضته عليه لغته الفارسية حتى صار كاتبا يجمع إلى بلاغة العرب حكمة اليونان وصناعة فارس ، فاستكتبه فى عصر بنى أمية داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة أيام ولايه أبيه العراق . ولما دالت دولتهم استكتبه فى زمن بنى العباس عيسى بن على والى كرمان ، وعلى يديه أسلم وتسمى عبد الله وكان اسمه روزبة ، ومن بعد عيسى كتب لأخيه سليمان أيام ولايته على البصرة ، وكان أبو جعفر المنصور لا يزال بالأنبار ، فاتصل به وترجم له كتاب كليلة ودمنة ونقل إلى العربية كثيرا من آداب الفرس وسياستها كما نقل إليها بعض كتب اليونان التى كان كسرى أنو شروان قد أمر بترجمتها إلى الفارسية فكانت صلة ثانية له بالعقلية اليونانية بعد تلك التى كانت له من عبد الحميد الذى عرف الكثير منها عن أستاذه سالم كاتب الخليفة هشام .

بهذا البيان المعتمد على قلب ناضج التفكير ولسان حسن التعبير زاول ابن المقفع الكتابة بأسلوب الترسل الذى كان لعبد الحميد ، وقصاراه التعبير عن المعنى الجيد بالعبارة الواضحة الجزلة دون نظر إلى مزاوجة أو سجع إلا ما جاء عفوا غير متعمل ولا مقصود ، والذى يبدو لنا من إبقاء ابن المقفع على هذا الأسلوب مع أنه فارسى الجنس واللغة ، ولغة فارس ذات عناية بزخرفة الألفاظ وحبك الأساليب ، أنه فعل ذلك صادرا عن أمرين . أحدهما دينه أن البلاغة كل البلاغة فى شرف المعانى وسهولة الألفاظ مع رصانة القول ورشاقة الأسلوب ولذا كان يقول « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة » ويقول « إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعا فى نيل البلاغه فإن ذلك هو العى الأكبر » ثم يقول وقد قيل له ما البلاغة ؟ « هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » يقصد أنها السهل الممتنع . وثانيهما توجيه همه فى تغذية العربية بالفارسية إلى ناحية المعانى لا الألفاظ وللفرس فى المعانى مجال ، فهم ذوو فلسفة أصيلة عرفت لهم كما عرفت للهنود ، وقد غذوها منذ القديم بالفلسفة الهندية التى ترجموها إلى لغتهم كما فعلوا فى كتاب كليلة ودمنة ، وقبل أن ينقرض ملكهم نقلوا كثيرا من فلسفة اليونان . ولهذا كثر فيهم الحكماء الذين ينطقون الحكم عن علم وتثقيف لا عن غريزة وفطرة كما كانت تنطق العرب . ولم تكن للعرب غنية عن ترجمة كثير من هذه الحكم فى هذا الطور العباسى الذى حصلوا فيه على قسط وافر من التعليم ، ولعل أول من نقل هذه الحكم وتلك الفلسفة إلى العربية عن أمثال يزدجرد وقباذ وبهرام وسابور وأنو شروان وأزدشير وغيرهم فى السياسة والاجتماع وسائر أحوال الناس ، رجلنا الذى نتكلم عنه ، وما كان له وهو الفيلسوف أن يصدف عن هذا الجانب المعنوى إلى الجانب اللفظى بحال .

هذا وكما يمثل مانقلنا له من نماذج ، أسلوب الترسل السهل الممتنع كما قلنا ، يمثل كذلك ما أشرنا إليه فى ناحية المعانى أتم تمثيل ، فكل ما كتب

ابن المقفع كان ظرفا يسكب فيه عقلا وحكمة وفلسفة وعبرة ، وعلى هذا الذى رسم ، سار من ورائه كتاب عصره كيحي بن زيادة وعمارة بن حمزة والقاسم بن صبيح وغيرهم ممن أدركوا الدولتين وكتبوا للمنصور وهم رجال الطبقة الأولى . وكذلك رجال الطبقة الثانية أمثال أبى عبيد الله معاوية بن يسار وأبى عبد الله يعقوب بن داود ويوسف بن القاسم ويحي ابن خالد وغيرهم ممن كتبوا للمهدى والهادى والرشيد ، ثم رجال الطبقة الثالثة أمثال الفضل وجعفر ابنى يحي ، والفضل والحسن ابنى سهل وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وغيرهم ممن كتبوا للرشيد والأمين والمأمون ، وأمثال محمد بن عبد الملك الزيات وابراهيم بن العباس الصولى ونحوهما ممن تربوا فى عصر المأمون وأدركو العصر الثانى فاعتبروا رجال طبقته الأولى كما سيأتى بعد . فهذه الطبقات الثلاث حذت حذو ابن المقفع فى الألفاظ السهلة الممتنعة البعيدة عن المزاوجة والسجع إلا ماجاء عفوا ، وفى المعانى الشريفة النبيلة المشعرة بسعة العقل وقوة المنطق ، ولذلك نقول إن استفادة العربية من الفارسية فى العصر العباسى الأول فى ناحية المعانى كانت أظهر وأوضح منها فى ناحية الألفاظ ، ولسنا نقول ذلك عن غير دليل نتقدم به ، فقد كتب أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور فى كتاب بغداد يقول « حدثنى أبو الحسن أحمد بن محمد المهلبى قال حدثنى يحي بن الحسن بن على بن معاذ بن مسلم قال . إنى بالرقة بين يدى محمد بن طاهر بن الحسين على بركة إذ دعوت بغلام لى فكلمته بالفارسية فتدخل العتابى [1] وكان حاضرا فى كلامنا فتكلم معى بالفارسية فقلت له

---

(١) هو أبو عمرو كلثوم بن عمرو العتابى ينتهى نسبه الى عمرو بن كلثوم التغلبى ، وهو شاعر رقيق مطبوع وكاتب مترسل بليغ قال الجاحظ « كان العتابى ممن اجتمع له الخطابة والبيان والشعر الجيد والرسائل الفاخرة ، وقال يحي البرمكى لولده وكان العتابى منقطعا إليهم « إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم ابن عمرو العتابى فضلا عن رسائله وشعره فافعلوا فلن تروا أبدا مثله »

يا أبا عمرو مالك وهذه الرطانة فقال لى قدمت بلدتكم هذه ثلاث قدمات وكتبت كتب العجم التى فى الخزانة بمرو ، وكانت الكتب سقطت إلى ماهنالك مع يزدجرد فهى قائمة إلى الساعة ، فكتبت منها حاجتى ثم قدمت نيسابور وجزتها بعشرة فراسخ فذكرت كتابا لم أقض حاجتى منه فرجعت إلى مرو فأقمت أشهرا — قال فقلت — أبا عمرو ولم كتبت العجم قال لى « وهل المعانى إلا فى كتب العجم ، البلاغة فى اللغة لنا والمعانى لهم » قال ثم كان يذاكرنى ويحادثنى بالفارسية كثيرا » .

ولهذا الذى كان من الكتاب فى هذا العصر من العناية بالمعانى لبست الكتابة فيه ثوب الإيجاز أكثر مما جررت ذيول الأطناب ، وكان الكتاب يجدون لذلك حسن وقع فى نفوس الخلفاء ، حدث أحمد بن يوسف وزير المأمون قال ، دخلت على المأمون وهو يمسك كتابا بيده وقد أطال النظر فيه زمانا وأنا ملتفت اليه فقال يا أحمد أراك منكرا منى متفكرا فيما تراه فقلت نعم وقى الله أمير المؤمنين من المكارة وأعاذه من المخاوف ، قال فانه لامكروه فيه ولكنى قرأت كلاما وجدته نظير ماسمعته من الرشيد يقوله فى البلاغة فانه كان يقول « البلاغة التباعد عن الأطالة والتقرب من معنى البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى » وما كنت أتوهم أن أحدا يقدر على المبالغة فى هذا المعنى حتى قرأت هذا الكتاب — ورمى به إلى وقال — هذا كتاب من عمرو بن مسعدة إلى ، قال فقرأته فاذا فيه « كتابى إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ماتكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم واختلت لذلك أحوالهم والتاثت معه أمورهم » فلما قرأته قال إن استحسانى إياه بعثنى أن أمرت للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله فى صناعته . هذا وإنك لتجد الايجاز باديا فيما تقدم لابن المقفع من إخوانيات بل فيما تقدم له من رسائل أخذت اسم الكتب وإن طالت ، لأن العبرة فى

الأيجاز ليست فى طول مايكتب لنفس الطول ، وإنما هى فى طول مايكتب بالنظر إلى مايعبر عنه من معان ، ولذلك قد يوجد الطول مع الأيجاز كما هى حال تلك الرسائل ، وقد يوجد الاطناب مع قلة كم الكتاب إذا كان معناه أقل من لفظه . ثم إنك لتجده كذلك فى كتاب العصر الأول طرا ، وهذان اللذان جاء ذكرهما فى الكتاب السابق كانا من أعلام الموجزين ، كتب أحمد إلى إبراهيم ابن المهدى وقد استقل هدية ألطفه بها.

« بلغنى استقلالك لما ألطفتك ، والذى نحن عليه من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك فى البر ، فأهدينا هدية من لا يحتشم إلى من لا يغتنم » وكتب فى التهنئة بأفراق من مرض « قد أذهب الله وصب العلة ونصبها ووفر أجرها وثوابها وجعل فيها من إرغام العدو بعقباها أضعاف ما كان عنده من السرور بفتح أولاها » . وكتب عمرو موصياً بشخص « كتابى إليك كتاب واثق بمن كتب إليه معنى بمن كتب له ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية » وكتب إلى المأمون يستشفع فى رجل بالزيادة له فى منزلته ويعرض لنفسه « أما بعد فقد استشفع بى فلان يا أمير المؤمنين لتطولك على ، فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون ، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين ، وفى إبتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام » فوقع إليه المأمون « قد عرفنا تصريحك بصاحبك وتعريضك لنفسك وأجبناك إليهما ووقفناك عليهما » . وقال الرشيد يوما ليحيى بن خالد قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر وقد استحييت من مكاتبته فى هذا المعنى فاكتب أنت إليه فكتب يحيى إلى الفضل « أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك إلى شمالك » فأجابه الفضل « قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين فى أخى وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه » . ولما قتل طاهر بن الحسين على بن عيسى بن ما هان ، كتب إلى الفضل بن سهل كاتب المأمون « أطال الله بقاءك وكبت أعداءك وجعل من يشنؤك فداءك ، كتبت إليك ورأس على بن عيسى فى حجرى وخاتمه فى يدى والحمد لله رب العالمين » .

ب — فى العصر الثانى : منذ عهد الرشيد ، قد استبحر العمران وعم الرخاء ونشرت الرفاهية أجنحتها على ذوى اليسار فنعموا بنعيم الحياة وذاقوا حلاوة الوجود وصار فى متناول الجميع التمتع بما كان للفرس من متعات ، وأصبح كل إنسان لا يرضى بما هو فيه بغير الكثير ، فكان من الطبيعى وقد فاضت الفارسية على العربية إذ ذاك بكل ما هو معروف عنها من بسط وإطناب ، أن يشب الكتاب الناشئون فى آخر هذا العصر نشأة طفولة ، على غير ما عليه كتابه من ترسل وإيجاز ، فهم لا بد مطنبون فيما يكتبون بجعل أثواب المعانى فضفاضة ذات ذيول ، ولن يكون هذا بغير الإكثار من المفردات والجمل ، على سبيل الترادف والازدواج . وقد شاءت الأقدار أن تحبو هذه الفترة بطفل موهوب ينشأ فيها نشأة الكتاب ، فلا يكاد هذا العصر الأول ينقضى حتى يستوى فى العصر الثانى حامل لواء هذه الطريقة الجديدة أمام الكتاب ، ذلكم هو أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب ، الذى يقتضينا مقامه كلمة عنه فى هذا المقام .

ولد الجاحظ بالبصرة سنة ستين ومائة ، وهى على ما علمت عنها فيما ذكرنا عن ابن المقفع ، عش الأدب . فأدرك طبقة الأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد وأخذ عنهم ما خصوا به من أدب وفكاهة وغريب ، ولازم أبا إسحاق إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلى المعروف فتخرج عليه فى علم الكلام ، ثم خالط أعلام الكتابة والترجمة فقرأ جميع ما ترجم أيام المنصور والرشيد والبرامكة والمأمون فخرج بذلك كله أديباً فكها عالماً فيلسوفا ، وأقام بالبصرة إقامة مغرم بالكتب لا يدع كتاباً حتى يستوعبه قراءة وفهماً ، وكثيراً ما كان يكترى دكاكين الوراقين فيقيم فيها ينظر ويتثبت ، وإن فيما أودعه وصف الكتاب آنفاً لأنصع دليل على ما للكتب فى نفسه من منزلة وعلى تنوع ما جناه منها من فائدة . وكان محبوباً من كل من فى البصرة من الولاة والأعيان عرباً وفرساً ، لا يزال يحبوهم بما يصنف من كتب ورسائل فى شتى العلوم والفنون ، ولا يزالون يحبونه بجزيل

العطايا وسنى الصلات ، وبعد قليل ذاع صيته ببغداد وسر من رأى ، فكان يلتجع اليهما الخلفاء والوزراء والعظماء حتى استخدمه محمد بن عبد الملك الزيات فى كتابة الديوان ، ولما قتل ابن الزيات عاد إلى البصرة فأم بها كما كان، عالماً مصنفاً كاتباً إلى أن فلج وبقى بالفالج طويلا ومع هذا لم ينقطع عما نصب نفسه له ، وطالما حمل مفلوجا إلى بغداد يستمتع به ، وفى إحدى هذه الحملات مات بها سنة خمس وخمسين ومائتين .

بهذه الكفاية الممتعة فى العلم والفلسفة والأدب والكتابة ، زاول الجاحظ تدبيج الكتب والرسائل فكان أعجوبة الزمان ويبوغ الافتنان، إن ذكر أدب العلماء فهو أدبهم وإن ذكر علم الأدباء فهو أعلمهم ، وقد استخلص مما قرأ علوما جمة شارك بها أهل كل علم ، وآداباً ممتعة ضرب فيها بكل سهم ، فكان واسع الاطلاع لطيف البحث طيب الفكاهة مخترعا، لدقيق المعانى صواغا لبليغ العبارات ، إذا ألف ألف بين الأشتات وإذا كتب استنزل العصم من العبارات ، صادراً عن نفس جامعة بين المتناقضات، فكان راوية متكلما وفيلسوفا مسامراً وأديباً مؤرخاً وشاعر عالماً ثم دارساً أحوال الحيوان والنبات والجماد دراسته أحوال الناس والجماعات ، وهو فى كل ذلك ، الكاتب المكثار الذى لا يدرك له شأو ولا يشق له غبار حتى لكأنه المعنى بقول أبى نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

لذلك عد أحد الأفذاذ وإحدى حجج اللسان . قال يصف كتبه ابن العميد « كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً » وقال يصفها المسعودى أيضا على تشيعه وعثمانية الجاحظ « وكتب الجاحظ مع انحرافه — يعنى عن التشيع — تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع ، خرج من جد إلى هزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة ، وله كتب حسان منها كتاب البيان

والتبيين وهو أشرفها لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب مالو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى ، وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين والبخلاء ، وسائر كتبه فى نهاية الكمال مالم يقصد منها إلى تعصب أو إلى دفع حق ، ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه » .

فلا جرم وهذه حال الجاحظ أن يكون إمام الكتاب فى هذا العصر العباسى الثانى ، وكما قامت ميزة العصر الأول على الترسل والإيجاز ، قامت ميزة الثانى بما سن الجاحظ ، على الازدواج والأطناب . وإن عودة إلى ما اخترنا له فى مدح التجار وذم عمل السلطان وفى وصف الكتاب وفى محاسن الضحك لتريك بأجلى وضوح قدرته على المزاوجة والترادف وإتباع الشىء بمثله والقرين بقرنه ، فى فقرات يغلب أن تكون قصيرات حتى ليسلخ فى المعنى الواحد عبارات كثيرة فى ابتداع مستحدث وابتكار ليس له فيما سبق مثيل ، وها نحن أولاء ناقلون هنا شيئاً مما قال فى الحسد مسبوقا بما قال ابن المقفع إمام العصر الأول فيه ، حتى تكون الموازنة متحدة الموضوع .

قال ابن المقفع فى الحسد من الأدب الكبير « ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً ، فإن الحسد خلق لئيم ، ومن لؤمه أنه يوكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء الخلطاء . فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون ، حين تكون مع من هو خير منك ، وأن غنمالك أن يكون عشيرك وخلطيك أفضل منك فى العلم فتقبس من علمه ، وأفضل منك فى الجاه فتصيب حاجتك بجاهه ، وأفضل منك فى الدين فيزداد صلاحك بصلاحه . وليكن ما تنظر فيه من أمر عدوك وحاسدك أن تعلم أنه لا ينفعك أن تخبر عدوك أنك له عدو ، فتنذره نفسك وتؤذنه بحربك ، قبل الأعداد والفرصة فتحمله فى التسلح لك وتوقد ناره عليك » .

وقال الجاحظ مما قال فى رسالة الحسد ، وهب الله لك السلامة وأدام لك الكرامة ورزقك الاستقامة ورفع عنك الندامة . كتبت إلى أكرمك الله تسألنى عن الحسد ما هو ومن أين هو ومادلائله وأفعاله وكيف تفرقت أموره وأحواله وبم يعرف ظاهره ومكتومه ولم صار فى العلماء أكثر منه فى الجهلاء ولم كثر فى الأقرباء وقل فى البعداء وكيف دب فى الصالحين أكثر منه فى الفاسقين وكيف خص به الجيران من جميع الأوطان ؟

الحسد أبقاك الله داء ينهك الجسد ويفسد الأود ، علاجه عسر وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض وأمر متعذر فما ظهر منه فلا يداوى وما بطن منه فمداويه فى عناء ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « دب إليكم داء الأمم قبلكم ، الحسد والبغضاء » وقال بعض الناس لجلسائه أى الناس أقل غفلة فقال بعضهم صاحب ليل إنما همه أن يصبح فقال إنه لكذا وليس كذاك ، وقال بعضهم المسافر إنما همه أن يقطع سفره فقال إنه لكذا وليس كذاك ، فقالوا له فأخبرنا بأقل الناس غفلة فقال الحاسد ، إنما همه أن ينزع الله منك النعمة التى أعطاكها فلا يغفل أبداً . ويروى عن الحسن أنه قال « الحسد أسرع فى الدين من النار فى الحطب اليابس » وما أتى المحسود من حاسد إلا من قبل فضل الله تعالى إليه ونعمته عليه قال الله تبارك وتعالى «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » . والحسد عقيد الكفر وحليف الباطل وضد الحق وحرب البيان ، وقد ذم الله تعالى أهل الكتاب فقال «ودأهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق » فمنه تتولد العداوة وهو سبب كل قطيعة ومنتج كل وحشة ومفرق كل جماعة وقاطع كل رحم بين الأقرباء ومحدث التفرق بين القرناء وملقح الشر بين الخلطاء ، يكمن فى الصدر كمون النار فى الحجر ، ولو لم يدخل رحمك الله على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه واستمكان الحزن فى جوفه وكثرة مضضه ووسواس ضميره وتنغيص عمره وكدر نفسه ونكد

لذاذة عيشه ، إلا استصغاره لنعمة الله تعالى عنده ، وسخطه على سيده بما أفاده عبده وتمنيه عليه أن يرجع فى هبته إياه ولا يرزق أحداً سواه ، لكان عند ذوى العقول مرحوما وكان عندهم فى القياس مظلوما وقد قال بعض الأعراب « ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد ، نفس دائم وقلب هائم وحزن لازم » فالحاسد مخذول ومأزور والمحسود محبوب ومنصور ، والحاسد مهموم ومهجور ، والمحسود مغشى ومزور — إلى أن قال فى آخر الرسالة وهى اثنتا عشرة صفحة — وما أرى السلامة إلا فى قطع الحاسد ولا السرور إلا فى افتقاد وجهه ولا الراحة إلا فى صرم مداراته ولا الربح إلا فى ترك مصافاته . فإذا فعلت ذلك فكل هنيئاً واشرب مريئاً ونم رضياً وعش فى السرور ملياً ، ونحن نسأل الله الجليل أن يصفى كدر قلوبنا ويجنبنا وإياك دناءة الأخلاق ، ويرزقنا وإياك حسن الألفة والاتفاق ، أحسن الله توفيقك والسلام .

على هذا النحو من المزاوجة الكثيرة الفقرات مع تقصيرها غالبا لملاءمة القصر للزواج ، كان الجاحظ يكتب عن ذهن صفى وطبع رحى فيطنب ما شاء له الأطناب ، كما يتضح ذلك حتى فى قصار رسائله مالم يتعمد فيها مساواة ، كما فى تهنئته الفتح بن خاقان بمعاتبته قليبا المغرب ، أو إيجازا كما فى كتابه السابق معهما يستوجز مماطلا ؛ فان القلة كما قلنا لا تأبى الأطناب ، كما لا تأبى الكثرة الأيجاز ، وهذه رسالة له فى ثلاثة سطور ولكنها من الأطناب قال « أما بعد فما أقبح الأحدوثة من مستمنح حرمته وطالب حاجة ردته ، ومثابر حجبته ، ومنبسط إليك قبضته ، ومقبل عليك بعنانه لويت عنه ، فتثبت فى ذلك ، ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم » . ولم يكن موضوع الكتاب مهما تجافى عن الأدب والفن ولج فى السيرة والعلم ، ليقف بالجاحظ دون تلك الطريقة الفذة ، أو يصرفه عن تناولها ، انظر إليه وهو يقول من تأريخه قريش « قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها ، وكيف عقولها ودهاؤها وكيف رأيها وذكاؤها ، وكيف سياستها وتدبيرها

وكيف إيجازها وتحسيرها ، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم ، وحدة أذهانها إذا كل الحديد ، وكيف صبرها عند اللقاء وثباتها فى اللأواء ، وكيف وفاؤها إذا استحسن الغدر وكيف جودها إذا حب المال وكيف ذكرها لأحاديث غد وقلة صدورها عن جهة القصد ، وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه ، وكيف وصفها له ودعاؤها إليه ، وكيف سماحة أخلاقها وصونها لأعراضها ، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم وطريفهم بتليدهم ، وكيف اشبه علانيتهم سرهم وقولهم فعلهم ، وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بعد غديره ، وهل غفلته إلا فى صدق ظنه وهل ظنه إلا كيقين غيره »

وانظر إليه يرسم الخطة المثلى لمن يقرأ الكتب فيما يجب أن يكون منه إزاء المعانى والألفاظ ، لتستفيد وتعرف كيف استفاد قال « ومن قرأ كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعانى فهو على سبيل الصواب ، ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ ، والخسران ها هنا فى وزن الربح هناك ، لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ ، حمله الحرص عليها والاستئثار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها ، ويضعها فى غير مكانها ، ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه : أنا أشعر منك فلما قال له ولم ذاك ؟ قال : لأنى أقول البيت وأخاه ، وأنت تقول البيت وابن عمه ، وإنما هى رياضه وسياحة ، وسماع الألفاظ ضار ونافع ، فالوجه النافع أن تدور فى مسامعه وتغيب فى قلبه وتخيم فى صدره ، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت ، وكانت نتيجتها أكرم نتيجة وثمرتها أطيب ثمرة لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلسة ولا مغتصبة ولا دالة على فقر ، إذ لم يكن القصد إلى شىء بعينه والاعتماد عليه دون غيره ، وبين اللفظ إذا عشش فى الصدر ثم باض ثم فرخ ثم نهض ، وبين أن يكون اعتسافا واغتصابا ، فرق بين . ومتى اتكل صاحب البلاغة على الهويى والوكال ، وعلى السرقة والاحتيال لم ينل طائلا وشق عليه النزوع واستولى عليه الهوان ، واستهلكه سوء العادة ، والوجه الضار أن يحفظ ألفاظا بأعيانها من كتاب بعينه ، أو من

لفظ رجل ، ثم يريد أن يعد لتلك الألفاظ قسمها من المعانى، فهذا لا يكون إلا بخيلا فقيرا وحائفا سروقا ولا يكون إلا مستكرها لألفاظه متكلفا لمعانيه مضطرب التأليف منقطع النظام ، فإذا مر كلامه بنقاد الألفاظ وجهابذة المعانى ، استخفوا عقله وبهرجوا علمه » .

وقد اقتدى بالجاحظ فى هذا الأسلوب كتاب عصره الذين قلنا إنهم تربوا فى عصر المأمون ، نقصد بذلك أنهم جمعوا إلى الآداب العربية ، الآداب الدخيلة تامة الأنى والاستواء بما استبحر من آداب الفرس والهنود وبما أعيد نقله وفقهه على أصله من فلسفة اليونان ، وقد ذكرنا منهم الصولى وابن الزيات ، ونضم إليهم الآن الحسن وسليمان ابنى وهب ، وسعيد بن حميد ، وأحمد بن إسرائيل وغيرهم ممن كتبوا للمعتصم والواثق والمتوكل وجاوزوهم إلى المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد وهم رجال الطبقة الأولى فى العصر الثانى ، وقد أعقبتهم طبقة ثانية أمثال عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وأبى العباس بن ثوابة ، وأبى الحسن على بن الفرات ، وعلى بن الجراح وغيرهم ممن كتب بعد المعتمد للمعتضد والمكتفى والمقتدر . وأعقبت هذه طبقة ثالثة منها الحسين بن عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وأبو الفضل جعفر بن الفرات ، وأبو على ابن مقلة وغيرهم ممن كتبوا بعد المقتدر للقاهر والراضى والمتقى والمستكفى الذى انتهى على أيامه العصر الثانى بدخول بنى بويه بغداد . فكل هؤلاء كانوا للجاحظ فى طريقته محتذين ، ولأسلوبه مترسمين ، كما ترى فيما اخترنا لبعضهم من إخوانيات . وكذلك كانوا فى غيرها مما يكتبون من الرسائل المطولة أو المصنفات ، فهذا حمزة الأصفهانى جامع ديوان أبى نواس يقول فى مقدمة هذا الديوان « سألتنى أبقاك الله وأعلى قدرك ، وبلغك أقصى أملك ، وزادك من أفضل ما خولك وأحسن ما منحك ولا أعدمك جميل ما عودك ، أن أصرف لك عنايتى إلى عمل مجموع من شعر أبى نواس مشتمل على كل أشعاره وجل أخباره ، وقد أسعفتك أيدك الله بطلبتك ، وأجبتك إلى ملتمسك » إلى آخر ما قال على

هذا النمط الذى ابتدأه بالدعاء كما كان يبتدىء الجاحظ ، وعاد يكرر الدعاء فى ثنايا ما يقول بعد الابتداء كما كان يكرر . وهذا أبو محمد بن عبد الله مسلم بن قتيبة تأثر الجاحظ فيما خلف من مصنفات جاءت فى الأسلوب والأطناب على نحو ما كان للجاحظ من مؤلفات ، وستقرأ نبذة منها بعد قليل .

وكما أوحى العصر الأول إلى كتابه أن يحمدوا ويحمد لهم الإيجاز ، قد أوحى هذا العصر الثانى إلى رجاله أن يكرروا ويطنبوا اعتقادا منهم أن فى التكرار على أيامهم قوة بلاغ للمعنى ، وشدة تأثير فى النفس ، ثم غلوا فى هذا الاعتقاد حتى أوصوا به وحادوا عما كان شائعا فى العصور قبلهم من إيجاز ، قال ابن قتيبة فى أدب الكاتب « ولو كتب كاتب إلى أهل بلد فى الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية ، كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلكؤه فى بيعته — أما بعد فإنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فاعتمد على أيهما شئت — لم يعمل هذا الكلام فى أنفسها عمله فى نفس مروان ، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ، ويعيد ويبدى . ويحذر وينذر » ونحن نقول : ولهذا لم تعد استفادتهم من الفارسية واقفة عند حدود المعانى كما كانت لدى أولئكم الأسلاف بل صارت فى ناحية اللفظ والمعنى سواء .

على أننا لا ننكر أن ما حدث بهذا العصر من حيدة ذوى الأمر لجهلهم عن التشجيع ، وانصراف الناس إلى العلوم العقلية أكثر من علوم اللسان ، ثم نصرة الشعوبية الداعية إلى احتقار العرب وتهوين ما لهم من كفايات ، قد أصاب الأدب والأدباء ، فأثر ذلك فى صناعة الكتابة فيه بعض التأثير ، وظهر الضعف فى كتابات الكتاب . ومن أجل هذا وضع ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ كتاب أدب الكاتب . فاسمع إليه يقول فى مقدمته : « أما بعد فإنى رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولأهله كارهين . أما الناشىء منهم فراغب عن التعليم ، والشادى تارك للازدياد ، والمتأدب فى عنفوان الشباب ناس أو متناس ليدخل فى

جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين . فالعلماء مغمورون وبكثرة الجهل مقموعون ، حين هوى نجم الخير وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله وصار العلم عارا على صاحبه ، والفضل نقصا وأموال الملوك وقفا على المنفوس ، والجاه الذى هو زكاة الشرف يباع بيع الخلق ، وآضت المروءات فى زخارف النجد وتشييد البنيان ، ولذات النفوس فى اصطفاف المزاهر ومعاطاة الندمان ، ونبذت الصنائع وجهل قدر المعروف وماتت الخواطر ، وسقطت همم النفوس وزهد فى لسان الصدق وعقد الملكوت. فأبعد غايات كاتبنا فى كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف ، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتا فى مدح قينة أو وصف كأس — إلى أن قال — فإنى رأيت كثيرا من كتاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطئوا مركب العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر ، وقلوبهم من تعب التفكر حين نالوا الدرك بغير سبب ، وبلغوا البغية بغير آلة » .

ج — فى العصر الثالث — كانت الثروة على ما علمت فى العصر الثانى ممدودة الرواق ، وكانت الحضارة وارفة الظلال ، وكان الأثرياء منغمسين فى المتع غارقين فى النعيم . غير أن جهل القائمين بالأمر على الدولة فيه ، جعل الأدب كما تقدم تركد ريحه ، وتفتر حركته ، وجعل الكتاب وهم قطب الأدب الذى عليه تدور رحاه بعيدين فى جمهرتهم أن يشركوا أولئك القائمين فى سعة النفوذ وبالتالى فى الاستمتاع بمباهج الحياة . ولكن ما كاد هذا العصر الثالث يقضى على سابقه برفع نفوذ الخدم الأتراك عن بغداد وجعله فى أيدى آل بويه الذين وإن شلوا نفوذ الخلافة كانوا من العلماء الأدباء ، حتى علا نجم الأدب وارتفع شأن الكتابة ونافست بغداد فى ذلك حواضر كثيرة إن نقص عنها بعض فقد أوفى عليها آخر ، وكانت هذه المنافسة أشد ما تكون بين رجال الكتابة الحالين إذ ذاك من الملوك محل السمع والبصر ، وكان قد مهد لذلك بالدويلات التى انسلخت عن الخلافة قبيل حلول العصر الذى نتكلم فيه . فكانت منها دولة السامانيين ببخارى

التى زهت بنفوذهم وصارت منتدى العلم والأدب على أيامهم ، وشارك ملوكها فى سعة النفوذ وعراضة الجاه ووداعة العيش ورفاهة الحضارة ، عدد من الكتاب كانوا يلقبون بالشيوخ ، منهم أبو محمد عبد الله بن الحسين الذى لقب فوق الشيخ بلقب العميد زيادة فى التعظيم أيام نوح بن نصر ، فكان بيته بيت غنى ونعمة وثروة وجاه . وقد نشأ فى هذا البيت ابنه أبو الفضل محمد بن العميد نشأة محوطة بكل هذا النعيم ، فأحسن أبوه فى هذه البيئة تربيته ، ورشحه لصناعته وهيأه لمنزلته ، وكان ذا ذهن صاف وطبع موات ، فعرف علوم العرب والعجم ونبغ فى العربية والفارسية وتضلع فى آدابهما حتى لقب بالأستاذ والرئيس . ثم نبه شأنه وضاقت الدولة السامانية عن قدره ، فاجتذبته دولة آل بويه فوزر لركن الدولة سنة ٣٢٨ وامتد به العمر فى هذا السلطان ثلث قرن كان فيه محط الرجال وكعبة الآمال والممدوح من الكتاب والشعراء بكل لسان ، حتى توفى سنة ٣٦٠ .

ذاك ما أردنا التنويه به عن بيت ابن العميد وشخصه ونعمة عصره وخفض عيشه ، لنخرج منه إلى أن الكتابة لا بد ظافرة لهذين الأمرين بأسلوب تخطه روح العصر وتقيم دعائمه يد ابن العميد ، فإن الزخرف تناول كل مظاهر الحياة من المسكن والملبس والمطعم والمشرب ، وحمل ذوى الترف واليسار أن يتأنقوا فى كل ذلك ما وسعهم التأنق ، فغلوا فيما حملوا عليه ، وتنافسوا فيه حتى ظهرت آثار ذلك فيما ذكرنا وفيما لم نذكر واضحة تبهر الأبصار . ومن أولى من ابن العميد — واللغة كائن يتأثر كما تتأثر الكائنات وهو الناشىء يحوطه الترف ويحدوه النعيم — أن يحكى فى كتابته ما يشهد فى عيشه ويعكس على أسلوبه ما يشع من ضوء نفسه ، اللهم لا غيره يصلح لأن يكون صاحب الأسلوب الجديد . فبأى شىء يا ترى يحدث الزخرف ويحصل التنميق ؟ لا شك أن الخطوة الطبيعية بعد الزواج تكون السجع ، فإنه أول ما يدل فى صاحبه على ذلك ، وهو إذا جودت صياغته أكسب المعنى قوة فوق تحليته الألفاظ . وبعد السجع يكون الالمام بأجل الحلى اللفظية من

جناس ، وأجمل الحلى المعنوية من طباق ، على أن تبقى الصورة الظاهرة للأسجاع .

رسم ابن العميد هذا الأسلوب الجديد صادرا فيه عن فنان صناع ، قد امتلأت نفسه بشتى الصور والألوان ، وأرهف حسه حتى أصبح يشعر بما يدق عن الكهان ، فجاء ممثلا فى السجع ملزوما ، يصحبه الجناس قليلا والطباق نادرا ، مع الألمام بما كان للطريقة الجاحظية من إطالة وإكثار وترادف وإطناب ، ولكن فى عدول غالبا عما كان لها من تقصير الفقرات إلى إطالتها التى أصبحت لا تتنافى والسجع كما كانت تتنافى مع الزواج ، فمت بها إلى العصر الأول ، وجمع بذلك كله بين محاسن العصور .

على أن العناية بالألفاظ لم تكن لتشغل ابن العميد عن العناية بالمعانى وهو الحكيم الفيلسوف ، الجامع بين سعة المنقول وغور المعقول ، فيما كان لفارس والهند والعرب ويونان ، فكانت معانيه كألفاظه ذات حظ فيما لكلامه من بهاء ، وكلتاهما لصاحبتهما زين وجمال كما قيل .

تزين معانيه ألفاظه وألفاظه زائنات المعانى

وحسبه أن يظفر فى وصف بلاغته بأبيات من المتنبى ، قد طلعت على الأكوان شمسا ، وسارت فى الآفاق مثلا ، فهو القائل فيه :

إذا سمع الناس ألفاظه خلقن له فى القلوب الحسد

وهو القائل فيه أيضا :

عربى لسانه ، فلسفى رأيه ، فارسية أعياده

خلق الله أفصح الناس طرا فى مكان أعرابه أكراده

بل حسبه أن يكون المقول عنه « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » فإن الحسن الذى وصلته على يده لم يزد على يد وإن مائله من بعده ، ولذا اطمأن الناس إلى طريقته حتى لكأنها كانت أمل رجال العصر يريدونه ولا يدركونه ، وطابع كتابه يودون رسمه ولا يعرفونه ، فما إن عبدلهم طريقها حتى سلكوه ثم تسابقوا فيه تسابق الجياد فى الميدان ،

فكانت الطبقة التى لم يعد الدهر يسمح لها بمثال ، ويكفى أن يكون فيها صاحبه أبو القاسم إسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٧٥ ، وأبو اسحق الصابى ابراهيم بن هلال المتوفى سنة ٣٨٤ ، وأبو بكر الخوارزمى محمد بن العباس المتوفى سنة ٣٨٣ ، وأبو الفضل بديع الزمان أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٩٨ ، وأبو منصور الثعالبى عبد الملك بن محمد المتوفى سنة ٤٢٩ ، وغير هؤلاء ممن عطروا الوجود بأريج أنفاسهم ، وجعلوا للكتابة مضاء السيوف بأسنة أقلامهم ، فكان لها على ايديهم من مزايا الابتكار أو فضل الزيادة والأكثار ما نشير الآن إلى أهميه فى ناحية الأسلوب .

١ — جعلوا الطابع المميز لها فى هذا العصر السجع الأطناب ، يصحبه الجناس على قلة والطباق نادراً ، على أن تكون الصورة الظاهرة للأسلوب هى السجع دون غيره ، ولهذا أغرم القوم به إغراماً والتزموه التزاما فى تمكن وقوة ، فجاء عفواً صفواً كسجع الحمائم حسن وقع وجمال انسجام ، وقد بلغ من التزامهم إياه أن انتقل ببعضهم من ميدان الأدب إلى ميدان التأليف كما فعل أبو نصر العتبى محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧ فى تاريخه المسمى اليمينى نسبة إلى يمين الدولة السلطان محمود الغزنوى ، فقد ترجم فيه حياته وحياة أبيه سبكتكين — وكان كاتبا لهما — فى أسلوب كله مسجوع بعيد عن التكلف والاستكراه ، وكما فعل الثعالبى المذكور فى يتيمة الدهر وإن لم يبلغ مداه . وكما جاء سجع الكتاب فى هذا العصر على ما قدمنا لا تكلف فيه جاء كذلك ما قد يلمون به مع السجع من جناس وطباق ، أنظر إلى الخوارزمى يقول مستخدما لهما فى كتاب منه إلى نائب الوزير ابن عباد هو ذا « كتبت إلى الأستاذ معاتبا مره ومستعتبا كره ، فما وجدت للعتاب إعتابا ، ولا قرأت عن الكتاب جواباً ، وليت شعرى ما الذى منعه عن صلة لا تضره وتنفعنى ، وعن تواضع لا يضعه ويرفعنى » ؟

٢ — أكثروا تضمين رسائلهم الحكم والجوامع والأمثال والأشعار والأشارات التاريخية والعلمية ، والنكت الأدبية والملح الفكاهية وبخاصة

إذا كان التراسل بين أخوين توثقت بينهما عرى المحبة وارتفعت رسوم الكلفة ، كالذى كان من ابن العميد إلى أبى العلاء السروى فى رسالة يشكو فيها رمضان سنة شديدة الحر ، فإنها من أجمع الرسائل لما ذكرنا تقريبا ، ولذا آثرنا الاستشهاد بها عليه قال.

كتابى جعلنى الله فداك ، وأنا فى كد وتعب منذ فارقت شعبان ، وفى جهد ونصب من شهر رمضان ، وفى العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ، من ألم الجوع ووقع الصوم ، ومرتهن بتضاعيف

حرور لو أن اللحم يصلى ببعضها غريضا أتى أصحابه وهو منضج (١)

وممتحن بهواجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب ويصرف وجه الحرباء عن التحنف ، ويزويه عن التنصر (٢) ويقبض يدها عن إمساك ساق وإرسال ساق ،

ويترك الجأب فى شغل عن الحقب (٣) ويقدح النار بين الجلد والعصب ويغادر الوحش وقد مالت هواديها (٤)

سجود الدى الأرطى كأن رءوسها علاها صداع أو فواق يصورها (٥)

وكما قال الفرزدق

ليوم أتى دون الظلام شموسه تظل المها صورا جماجمها تغلى

وكما قال مسكين الدرامى

وهاجرة ظلت كأن ظباءها إذا ما اتقتها بالقرون سجود

---

(١) حرور جمع حر ، والغريض الطرى ، والمنضج التام الطبخ (٢) يريد يصرف الحرباء عن عادتها فى استقبال الشمس كأنها تعبدها (٣) الجأب حمار الوحش ، والحقب أتنه جمع حقباء (٤) رءوسها (٥) الأرطى نبات مستلق يتمسح فيه الوحش إذا اشتد الحر تبردا

تلوذ بشؤبوب من الشمس فوقها كما لاذ من وخز السنان طريد
وممنو بأيام تحاكى ظل الرمح طولا وليال كأبهام القطا قصرا ، ونوم كلا ولا قلة (١) وكحسو الطائر من ماء الثماد دقة وكتصفيقة الطائر المستحر خفة

كما أبرقت قوما عطاشا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلت

ومثل

نقر العصافير وهى خائفة من النواطير يانع العنب

وأحمد الله على كل حال وأسأله أن يعرفنى فضل بركته ويلقينى الخير فى باقى أيامه وخاتمته ، وأرغب إليه فى أن يقرب على القمر دوره ويقصر سيره ، ويخفف حركته ويعجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائرته ويزيل بركة الطول من ساعاته ، ويرد على غرة شوال فهى أسر الغرر عندى وأقرها لعينى ، ويسمعنى النعرة فى قفا شهر رمضان ، ويعرض على هلاله أخفى من السر وأظلم من الكفر ، وأنحف من مجنون بنى عامر وأضنى من قيس بن ذريح وأبلى من أسير الهجر ، ويسلط عليه الحور بعد الكور (٢) ويرسل على رقاقته التى يغشى العيون ضوءها ويحط من الأجسام نورها كلفا يغمرها وكسوفا يسترها ويريبه مقمور الظهور مغمور النور ، قد جمعه والشمس برج واحد ودرجة مشتركة ، وينقص من أطرافه كما تنقص النيران من أطراف ، الزند ويبعث عليه الأرضة ويهدى إليه السوس ويغرى به الدود ويبليه بالفأر ، ويخترمه بالجراد ويبيده بالنمل ويجتحفه بالذر ويجعله من نجوم الرجم ويرمى به مسترق السمع ويخلصنا من معاودته ويريحنا من دوره ويعذبه كما عذب عباده وخلقه ويفعل به فعله بالكتان ويصنع به صنعه بالألوان ، ويقابله بما تقتضيه دعوة السارق إذا افتضح بضوئه ، وتهتك بطلوعه ، ويرحم الله عبدا قال آمينا ، وأستغفر الله جل وجهه مما قلته إن

---

(١) أى كالزمن بين هذا الحرف مكررا فى الأجابة (٢) النقصان بعد الزيادة

كرهه ، وأستعفيه من توفيق لما يذمه ، وأسأله صفحا يفيضه وعفوا يسبغه . وحالى بعد ما شكوته صالحة وعلى ما تحب وتهوى جارية ، ولله الحمد تقدست أسماؤه والشكر .

٣ — أغرموا بالخيال الشعرى إغراما شديدا فهاموا فى أوديته كما يهيم الشعراء ، واستخدموا صوره كما يستخدمون ، حتى صار كلامهم والشعر سواء ، لولا أنه غير موزون . ولذلك بالغوا فى الاستشهاد به حتى كان يصل أحيانا قدر النثر كما كتب الصاحب بن عباد فى كتاب يصف به فصلا من كتب ابن العميد

فصل رأيته فصيح الأشارة لطيف العبارة

إذا اختصر المعنى فشربة حائم وإن رام إسهابا أتى الفيض بالمد

فصل قد نظرته فرأيت جسما معتدلا وفهما مشتعلا

ونفسا تفيض كفيض الغمام وظرفا يناسب صفو المدام

فصل قد عمهم بنعمه وغمرهم بشيمه

وغزاهمُ بسوابغ من فضله جعلت جماجمهم بطائن نعله

وهكذا — ثم جاوزوا هذه المبالغة فى الاستشهاد إلى ترصيع الكتاب بالشعر كل فقرة بشطر ، كأول ما كان من البديع إلى الخوارزمى فى الشوق قبيل رحلته إليه إذ يقول

أنا لقرب دار الأستاذ كما طرب النشوان مالت به الخمر

ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر

ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب

ومن الابتهاج بمزاره كما اهتزت تحت البارح الغصن الرطب

فكيف ارتياح الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبتى العراق وخراسان ، بل عتبتى نيسابور وجرجان ، وكيف اهتزازه لضيف فى برده جمال وجلدة حمال

رث الشمائل منهج الأثواب بكرت عليه مغيرة الأعراب

كمهلهل وربيعة بن مكدم وعتيبة بن الحارث بن شهاب

وهو ولى إنعامه بإنفاذ غلامه لأقضى إليه بما عنده إن شاء الله تعالى وحده. ولقد ساعد كتاب هذا العصر — على ذلك، أن جمهره كبيرة منهم — وهذه ميزة له — كانوا شعراء كما كانوا كتابا وإن غلبت إحدى الموهبتين على صاحبتها (١) ومن هذا تسنى لكثير منهم أن يضمن كتابته أشعاره ويذيل رسائله بأبياته. كتب الصابى إلى قاضى القضاة أبى محمد بن معروف وكان قد زاره فى معتقله أيام عضد الدولة وواساه يقول.

لقد قوى دخول سيدنا قاضى القضاة إلى نفسى، وجدد أنسى وأغرب نحسى ووسع حبسى، فدعوت الله تعالى بما قد ارتفع إليه وسمعه له، فان لم أكن أهلا لأن يستجاب منى فهو أيده الله أهل لأن يستجاب فيه، وأقول مع ذلك.

دخلت حاكم حكام الزمان على صنيعة لك رهن الحبس ممتحن
ألحنت عليه خطوب جار جائرها حتى توفاه طول الهم والحزن
فعاش من كلمات منك كن له كالروح عائدة منه إلى البدن

ولنصوع الجمال الذى فاض على الكتابه بما تقدم من هذه الميزات الثلاث كثر وصفها فى هذا العصر بمثل ما كان يوصف به الشعر قبله وفيه، من حسن وبهجة ورواء، كما توصف سائر المحاسن فى مجالى الطبيعة ومبدعات الحضارة، على ألسنة الشعراء وأقلام الكتاب

---

(١) من هؤلاء من ذكرنا آنفا من الكتاب ومنهم أبو الطيب المتنى المتوفى سنة ٣٥٤ وأبو الفتح كشاجم محمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠، والقاضى الجرجانى على بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣٦٦ والشريف الرضى أبو الحسن محمد بن الظاهر المتوفى سنة ٤٠٦ وأبو العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩

قال بعض معاصرى الصابى يصف رسائله نظما .

أصبحت مشتاقا حليف صبابة برسائل الصـــابى أبى إسحاق
صوب البلاغة والحلاوة والحجى ذوب البراعـــة سلوة العشاق
طورا كما رق النسيم وتارة يحكى لنا الأطواق فى الأعناق
لا يبلغ البلغـــاء شأو مبرز كتبت بدائعه على الأحداق

وكتب ابن العميد إلى القاضى أبى محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزى يصف كتاباً وصله منه بهدية « وصل كتابك الذى وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك ، وضروب برك وتعهدك ، فارتحت لكل ما أوليت ، وابتهجت بكل ما أهديت ، وأضفت إحسانك فى كل فصل إلى نظائره التى وكلت بها ذكرى ووقفت عليها شكرى ، وتأملت النظم فملكنى العجب به وبهرنى التعجب منه ، وقد رمت أن أجرى على العادة ، فى تشبيهه بمستحسن من زهرجنى وحلل وحلى ، وشذور الفرائد فى نحور الخرائد .

بالعذارى غدون فى الحلل البيـــض وقد رحن فى الخطوط السود

فلم أره لشىء عدلا ولا أرضى ما عددته له مثلا ، والله يزيدك من فضله ولا يخليك من إحسانه وطوله ، ويلهمك من بر إخوانك ، ما تفعم به صنيعك إليهم وترب معه إحسانك عليهم .

٤ — أغرقوا فى عبارات التعظيم والتفخيم للملوك والأمراء تهويلا بشأنهم وأقدارهم وإنما كان ذلك لأن أغلب كتاب الدول الشرقية فرس مثلها ، والفرس أميل الناس إلى الغلو فى عبارات التمجيد والتكبير ، جريا على عادتهم ، وإجابة لطبيعتهم ، فهم قد جبلوا على تملق ذوى الأمر بهذا التعظيم ، وبالأطناب لهم فى جمل الدعاء والتفخيم ، ثم اشتهر ذلك عنهم حتى حاكاهم فيه أبناء العرب من كتاب الدول المغربية ولكن جاء فيها أقل حدة منه فى الشرقية لما ذكر من عربيتها وعربية كتابها ، وهذا الصابى يقول فى فصل له من كتاب إلى عضد الدولة يهنئه بغرة سنة .

« أسأل الله تعالى مبتهلا لديه ، مادا يدى إليه ، أن يحيل على مولانا هذه السنة وما يتلوها من أخواتها ، بالصالحات الباقيات ، وبالزائدات الغامرات ، ليكون كل دهر يستقبله ، وأمد يستأنفه ، موفيا على المتقدم له ، قاصراً عن المتأخر عنه ، ويوفيه من العمر أطوله وأبعده ، ومن العيش أعذبه وأرغده ، عزيزاً منصوراً محبباً موفوراً ، باسطا يده فلا يقبضها إلا على على نواصى أعداء وحساد ، ساميا طرفه فلا يغمضه إلا على لذة ورقاد ، مستريحة ركابه فلا يعملها إلا لاستضافة عزيز وملك ، فائزة قداحه فلا يحيلها إلا لحيازة مال وملك ، حتى ينال أقصى ما تتوجه إليه أمنيته جامحاً ، وتسمو له همته طامحاً » . ثم لم يبق ذلك مقصوراً على ذوى السلطان والنفوذ بل تعدى إلى ما كان بين الأخوان كما قرأت سابقاً فى كتاب ابن عباد إلى الطبرى ، وكتاب الصاحب إلى ابن العميد ، وكتاب الثعالبى فى التهنئة بالقدوم من سفر وغيرها فى هذا المعنى كثير .

٥ — ولقد كان من نتيجة هذه الظاهرة أن حاد الكتاب عن التصريح بأسماء الخليفة والرؤساء وبألقابهم إلى الكناية عنها ، تنزيها لها وتصونا عن ذكرها ، فصاروا يكنون عن الخليفة بالحضرة المقدسة النبوية أو السدة النبوية أو الخدمة الشريفة أو الديوان الشريف يعنون ديوان الأنشاء ، كما يكنون عن الوزراء بالحضرة الوزيرية وهكذا حتى صار لكل طبقة من رجال الدولة والأعيان نعوت خاصة لايخاطبون إلا بها تبعاً لاختلافهم فى مقادير النفوذ ودرجات المنازل . وقد نال الكتاب من ذلك مانال غيرهم فأخذوا ألقاب الشيخ والرئيس والأستاذ والعميد والصاحب . على أنهم تعدوا فى هذا ، الألقاب إلى الدعاء ، فنوعوا فى جملة مراعاة لمكانة المكتوب إليه ، كأن يقولوا للخليفة أطال الله بقاء مولانا . ولولى العهد أطال الله بقاء الأمير ، وللوزير أطال الله بقاءك وهكذا .

٦ — اتخذوا للرسائل نمطاً خاصاً هو أن يبدءوها بمخاطبة المرسل إليه بلقبه أو نعته بعد الأشارة إلى كتابه ، إن كان ثم منه كتاب ، ويعقبوا ذلك

بالدعاء الملائم له بصيغه الغائب أيضا ، ثم ينتقلوا إلى المقصود بنفس هذه الصيغة غالبا ، وبصيغة الخطاب فى بعض الأحيان ، وهذا ظاهر فيما أسلفنا من نماذج فلا داعى هنا إلى تمثيل .

وأخيرا بهذا النمط وما تقدمه من ميزات ، صار الأنشاء فى العصر العباسى الثالث فنا قائما له شخصية وحدود واضحتان فى الأسلوب ، وأصبحت الكتابة حرفة ذات مصطلحات كمصطلحات العلوم والفنون ، فلنتركه إلى إلى العصر الأخير لنرى ماذا كانت حال الأسلوب فيه .

د ـ فى العصر الرابع ـ ورث العصر العباسى الرابع أسلوب الكتابة عن سلفه قوى النسج جميل الرونق ، قد حالفه السجع فى غير تكلف ، وظهر به الجناس والطباق من غير إكثار ، فبهر القارىء بأشراق معانيه ، كما راقه بحلى ألفاظه ، وشهد للكاتب بسعة الاطلاع فى فنون الأدب وقوة العتاد فى صناعة القلم . وقد دعت سنة الرقى المطردة ورغبة النفس الدائبة فى الزيادة ، أن يأخذ الكتاب منذ أواخره فى الأكثار من الجناس والطباق ، وأن يضموا إليهما ما وسعهما من سائر البديعيات ، وكان البديع إذ ذاك قد كثرت فنونه وتعددت محاسنه ، واتفق أن ولد فى آخر العصر الثالث رجل قدر له أن يكون حامل لواء الكتاب فى هذا العصر الذى يليه ، هو أبو محمد القاسم بن على المعروف بالحريرى .

ولد الحريرى بقرية مشان القريبة من البصرة مدينة ابن المقفع والجاحظ سنة ٤٤٦ ، ولما كان قد خلق مفطورا على الأدب مهيئا لما ذكرنا ، غادر قريته إلى البصرة فأقام منها فى محلة بنى حرام ، وتعلم بها علوم العربية حتى برع فيها ، وعنى عناية خاصة بمفردات اللغة وفنون البلاغة ، حتى صار فى كليهما إماما ، ودعت شهرته الناس إلى الأخذ عنه فيهما ، واتصل بالخلفاء العباسيين والأمراء السلجوقيين ، وما زال علما من أعلام العلم والأدب والكتابة والشعر حتى توفى بالبصرة سنة ٥١٦ . مخلفا من الكتب ، درة الغواص فى أوهام الخواص ، وملحة الأعراب وهى أرجوزة فى النحو ،

وشرح ملحة الأعراب ، ومجموعة رسائله وديوان شعره ، ثم المقامات التى شخصته شاعرا ، ونصبته فى الكتابة إماما .

أبدع رحمه الله فى كتابتها الأبداع كله ، وتلاعب بالألفاظ تلاعب الصوالجة بالأكر ، فلم يدع فنا من البديع إلا استخدمه فى قدرة عليه وتمكن منه ، مكثرا الألفاظ اللغوية والحكم المختارة ، والأمثال السائرة والفكاهات المستملحة ، والاقتباس من القرآن والحديث ، والإلمام بكثير من دقائق العلوم ، ومتناولا من الجدل وغرائب الحيل ، إلى غير ذلك مما جعله فذا فى ابتكاره ، وجعل الناس بعده عاجزين عن الجرى فى مضماره ، لشدة ما تكلفه حتى صار له طبعا وعلى غيره عبئا ، فأخذت ألفاظهم تكتم أنفاس المعانى حتى خفيت ، واستكرهت المحسنات حتى سمجت وقبحت ، ثم نضب معين الأجادة من الكاتبين والفهم من القارئين ، بما أناخ على الأدب وعصف بذويه من تسلط الأكراد غربا والأتراك شرقا على الفاطميين العرب ، والبويهيين المتعربين ، وظهرت آثار ذلك من تكلف واستكراه ، منذ أواسط العصر ظهورا حاد بأسلوب الكتابة فى نصفه الثانى عما كان عليه فى النصف الأول ، وخلع على طريقتها فيه اسم الطريقة الفاضلية نسبة إلى القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على المتوفى سنة ٥٩٦ فقد أغرق فى استخدام البديع ، وغالى فى التأنق حتى تجاوز الحد ، فانقلب الحسن بهذا الغلو كما يقولون إلى الضد ، وإذا رجعت إلى رسائله تجد التكلف باديا والمعنى خافيا . ولقد كان هـــذا الخفاء أبدى فى الكتب العلمية التى تكلفوا فيها البديع إذ ذاك ، منه فى رسائل الأنشاء كما هى الحال فى كتاب « الفتح القسى فى الفتح القدسى » الذى أرخ فيه عماد الدين الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ فتح صلاح الدين لبيت المقدس . فان من عبارته مالا غنية عن المعاجم فى معرفة معناه على عكس ما ذكرنا عن كتاب اليمينى آنفا

وقد هالت هذه الغلبة للألفاظ على المعانى بعض أدباء العصر إذ ذاك

فعملوا على مقاومتها وحضوا على مراعاة حرمة المعنى مع عدم الأجحاف بحق الألفاظ ، وذلك بما ألفوا ورسموا كأبى الفتح ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ صاحب كتاب «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر» فقد بين فيه ما يتطلبه الأدب من كليهما فى المعنى واللفظ على السواء ، وليس فى كتابته ما كان لعصره من تكلف الألفاظ وإخفاء المعانى .

هذا ولا يفوتنا وقد انتهينا من وصف الأسلوب الكتابى فى كل عصر من العصور الأربعة العباسية وصفا مميزا أن نقول ، إن ذلك واقع على اعتبار مجموع كتاب كل عصر لا كل كاتب فيه . فقد يحدث فى عصر متقدم أن ينشأ كاتب سابق لزمانه يلبس أسلوبه ثوب عصر بعده ، كالزهرة تتفتح مبكرة فى بستان ، ولما يتفتح بعد شىء من الأزهار . واليك فى هذا رسالة إبراهيم بن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكى التى يقول فيها مستعطفا : للأصيد الجواد الوارى الزناد الماجد الأجداد ، الوزير الفاضل الأشم الباذل اللباب الحلاحل ، من المستكين المستجير البائس الضرير ، فانى أحمد اليك الله ذا العزة القدير ولى الصغير والكبير بالرحمة العامة والبركة التامة . أما بعد فاغنم واسلم واعلم إن كنت لا تعلم ، أنه من يرحم يرحم ، ومن يحرم يحرم ، ومن يحسن يغنم ومن يصنع المعروف لا يعدم . وقد سبق إلى تغضبك على ، واطراحك لى وغفلتك عنى ، بمالا أقوم به ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد ، قلست بحى صحيح ولا بميت مستريح . فررت بعد الله منك اليك ، وتحملت بك عليك ، ولذلك قلت

أسرعت بى حثا إليك خطائى[1] فأناخت بمذهب ذى رجاء
راغب راهب إليك يرجى منك عفوا عنه وفضل عطاء

---

(١) جمع خطيئة من غير إعلال سماعا .

ولعمرى ما من أصر ومن تا ب مقرا من ذنبه بسواء
فان رأيت أراك الله ما تحب وأبقاك فى خير ، ألا تزهد فيما ترى من تضرعى وتخشعى وتذللى وتضعفى ، فان ذلك ليس لى بنحيزة ولا طبيعة ولا على وجه تصنع ولا تخدع ، ولكنه تذلل وتخشع وتضرع من غير ضارع ولا مهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن التضرع له عز ورفعة وشرف » .
ومثله من يجيد فى عصر ضعف وتأخر كصاحب المثل السائر المذكور . وقد يحدث أن يكتب كاتب فى عصر لاحق متأثرا بأسلوب كاتب سابق نشأ يتعشقه ويحتذى رسمه كالصابى فى محاكاته الصولى ، فتجىء كتابته على غير طريقة عصره كأنها بقلم سلفه ، عن محاكاة أو معارضة ، على أنه فى جميع هذه الأحوال لابد أن يكون هناك خضوع من الجميع لمؤثرات العصر العامة وظروفه الشاملة

دواعى الرسائل وأغراضها ومكانة رجالها

ما من داعية دعت إلى الخطابة فى العصر العباسى الأول إلا دعت إلى الكتابة فيه ، وما من غرض قصد إليه الخطيب ثمة إلا قصد إلى مثله الكاتب إذ ذاك ، ولهذا نرانا فى حل من العودة إلى تفصيل الدواعى والأغراض هنا اتكالا على ما فصلنا هناك ، وإن هى إلا كرة منا تذكر فيها بما كان وتشير إلى موطن الشاهد فى النماذج ، أو تأتى بجديد إذا دعت الحاجة إلى جديد ، ثم نخلص بعدها إلى ما انفردت به الكتابة دون الخطابة فى ذلك العصر وفيما أعقبه من عصور .

١ — فالكتابة قد استخدمت فى تثبيت قواعد الملك الجديد ضد الطامعين فيه من العلويين والخارجين عليه من غيرهم ، وهأنت ذا قد قرأت ما صدرنا به نماذجها من الرسائل القوية الطويلة الممتعة بين أبى جعفر المنصور والنفس الزكية محمد بن عبد الله . والآن فاقرأ ما كان بين أبى جعفر هذا وبين أبى مسلم الخراسانى إذ بعث إليه من أحصى عليه المغانم عقب

انتصاره على عمه عبد الله بن على ، فغضب وقال « أكون أميناً على الدماء غير أمين على الأموال » وحدثته نفسه بالخروج وهم أن يعود إلى خراسان فكتب إليه المنصور « إنى قد وليتك مصر والشأم فهى خير لك من خراسان ، فوجه إلى مصر من أحببت ، وأقم بالشأم حتى تكون بقرب أمير المؤمنين ، فان أحب لقاءك أتيته من قريب » — فكتب إليه أبو مسلم وقد فهم أنه يريد بقاءه قريباً منه لقتله — كما حدث بعد — « إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه . وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون من الوزراء إذا سكنت الدهماء . فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء لك بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة . فإن أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسى » فكتب إليه المنصور — « قد فهمت كتابك ، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فإن راحتهم فى انتشار نظام الجماعة . فلم سويت نفسك بهم وأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وقد حمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالته لتسكن إليها إن أصغيت إليها ، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك ، فإنه لم يجد بابا يفسد به نيتك أو كد وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك » . فأثر فيه ذلك على ما فهم آنفاً ، وقدم عليه فلقى حتفه .

٢ — والكتابة قد استخدمت فى الاستعطاف والوعيد والعتاب المصحوب بالعفو ، مما يدور حول الملك ، وتعدته دون الخطابة إلى ما لا يدور حوله .

فمن الأول فى الاستعطاف : كتاب الصابى عن عضد الدولة إلى أخيه مؤيد الدوله بشأن ذى الكفايتين على بن محمد بن العميد ، ومنه فى الوعيد كتاب طاهر بن الحسين عن المأمون إلى نصر بن شبث وكتاب ابن العميد

عن ركن الدولة إلى ابن ونداد ، ومنه فى العتاب المصحوب بالعفو كتاب ابن الزيات عن الخليفة إلى بعض العمال وقد تقدمت .

ومن الثانى فى الاستعطاف كتاب ابن الرومى ، ومنه فى الوعيد كتاب ابن الزيات إلى الصولى ، ومنه فى العتاب كتاب الخوارزمى إلى صديقه الذى لم يعده فى مرضه ولم يهنئه بابلاله ، وكتابه إلى تلميذه الذى لم يزره بعد أن تخرج عليه وقد سبقت .

٣ — والكتابة قد استخدمت فى الحوار بين الخصماء ، وفيه بين الأحباء ، وفيه بين المتفاصحين . فمن الأول الرسائل المذكورة بين المنصور والنفس الزكية ، ومن الثانى كتاب يحيى بن خالد إلى ابنه الفضل فى تنازله عن الخاتم لجعفر ، ورد الفضل عليه وقد سبقت . أما الثالث فاليك منه رسالتين مما كان بين الخوارزمى والبديع ، فإن الخوارزمى لما لم يحسن مقابلة البديع على ما كتب له قبل لقائه فى رسالة الشوق الماضية كتب البديع — الأستاذ والله يطيل بقاءه ، ويديم تأييده ونعماءه ، أزرى بضيفه أن وجده يضرب آباط القلة فى أطمار الغربة ، فأعمل فى ترتيبه أنواع المصادفة ، وفى الاهتزاز له أصناف المضايقة ، من إيماء بنصف الطرف وإشارة بشطر الكف ، ودفع فى صدر القيام عن التمام ، ومضغ الكلام وتكلف لرد السلام ، وقد قبلت هذا الترتيب صغراً واحتملته وزراو احتضلته نكرا وتأبطته شراً ولم آله عذراً فان المرء بالمال وثياب الجمال ، وأنا مع هذه الحال وفى هذه الأسمال لا أتقزز من صف النعال . ولو حاملته العقاب وناقشته الحساب وصدقته المتاع ، لقلت إن بوادينا ثاغية صباح ، وراغية رواح ، وقوماً يجرون المطارف ولا يمنعون المعارف .

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل
على مكثريهم حق يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل
ولو طوحت بالأستاذ أيدى الغربة إليهم لوجد منال البشر قريباً ومحط الرحل رحيباً ووجه المضيف خصيباً ، ورأيه أيده الله فى أن يملأ من هذا

الضيف أجفان عينه ويوسع أعطاف ظنه بموقع هذا العتاب الذى معناه ود ، والمر الذى يتلوه شهد ، موفقاً إن شاء الله تعالى .

فكيف إليه الخوارزمى : —

إنك إن كلفتنى ما لم أطق ساءك ما سرك منى من خلق

فهمت ما تناوله سيدى من حسن خطابه ، ومؤلم عتبه وعتابه ، وصرفت ذلك منه إلى الضجر الذى لا يخلو منه من نبابه دهر ، ومسه من الأيام ضر ، والحمد لله الذى جعلنى موضع أنسه ومظنة مشتكى ما فى نفسه ، أما ما شكاه سيدى من مضايقتى إياه زعم فى القيام وتكلفى لرد السلام ، فقد وفيته حقه كلاماً وسلاماً وقياماً ، على قدر ما قدرت عليه ووصلت اليه ، ولم أرفع عليه غير السيد أبى القاسم ، وما كنت لأرفع أحداً على من أبوه الرسول وأمه البتول وشاهداه التوراة والأنجيل ، وناصراه التأويل والتنزيل ، والبشير به جبريل وميكائيل . وأما عدم الجمال ورثاثة الحال ، فما يضعان عندى قدراً ، ولا يضران نجراً ، وإنما اللباس جلدة والزى حلية بل قشرة ، وإنما يشغل بالجل من لا يعرف قيمة الخيل ، ونحن بحمد الله نعرف الخيل عارية من جلالها ، ونعرف الرجال بأقوالها وأفعالها لا بآلاتها وأحوالها ، وأما القوم الذين صدر سيدى عنهم وانتمى اليهم ، ففيهم لعمرى فوق ما وصف ، حسن عشرة وسداد طريقة وجمال تفصيل وجملة ، ولقد جاورتهم فنلت المرتاد

فان أك قد فارقت نجدا وأهله فما عهد نجد عندنا بذميم

والله يعلم نيتى للأحرار عامة ولسيدى من بينهم خاصة . فإن أعاننى على مرادى له ونيتى فيه بحسن العشرة ، بلغت له بعض ما فى النية وجاوزت مسافة القدرة ، وإن قطع على طريق عزمى بالمعارضة وسوء المؤاخذة صرفت عنانى عن طريق الاختيار بيد الاضطرار .

فما النفس الانطقة بقرارة إذا لم تكدر كان صفواً غديرها

وعلى هذا فحبذا عتاب سيدى إذا صادف ذنباً واستوجب عتبا . فأما أن يسلفنا العربدة ويستكثر المعتبة والموجدة ، فتلك حال نصونه عنها

ونصون أنفسنا عن احتمال مثلها . فليرجع بنا إلى ما هو أشبه به وأجمل له ، ولست أسومه أن يقول « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

٤ — والكتابة قد استخدمت فى التعازى والتهانى وقد سلفت فى النماذج تهنئة ابن المقفع بمولودة وتعزيته عن بنت ، ثم عن ابن ، وتهنئة أحمد بن يوسف بمولود ، وتهنئة عمرو بن مسعدة عن المأمون صهره الحسن بن سهل بمولود أيضا ، وتهنئة الجاحظ الفتح بن خاقان فى يوم عيده ، وتهنئة الثعالبى بالقدوم من سفر ، وكذا تهنئة رشيد الدين الوطواط وغيرها مما جاء بعدها .

وباب التعزية والتهنئة من أحفل أبواب التراسل وأكثرها مقولا ، لاتصاله بنعماء الأيام وبأسائها . ويتصل به ما يكتب إلى المكروبين بمرض أو غيره ، تصبيرا لهم وتمنيا لزواله عنهم ، كما كتب ابن المعتز سابقا .

٥ — والكتابة قد استخدمت فى التزلف والتقرب عن طريق المدح والثناء ، كما فعل ابن العميد فى كتابه إلى ركن الدولة عن نماء العلوم به ، وكما كتب الصاحب إلى ابن العميد وقد وصف له البحر ، وكما كتب عبد الله بن طاهر من خراسان إلى المأمون يقول

« بعدت دارى عن أمير المؤمنين وعن ظل جناحه وعن خدمته ، وإن كنت حيث تصرفت لا أتفيأ إلا به ، وقد اشتد شوقى إلى النظر إلى رؤيته المباركة والتزين بحضور مجلسه وتلقيح عقلى بحسن رأيه ، فلا شىء عندى آثر من قربه وإن كنت فى سعة من عيش وهبه الله جل ذكره لى به ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى المصير إلى دار السلام لأحدث عهدا بالنعم على ، وأتهنأ بالنعمة التى أقرها لدى ، فعل — فكان جواب المأمون إليه — قربك إلى يا أبا العباس حبيب وأنا إليك مشتاق وإنما بعدت دارك عن أمير المؤمنين بالنظر لك والتخير لحسن العاقبة فيك ،

فالزم مكانك واتبع قول الشاعر

رأيت دنو الدار ليس بنافعى إذا كان ما بين القلوب بعيدا

٦ — والكتابة قد استخدمت فى بيان وجه الرأى لمن طلبه مستشيرا ، كما كتب ابن المعتز آنفا مجيبا من يسأل كيف يكون كسب المحامد ، وكما كتب البديع لمن تحدثه نفسه بصحبة الملوك يقول « إن الملوك إذا خدمتهم ملوك ، وإن لم تخدمهم أذلوك ، وإنهم يستعظمون فى الثواب رد الجواب ، ويستقلون فى العقاب ضرب الرقاب ، وإنهم ليعثرون على عثرة من خدمهم فيبنون لها منارا ، ثم يوقدون لها نارا ، ويعتقدونها ثارا ، فكن من الملوك مكانك من الشمس ، إنها لتؤذيك والسماء لها مدار والأرض لك دار ، فكيف لو أسفت قليلا وتدانت يسيرا ، وإن العاقل ليطلب منها مزيد بعد ، فيتخذ سربا ، لواذا وهربا ، ويبتغى فى الأرض نفقا ، فرارا وفرقا » .

ومما يتصل بهذا ما يصدر فى كتب الترفع عما لا ينبغى أن يكون إلى ما يجب أن يكون ، كما تقدم فى كتاب البديع إلى من هنأه بمرض الخوارزمى ، وكما كتب محمد بن يحيى والى أرمينية للرشيد إلى بعض عماله وقد وشى إليه برجل ليأخذ مالا له يقول « قرأت هذه الرقعة المذمومة وفهمتها ، وسوق السعاية بحمد الله فى أيامنا كاسدة وألسنة السعادة كليلة خاسئة . فإذا قرأت كتابى هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخذهم بما فى ديونك ، فأنا لم نولك الناحية لتتبع الرسوم العافية ، ولا لأحياء الأعلام الدائرة . وجنبنى وتجنب قول جرير يخاطب الفرزدق :

وكنت إذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا

وأجر أمورك على ما يكسب الدعاء لنا لا علينا ، واعلم أنها مدة تنتهى وأيام تنقضى ، فأما ذكر جميل ، وإما خزى طويل »

٧ — والكتابة قد استخدمت فى النصائح والوصايا وفى العظات أيضاً على النهج الذى أوضحناه فيها ، وإن كثر استعمالها فى الأوليين وكان فى الأخرى قليلا . فمنها فى الوصية ما كان يكتب به الخلفاء لأولياء عهودهم ،

وذوو الأقدار لنابهى أبنائهم ، كما كتب المنصور لولى عهده المهدى ، وطاهر بن الحسين لابنه عبد الله وهما مطولان بالطبرى ، ثم ما كان يكتب به كل رجل لمن يهتم بأمره من ذوى قرباه ، كما فعل البديع مع ابن أخته إذ كتب إليه يقول : « أنت ولدى مادمت والعلم شانك ، والمدرسة مكانك والدفتر أليفك والمحبرة حليفك . فإن قصرت ولا إخالك فغيرى خالك » . ومنها فى النصيحة ما كتب البديع إلى صديقه الذى مات أبوه يحذره التبذير والتقتير ، وما كتب ابن المقفع فى أدبه الصغير من شتيت النصح والإرشاد . أما العظه فمنها ما كان من سفيان الثورى إلى الرشيد إذ كتب يدعوه إلى زيارته ويذكر له أن العلماء زاروه حين استخلافه وهنئوه ، وأنه فتح لهم بيوت المال وأجزل لهم الصلات . فإنه حين وصل إليه الرسول بالكتاب وهو بمسجد الكوفة يعظ أصحابه ، وقرأ ما فيه كتب إلى الرشيد على ظهره يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثورى ، إلى العبد المغرور هرون الرشيد الذى سلب حلاوة الأيمان . أما بعد فإنى قد كتبت إليك أعرفك أنى قد صرمت حبلك ، وقطعت ودك وقليت موضعك ، فإنك قد جعلتنى شاهدا عليك بأقرارك على نفسك فى كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته فى غير حقه ، وأنفذته فى غير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى ، حتى كتبت لى تشهدنى على ذلك . أما إنى قد شهدت عليك أنا وإخوانى الذين شهدوا قراءة كتابك وسنؤدى الشهادة عليك غداً بين يدى الله تعالى . يا هرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها فى أرض الله تعالى والمجاهدون فى سبيل الله وابن السبيل؟ أم هل رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام ؟ أم هل رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ فشد يا هرون مئزرك وأعد للمسألة جوابا وللبلاء جلبابا ، واعلم أنك ستقف بين يدى الحكم العدل ، فقد رزئت فى نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ، ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار ، ورضيت لنفسك

أن تكون ظالما وللظالمين إماما . ياهرون قعدت على السرير وأسبلت سترا دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك ، يظلمون الناس ولا ينصفون ، ويشربون الخمور ويضربون من شربها ، ويزنون ويحدون الزانى ، ويسرقون ويقطعون يد السارق ، أفلا كانت هـــذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس ؟ فكيف بك ياهرون غدا إذا نادى المنادى من قبل الله تعالى « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم » أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فقدمت بين يدى الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك، لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار ، كأنى بك يا هرون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق ، وأنت ترى حسناتك فى ميزان غيرك ، وسيئات غيرك فى ميزانك زيادة فى سيئاتك ، بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة . فاحتفظ بوصيتى واتعظ بموعظتى التى وعظتك بها ، واعلم أنى قد نصحتك وما أبقيت لك فى النصح غاية فاتق الله ياهرون فى رعيتك، واحفظ محمداً صلى الله عليه وسلم فى أمته وأحسن الخلافة عليهم ، واعلم أن هذا الأمر لو بقى لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك ، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحدا بعد واحد ، فمنهم من تزود زادا نفعه ، ومنهم من خسر دنياه وآخرته ، وإنى أحسبك يا هرون ممن خسر دنياه وآخرته فأياك إياك أن تكتب لى كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام (١) .

هذا على أنه قد بقيت من النماذج السالفة بقية تمثل أغراضا أخرى

---

(١) قيل إن هرون لما وصله هذا الكتاب جعل يقرؤه ودموعه تتحدر فقال له بعض الحاضرين : قد اجترأ عليك يا أمير المؤمنين سفيان ، فلو أثقلته بالحديد ، وضيقت عليه السجن فقال لهم « اتركونا يا عبيد الدنيا فالمغرور من غررتموه ، والشقى من أهلكتموه ، إن سفيان أمة وحده » ثم أبقى الكتاب إلى جنبه يقرؤه رحمه الله عند كل صلاة حتى توفى .

للكتابة لم تتناولها الخطب بل لم يتناول بعضها الشعر .

وها هى ذى مصحوبة بما يتصل بها وبما لا يتصل ، من سائر الأغراض التى لم يسبق لها فى النماذج شىء .

١ — الأخبار والاستخبار — كما كتب ابن المقفع فيما سلف ، وكما كتب ابراهيم بن المهدى إلى صديق له يقول « كتابى إليك كتاب مخبر وسائل ، فأما الأخبار فعن تصرف الخطوب على ما يوجب العذر عند صديق العزيز على فى إبطائى بالتعاهد له ، وأما السؤال فعن إمساك هذا الأخ الودود المودود عن مثل هذا ، فان السؤال كاشف ما سلف مصلح لما استؤنف » .

٢ — الاستمناح والتوصل — كما كتب ابن المقفع والصولى آنفا ، ومن أجمل ما وقع فى هذا الباب ما كتب العتابى إلى أحد أصدقائه وهو : — « أما بعد أطال الله بقاءك وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجنة ، فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم ، تبتهج النفوس بها وتستريح القلوب إليها وكنا نعفيها من النجعة استتماما لزهرتها وشفقة على خضرتها وإدخارا لثمرتها ، حتى أصابتنا سنة كانت عندى قطعة من سنى يوسف ، اشتد علينا كلبها وعاث قحطها ، وكذبتنا غيومها وأخلفتنا بروقها ، وفقدنا صالح الأخوان فيها ، فانتجعتك وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة عليك عظيم المقة لك والثقة بك ، مع علمى بأنك موضع الرائد وأنك تغطى عين الحاسد ، وأنك غاية أمل القصاد وأعذب مناهل الوراد ، والله يعلم أنى ما أعدك إلا فى حومة الأهل واعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير ، لم يعرف جوده ولم تظهر همته » فشاطره ذلك الصديق ماله ومرافقه .

ومن أدق أنواع التوصل ما كان فى طلب المصاهرة : ولعل من أوقع الرسائل فيه رسالة الصابى السابقة عن صديقه .

٣ — الاستنجاز — وقد تقدم للجاحظ نموذج منه ، وهو مثل ما كتب

العتابى قبله يقول « أما بعد فقد تركتنى منتظرا لوعدك متنجزا لرفدك ، وطالب الحاجة محتاج إلى نعم هنيئة أولا مريحة ، والعذر الجميل أحسن من المطل الطويل وقد قلت .

بسطت لسانى ثم أوثقت نصفه فنصف لسانى بامتداحك مطلق
فان أنت لم تنجز عداتى تركتنى وباقى لسان الشكر باليأس موثق

وأرفق منهما ما كتب به يحيى بن أكثم إلى المأمون « أنت يا أمير المؤمنين أكرم من أن نعرض لك بالاستنجاز ، ونقابلك بالأذكار ، وأنت شاهدى على وعدك ، لا تأمر بشىء لم تتقدم أيامه ولم يقدر زمانه ، ونحن أضعف من أن يستولى علينا صبر انتظار نعمتك ، وأنت الذى لا يؤوده إحسان ولا يعجزه كرم ، فعجل لنا أمير المؤمنين ما يزيدك كرما وتزداد به نعما ، ونتلقاه بالشكر الدائم » .

٤ — الاعتذار — كما كتب الصابى سابقا يعتذر من تأخر كتبه ، وكما كتب البديع يقول « يعز على أيد الله الشيخ أن ينوب فى خدمته قلمى عن قدمى . ويسعد برؤيته رسولى قبل وصولى ، ويرد مشرع الأنس به كتابى قبل ركابى ، ولكن ما الحيلة والعوائق جمة .

وعلى أن أسعى وليس على إدراك النجاح

وقد حضرت داره وقبلت جداره ، ومابى حب للحيطان ولكن شغفت بالقطان ، ولا عشق للجدران ولكن شوق إلى السكان .

٥ — الشكر — كما كتب الحسن بن وهب سابقا ، وكما كتب العتابى إلى بعض الرؤساء « كتبت إليك ونفسى دائمة القيام بشكرك ولسانى لهج بالثناء عليك ، والغالب على ضميرى لائمة نفسى واستقلال جهدى فى مكافأتك ، وأنت أعزك الله فى عز الغنى عنى ، وأنا تحت ذل الفاقة إلى عطفك ، وليس من أخلاقك أن تولى جانب النبوة منك ، ومن هو عان فى الضراعة إليك » . ومن لطيفه وغريبه ما كتب به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر إلى

أحد الرؤساء وقد عاده « ما أعرف أحدا جزى العلة خيرا غيرى ، فإنى جزيتها الخير وشكرت نعمتها على ، إذ كانت إلى رؤيتك مؤدية ، فأنا كالأعرابى الذى جزى يوم البين خيرا فقال .

جزى الله يوم البين خيرا فإنه أرانا على علاته أم حارث

أرانا ربيبات الخدور ولم نكن نراهن إلا بانبعاث الحوادث

٦ — الاستهداء — كما كتب ذو الكفايتين حفيد العميد يستهدى شرابا فقال « قد اغتنمت الليلة أطال الله بقاء سيدى ومولاى رقدة من عين الدهر ، وانتهزت فيها فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابى فى سمط الثريا ، فإن لم تحفظ علينا النظام بأهداء المدام ، عدنا كبنات نعش والسلام » .

٧ — الأهداء — كما كتب عبد الله بن طاهر الى المأمون وقد أهدى إليه فرسا « قد بعثت إلى أمير المؤمنين بفرس يلحق الأرانب فى الصعداء ، ويجاوز الظباء فى الاستواء ، ويسبق فى الحدور جرى الماء فهو كما قال تأبط شرا .

ويسبق وفد الريح من حيث تلتحى بمنخرق من شده المتدارك

وكتبت جارية من جوارى المأمون له وقد أهدت إليه تفاحة ، « إنى لما رأيت تنافس الرعية فى الهدايا إليك ، وتوانر ألطافهم عليك ، فكرت فى هدية تخف مئونتها وتهون كلفتها ، ويعظم خطرها ويكمل موقعها ، فلم أجد مايجتمع فيه هذا النعت ويكمل فيه هذا الوصف إلا التفـــاح ، فأهديت إليك منه واحدة فى العدد كثيرة فى التقرب ، وأحببت يا أمير المؤمنين أن أعرب لك عن فضلها ، وأكشف لك عن محاسنها . وأشرح لك لطيف معانيها ، وما قالت الأطباء فيها ، وتفنن الشعراء فى أوصافها ، حتى ترمقها بعين الجلالة ، وتلحظها بمقلة الصيانة ، ولكن أقول كما قال أبوك الرشيد رضى الله عنه : أحسن الفاكهة التفاح اجتمع فيه الصفرة

الدرية ، والحمرة الخمرية ، والشقرة الذهبية ، وبياض الفضة ولون التبر ، يلذبها من الحواس العين ببهجتها ، والأنف بريحها ، والفم بطعمها » .

٨ — الشوق — كما تقدم للجاحظ إلى قليب ولابن العميد إلى الطبرى. وكما كتب العتابى « لو اعتصم شوقى إليك بمثل سلوك عنى لم أبذل وجه الرغبة إليك ولم أتجشم مرارة تماديك ، ولكن استخفتنا صبابتنا فاحتملنا قسوتك لعظيم قدر مودتك ، وأنت أحق من اقتص لصلتنا من جفائه ولشوفنا من أبطائه » . وكتب عبد الله بن العباس العلوى إلى إبراهيم بن المهدى « ما أدرى كيف أصنع ، أغيب فأشتاق ونلتقى فلا أشتفى ، ثم يحدد لى اللقاء الذى طلبت به الشفاء نوعا من تجديد الحرقة بلوعة الفرقة » فكتب إليه ابراهيم « أنا الذى علمتك الشوق لأنى شكوت ذلك إليك فهيجت مثله منك » ومما يتصل بالشوق الكتابة فى التعرف قبل اللقاء كما كتب البديع إلى الأمير أبى نصر الميكالى يقول « كتابى أطال الله بقاء الأمير وبودى أن أكونه فأسعد دونه ، ولكن الحريص محروم ، لو بلغ الرزق فاه لولاه قفاه . وبعد فإنى فى مفاتحته فى ثقة تعد ، ويد ترتعد ، ولم ذاك والبحر وإن لم أره فقد سمعت خبره ، ومن رأى من السيف أثره فقد رأى أكثره ، والليث وإن لم ألقه فلم أجهل خلقه . وما وراء ذلك من تالد أصل ونسب ، وطارف فضل وأدب ، فمعلوم تشهد به الدفاتر والخبر المتواتر ، وتنطق به الأشعار كما تحلف عليه الآثار ، والعين أقل الحواس إدراكا ، والأذن أكثر استمساكا » .

٩ — الاستزارة — كما سبق من الخوارزمى إلى تلميذه ، وكما كتب بعضهم إلى صديق يقول « ليس من قدرى أدام الله سعادتك أن أقول لك جعلت فداك ، لأنى أراك فوق كل قيمة نضيرة وثمن معجز ، ولأن نفسى لا تساوى نفسك فتقبل فى فديتك ، وعلى كل حال جعلنى الله فداء ساعة من أيامك . واعلم أيها السيد العلى المنزلة ، أنه لو كان لعبدك من شدة الخطب أمر يقف عند حده النعت ، لاجتهدت أن يصف من ذلك ما عسى

أن يعطف به زمام قلبك ، ويحنو على الرقة والتحنى أثناء جوانحك ، ولكن ما أمسيت وأصبحت ممتحناً به فيك ، منع كل بيان ونزح عن كل لسان ، والود أيها الصديق لم يشبه قذى ريبة ، ولم يختلط به ثلب معاب ، فلا ينبغى لمن كرمت أخلاقه أن يعاف قرابة صاحبه المدل بحسن نيته ، والذى أتمناه أيها المولى الحبيب مجلس أقف فيه أمامك ثم أبوح بما أضنى جسدى وفتت كبدى ، فإن خف ذلك عليك ، ورأيت نشاطاً من نفسك إليه ، كنت كمن فك أسيراً وأبرأ عليلا ، وسلك من الخير سبيلا ، يتوعر سلوكها على من كان قبله ويكون بعده ثم أضاف إلى ذلك منة لا يطيقها جبل راس ولا فلك دائر ، فرأيك أيها السيد المعتمد فى الأسعاف قبل أن يبدرنى الموت فيحول بينى وبين ما نزعت إليـــه النفس ، مواصلا برا إن شاء الله [1] .

ومما جرت العادة بالاستزارة فيه مجالس الأنس والمنادمة ، كما كتب إسحق بن ابراهيم الموصلى لبعض الكبراء « يومنا يوم لين الحواشى وطىء

---

(١) كان جواب هذه الرسالة الممتعة فى الضراعة والتزلف رسالة مثلها فى ذلك وهى « تولى الله تعالى ماجرى به لسانك بالمزيد ، ولا أوحش ما بيننا بطائر فرقة ولا حافر تشتيت ، وضمنا وإياك فى أوثق حبال الأنس وأوكد أسباب الألفة . وقفت على ما لخصته من العجز عن بلوغ ما خامر قلبك وانطوى فى ضميرك من الشغف المقلق والهوى المضرع . ولعمرى لو كشف لك عن معشار ما اشتمل عليه مضمر صدرى ، لأيقنت أن الذى عندك إذا نسبته إلى ما عندى كالمتلاشى الزائل ، ولكنك بفضل الأنعام سبقتنا إلى كشف ما فى الضمير . وأما طاعتى لك وزمامى إليك ، فطاعة العبد المقتنى الطائع لما يحكم به وعليه مولاه ومالكه ، وأنا صائر إليك وقت كذا فتأهب لذلك بأجهد عافية وأتم عاقبة وأسعد نجم جرى بألفة إن شاء الله تعالى » .

النواحى ، وسماؤنا قد أقبلت ورعدت بالخير وبرقت ، وأنت قطب السرور ونظام الأمور ، فلا تفردنا فنقل ولا تنفرد عنا فنذل » . وكما كنت الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب وقد اصطبح فى يوم دجن لم يمطر « أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس فى يومنا هذا بقرب المطر وبعده كأنه قول كثير عزة :

وإنى وتهيامى بعزة بعدما تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقيل اضمحلت

وما أصبحت أمنيتى إلا فى لقائك ، فليت حجابا هتك بينى وبينك ، ورقعتى هذه وقد دارت زجاجات أوقعت بعقلى ولم تتحيفه ، وبعثت فى نشاطاً حركنى للكتابة إليك ، فرأيت فى إمطارى سروراً بسار خبرك إذ حرمت السرور بمطر هذا اليوم ، موفقاً إن شاء الله (١) » . وكتب الحسن بن سهل أيضاً فى مثل ذلك إلى صديق « نحن فى مأدبة لنا تشرف على روضة تضاحك الشمس حسناً وقد باتت السماء تعلها ، فهى مشرقة بمائها حالية بنوارها . فرأيك فينا لنكون سواء فى استمتاع بعضنا ببعض » فكان الجواب « هذه صفة لو كانت فى أقاصى الأطراف لوجب انتجاعها وحث المطى فى ابتغائها ، فكيف فى موضع أنت تسكنه ، وتجمع إلى أنيق منظره حسن وجهك ، وطيب شمائلك وأنا الجواب » . وقد رقت

---

(١) كانت إجابة ابن وهب له « وصل كتاب الأمير أيده الله وفمى طاعم ويدى عاملة ، ولذا تأخر الجواب قليلا . وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم وإساءته ، وما استوجب ذنباً يستحق به عتباً . لأنه إذا أشمس حكى حسنك وضياءك ، وان أمطر حكى جودك وسخاءك ، وان غام أشبه ظلك وفناءك ، وسؤالى الآن عن نعمة من نعم الله عز وجل ، على أعفى بها آثار الزمان السيء عندى ، وأنا كما يحب الأمير ، صرف الله الحوادث عنه وعن حظى منه » .

المكاتبات فى هذا الباب وما تقدمه حتى أصبحت غزلا منثوراً لا يفرقه عن غزل الشعر إلا القافية والوزن كما قرأت فيما مر .

١٠ — شكوى الدهر — كتب الصولى إلى بعض إخوانه « يا أخى أشكوى إلى الله وإليك تحامل الأيام على ، وسوء أثر الدهر عندى ، وأنى معلق فى حبائل من لا يعرف موضعى ولا يحلو عنده موقعى . أطلب منه الخلاص فيزيدنى كلفا ، وأرتجى منه الحق فيزداد به ضنا ، فالثواء ثواء مقيم ، والنية نية ظاعن وبزمام الرأى مرتحل . ما أذهب إلى ناحية فى الحيلة إلا وجدت من دونها مانعاً من العوائق ، وأحمل الذنب على الدهر فأرجع إلى الله بالشكر ، وأسأله جميل العقبى وحسن الصبر » . وكتب ابن العميد فى مثل ذلك « إنما أشكو إليك جعلنى الله فداك دهراً خئوناً غدوراً ، وزمانا خدوعا غرورا ، لا يمنح ما منح إلا ريثما ينتزع ، ولا يبقى فيما يهب إلا ريثما يرتجع ، يبدو خيره لمعا ثم ينقطع ، ويحلو ماؤه جرعا ثم يمتنع . وكانت منه شيمة مألوفة وسجية معروفة أن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض ، ويهدى لما يبسطه وشك انقباض . وكنا نلبسه على ما شرط ، وإن حاف فيه وقسط ، ونرضى على الرغم بحكمه ، ونسلم ونستثم بقصده وظلمه ، ونعتد من أسباب المسرة ألا يجىء محذوره مصمتاً بلا انفراج ، ولا يأتى مكروهه صرفا بلا مزاج ، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته ونسترقه من ساعاته . وقد استحدث غير ما عرفناه سنة مبتدعة وشريعة متبعة ، وأعد لكل صالحة من الفساد حالا ، وقرن بكل خلة من المكروه خلالا » .

١١ — الموازنة والمناقضة — فأما الموازنة فهى المفاضلة بين شيئين بذكر محاسن كل ومقابحه أو منافعه ومضارة ، وقد راجت سوقها حتى ألفت فيها كتب فى العصرين الثالث والرابع كما سيأتى فى تدوين الأدب بعد .

وأما المناقضة ، فهى أن يعمد الكاتب إلى الشىء يكون ذا فضل على غيره فيسلبه ماله من فضل ، ويثبت لهذا المفضول ما يجعله فاضلا ، كما فعل سهل بن هرون فى تفضيل الزجاج على الذهب من رسالة يقول فيها .

« الزجاج مجلو نورى والذهب متاع ساتر ، والشراب فى الزجاج أحسن منه فى كل معدن ، ولا يفقد معه وجه النديم ولا يثقل اليد ولا يرتفع فى السوم . واسم الذهب يتطير منه ، ومن لؤمه سرعته إلى اللئام ، وهو فاتن فاتك لمن صانه . وهو أيضاً من مصايد إبليس ، ولذلك قالوا أهلك الرجال الأحمران ، والزجاج لا يحتمل الوضر ولا يداخله الغمر ، ومتى غسل بالماء وحده عاد جديدا ، وهو أشبه شىء بالماء . وصفته عجيبة وصناعته أعجب ».

١٢ — التفكه والتندر — كما كتب الجاحظ إلى صديق له يوصيه برجل لا يعرفه يقول « هذا كتاب مع من لا أعرفه وقد كفانى فيه من لا أوجب حرمته ، فإن قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمك ». وكما كتب أبو هرون العبدى إلى السيدة زبيدة وقد هلك لها قرد مستأنس « أيتها السيدة الخطيرة إن موقع الخطب بذهاب الصغير المعجب كموقع السرور بنيل الكثير المفرح . ومن جهل قدر التعزية عن التافه الخفى ، عمى عن التهنئة بالجليل السنى . فلا نقصك الله الزائد فى سرورك ولا حرمك أجر الذاهب من صغيرك » .

وكتب البديع الى رجل ألح عليه فى طلب العطاء وقال له « لم لا تديم الجود بالذهب كما تديمه بالأدب » . يقول « عافاك الله ، مثل الإنسان فى الإحسان كمثل الأشجار فى الثمار ، سبيله إذا أتى بالحسنة أن يرفه إلى السنة ، وأنا لا أملك عضوين من جسدى وهما فؤادى ويدى . أما الفؤاد فيعلق بالرفود ، وأما اليد فتولع بالجود ، لكن هذا الخلق النفيس ليس يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم ليس يحتمله الغريم ، ولا قرابة بين الذهب والأدب فلم جمعت بينهما ؟ والأدب لا يمكن ثرده فى قصعة ، ولا صرفه فى ثمن سلعة ، ولى من الأدب نادرة ، جهدت فى هذه الأيام بالطباخ أن يطبخ لى من جيمية الشماخ لونا فلم يفعل ، وبالقصاب أن يبتاع أدب الكاتب فلم يقبل ، وأنشدت فى الحمام ديوان أبى تمام فلم ينفذ ، ودفعت

إلى الحجام مقطعات اللحام [١] فلم يأخذ ، واحتيج فى البيت إلى شىء من الزيت فأنشدت من شعر الكميت ألفى ومائتى بيت فلم تغن ، ولو وقعت أرجوزة العجاج فى توابل السكباج [٢] ما عدمتها عندى ، ولكنها ليست تقع فما أصنع . فان كنت تحسب احتلافك إلى إفضالا على ، فراحتى فى ألا تطرق راحتى ، وفرجى فى ألا تجى » .

ولعل من هذه الناحية ما يكتب به فى المواطن التى لا تحسن فيها الكتابة كما فعل ابن العميد إذ كتب إلى شخص تزوجت أمه يقول : الحمد لله الذى كشف عنا ستر الحيرة وهدانا لستر العورة ، وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة ، ومنع من عضل الأمهات كما منع من وأد البنات ، استنزالا للنفوس الأبية عن الحمية حمية الجاهلية ، ثم عرض للجزيل من الأجر من استسلم لواقع قضائه ، وعوض جزيل الثواب والذخر من صبر على نازل بلوائه ، وهنأك الله الذى شرح للتقوى صدرك ووسع فى البلوى صبرك ، ما ألهمك من التسليم لمشيئته والرضا بقضيته ، وما وفقك له من قضاء الواجب فى أحد أبويك وفى عظم حقه عليك . وجعل الله - تعالى جده - ما تجرعته من أنف وكظمته من أسف ، معدودا فيما يعظم عليه أجرك ويجزل به ذخرك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك لفعلها ، المنتظر من ارتماضك لدفنها ، فتستوفى بها المصيبة وتستكمل عنها المثوبة ، ووصل الله سيدى من الصبر على عروسها ، بما يستكسبه من الصبر على نفسها ، وعوضه من أسرة فرشها أعواد نعشها ، وجعل - تعالى جده - ، ما ينعم به عليه من نعمة ، معرى من نقمة ، وما يوليه بعد قبضها من منحة مبرأ من محنة . فأحكام الله - تعالى جده - وتقدست أسماؤه ، جارية على غير مراد المخلوقين لكنه تعالى يختار لعباده المتقين ما هو خير لهم فى العاجلة ، وأبقى لهم فى

---

(١) شاعر تغلبى (٢) لحم يطبخ بالخل ، طعام فارسى

الآجلة ، اختار الله لك فى قبضها إليه وقدومها عليه ، ما هو أنفع لها وأولى بها وجعل القبر كفؤ الها والسلام .

١٣ — الذم والتهكم — وهو باب حافل فى الكتابة بكثير من أنواع المذام حفل الشعر به

كتب أحمد بن يوسف يهجو بنى سعيد بن سلم « لولا أن الله ختم نبوته بمحمد وكتبه بالقرآن ، لأرسل إليكم نبى نقمة وأنزل فيكم قرآن غدر ، وما عسيت أن أقول فى قوم محاسنهم مساوى السفل ، ومساويهم فضائح الأمم ، وألسنتهم معقولة بالعى ، وأيديهم مغلولة بالبخل ، وهم كما قال الشاعر :

لا يكبرون وإن طالت حياتهم ولا تبيد مخازيهم وإن بادوا

وكتب أبو العتاهية إلى الفضل بن معن بن زائدة « أما بعد فانى توسلت اليك فى طلب نائلك بأسباب الأمل وذرائع الحمد ، فرارا من الفقر ورجاء للغنى ، فازددت بهما بعدا مما إليه تقربت ، وقربا مما عنه تباعدت . وقد قسمت اللائمة بينى وبينك لأنى أخطأت فى سؤالك وأخطأت فى منعى ، أمرت باليأس من أهل البخل فسألتهم ، ونهيت عن منع أهل الرغبة فمنعتهم »

وكتب ابراهيم بن المهدى « أما بعد فانك لو عرفت فضل الحسن لتجنبت شين القبيح . وقد رأيتك وآثر القول عندك ما يضرك ، فكنت فيما كان منك ومنا ، كما قال زهير بن أبى سلمى

وذى خطل فى القول يحسب أنه مصيب فما يلمم به فهو قائله
عبأت له حلما وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقاتله

وكتب بشر بن أبى كبار البلوى إلى إبراهيم بن عبد الله الحجبى والى صنعاء لهرون الرشيد ، حين هم بتوليته بعض النواحى فمنعه هشام بن يوسف الأبناوى « أما بعد فإن رأى الأمير أمتع الله به ألا يعلم هشاما ما يريد من صلتى فعل ، فانه لم يردنى وآلى قط بخير ، ولم يفتح لى الأمير باب صلة فتكون منه خالصة لا يريد بها إلا وجه الله وحده ، ولا يرجو بها إلا ثوابه ،

إلا عرض هشام من دونها فثقلها وكرهها ، وأدار القياس عليها وضرب لها الأمثال ، وألقى الحيلة فيها إلى الكاتب والحاجب وقاسمهما بالله إنى لكما لمن الناصحين ، ومدحنى بما لم يسمع به من أخلاقى ، وانتقصنى فيما لا يطمع بغيره منى ، ليكون ما أظهر من المدحة مصدقا لما أسر من العيبة ، ثم زخرف ذلك بالموعظة ، وزينه بالنصيحة وقاربه بالمودة وأغراه من ناحية الشفقة وشهد عليه أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فاذا الحاجب يزلقنى ببصره ، وإذا الكاتب يسلقنى بلسانه ، وإذا الخادم يعرض عنى بجانبه ، وإذا الوالى ينظرنى نظر المغشى عليه من الموت ، فصارت وجوه النفع مردودة وأبواب الطمع مسدودة ، وأصبح الخير الذى كنت أرجوه هشيما تذروه الرياح ، والصلة التى كنت أشرفت عليها صعيدا زلقا وأصبح ماؤها غورا فلن أستطيع له طلبا ، ، فأسأل الله الذى جعل لكل نبى عدوا من المجرمين أن يكفينى شره ويصرف عنى كيده ، فانه يرانى هو وقبيله من حيث لا أراهم والسلام »

١٤ — الوصف — وكما أن هذا الباب جاء فى الشعر أحفل أبوابه كذلك جاء فى الكتابة ، وقد تقدم منه وصف ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنة ، ووصف الجاحظ للكتب ووصفه للضحك ، ووصف الصاحب لمصحف ، قرآنا وخطا .

وهاك منه بعضا منوعا

كتب عبد الله بن طاهر وهو بخراسان إلى إسحق بن ابراهيم ببغداد يسأله أن يوجه إليه بأقلام : « أما بعد فأنا على طول الممارسة لهذه الصناعة التى غلبت على الاسم ولزمت لزوم الرسم ، فخلت محل الأنساب وجرت مجرى الألقاب ، وجدنا الأقلام القصبية أسرع فى الكواغد وأمر فى الجلود ، كما أن البحرية منها أسلس فى القراطيس وألين فى المعاطف ، وأكل عن تمزيقها والتعلق بما يربو من شظاياها ، ونحن فى بلاد قليلة

القصب، ردىء ما يوجد بها منه ، فأحببت أن تتقدم باختيار أقلام قصبيه ، وتتأنق فى انتقائها قبلك ، وطلبها فى منابتها من شطوط الأنهار وأرجاء الكروم ، وأن تتيمم باختيارك منها ، الشديدة المجس ، الصلبة المعض ، الغليظة الشحوم ، المكتنزة الجوانب ، الضيقة الأجواف الرزينة الوزن ، فانها أبقى فى الكتابة وأبعد من الحفاء ، وأن تقصد بانتقائك منها الرقاق القضبان ، اللطاف المنظر ، المقومات الأود ، الملس العقد ، ولا يكون فيها التواء عوج ولا أمت ، وضم الصافية القشور الخفية الأبر ، الحسنة الاستدارة الطويلة الأنابيب البعيدة ما بين الكعوب الكريمة الجواهر المعتدلة القوام ، تكاد أسافلها تهتز من أعاليها لاستواء أصولها برءوسها ، المستكملة يبسا القائمة على سوقها . قد تشرب الماء فى لحائها ، وانتهت فى النضج منتهاها ، لم تعجل عن تمام مصلحتها وإبان ينعها ، ولم تؤخر فى الأيام المخوفة عاهاتها من خصر الشتاء وعفن الندى . فإذا استجمعت عندك ، امرت بقطعها ذراعا ذراعا قطعا رقيقا تتحرز معه أن تتشعث رؤسها وتتشق أطرافها . ثم عبأت منها حزما فيما يصونها من الأوعية وعليها الخطوط الوثيقة ، ووجهتها مع من تحتاطه فى حراستها وحفظها وإيصالها ، إذ كان مثلها يتوانى فيها لقلة خطرها عند من لا يعرف فضل جوهرها واكتب معه معدنها وأصنافها وأجناسها وصفاتها على الاستقصاء ، من غير تأخير ولا توان ولا إبطاء ، إن شاء الله تعالى »

وكتب الخوارزمى يصف رمدا أصابه : «صادف ورود الكتاب رمدا فى عينى حصرى فى الظلمة ، وحسبى فى الغم والنقمة ، وتركنى أدرك بيدى ما كنت أدرك بعينى ، كليل سلاح البصر ، قصير خطوط النظر ، قد ثكلت مصباح وجهى وعدمت بعضى الذى هو آثر عندى من كلى ، فالأبيض عندى أسود والقريب منى مبعد ، قد خاط الوجع أجفانى ، وقبض عن التصرف بنانى ، ففراغى شغل ونهارى ليل وطوال ألحاظى قصار ، وأنا ضرير وإن عددت فى البصراء ، وأمى وإن كنت فى جملة الكتاب والقراء ، قصرت العلة

خطوة قلمى وبنانى ، وقامت بين يدى ولسانى »

هذا وقد ضربوا بالوصف فى ناحية المعنى كما ضربوا به فى ناحية الحس ، كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة القاضى يطلب إليه رجلا يستعين به فى أموره : — « أما بعد فإنى احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير ، ذى عفة ونزاهة طعمة ، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب ، ليس بظنين فى رأيه ، ولا بمطعون فى حسبه ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهما من الأمور أجزأ فيه له سن مع أدب ولسان ، تقعده الرزانة ويسكنه الحلم ، قد فر عن ذكاء وفطنة ، وعض على قارحة من الكمال تكفيه اللحظة وترشده السكتة . وقد أبصر خدمة الملوك وأحكمها ، وقام فى أمورهم فحمد فيها ، له أناة الوزراء وصولة الأمراء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه لائحة وأمارات العلم له شاهدة ، مضطلع بما استنهض مستقل بما حمل ، وقد آثرتك بطلبه وحبوتك بارتياده ، ثقة بفضل اختيارك ومعرفة بحسن تأتيك »[1]

١٥ — البيعة بالخلافة وولاية العهد ، والعهود ، والمنشورات ، وكل ذلك كان يكتب بالأسهاب والأطناب

فالبيعة كان يفصل فيها ما يجب للخليفة على الأمة وما يجب للأمة على الخليفة ، وكانت تملأ بالأيمان المحرجة على الوفاء لما فيها والأخلاص فى الطاعة لصاحبها .

---

(١) كان جواب ابن سماعة أن كتب إليه « إنى عازم أن أرغب إلى الله عز وجل حولا كاملا فى ارتياد مثل هذه الصفة ، وأفرق الرسل والثقات فى الآفاق لالتماسه ، وأرجو أن يمن الله بالإجابة فأفوز لديك بقضاء حاجتك والسلام »

وكذلك كانت الصفة فى ولاية العهد . وكلتاهما كانت تتلى على الناس ويشهد عليها أولوا الحل والعقد ، ثم تسجل فى الديوان لتكون حجة على الخارجين والمدعين . ولقد غالوا فى التشديد فيهما لما بدا على الناس من النكث والغدر فضمنوهما أيمان الطلاق حتى من الزوجات المستقبلة وإعتاق الرقيق كذلك ، وعلقوهما على الكعبة تحت نظر سدنتها مبالغة فى الحرمة والأشهار ، ومع هذا كله كان يوجد الحنث بها فى كثير من الأحيان .

والعهود كانت تختلف باختلاف عمل المعهود إليه .

فى العهد بالأمارة كانت تفصل الصفات اللازمة للولاية من حزم وعدل ونزاهة واستمساك بالدين ورعاية للصالح العام ، وتذكر البلاد التى تتناولها الولاية ثم تختم بتوثيق العهود على المولى أن يخلص فيما ولى وأن يكون عند ظن الخليفة به ، وفى العهد بأمارة الجيش كانت تعدد الصفات الملائمة من شجاعة وحسن كيد وقوة وصرامة ، وتبين ضرورة القوة للمحافظه على الدولة وحماية الثغور ، كما تبين ضرورة المحافظة على الجند مما تسوء عاقبته فى أجسامهم وعقائدهم ، ثم يختم بالتوكيد كذلك .

وفى العهد بالقضاء كانت توضح الصفات الواجبة فى القاضى من علم وأمانة وتقوى ونزاهة ، وتبين الأمور التى يجب أن يعنى بها من توزيع المواريث وحفظ أموال اليتامى وحسن القيام على الأوقاف والحبوس ، كما تطلب إليه الدقة فى اختيار كاتبه وشهوده ، وفى مناقشة الشهود لاستخلاص الحقيقة ، وفى تجنب الهوى الحائف أو المحابى ، وينتهى بمثل ما انتهى به العهدان السابقان من توكيد .

وهكذا كان التنويع فى العهود الأخرى من دنيوية كالعهد بالخراج والشرطة والأمان ، أو دينية كالعهد بأمامة الصلاة وتحصيل الزكاة والقيام على الحاج ، وغير ذلك مما كان فى سائر العهود .

أما المنشورات فكانت الوسيلة لأعلان الخطير من الأمور الدينية والسياسية وخاصة أيام الفتن ، بقراءتها على العامة فى الولايات ليقفوا

على رأى الخلافة فيسيروا كما تريد ، وكانت الوسيلة كذلك فى إعلان الابتهاج بما يسر من فتح وانتصار ، وتهوين ما يسوء من هزيمة وانكسار ، وأمثلة هذه الأنواع الأربعة مستفيضة فى كتب التاريخ لا تصالها بسياسة الدولة ، وفى كتب الأدب لرسوخها فى بلاغة الأطناب ، وليس يتسع المقام للاتيان بنماذج منها لإسهابها فليرجع إليها فيما ذكرنا .

١٦ — وأخيرا استخدمت الكتابة فى إنشاء الرسائل المطولة لغير الأخوانيات ، كالسياسة والأخلاق والعلم والاجتماع ، وما إلى ذلك مما لم يكن للناس عهد بالكتابة فيه ، ومما يشبه فى زماننا الحاضر ما نقرؤه لولاة الأمور وكبار الكتاب فى خطيرات المسائل بالصحف والمجلات . — وليس من شك وقد نشأ ذلك أول ما نشأ فى العصر العباسى على يد ابن المقفع وبأنشائه — أنه قد سرى إليه مما قرأ فى لغة فارس منه ، فعكس صورته على لغة العرب فى كثير مما أنشأ . وقد سبق التعريف فى منشئاته بالدرة اليتيمة ورسالة الصحابة وهما فى السياسة ، وبالأدب الصغير وهو فى الأخلاق ، وبالأدب الكبير وهو فيهما معا ، واختيرت نماذج منها جميعا .

ثم جاء بعده الجاحظ فأكثر من هذه الرسائل فيما سمينا وفيما لم نسم من موضوعات ، وقد طبعت له مجموعة تشمل إحدى عشرة رسالة ، أولاها منفصلة الرقم فى الحاسد والمحسود وسبق اختيار شىء منها ، والعشر الباقيات متصلات الأرقام وهن على الترتيب ، فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، وفى فخر السودان على البيضان ، وفى التربيع والتدوير ، وفى تفضيل النطق على الصمت ، وفى مدح التجار وذم عمل السلطان ، وفى العشق والنساء ، وفى الوكلاء ، وفى استنجاز الوعد ، وفى بيان مذاهب الشيعة ، ثم فى طبقات المغنين .

ومن الرسائل المطولة الممتعة لغير هذين الأمامين الراسمين ، الرسالة العذراء لأبراهيم بن المدبر فى صناعة الكتابة ، ورسالة سهل بن هرون

فى مدح البخل ، ورساله الصابى فى الصيد ، ورسالة الصاحب فى الطب ، وغيرها مما تفتقت عنه أذهان هؤلاء وأمثالهم من الكتاب العلماء ، فكان إيذاناً بأقبال القوم على التأليف والتصنيف إذ كان النواة له ، وقد أخذ بعض الرسائل اسم الكتاب كالأدبين الكبير والصغير لابن المقفع مثلا ، وليس المقام وقد ضاق بنماذج البيعات وأخواتها بالمتسع لهذه الرسائل التى تفضلها سعة وطولا . وكثير منها مطبوع وحده أو مع أشباه ، وسائرها معلوم المواطن فى الكتب فليرجع إليها حيث هى .

وبعـــد

فقد بقيت للوفاء بحق العنوان المعقود آنفاً ، كلمة فى مكانة الكتابة ومنزلة رجالها نجملها هنا قبل الانتقال إلى سائر الأقسام فنقول :

أدركت الدولة الأموية — وقد عظمت — نفع الكتابة والحاجة إلى الكتاب ، فأنشأت منذ عهد عبد الملك ديوان الأنشاء ، وأخذ شأن هذا الديوان يعظم حتى كان القائم عليه يد الخليفة ، كما كان من سالم على أيام هشام . ثم ازداد عظمة وسعة على يد عبد الحميد أيام مروان بن محمد ، فكان الكتاب من الخلافة كما يقول عبد الحميد، من وصيته لهم (بكم تلتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ، وتعمر بلدانهم ، لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف إلا منكم . فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون ، وأبصارهم التى بها يبصرون ، وألسنتهم التى بها ينطقون ، وأيديهم التى بها يبطشون » . غير أن تلك الدولة قد دالت ولم يتجاوز صاحب الأنشاء لقب الكاتب إلى غيره .

فلما جاءت الدولة العباسية واستقامت الأمور لأبى العباس السفاح لقلب كاتبه أبا سلمة الخلال حفص بن سليمان مولى أخواله بنى الحارث بن كعب ، بلقب الوزراء ، فكان أول وزير فى الأسلام ، وثبت بذلك هذا

اللقب لكل من ولى أمر الكتابة بعده من الكتاب ، فعظم شأنهم ، وامتد نفوذهم ، وبلغ أقصى ما يمكن أن يبلغ فى يحيى بن خالد وزير الرشيد ، لأنه صاحب اليد عليه فى بقاء العهد له ، ولأنه كان خاصته وملازمه قبل خلافته ، ولأنه كان بمنزلة والده إذ ارتضع ابن زوجه على ابنه الفضل ، ولهذا قلده الوزارة تقليد تفويض ، ثم كان كذلك وأكثر منه مع ابنه جعفر . فأصبح ديوان الأنشاء بهذه السنة التى استمرت مرعية يتولاه وزير بنفسه أو بكاتب يندبه هو ليصرفه بأمره .

ومن هنا وصل الكتاب إلى أرفع المنازل بعد الخلافة ، وألقيت اليهم الأعنة فى سياسة الدولة ، وأحس الخلفاء بشدة الحاجة اليهم ، فاعتصموا بهم فى النوازل وتركوهم يتصرفون عنهم فى الوعد والوعيد والنقض والأبرام ، ونظر الناس إلى هذه المكانة نظرة التقديس والأجلال . فصاروا يسمعون من الكتاب من يقول :

ولى فقر تضحى الملوك فقيرة ... إليها لدى أحداثها حين تطرق
أرد بها رأس الجموح فينثنى ... وأجعلها سوط الحرون فيعنق
إذا حاولت لطفا فماء مروق ... وإن حاولت عنفا فنار تألق

وصار الكتاب يسمعون من الناس من ينشد :

قوم إذا أخذوا الأقلام عن غضب ... ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ... مالا ينال بحد المشرفيات

ونشأ من ذلك ما نشأ من مزاحمة القلم السيف فى تصريف الشئون وحسم الأمور ، فوجدت المفاخرات التى شبت بينهما نظما ونثرا .

قال على بن العباس النوبختى مفضلا القلم :

إن يخدم القلم السيف الذى خضعت ... له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت والموت لا شىء يغالبه ... ما زال يتبع ما يجرى به القلم
بذا قضى الله للأقلام مذ بريت ... إن السيوف لها مذ أرهفت خدم

وقال أبو تمام مفضلا السيف :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب

وفاخر صاحب سيف صاحب قلم فقال صاحب القلم : أنا أقتل بلاغرر وأنت تقتل على خطر ، فقال صاحب السيف : القلم خادم السيف إن تم مراده وإلا فالى السيف معاده .

لهذا عنى الخلفاء وذوو الأمر باختيار الكتاب ممن عرفوا برجاحة العقل وغزارة الأدب حتى يكونوا أهلا لما يلقى عليهم من أعباء الملك وسياسة الدولة غير ناظرين إلى شرف من يختارون ففى اختياره للكتابة كل التشريف إذا كان ممن أخطأه شرف الأصول ؛ وفى الكتابة تسويد له إذا لم يكن من المسودين . هذا ابن الزيات سمت به الكتابة إلى منازل الأشراف وقد كان كأبيه تاجر زيت ، وكان بذلك جد فخور . قال له العلاء بن أيوب يوما وهو يناظره «ليس هذا كيل الزيت ولا عد الجوز» فقال له أبالتجارة تعيرنى وقد كنت تاجرا ومتأخرا فقدمنى الله بالأدب ، وأصارنى بعد التجارة إلى الوزارة ، ليس المعيب من كان خسيسا فارتفع ، وإنما هو من كان شريفا فاتضع » . وهؤلاء آل سهل كانوا صناعا وتجارا فيهم صانع الخمر وبائعها فارتقت بهم الكتابة إلى الوزارة ، وصاهر المأمون الحسن منهم فى ابنته بوران . ولما كتب إلى المأمون بعد زفافها إليه يقول « قد تولى أمير المؤمنين من تعظيم عبده فى قبول أمته شيئا لا يتسع له الشكر عنه إلا بمعونة المنن منه أدام الله عزه فى إخراج توقيعه بتزيين حالى فى العامة والخاصة بما يراه فيه صوابا إن شاء الله » خرج توقيع المأمون « الحسن بن سهل زمام على ما جمع أمور الخاصة ، وكنف أسباب العامة ، وأحاط بالنفقات ونفذ بالولايات ، وإليه الخراج والبريد واختيار القضاة ، جزاء بمعرفته بالحال التى قربته منا وإثابة لشكره إيانا على ما أولينا » وهذا الصابى ، على صابئيته تولى ديوان الرسائل لخلفاء بنى العباس وملوك بنى بويه ،

وحين مات رثاه الشريف الرضى ، ولما لامه بعض الناس على رثائه صابئيا كان جوابه « إنما رثيت فضله » وغيرهم كثير فأغلب الكتاب سادوا بالكتابة عن ضعة وخمول .

ولعظم مهمة الكتاب عنوا بالتبحر فى الأدب والتفقه فى كل ما يتعسل به من علم ، حتى يكونوا كفاة لما يندبون له ، وحتى يقعوا من الخلفاء والملوك الموقع المرضى عنه وبخاصة إذا كان أولئك ممن يعرفون القول وينقدونه ، ويؤثرون الفاضل ويرفعونه .

كما عنوا أن يجمعوا إلى دماثة الخلق وكرم السجايا رقة الطباع ولطف الخدمة ، حتى ضربت الأمثال بجمال خلقهم وكمال علمهم . قال بعض آل المهلب لبنيه « تزيوا بزى الكتاب فانهم جمعوا أدب الملوك وتواضع السوقة » وقال الشاعر يصف رقة الخمر بأنها من رقة الكتاب :—

وشمول كأنما اعتصروها من معانى شمائل الكتاب

وغير هذين فى الناحية الخلقية كثير .

أما الناحية العلمية فجماع ما قيل عنها فيهم قول الجاحظ « طلبت علم الشعر عند الأصمعى ، فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة فرأيته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك وغيرهما » .

هذا وإنه لما يرينا اتساع أفق الثقافة أمام من يهيىء نفسه للكتابة منذ أوائل العصر العباسى قصيدة أبان بن عبد الحميد اللاحقى التى قدمها إلى يحيى البرمكى ، رغبة فى الاتصال بخدمته فى هذه الصناعة ، وإنا لخاتمون بها هذا الموضوع لما لها من الجدوى فيه قال :

أنا من بغية الأمير وكنز من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أريب ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريشـــة مما يكون تحت الجناح
لى فى النحو فطنة واتقاد أنا فيه قـــلادة بوشاح

ثم أروى من ابن سيرين للعـــلم بقول منور الأفصاح
وظريف الحديث فى كل فن وبصير بترهات الملاح
كم وكم قد خبأت حديثا هو عند الملوك كالتفاح
فبمثلى تحلو الملوك وتلهو وتناجى فى المشكل الفداح
أيمن الناس طائرا يوم صيد لغدو دعيت أو لرواح
أبصر الناس بالجواهر والخيـــل وبالخرد الحسان الصباح
كل ذا قد جمعت والحمد للـــه على أننى ظريف المزاح
لست بالناسك المشمر ثوبيـــه ولا الماجن الخليع الوقاح
لو رمى بى الأمير أصلحه اللـــه رماحا ثلمت حد الرماح
ما أنا واهن ولا مستكين لسوى أمر سيدى ذى السماح
لست بالضخم يا أميرى ولا القز م ولا بالجحدر الدحداح[1]
لحية جعدة ووجه صبيح واتقاد كشعلة المصباح
إن دعانى الأمير عاين منى شمريا كالبلبل الصداح

٢ — التوقيعات

استعملت العرب قبل الإسلام كلمة التوقيع — ما أخذت منه وما أخذ منها — فى معان كثيرة . فقالت وقع الصيقل السيف إذا أقبل عليه بميقعته أى مطرقته يجلوه ويحدده ليكون ماضيا نافذا ، وقالت وقع القتب ظهر الراحلة إذا أثر فيه تأثيرا خفيفا ، فإذا ترك ذلك التأثير دبرة أى قرحة ثم برئت وبقيت بموضعها شامة بيضاء قالت ظهر موقع تريد أن به بقعة صغيرة ذات لون يخالف سائر اللون ، ومن ذلك وقع المطر الأرض إذا

---

(١) الجحدر العظيم البطن ، والدحداح البطىء الخطو

أصاب منها بعضا وترك بعضا فخالف بين ألوانها ، وقالت وقعت الدواب ربضت ، ووقعت الأبل بركت ، أى اطمأنت إلى الأرض بعد الشبع والرى ، وقالت وقع السارون إذا عرسوا أى نزلوا آخر الليل ، ولعل هذا من موقعة الطائر وهى الموقع الذى يعتاد نزوله . غير أن هذا مكان وذاك زمان ، وقالت وقع الرامى إذا رمى من قريب فلم يخطىء ، تريد أنه أصاب من أقرب الطرق ، وقالت وقع فلان ظنه على الشىء إذا قدره وأنزله موضعه ، كما قالت وقع الأمر إذا لزم وحق ، ومنه قوله تعالى « ووقع القول عليهم بما ظلموا » . فهذه معان سبعة مما عرفت العرب للتوقيع وليس منها ما نطلقه عليه الآن من الامضاء .

ولما جاء الإسلام وأسس ملكا عظمت دولته على أيام عمر بن الخطاب رأيناه رحمه الله يستعمل التوقيع فيما يكتب به على حواشى الرقاع المرفوعة اليه لبيان وجه الفصل فيها ، وهذا معنى جديد ، ولكنه يمت إلى المعانى السابقة بالصلات . فهو يحلو اللبس فى القصة ويمضيها ، وهو وجيز اللفظ ومخالف اللون بالنسبة للفظها ولون مدادها ، وهو يجعل صاحب الأمر يطمئن فى تصريف ما رفع اليه . وهو يتحرى فى إثبانه آخر الرقعة وموقعا معينا من حاشيتها . وهو يفصل فى الأمر من أقرب طرقه . وهو نتيجة تقدير وتفكير . ثم هو يحق نفاذه ويلزم .

فتوقيعات عمر رضى الله عنه هى أول توقيع فى الإسلام وهذا بعض منها.

كتب إليه سعد بن أبى وقاص عامله على العراق يستأذنه فى بناء دار ، فوقع فى أسفل الكتاب « ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر » ووقع لعمرو بن العاص عامله على مصر فى كتاب « كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك » وقد اقتدى به فى ذلك الخليفتان بعده .

وقع عثمان رحمه الله فى شكاة قوم من عامله مروان بن الحكم « فان

عصوك فقل إنى برىء مما تعملون » ووقع فى قصة رجل شكا اليه فقرا « قد أمرنا لك بما يقيمك وليس فى مال الله فضل للسرف » .

ووقع على كرم الله وجهه فى كتاب لابنه الحسن « رأى الشيخ خير من جلد الغلام » ووقع فى كتاب لسلمان الفارسى يسأله فيه كيف يحاسب الناس يوم القيامة « يحاسبون كما يرزقون »

وجاءت الدولة الأموية فزاول خلفاؤها التوقيع بأنفسهم كما كان يفعل عمر وتابعاه وهذا بعضها . وقع معاوية لزياد وقد كتب يخبره أن عبد الله ابن العباس يطعن فى خلافته « إن أبا سفيان وأبا الفضل كانا فى الجاهلية فى مسلاخ واحد ، وذلك حلف لا يحله سوء رأيك » وكتب إليه عبد الله ابن عامر يعاتبه فوقع « بيت أمية فى الجاهلية أشرف من بيت حبيب فى الإسلام وأنت تراه » وكتب إليه يسأله أن يقطعه مالا فى الطائف فوقع « عش رجبا تر عجبا » وكتب إليه ربيعة بن عسل اليربوعى يسأله أن يعينه باثنى عشر ألف جذع فى بناء داره بالبصرة فوقع « أدارك فى البصرة أم البصرة فى دارك » ووقع يزيد ابنه إلى عبد الرحمن بن زياد عامله على خراسان « القرابة واشجة والأفعال متباينة ، فخذ لرحمك من فعلك » ووقع عبد الملك للحجاج وقد كتب يخبره بسوء طاعة أهل العراق ويستأذنه فى قتل أشرافهم « إن من يمن السائس أن يتألف به المختلفون ، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون » ووقع فى ذيل كتاب من ابن الأشعث وهو ثائر عليه بهذا البيت :

ما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظا وينوى من سفاهته كسرى

ووقع الوليد ابنه للحجاج وقد كتب إليه يسأله الاقتصاد « لأجمعن المال جميع من يعيش أبدا ، ولأفرقنه تفريق من يموت غدا » ووقع لعمر ابن عبد العزيز « قد رأب الله بك الداء وأوذم بك السقاء » ووقع سليمان بن عبد الملك وقد كتب إليه قتيبة بن مسلم يهدده « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » ووقع له وقد هدده بالخلع :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع

وقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كثير التوقيعات . كتب إليه صاحب العراق يخبره بسوء طاعة أهله فوقع « ارض لهم ما ترضى لنفسك، وخذ بجرائمهم بعد ذلك » وكتب إليه عامل الكوفة أنه فعل فى أمر كما فعل عمر بن الخطاب فوقع له « أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده » وكتب إليه عامل يستأذنه فى رم مدينة فوقع له « حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » ووقع لرجل ولاه الصدقات فعدل وكان دميما « ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً » ، ووقع يزيد بن عبد الملك على رقعة رجل يتظلم من عامل له « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . ووقع هشام أخوه لعامله بالمدينة وقد أخبره بوثوب أبناء الأنصار « احفظ فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبهم له » ، ووقع فى قصة متظلم « أتاك الغوث إن كنت صادقا ، وحل بك النكال إن كنت كاذباً ، فتقدم أو تأخر » ، ووقع فى قصة رجل شكا إليه الحاجة وكثرة العيال ، وذكر أن له حرمة « لعيالك فى بيت مال المسلمين سهم ، ولك بحرمتك منا مثلاه » ، ووقع يزيد بن الوليد لمروان بن محمد إذ تلكأ فى بيعته « إنى أراك تقدم رجلا وتؤخرى أخرى فإذا أتاك كتابى فاعتمد على أيهما شئت » . ووقع مروان هذا إلى ابن هبيرة أمير خراسان « الأمر مضطرب وأنت نائم وأنا ساهر » .

ولقد كان ولاة بنى أمية يحاكون خلفاءهم فى التوقيع على ما يرفع إليهم من رقاع ، وقع زياد بن أبيه فى رقعة لمحبوس يرجو الأطلاق لتوبته « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » وفى رقعة شاكى حاجة « لك فى مال الله نصيب أنت آخذه » وفى رقعة متظلم « الحق يسعك » وفى رقعة متنصح « مهلا فقد أبلغت أسماعى » وفى رقعة رجل شكا عقوق ولده « ربما كان عقوق الولد من سوء تأديب الوالد » ، ووقع الحجاج إلى قتيبة بن مسلم وقد أخبره بعزمه على عبور نهر ومحاربة الترك « لا تخاطر بالمسلمين حتى تعرف موضع قدمك ومرمى سهامك » ووقع له أيضاً « خذ عسكرك بتلاوة القرآن فإنه

أمنع من حصونك » .

ثم جاءت الدولة العباسية فتولى خلفاؤها وولاتهم أول ما جاءت ، التوقيعات مثل ما كان يلى خلفاء بنى أمية وولاتهم . وقع أبو العباس السفاح لعامل تظلم منه الناس « وما كنت متخذ المضلين عضدا » ، ولجماعة من الأنبار ذكروا أن منازلهم أخذت فى بناء أمر به ولم يعطوا أثمانها « هذا بناء أسس على غير تقوى » وأمر بدفع قيمتها ، ولجماعة من البطانة شكوا احتباس أرزاقهم « من صبر فى الشدة شورك فى النعمة » . ووقع المنصور فى رقعة قوم تظلموا من عاملهم « لا ينال عهدى الظالمين » ولأهل الكوفة وقد شكوا عاملهم « كما تكونون يؤمر عليكم » ولعامل شكاه رجل « إن آثرت العدل صحبتك السلامة ، وإن آثرت الجور فما أقربك من الندامة ، فأنصف هذا المتظلم من الظلامة » ولعامله بمصر وقد ذكر له نقصان النيل « طهر عسكرك من الفساد يعطك النيل القياد » ولعامله على حمص وقد أخطأ كاتبه فى كتاب « استبدل بكاتبك والا استبدل بك » ولعمه عبد الله بن على « لا تجعل للأيام فى وفيك نصيباً من حوادثها » ولرجل شكا عيلة « سل الله من رزقه » ولرجل شكا دينا « إن كان دينك فى مرضاة الله قضاه » ولآخر قطعت عنه أرزاقه « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » . ولعامل أرمينية وقد أخبره أن الجند شغبوا عليه ونهبوا بيت المال « اعتزل عملنا مذموما مدحورا فلو عدلت لم يشغبوا ولو قويت لم ينهبوا » . ووقع المهدى لعامل أرمينية وقد شكا إليه سوء طاعة أهلها أيضاً « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ولعامل خراسان وقد أخبره بغلاء الأسعار « خذهم بالعدل فى المكيال والميزان » وفى قصة آخر من بطانته يطلب صلة أبطأت « ليت إسراعنا إليك يقوم بأبطائنا عنك » ولشاعر أسرف فى مديحه « أسرفت فى مديحك فقصرنا فى جائزتك » ، ووقع وزيره أبو عبيد الله لرجل كتب إليه يتعجل استمناحه ويقول — والنفس مولعة بحب العاجل —

« لكن العقل الذى جعله الله للشهوة زماما وللهوى رباطاً ، موكل بحب الآجل ، مستصغر لكل كثير زائل » ، ولآخر مبطل « الحق يعقب صلحاً وظفراً ، والباطل يورث كذبا وندما » .

ولما آلت الخلافة إلى الرشيد وكان ليحيى بن خالد البرمكى فى ذلك الفضل وله عليه حق الأبوة من قبل ، عهد إليه بما كان لا يتركه الخلفاء لغير أنفسهم فشاركه فى التوقيعات وبذلك تحول التوقع إلى منصب ، ووجدت فى الكتابة خطة جديدة يقول فى التعريف بها ابن خلدون « ومن خطط الكتابة التوقيع ، وهو أن يجلس الكاتب بين يدى السلطان فى مجالس حكمه وفصله ، ويوقع على القصص المرفوعة إليه ، أحكامها والفصل فيها ، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه ، فأما أن تصدر كذلك وإما أن يحذو الكاتب على مثالها فى سجل يكون بيد صاحب القصة » .

وقد صدر عن الرشيد ويحيى - وكانا فى البلاغة على أرفع ما تكون - توقيعات منسوبة إلى الرشيد جاوزت ما سبق ، وقع لعامله بخراسان « داوجرحك لا يتسع » وفى قصة محبوس « من لجأ إلى الله نجا » وفى قصة متظلم « لا يجاوز بك العدل ولا يقصر بك دون الأنصاف » وفى قصة رجل يعرف كفايته تظلم من عامله على الأهواز « قد ولينا ك موضعه فتنكب سيرته » وفى رقعة شيخ سعى إليه بنميمة « السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة ، فإن كنت أردت بها النصح فخسرانك فيها أكثر من الربح ، وأنا لا أسعى فى محظور ولا أسمع قولة مهتوك فى مستور ، ولولا أنك فى خفارة شيبك لعاقبتك على جريرتك معاقبة تشبه أفعالك » .

ولما نقل الرشيد ديوان الخاتم من الفضل بن يحيى إلى جعفر أخيه وترك له كل شىء يتصرف فيه كما يشاء ، تولى جعفر التوقيع بنفسه بين يدى الرشيد فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء فى تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها . حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار كما قال ابن خلدون . وقع لعامل كثر التظلم منه « قد كثر شاكوك وقل شاكروك ، فأما عدلت

وإما اعتزلت » ولعامل مثله ظالم « أنصف من وليت أمره وإلا أنصفه منك من ولى أمرك » ولعامل آخر « اجعل وسلتك إلينا مايزيدك عندنا » ولعامل مصر فى رجل من بطانته يوصيه به « إنه رغب إلى شعبك فارغب فى اصطناعه » ولقوم تظلموا « عين الخليفة تكلؤكم ونظره يعمكم » ولرجل اعتذر من ذنب « قد قدمت طاعتك وظهرت توبتك ولن تغلب سيئة حسنتين » وفى قصة محبوس يطلب العفو « العدل أوثقه والتوبة تطلقه » وفى قصة متنصح « بعض الصدق قبيح » وفى قصة مستمنح وصله مرارا « دع الضرع يدر لغيرك كما در لك » وفى كتاب رجل قرأه فاستحسن خطه « الخط خيط الحكمة ينظم فيه منثورها وتفصل فيه شذورها » . ومن توقيعات أخيه الفضل فى قصة متعد « بئس الزاد إلى المعاد التعدى على العباد » .

ولكن الرشيد عاد إلى التوقيع بنفسه بعد قتله جعفرا وحبسه أباه . وقع فى قتل جعفر « أنبتته الطاعة وحصدته المعصية » ورفع إليه يحيى رقعة من الحبس يستعطفه فيها فوقع عليها « عظيم ذنبك أمات خواطر العفو عنك » ولما كتب إليه وقد أحس بالموت يقول — قد تقدم الخصم إلى موقف الفصل وأنت بالأثر والله الحكم العدل وستقدم فتعلم — وقع على الكتاب « الحكم الذى رضيته فى الآخرة لك هو أعدى الخصوم عليك ، وهو من لا يرد حكمه ولا يصرف قضاؤه » .

وهكذا كان التوقيع على عهد المأمون ورجاله وبخاصة الفضل والحسن ابنا سهل . فمن توقيعات المأمون لأخيه فى قصة متظلم منه « فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وفى قصة متظلم من عمرو بن مسعدة « ياعمرو عمر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها » وفى قصة متظلم من حميد الطوسى « يا أبا غانم لا تغتر بموضعك من إمامك فانك وأخس عبيده فى الحق سيان » ولما كتب إليه عمه ابراهيم — إن غفرت فبفضلك وإن أخذت فبحقك — كان توقيعه « القدرة تذهب الحفيظة والندم جزء

من التوبة وبينهما عفو الله » . وكتب إليه عامل الرقة يصف خروج الأعراب بسنجار وعبثهم بها فوقع له :

أسمعت غير كهام السمع والبصر لا يقطع السيف إلا فى يد الحذر
سيصبح القوم من سيفى وضاربه مثل الهشيم ذرته الريح بالمطر

ومن توقيعات الفضل بن سهل لعامل متسرع « إن أسرع النار التهابا أسرعها خمودا فتأن فى أمرك » ولصاحب الشرطة « ترفق توفق » وإلى رجل شكا إليه الدين « الدين سوء يبيض الأعناق وقد أمرنا بقضائه » وفى رقعة قاتل شهد عليه العدول ولكن شفع فيه « كتاب الله أحق أن يتبع » وفى قصة متظلم « كفى بالله للمظلوم ناصرا » وفى قصة قاطعى طريق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »

ووقع الحسن بن سهل فى قصة قوم تظلموا من واليهم « الحق أولى بنا والعدل بغيتنا فان صح ما ادعيتم عليه صرفناه وعاقبناه » ، ومدحه على بن عبيدة الريحانى ووقف ببابه ينتظر عطاءه فطال وقوفه فبعث إليه رقعة يشكو الأبطاء فوقع عليها « باب السلطان يحتاج إلى ثلاث خلال ، عقل وصبر ومال » .

هذه طائفة من التوقيعات منذ أن عرفت على يد عمر بن الخطاب إلى أواخر العصر العباسى الأول تقريبا على عهد المأمون ورجاله . ومنها يرى أن التوقيع مبنى على إيداع اللفظ القصير المعنى الكثير ولذلك غلب أن يكون آية قرآنية أو حديثا نبويا أو مثلا سائرا أو حكمة متوارثة ، فان تعدى هذه الأنواع فلا أقل من أن يكون جامعة كلم للموقع أو لغيره ممن سلف . كما لازم العصور التى ساد فيها الإيجاز الأطناب وآخرها العصر العباسى المذكور حيث كانت السليقة العربية متمكنة والبداهة حاضرة فيمن يتولونه وفى كثير ممن كان يكتب به إليهم . قال العلامة ابن خلدون يصف حال

صاحبه « واعلم أن صاحب هذه الخطة — يعنى خطة التوقيع — لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة ، فانه معرض للنظر فى أصول العلم لما يعرض فى مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ومع ما يضطر إليه فى الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها » اهـ

وقد بدأ الطول منذ عهد المأمون ووزرائه يظهر فى التوقيعات وهذه ظاهرة لم تكن معروفة فيها ، ولسنا نتهم هؤلاء بالعجز أن يوجزوا ، فان لهم فى ذلك الآيات البينات ولكنا لا نخليهم من أن روح العصر المتنقلة حينذاك من الايجاز إلى الأطناب أخذت تؤثر فيهم من حيث لا يشعرون . رفع الواقدى رقعة إلى المأمون يشكو فيها الدين فوقع عليها (فيك خلتان السخاء والحياء فأما السخاء فهو الذى أطلق يديك بما ملكت وأما الحياء فهو الذى حملك على ذكر بعض دينك وقد أمرنا لك بضعف ماذكرت ، فان قصرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك على نفسك ، وإن بلغنا بغيتك فزد فى بسط يدك فأن خزانة الله مفتوحة ويده بالخير مبسوطة) . وكتب إليه أحمد بن يوسف يستجدى لطلاب الصلات وقد كثروا على بابه فوقع على كتابه (الخير متبع وأبواب الملوك مغان لطالبى الحاجات ومواطن لهم ولذلك قال الشاعر

يسقط الطير حيث يلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء

فاكتب أسماء من ببابنا منهم وبين مراتبهم ليصل إلى كل رجل قدر استحقاقه ، ولا تكدرن معروفنا عندهم بطول الحجاب وتأخير الثواب فقد قال الشاعر :

وإنك لن ترى طردا لحر كألصاق به طوق الهوان
ولم تجلب مودة ذى وفاء بمثل البشر أو بذل اللسان)

وكتب رجل إلى أحمد بن يوسف يستتم الصنيعة عنده فوقع على كتابه

« مستتم الصنيعة من عدل زائغها وأقام أودها ، صيانة لمعروفه ونصرة لرأيه ، فإن أول المعروف مستخف وآخره مستثقل يكاد أول الصنيعة يكون للهوى وآخرها للرأى ، ولذلك قيل تتميم الصنيعة أشد من ابتدائها ».

ورفع بعض الولاة إلى الفضل بن سهل رقعة عامل عنده بسعاية فوقع عليها « نحن نرى قبول السعاية شرا منها ، لأن السعاية دلالة والقبول إجازة وليس من دل على قبيح وأخبر به كمن قبله وأجازه ، فاطرد هذا الساعى عن عملك وأقصه عن بابك فإنه لو لم يكن فى سعايته كاذبا لكان فى صدقه لئيما آثما إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة » .

ولما انقضى العصر الأول وفقدت بانقضائه القدرة على الإيجاز ؛ وتولى شئون الدولة فى العصر الثانى من لا يفهمون البلاغة من الخدم الأتراك لم يجهد الكتاب أنفسهم فى التوقيعات وإن بقيت خطة صاحبها ، فأصبحت غير كفيلة وحدها بالإفادة كما كانت قبل ، وصارت بمنزلة ما نعرفه الآن بالتأشيرات من حيث بناء الردود عليها لا إرسالها نفسها لعدم غنائها فى تمام الاستفادة منها ، نعم إن بعضها كان صالحا لذلك فى نظر واضعه وأمام من يبنى الرد عليه ، ولكنه ما كان صالحا بحال عند من يبعث به إليه ، لتقلص القدرة على فهم بلاغة الإيجاز إذ ذاك كما هى الحال فى الإشارة الآن .

وقد استمر التوقيع فى العصر الثالث — على رقى الكتابة فيه — فاقدا روعة البلاغة — بلاغة الإيجاز — فهبطت منزلته وتناساه الناس إذ لم يعودوا يرون عليه ما كانوا يرون قبل من رونق وبهاء ، وبذلك زال ما كان له من حسن وقع فى الصدور ورفعة قدر فى النفوس .

على أنه قد وجد من كبار الكتاب فى هذا العصر من جهد نفسه فى التوقيع فكان له منه مالا يقل عن توقيعات المتقدمين . ولعل خير هؤلاء ، الصاحب بن عباد وهذا شئ مما خلف فيه . وقع فى رقعة استحسنها « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون » ورفع إليه بعضهم رقعة أغار فيها على بعض مأثوره من معان وألفاظ فوقع عليها « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ووقع فى كتاب

لبعض مخالفيه « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » وكتب إليه رجل يخبر أن أحد من ينطوى له على غير جميل يدخل داره فى غمار الناس ثم يتنوم لاستراق السمع فوقع إليه « دارنا هذه خان يدخلها من وفى ومن خان » ورفع إليه رجل رقعة يخطب فيها عملا فوقع عليها « التصرف لا يلتمس بالتكفف ، من احتجنا إليه صرفناه وإلا صرفناه » ووقع إلى أبى محمد الخازن وكان قد انصرف عنه مغاضبا ثم كتب إليه يستأذن معاودا « ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين » .

أما فى العصر الرابع فقد توارت التوقيعات عن الأنظار لاستيلاء العجمة واستحكامها ، ولم يظهر للقوم فيه من ناحية الإيجاز الكتابى إلا ما خرج بالإيجاز عن وضعه الأصيل إلى الرمز المشير الذى بدأ يظهر من أواخر العصر الثالث قبله وإليك فى هذا مثلين ، بعث السلطان محمود الغزنوى فى أواخر القرن الرابع وقد استقل بالسلطنة عن بغداد يطلب إلى الخليفة ذكر اسمه فى الخطبة ونقش اسمه على النقود ، فامتنع الخليفة فبعث إليه كتاب تهديد جاء فيه « لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت » فكان الجواب كتابا ليس فيه إلا البسملة وبعدها ألف فلام فميم ثم الصلاة على النبى والحمد لله . فلما فتحه تحير هو وأهل مجلسه فى فهمها حتى دخل عليه أبو بكر القهستانى من كبار العلماء فسئل فيه فقال : إنكم بعثتم تتهددون الخليفة بالفيلة فبعث إليكم هذا الكتاب وفيه « ألف ولام وميم » إشارة إلى قوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » السورة فارتاع السلطان وعاد مطيعا .

وحدث فى أواسط القرن الخامس أن خاف سديد الملك صاحب قلعة شيزر بالقرب من حماة ، تاج الملوك صاحب حلب فخرج إلى جلال الملك بن عمار صاحب طرابلس وأقام عنده ، فأراد تاج الملوك أن يحتال فى استقدامه ليفتك به ، وأوعز إلى كاتبه أبى النصر محمد بن الحسين أن يكتب إليه فى ذلك وكان له صديقاً فكتب كما أمر ، ولكن حين بلغ قوله « إن شاء

الله تعالى » شدد النون وفتحها ، فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك استحسنه الحاضرون فقال لهم وكان فطنا « إنى أرى فى الكتاب مالا ترون » وأجابه بكتاب كان من جملته « أنا الخادم المقر بالأنعام » غير أنه كسر همزة أنا وشدد نونها ، فلما قرأ أبو النصر الكتاب علم أنه فهم ما أراد ، إذ كان أبو النصر يقصد بما تقدم قوله تعالى « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » وكان سديد الملك يقصد « إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها » .

هذا وإنا قبل الفراغ من الكلام على التوقيعات ، لا يسعنا إلا الحكم بأنها أثر من آثار العرب لا محاكاة منقولة عن الفرس كما قد يقال ، لأن الإيجاز من مميزات العربية ، وسائر الساميات عن الآريات ، كما هو ظاهر فى أمثال العرب الجاهليين وحكمهم وجوامع كلمهم ، ولأن عمر حينما بدأ التوقيعات لم تكن الفارسية معروفة فى الجزيرة حتى يكون هناك محل للمحاكاة ، إنما هى نوع من أنواع التفكير دفع إليه ملك العرب الجديد ، فى أسلوب من الأساليب القصيرة ووسعته لغتهم ذات الإيجاز ، فأخذ ينمو شيئاً فشيئاً أيام الدولة الأموية دون أن يكون للفارسية على أيامها انتشار ، ثم استبحر الملك أول العهد العباسى وبقيت بلاغة الإيجاز ، فكان له ما كان حتى إذا ما ضعفت تقلص مع بقاء الفارسية ضاربة الجران .

٣ — القصص

نشأ الإنسان الأول محوطاً بالوحوش التى تناصبه العداء صباح مساء ، وبنواميس الطبيعة التى تنكى به وهو يجهل ماهما من أسرار ، فكانت هذه الحرب المشبوبة عليه من الجانبين حافزة لخياله أن يتصور الخوف فى كل شىء ، ولعقله أن يفكر بقدر استعداده إذ ذاك فيما يدفع هذه الغوائل عنه ، وقد سبح به خياله أن يرى وراء هذه الظواهر المجهولة الأسباب ، قوى خفية يرهب جانبها ويخشى سطوتها ، وهداه عقله أن يتملقها ويتقرب إليها ، فكان من ذلك ، الدين الذى يتحقق بين معبود مخوف مرجو ، وعابد خائف راج ،

ولعل مما قوى فى نفسه وجود هذا العالم غير المنظور ما كان يطرقه فى نومه من أحلام يرى فيها من ماتوا أحياء يقولون ويفعلون كما كانوا فى هذا العالم المنظور ؛ وكان من نتائج ذلك أن حاك لنفسه أساطير خرافية تغذى نهمه فى الخوف والرجاء ، كانت النواة لما جد بعد من قصص وروايات ، غير أن هذا التراث القديم لم يجد عوامل النمو فى كل البيئات سواء ، فحيث كانت البلاد كثيرة الجبال والكهوف والأنهار والغابات وضوارى الوحوش وجوارح الطيور ، يعظم الخوف ويقوى التخيل والاختراع ، وحيث كانت منبسطة الأرض سافرة السماء ، تقل الرهبة ويضعف الخيال ، وكلما قوى الخوف بالإنسان جد فى التأليه وأكثر من المعبودات ، وعلى العكس إذا ضعف الخوف تبسطت عبادته وقلت آلهته . ومن ثم كانت الحالة الأولى ممثلة قديماً فى مثل بلاد اليونان ، وكانت الثانية واضحة فى سكان البوادى كالعرب الجاهليين . وليس يطعن فيما نقول عن العرب الآن ما كان لديهم من تعدد الديانات لأنا نعنى بالتعدد أن يكون فى معتقدات الشخص الواحد كما هى الحال فى الأمة التى ذكرنا ، لا أن يكون فى مجموع أمة تقف كل طائفة منها عند عبادة واحدة كما كانت العرب فى القديم .

ذكرنا ذلك لنخرج منه إلى أن الأمم كانت إزاء القصص مختلفة الدرجة على حسب اختلاف البيئة التى هى الأساس . وإذا كان تنازع البقاء فى القديم ممثلا أولا بين الإنسان وغير الإنسان ، وممثلا ثانيا فى الحروب التى كانت لا ينقطع لها مدد بين الجماعات ، فقد وقعت الأساطير الخرافية على ذلك التنازع ، وجاءت القصص القديمة فى تلك الحروب يتغنى فيها المنتصر بأبطال الانتصار ، ويتخيل فيها المنهزم بطلا منتظرا يكون على يديه الخلاص ، وأعقب ذلك وجود أناس من القصاصين يرتزقون بالقصص على حساب الطبقات . فعند الخاصة يفيض القاص فى نبل الأمراء وما لهم على العامة من سطوة وإفضال ، ولدى العامة يسخر من الأمراء ويذكر ما يشينهم من

فضائح ومخاز . ولم يكن أولئك القصاصون بالواقفين عند الحقائق التى كانت تبنى القصة عليها أول وضعها ، بل كانوا يعطون لأنفسهم حق الزيادة فيها والتهويل بها وإضافة حقائق أخرى إليها ، وقد ساعدهم على هذا الوضع والاختلاق فى القصص الموضعية ، بعد الهوة بين طبقتى الأمة إلى ما يشبه الانعزال ، وفى غير الموضعية انقطاع الصلات بين بعض الأمم وبعض انقطاعا أوجده اكتفاء كل أمة ببلادها ، وأحكمه سوء حال المواصلة وقلة وسائل الانتقال . فكثرت بذلك القصص على أيدى هؤلاء القصاصين حتى صار لها تراث منها عظيم ، وبخاصة وقائع الملاحم المنشأة فى الحروب ، وسير الأبطال ممزوجة بذكر الآلهة المساعدين ، إذ كان تمجيد الأبطال واستنجاد الآلهة أمرين جوهريين فى القصص القديم(١) .

جاء الإسلام والعرب خلو من القصص للأسباب التى ذكرنا ، ومع احتكاكهم بالأمم منذ الصدر الأول ، واطراد هذا الاحتكاك فى العهد الأموى ، استمروا بعيدين عن أن يكون لهم قصص فى العصرين المذكورين على النهج الذى أوضحناه لأسباب زائدة على خلو قديمهم من الأساطير ، أهمها عدم عنايتهم بآداب غيرهم اعتقادا منهم أن أدبهم لا يعلوه أدب وأنهم وصلوا فى الناحية الأدبية إلى القمة ، وأن الأمم الأخرى فى الحضيض . على أن امتلاء القصص القديمة لغيرهم بتعدد الآلهة قد يكون من أسباب انصرافهم عنها لمنافاتها الإسلام ، وبذلك انسلخ هذان العهدان بعد العهد

---

(١) من أشهر الملاحم القديمة الألياذة والأوذيسة لهوميروس شاعر الإغريق ، والأنياد لفرجيل شاعر الرومان . فالألياذة قصة حرب طروادة التى دامت عشرين سنة بينها وبين اليونان ، والأوذيسة قصة ضلال أوذيس طريق البحر وهو عائد برجاله من تلك الحروب إلى بلاد اليونان ، أما الأنياد فقد نظمها فرجيل تمجيدا لأسرة أغسطس قيصر أحد أباطرة الرومان .

الجاهلى ، وتدوين القصة عندهم فى حكم المعدوم على ماله عند بعض الأمم من شأن عظيم .

غير أن دخول كثير من الفرس الأسلام . وحذقهم العربية والفارسية معا ، حبب إليهم أول العصر العباسى أن يغذوا العربية عن طريق الترجمة بما يرونه فى القصة الفارسية من جمال ، وكان أول عهد العرب بالقصص المترجمة كتاب كليلة ودمنة المنقول فى القرن الثانى وتلته كتب كثيرة أشهرها كتاب ألف ليلة وليلة فى القرن الثالث . ومنذ تذوقوا جمال هـذا الفن نشطوا فى وضع القصص بعد نشاطهم فى ترجمتها فكانت لهم فى كلا النوعين آثار كما سنرى فى هذا البيان .

١ — القصص المنقولة

عرفت أن أول كتاب عرفته العرب فى القصص المنقولة فى القرن الثانى كتاب كليلة ودمنة ذو الحكمة الخالدة والشهرة الذائعة[1] ، وهو كتاب وضعه بيدبا الفيلسوف الهندى من البراهمة بالهندية السنسكريتية لدبشليم أحد ملوك الهند بعد عصر الأسكندر ، فى صورة أقاصيص على ألسنة الحيوان ، تتضمن الأدب والحكمة مما يحتاج إليه الملوك فى سياساتهم ، والناس فى معاملاتهم ، وذلك فى خمسة عشر بابا هى :

(١) باب الأسد والثور ، وفيه قصة المتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملهما على العداوة والبغضاء (٢) باب الفحص عن أمر دمنة ، وفيه قصة الواشى الماهر المحتال وكيف ينتهى أمره إلى وبال (٣) باب الحمامة المطوقة ، وفيه قصة إخوان الصفاء كيف يتواصلون ويستمتعون (٤) باب

---

(١) أخذ الكتاب هذا الاسم من اسم أول حيوانين من بنات آوى دار الحديث بينهما فى باب الأسد والثور أول أبواب الكتاب وأضخمها .

البوم والغربان ، وفيه قصة العدو الذى لا ينبغى أن يغتر به وإن أظهر تضرعا وملقا (٥) باب القرد والغيلم[١]، وفيه قصة الرجل الذى يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها (٦) باب الناسك وابن عرس ، وفيه قصة الرجل العجلان فى أمره من غير روية ولا نظر فى العواقب (٧) باب الجرذ والسنور ، وفيه قصة الرجل تكثر أعداؤه فيلتمس النجاة بموالاة بعضهم ويفى له (٨) باب ابن الملك والطائر فنزة[٢] وفيه قصة أهل الترات الذين لا بد لبعضهم من اتقاء بعض (٩) باب الأسد والشغبر[٣] الناسك ، وفيه قصة الملك الذى يراجع من أصابته منه عقوبة من غير جرم (١٠) باب إيلاذ وبيلاذ وإيراخت[٤] ، وفيه ذكر الأشياء التى يجب أن يجعلها الملك رأس أمره وملاكه (١١) باب اللبؤة والأسوار[٥] والشغبر ، وفيه مثل الرجل يدع ضر غيره ويتعظ بما ينزل به (١٢) باب الناسك والضيف . وفيه مثل الرجل الذى يدع ما يشاكله ويطلب غيره فلا يدركه (١٣) باب السائح والصائغ ، وفيه مثل الرجل الذى يضع المعروف فى غير موضعه ويرجو الشكر عليه (١٤) باب ابن الملك وأصحابه ، وفيه مثل الجاهل يصيب الخير ، والعاقل يقع فى الضر (١٥) باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين[٦] وهو باب من يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه .

وبعد نحو ثمانية قرون من وضعه سمع بمكانته كسرى أنو شروان فبعث برزويه رأس أطباء مملكته إلى الهند لترجمته ، فترجمه من خزانة كتبها سرا إلى الفارسية الفهلوية . وطلب إلى الملك أن تكون مكافأته أن يأمر وزيره بزرجمهر بعمل ترجمة له فى باب يوضع أول الكتاب قبل باب الأسد والثور فعملها .

---

(١) الغيلم هو السلحفاة الذكر (٢) اسم ببغاء (٣) ابن آوى (٤) أسماء لوزير فملك فملكة (٥) بكسر الهمزة وفتحها الجيد الرمى بالسهم (٦) الطائر المعروف بأبى قردان .

وبعد نحو مائتى سنة من هذه الترجمة نقله عبد الله بن المقفع إلى العربية وزاد عليه مقدمة بين فيها أغراضه فى باب دعاه باب عرض الكتاب وجعله قبل ما كتب بزر جمهر .

ثم عملت مقدمة للكتاب بقلم بهنود بن سحوان المعروف بعلى بن الشاه الفارسى فى باب ذكر فيه السبب الذى من أجله وضع بيدبا الكتاب لدبشليم ، وأعقبها بباب ثان ذكر فيه بعثة برزوية إلى بلاد الهند لترجمته وجعل هذين قبل باب ابن المقفع .

فكانت الأبواب الزائدة على الأبواب الهندية أربعة، وبذلك صار الكتاب تسعة عشر بابا ، ثم فقد الأصلان الهندى والفارسى ولم يبق غير الأصل العربى الذى طبع مراراً منذ أوائل القرن التاسع عشر إلى الآن ، ومن هذا الأصل نقل إلى معظم اللغات الشرقية والغربية قديماً وحديثاً (١) .

وقد شغل هذا الكتاب مكانة عظيمة فى عالم القصص الحيوانى ، وفتح أمام الكتاب مجالا للخيالات شرقا وغربا ، ولذلك عنى الناس به عناية كبيرة فوق ترجمته إلى أغلب اللغات . فنظمه أبان بن عبد الحميد اللاحق

---

(١) ما ذكرناه عن أبواب الكتاب هو الوضع الذى تنطق به النسخة العربية المتداولة فى مصر الآن . ويرى فقيد التاريخ والأدب « جورجى زيدان » فى كتابه آداب اللغة العربية ، أن أبواب الكتاب واحد وعشرون فقد منها اثنان فى النسخ المطبوعة عن الترجمة العربية ، هما باب ملك الجرذان من وضع الفرس ، وباب مالك الحزين والبطة من وضع ابن المقفع ، كما يرى أن باب الفحص عن أمر دمنة ، وباب الناسك والضيف ، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين وكذا أول البابين المنسوبين إلى بهنود من وضعه كذلك مع باب عرض الكتاب وعلى رأيه تكون الأبواب الهندية اثنى عشر ، والفارسية واحدا ، والعربية ثمانية ، ولكنه لم يذكر مستنده فى هذا الخلاف مع اعترافه بفقد الأصلين الهندى والفارسى ، كما لم يشر إلى أية نسخة عربية غير المطبوعة يوجد فيها هذان البابان الناقصان .

ليحيى البرمكى وأولاده ، وقيل إن سهل بن نوبخت نظمه لهم أيضاً ، ونظمه كذلك على داود كاتب السيدة زبيدة ، كما نظم بعضه بشر بن المعتمر ، وكل هذه ضاعت ولم يبق منها إلا أبيات منقولة من نظم أبان (١) ، ثم نظمه أبو يعلى محمد العباس المتوفى سنة ٥٠٩ المعروف بابن الهبارية فى كتاب سماه نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة وقد طبع على الحجر فى بمباى بالهند وطبع بعد ذلك فى بيروت بلبنان . كما نظمه القاضى الأسعد بن مماتى المصرى المتوفى سنة ٦٠٦ لصلاح الدين الأيوبى ولم يوقف لهذا النظم على خبر ، كما ذكر ابن خلكان ، وقد عورض الكتاب بكتب ألفت على منواله نظما ونثرا ، فمن المنظومة كتاب الصادح والباغم لابن الهبارية المذكور وقد رفعه إلى الأمير صدقة بن منصور بن دبيس أمير الحلة (٢) ، وقد طبع بمصر وبيروت وباريس ، وكتاب درر الحكم فى أمثال الهنود والعجم لعبد المؤمن ابن الحسن فى القرن السابع ومنه نسخة خطية فى فينا وأخرى بمونيخ ، وثالث

---

(١) أول هذه المنظومة :

هذا كتاب أدب ومحنه وهو الذى يدعى كليلة دمنه
فيه احتيالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند

ومنها فى معنى أن الرجل الرشيد إما أن يكون مع الملوك مكرماً ، أومع النساك متعبداً ، كالفيل يكون وحشياً أو مركبا للملوك .

وقيل أيضا إنه قد ينبغى للرجل الفاضل فيما ينبغى
ألا يرى إلا مع الأملاك أو يعبد الله مع النساك
كالفيل لا يصلح الأمركبا لملك أو راعيا مسيبا

(٢) هذا الكتاب أبدع فيه صاحبه اختراع الحكايات والأمثال فى أسلوب رقيق حسن الانسجام وأوله :

الحمد لله الذى حبانى بالأصغرين القلب واللسان

لجلال الدين النقاش فى القرن التاسع ومنه نسخة فى مكتبة اليسوعيين ببيروت وأخرى فى المتحف البريطانى بلندن . ومن المنثورة كتاب ثعلة وعفرة لسهل بن هرون صاحب بيت الحكمة للمأمون وقد ضاع [1]. وسلوان المطاع فى عدوان الأتباع لأبى عبد الله محمد القرشى المعروف بابن ظفر فى القرن السادس ، وطبع بمصر وتونس وبيروت وغيرها ، وثالث لأحمد بن محمد الحنفى المعروف بابن عربشاه فى القرن التاسع ، هو فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، وطبع بمصر مرارا وطبع بغيرها كبولنا والموصل . ومع وجود هذه الكتب الستة مع نظومه الستة التى قلنا بوجود بعضها إلى الآن مطبوعا أو مخطوطا لم تقو على معارضة الكتاب ، فقد صرعها جميعا ، كما صرع ترجمة له ثانية من الفارسية كان قد قام بها عبد الله بن هلال الأهوازى ليحيى بن خالد فى خلافة المهدى فبادت مع ما باد .

والكتاب فوق اشتماله على القصص الجميلة المخترعة ذات الخيال الرائع وعلى التشبيهات المركبة والاستعارات التمثيلية التى تنسجم معها فى هذا الخيال ، قد اشتمل فى ثنايا ذلك على أمور عدة زادت من قيمته ورفعت من شأنه كاشتماله على الحكم والأمثال فى السياسة والاجتماع ، وعلى التحليلات الدقيقة لظواهر النفس من إرادة وتفكير وشعور ، وعلى تصوير النظم فى الحكومات المطلقة وتبيين طبائع الاستبداد ، وعلى وصف الطباع الكثيرة لكثير من البهائم والسباع والطير والحشرات ، وما يتعلق بأحوال معيشتها وحياتها ، وكل ذلك فى ضروب محكمة من التعبيرات المستوفية شرائط

---

(١) مما نقل عن هذا الكتاب قبل فقده قوله « اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدما قبل الذى تجودون به من تفضلكم ، فإن تقديم النافلة مع الأبطاء فى أداء الفريضة شاهد على وهن العقيدة وتقصير الروية ، ومضر بالتدبير ومخل بالاختيار ، وليس فى نفع تحمد به ، عوض من فساد المروءة ولزوم النقيصه » .

البلاغة فيما يتوخاه . ولولا أن الكتاب مشهور ، وما فيه من ذلك معروف لضربنا منه لكل تلك الأشياء ، الكثير من الأمثال .

هذا وقد رأيت فيما نقلنا عن ابن المقفع فى أسباب وضعه على ألسنة الحيوان ، أنه وضع كذلك ليلائم الأحداث كما يلائم الكبار ، فظاهره لهو ممتع وقصص لذيذ ، وباطنه حكمة مقنعة وعظة بالغة ، ولذا نشط له هؤلاء كما نشط له هؤلاء ، وعمر هذه القرون العديدة مثلا عالياً وأستاذاً مربياً للشرق والغرب على السواء ، وكلما مرت الأيام ازداد جدة وزاده الناس إقبالا ومحبة .

أما كتاب ألف ليلة وليلة الذى عرفته العرب عن القصص فى القرن الثالث ، فهو مجموعة قصص تقع فى أربع مجلدات تبلغ صفحاتها نحو ألفى صفحة ، منها نحو مائة قصة اعتبرت أصولا ثم وردت فى ثناياها مئات القصص على سبيل الاستطراد ، وتعزى هذه القصص على ما يزعمون فى أصلها إلى قاصة تدعى شهر زاد كانت بنتا لوزير ملك من ملوك ساسان خانته زوجه ، فاعتاد أن يقتل كل زوجة بعد الليلة الأولى من دخوله بها ، وعز هذا القتل على تلك البنت فطلبت إلى أبيها أن يزوجها منه لتحمله على ترك هذه العادة إبقاء على بنات جنسها ففعل ، وفى ليلة بنائه بها بدأت له فى قصة جعلت الصباح يدركها قبل تمامها ، وقطعت الحديث عند نقطة يشتاق السامع إلى ما بعدها . وفى الليلة الثانية استأنفت الحديث ثم قطعته كما قطعته فى الليلة الأولى وهكذا حتى أتمت معه ألف ليلة رزق فيها ثلاثة أبناء منها . فاستشفعت إليه فى الليلة الأولى بعد الألف أن يبقيها من أجل أبنائها وأطلعته على ما كانت تبغى من وراء هذه القصص ، فأكبر عقلها وقبل رجاءها وأقام معها فى حبور ووفاق .

والمطلع على ما قيل عن هذا الملك بمقدمة الكتاب من أنه كان من ملوك ساسان الذين حكموا جزائر الهند والصين ، يدرك حتما أن هذه القصص كما تتناول قصصاً فارسية كما تتناول معها قصصاً هندية وأخرى صينية ،

وأنها وقد وضعت بالفارسية قبل الإسلام لا يمكن عقلا أن يكون من قصصها الأصلية شيء وقع بعده فى جهة ما ، ومن ثم يحكم بداهة أن جميع القصص التى تناولت فترة من تاريخ العباسيين ببغداد ، وأخرى من تاريخ الفاطميين ومن بعدهم بمصر ، دخيلة على الكتاب وموضوعة بمعرفة العرب فى هذه العهود ، هذا وقد كان الأصل الفارسى يدعى « هزار أفسانه » ومعنى ذلك ألف خرافة ، فلما ترجمه العرب فى القرن الثالث دعوه ألف ليلة وليلة على ماجاء فى سبب وضعه من أن الليالى كانت ألفاً وواحدة وأن كل ليلة كانت عامرة بخرافة أو أكثر أو جزء من خرافة غير عربية حتما ، وأن العرب حينما زادوا على الكتاب أكثر من نصفه لم يغيروا من وضعه هذا ، فأبقوا لياليه كما ذكر عنها ألفاً وجعلوا حكاياتهم المزيدة فى ثنايا تلك الليالى . غير أن الفاحص عن الكتاب يجزم حتما أنهم نقلوا بعض الخرافات من لياليها إلى ليال غيرها ، فإن هناك ليالى كاملة تغمرها حكايات لا يعقل أن تكون من وضع الفرس لأنها عربية خالصة ، كما لا يتفق أن تكون الليالى المحكى فيها أصلا أقل من ألف لأن سبب وضع الكتاب ناطق بهذا العدد صريحاً وقد استمرت هذه الزيادة وهذا التحوير فى الكتاب منذ أن ترجم إلى القرن العاشر الهجرى حيث دولة المماليك بمصر ، وساعد عليهما عدم حمل الكتاب اسم المترجم من الفارسية ولا أسماء من تعاقبوا عليه بعد .

فالكتاب من حيث مآخذ حكاياته وقصصه يمثل ثلاث نواح مختلفة لأحوال الناس وأمور الاجتماع .

الناحية الأولى فارسية بما فيها من دخيل هندى وصينى ، وهى تصور عقليات هذه الأمم الثلاث واتساع الخيال فيها ، ولذلك تكثر فيها عجائب الخلق وغرائب الحوادث كالأسماك الكبيرة الحجم المختلفة الأشكال ، والأدوية المملوءة بالماس ، والأفاعى وطير الرخ الذى يشبع فرخة عشرات الناس ، وغيرها مما يماثل طبيعة تلك العصور كما يماثل عقائد الفرس والهنود والصين .

والثانية عربية إسلامية تمثل الحياة العربية فى بغداد ، بعيدة عن ذلك الخيال القديم ، وهى تكثر من ذكر الرشيد والبرامكة والجوارى والقيان وأحوال الاجتماع إذ ذاك ، ويتخلل ذلك قصص لأبطال العرب فى الفضائل كالجود والحلم والوفاء ، وأخرى ترمى إلى الصبر والتعقل والنظر فى العواقب ، وكثير من حكايات هذا القسم يطابق الواقع ويتفق وسياق التاريخ .

والثالثة من مصرية إسلامية وإسرائيلية ، فالإسلامية تمثل حياة القاهرة ويعتمد الكاتب فيها على ما تحسه نفسه من أثر الحوادث ، وهى على ما فيها أحياناً من إغراب يستهوى القارىء إليها ، بعيدة عن الخيال الصرف المجسم فى القصص الفارسية ، وبعيدة كذلك عن نيل السعادة بالمصادفة والحظ ، ولذا يكثر فيها الاعتماد على النفس والاحتراف بالمهن ، ثم يغلب عليها عدم الطول مع الامتلاء بأثر المزاج المصرى من الفكاهة العذبة والنقد المقبول ، والاسرائيلية مثل الإسلامية فى مصريتها لأن أغلب كاتبيها ممن اعتنقوا الإسلام كما يفهم منها ، ولكنها تمتاز بالنزوع إلى تقديس سليمان وداود ومالا يخالف الإسلام من مجد اليهود وبخاصة ما كان معدن الغريب كأحوال الجن مع سليمان ، وسحر هاروت وماروت ، ونحو ذلك من الأساطير الاسرائيلية الملىء بها تاريخ بنى إسرائيل .

ولهاتين الناحيتين فى الكتاب يعتبر من وضع العرب إلى حدما ، وأسلوبه فى مجموعه مقبول ، غير أنه أكثر قبولا فى القسم الفارسى والعربى لأن اللغة على عهد ترجمة الأول ووضع الثانى فى بغداد كانت خيرا منها فى مصر حيث وضع القسم الأخير ، ولذلك اعتبر كتاب أدب وإن كانت النظرة الأولى إليه من ناحية القصص والأساتير ، وقد طبع مرارا ونقل من العربية إلى معظم لغات أوربة وكان له من الفضل على كتابها القصصيين ما للمعلم الأستاذ على طلبته الناشئين .

هذا وقد ترجمت العرب من الكتب القصصية عن الفارسية والهندية

غير كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة كثيرا ذكر أسماءها ابن النديم ولكنها ضاعت ، وما بقى تغير عن أصله حتى تقطعت بينهما الصلات [1].

ب — القصص الموضوعة

كانت ترجمه ألف ليلة وليلة بعد كليلة ودمنة فاتحة أبواب القصص بمعناه الحق أمام القرائح العربية ، فلم تعد ترضى بمالا يتسع فيه الخيال كقصص ابن المقفع فى كتابة هذا ، ولا بما يضرب إلى السيرة أكثر من القصة كقصص الجاحظ فى بعض كتبه وأخصها البخلاء ، وبدأت تشـــارك الفرس فى مثل ما وضعوا بما زادت فى ذلك الكتاب ثم طفقت تنشىء على غراره كتباً فى القرنين الثالث والرابع تحدث ابن النديم عنها طويلا فكان مما قال « وابتدأ أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره ، وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة فى الأسمار والخرافات ما تحلى بنفسه ، وكان فاضلا . فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة ، ورأيت من ذلك عدة أجزاء بخط أبى الطيب أخى الشافعى . وكان قبل ذلك ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة ، منهم عبدالله بن المقفع وسهل بن هرون وعلى بن داود كاتب زبيدة وغيرهم » اهـ . وهذا الكتاب الذى تحدث عنه ابن النديم هنا قد ضاع كما ضاع معظم ما ألف فى القرنين المذكورين

---

(١) فمما نقل عن الفارسية رستم واسفنديار ، وشهر زاد مع أبروين ، والكارمانج فى سيرة أنو شروان ، ودارا والصنم الذهب ، وبهرام ونرسى.

ومـــا نقل عن الهندية السندباد الكبير والصغير ، وجوداسف ، وأدب الهند .

من القصص الخرافية والنكت المجونية مما يتحدث عنه أيضاً (١) .

على أن العرب لم يرضوا أن يكونوا فى محاكاتهم للفرس بعيدين عن تاريخ آبائهم وأجدادهم فتلفتوا إليه يبحثون عن مواطن تصلح لأن يصاغ فيها قصص يكون منهم وإليهم فاهتدوا إلى موطنين عظيمين ، أحدهما حماسى جاهلى ، والثانى غرامى إسلامى ، فكان لهم فى كليهما على العصر العباسى أثر جليل .

فأما عن الأول ، فقد عمدوا إلى بعض أيام العرب فوسعوا أخبارها وبالغوا فيها وضموا إليها كثيرا من مناقب الجاهلية المتعلقة بها كالثأر والعصبية والجوار والوفاء ، مسندين تلك الأخبار لتوثيقها إلى مشهورى الرواة كأبى عبيدة والأصمعى ، وغيرهما ، ومتناقلين ذلك فيما بينهم تناقل زيادة وتنمية ، حتى انتهى إلى أن صار قصصا تتلى فى المنازل والأندية للسمر والتسلية ، كما كانت الحال فى القصص القديمة لليونان . غير أن بعض هذه القصص لم يتم نضجها وقليلها جاء كاملا ناضجا .

فمن الأولى قصة البراق المأخوذة من كتاب لعمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٢ سماه الجمهرة ، وهو فى أخبار العرب القدماء وبعض أيامهم وأشعارهم وحروبهم ، ويوجد مخطوطا بدار الكتب المصرية ، وهذه القصة فى حروب وقعت بين ربيعة وغيرهم ، والبراق شاعر قديم من أقرباء المهلهل وكليب ، ذو تاريخ فيه حماسة وفخر ، وقد ساق ابن شبة قصته على أنه بطل فى خمس حروب ، الأولى بين ربيعة والطائيين أخواله بسبب قتل الحارث بن عباد البكرى للفضيل بن عمران الطائى ، والثانية بين ربيعة ومضر لتحامل مضر عليها ، والثالثة بين ربيعة والفرس لأسرهم ليلى العفيفة ،

---

(١) مثل كتاب حوشب الأسدى وكتاب جحا ونوادر أبى ضمضم ونوادر ابن الموصلى . وقد ضاعت ولم يبق إلا ما نقل عنها وهو قليل .

والرابعة بين ربيعة واليمن لقتل كليب أسيرا كان عنده منهم ، والخامسة حرب البسوس المعروفة ، وقد استغرقت وحـــدها أكثر من مائة صفحة .

ومن الثانية ، قصة عنتر وهى أكبر القصص الممثلة للحماسة العربية التى يخالطها الحب والغرام ، بل الممثلة لآداب الجاهلية وأخلاق أهلها وعقائدهم وعاداتهم ، والواضع لها هو العالم الراوية الشيخ يوسف بن إسماعيل ، وكان من المتصلين لفضله بالعزيز بالله الفاطمى فى القرن الرابع ، وحدث أن لهج الناس بريبة فى قصر العزيز ، فساءه ذلك وطلب إلى الشيخ يوسف أن يشغل الناس بقصه طريفة تصرفهم عن ريبة القصر وكان واسع الروية فى تاريخ العرب وأيامهم عن أبى عبيدة وابن هشام والأصمعى وغيرهم . وكأنه قد راقه ما كان من قصة البراق فى حروب لربيعة أهمها البسوس ، فأراد أن يضع قصة لبطل يفوقه هو عنترة فى حرب تفوقها لقيس هى حرب داحس والغبراء فأخذ فى كتابتها ، ولكى يسارع بألهاء الناس بها عن تلك الريبة أخرجها تباعا فى أجزاء بلغ عددها ٧٢ جزءا ، وتعمد أن يقطع الكلام فى آخر كل جزء فيها قبل نهاية أمر يشتاق السامع إلى تمامه كما كانت تفعل شهر زاد فى لياليها ، فتمكن بذلك من شغل الناس بها فى أسمارهم على أيامه ، كما اشتغلوا بها من بعده إلى عهد ليس بالبعيد . وبالنظر إلى سعة رواية هذا الرجل قد أودعها من أخبار العرب وأشعارها فى النواحى التى ذكرنا مالم يأت مجموعا فى غيرها ، فجاءت أحسن القصص العربية الموضوعة وأفيدها ، وقد طبعت مرارا وعنى الغربيون بنقلها إلى شتى لغاتهم . وهناك قصص غير هاتين (١)

---

(١) من القصص الموضوعية فى هذا العصر أيضا : قصة بكر وتغلب ابنى وائل فى أخبار كليب وجساس المنسوبة الرواية إلى محمد بن اسحاق : وقصة شيبان مع كسرى أنوشروان المنسوبة إلى بشر بن مروان الأسدى

وأما عن الثانى ، فقد عمدوا إلى الهوى العذرى الذى ذاع أمره ببوادى الحجاز أيام الأمويين ، إزاء الهوى الأباحى بمدنه الثلاث — المدينه ومكة والطائف — على ما فصلناه بكتابنا الثانى عن الغزل فى العهد الأموى ، فرأوا أبطاله يمعنون فى العفة وراء إمامهم جميل ، كلما أمعن رجال الأباحى وراء إمامهم عمر فى الجرى وراء النساء ، وراءهم ما لأولئك الأبطال من شجاعة فى مقاومة الهوى والتضحية بالنفس على مذبح الحب ، وشاهدوا فى هذا الميدان مالم يشاهدوا فى ميدان الحرب ، فوضعوا فيه قصصا تمثل عاطفة الحب فى أروع مظاهره . محب ملك عليه الهوى زمام قلبه وأخلص للعفة قبل إخلاصه لميله ، وأقيمت العقبات فى طريق زواجه ممن يهوى ، وطال عليه الزمن فى هذا الألم ثم انتهى الأمر بالتفريق الدائم مصحوبا بالحكم على من يهوى أن يكون لغيره . وقد وجد قصاصو هذا النوع تلك العناصر مجسمة بارزة فى سيرة جميل بن عبد الله بن معمر عاشق بثينة ، وقيس بن ذريح عاشق لبنى ، وقيس بن الملوح عاشق ليلى المعروف بالمجنون — والأولان مقطوع بوجودهما بغض النظر عما دخل سيرتيهما من مغالاة . أما المجنون فالرواة فى أنه شخص حقيق أو خيالى على خلاف لم يقطع التاريخ فيه ببيان — فكان أن وضعوا لكل منهم قصة تمثل الحب الباكى أتم تمثيل . ولم يعدم الحب اللاهى قصاصين يؤلفون فيه ، فوضعت قصة لأمامه عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المذكور وتلتها مثيلات ثم كان أن ألفت قصص فى مغرمات النساء لتقابل القصص الموضوعة لمغرمى الرجال ، بل ألفت قصص للغرام بين الأنس والجن كان المحب فيها

عن ابن نافع التميمى ، ولكنهما أقرب إلى التاريخ منهما إلى القصص على العكس من البراق وعنتر فإنهما قصصيتان والثانية أقص من الأولى وإن كانت الأولى أحق وقائع وأصح لغة لتقدم زمنها عن الثانية أكثر من قرن .

الرجل أو المرأة من هؤلاء تارة ومن هؤلاء أخرى[1]

أما وقد ذكرنا مجملين ما ينبغى أن يقال عن القصة العربية فى العصر العباسى منقولة وموضوعة فان علينا أن نبين كذلك ما يراد بالقصة فى هذه الأيام لنحاكم إليه ما ذكرنا فنعلم الفرق بين ما كان وما هو كائن الآن .

يراد بالقصة فى العصر الحاضر كل كتابة أدبية فنية تصدر عن كاتب واحد بقصد تصوير حالة معينة فى التاريخ أو الأدب أو الأخلاق أو الاجتماع أو غيرها تصويرا ينزع فيه الكاتب عن شعوره الخاص وتفكيره الناشىء عن هذا الشعور والوجه الذى يتجه إليه رأيه على حسب ما شعر وفكر ، بحيث تتمثل شخصيته فى هذا التصوير تمثلا يفرق بينه وبين غيره ممن كتبوا فيما كتب ، لأن هذه الأشياء التى ذكرنا واحدة فى ذاتها ، ولكن الذى يختلف إنما هو نظر الناس اليها وكيفية تصويرها ، وكلما اتسعت مسافة الخلف بين النظرات تباعد البون بين التصويرات ، ولبست تلك الأشياء أثوابا تبعدها عن مرآها الثابت الأصيل إلى مرأى يخلع عليها ثوب القصص أو الأساطير . وهذا ما يطلق عليه الغربيون كلمة « روما » أى حكاية أو خرافة وما نطلق عليه نحن كلمة « قصة » هذا على أن بعضه قد يصدره الكاتب بشكل يجعله صالحا للتمثيل على المسارح فتراه يتعمد فيه الاكثار من الأشخاص المختلفين فى الأخلاق والصفات ، ويجعلهم يتحدثون فى حوار حديثا يظهر المستور من طبائع النفوس وخفايا الصدور مع الاحتفاظ بشخصية البطل أن تغطى عليها تلك الشخصيات ، ومع المفاجأة بالعقد التى تعرض متطلبة الحل ، والمهارة فى إيراد الحلول . وهذا ما يسميه الغربيون باسم « دراما » أى قصة تشخيصية ونسميه نحن عرفا باسم الرواية

---

(١) ذكر صاحب الفهرست أسماء عشرات من القصص الغرامية المختلفة كأبى العتاهية وعتب ، وابن قتيبة وبانوحه ، وريحانه وقرنفل ، وغيرها مما ضاع أو تضمنه ألف ليلة وليلة .

لأننا اعتدنا أن نلحظ فيما أخذ هذه التسمية من القصص ، التشخيص[1]

تلك شروط القصة الحديثة وأنواعها ، وهى شروط لو دققنا فى تطبيقها على ما ذكرنا للعرب عن القصص فى العصر العباسى استعصى علينا التطبيق ؛ لأن قصصه سير تاريخية لا تصوير شخصى ، أو هى مكتوبة بقلم أشخاص عدة لا شخص واحد ، أو هى مسفة العبارة كثيرة الأخطاء ، ولكنا لو تساهلنا فى التطبيق من غير تدقيق ساغ لنا أن نقول إن العرب خلفت فى العصر العباسى مثلا للقصة فى عموم إطلاقها وشبه مثل لها فى الروائى منها . وإنما جعلنا ما خلفت فى هذا شبه مثل لا مثلا للضعف البادى فيه عن نظيره الغربى ، ولعل من أسباب هذا الضعف عدم استعداد العرب منذ قديمهم للشعر القصصى والتمثيلى كما بيناه مفصلا فى كتابنا الأول حيث الكلام على نوع الشعر الجاهلى ، ثم عدم سماحهم للمرأة بالتشخيص والتمثيل ، مع أن وجودها مع الرجل شرط أساسى فيه .

هذا وقد عالج العرب نوعا من القصص غير ما أسلفنا رموا فيه إلى عرض نظرية علمية أو فكرة فلسفية فعرف لذلك بالقصص العلمى أو الفلسفى ، وهو وإن ضم إلى سمو الفكرة جودة العبارة إذ كتب لخاصة الناس ، ليس جديرا أن يحمل اسم القصص ؛ لأن الغرض الأول للقصص مغمور بالعلم والفلسفة المقصودين فيه ، ومن أمثلته فى القرن الرابع كتاب « الأنسان والحيوان » لأخوان الصفا أصحاب الرسائل المشهورة المنسوبة إليهم ، فأنهم وإن جعلوه مناظرات بين الحيوان والأنسان كما فى كليلة ودمنة قد حشوه كثيرا من الحوار العلمى فى الطبيعة ومميزات الأنسان والحيوان . ومنها فى القرن السادس رسالة «حى بن يقظان» لأبى بكر محمد بن عبد الملك

---

(١) يأخذ هذا النوع اسم « تراجيدى » إذا غلب عليه عنصر الفجيعة والحزن ، ويأخذ اسم « كوميدى » إذا غلب عليه عنصر الضحك والهزل .

ابن الطفيل المتوفى سنة ٥٨١ التى شرح فيها بأسلوب قصصى ، إنسان الفطرة أو ابن الطبيعة ، ووفق إلى نظريات علمية فى تطورات هذا الانسان ، وقد طبعت فى مصر وفى غيرها مرارا وترجمت إلى كثير من اللغات الأجنبية .

على أن من هذه القصص العلمية ما تمكن صاحبها من تغليب الصبغة القصصية فيها على الصبغة العلمية كرسالة الغفران من مخلفات القرن الخامس لأبى العلاء التى كتبها فى عزلته وضمنها انتقاد شعراء الجاهلية والاسلام والادباء والرواة والنحاة فإنها علمية فلسفية ، يتضمن بعضها لغة وأدباء وشعرا ونقدا ، وبعضها نوادر اجتماعية عن الزنادقة والمتنبئين وشاذى الأفكار فى عصور الأسلام ، ولكنه ساقها فى أسلوب قصصى خيالى أبعد فيه . فقد تصور رجلا صعد إلى السماء وشاهد الجنة والنار ، وقابل كثيرا من أهليهما وحاورهم وحادثهم فيما ذكرنا . وإذكان يسأل دائما من كان يعتقدهم أبناء جهنم وأبصرهم فى الجنة عما من أجله غفر الله لهم فكانوا يجيبونه بمالا يخرج عن النوعين اللذين أوضحنا فى مشتملات الرسالة ، دعاها رسالة الغفران ، وهى ذات شأن هام ومقام كبير ؛ لأنها وإن لم يقصد تمثيلها ، تمثل القصص التشخيصى إلى حد ما ، فقد — جاءت فوق مارأيت من مشتملاتها — خصيبة الخيال فى تصوير الجنة والنار ، وما فيهما من نعيم وعذاب ، ولاذعة السخرية فى كثير من حوارها . ومن هنا وقعت لدى الغربيين الوقع العظيم ، فما كاد الغرب يتصل بالشرق فى الحروب الصليبية حتى عرف الطليان مكانتها إذ كانوا أسبق المسارعين إلى هذه الحروب ، فنسج شاعرهم دانتى على منوالها « الرواية الألهية » وفيها نفس الخيال الذى سبقه إليه المعرى بثلاثة قرون ، وكذلك فعل ملتن الانجليزى فى روايته « الفردوس المفقود » بعده بأكثر من ستة قرون . فهى قد غذت الغرب من الناحية التمثيلية « الدراما » كما غذاه فى القصص العربى قبلها كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة فى الناحية القصصية « الرومانس » . ولكن حال الشرق ساءت فوقف عند هذا الحد وتقدم الغرب الذى أخذ عنه

فوصل إلى ما ترى الآن من رقى باهر فى فنون الأقاصيص والروايات .

هذا ، وكما انحازت طائفة من القصص إلى الناحية العلمية الفلسفية التى غطت على الروح القصصى كما تقدم ، انحازت طائفة أخرى إلى ناحية لغوية صناعية نزعت بهجة القصص منها ، تلك هى المقامات التى سنتكلم عنها الآن .

٤ — المقامات

لقد نفخ إنشاء الدويلات فى المشرق منذ أواخر العصر العباسى الثانى ، وتحكم آل بويه على الخلافة فى بغداد بعد هذا الانشاء ، فى اللغة الفارسية وآدابها ، نفخة حركتها من الأجداث ووهبتها روحا أنهضتها من الرجام ، فرأينا رجال هـــذه الدويلات يحضون أدباء الفرس على النظم بها فى مجدهم وسالف تاريخهم ، كما فعل نوح بن منصور السامانى فى اقتراحه على الدقيقى نظم الشاهنامة ، وحتى من كان يحكم هذه الأقاليم من غير الفرس كان يجاريهم فى النهوض بلغتهم تقربا إلى شعوبه من أهلها ، كما فعل السلطان محمود الغزنوى التركى ، فى اقتراحه على الفردوسى إتمام الشاهنامة التى بدأها الدقيقى ولم يتمها . وكأن هذا الانتصار لادب الفرس فى وقت يزدهر فيه الأدب العربى ، قد حرك أدباء العرب المشاهدين له عن كثب فى أجواء فارسية ، وخلق فيهم روح انتصار للعربية يقابل ذلك الانتصار الفارسى ، واتفق أن رحل إلى نواحى فارس العلامة اللغوى والراوية الأديب ، والشاعر العظيم أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدى فى النصف الاول من القرن الثالث ، وأقام هناك مع ابنى ميكال[1] وهما يومئذ على عمالة تلك

---

(١) هما عبد الله بن محمد بن ميكال وولده اسماعيل ، فهما للشاه محمد بن ميكال ولد وحفيد ، ولكن شاعت نسبتهما إليه نسبة الأبناء

البلاد [1] فقلداه رياسة الديوان ، فابتكر نوعاً من الأدب اشتقه من الحياة الفارسية ليعارض به أدبها فى أربعين حديثا تحدث عنها الحصرى فى زهر الآداب صفحة ٢٧٨ من هامش العقد الفريد جزء أول بما يدل على ما قدمنا ، قال تحت هذا العنوان — جملة من كلام أبى الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى بديع الزمان — « وهذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وكلام غض المكاسر أنيق الجواهر ، يكاد الهواء يسرقه لطفا ، والهوى يعشقه ظرفا ، ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى ، أغرب بأربعين حديثا وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره واستنخبها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضمائر ، فى مصادر عجمية ، وألفاظ حوشيه ، فجاء أكثرما أظهره تنبوعن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حجبها الأسماع ، وتوسع فيها إذ صرف ألفاظها ومعانيها فى وجوه مختلفة وضروب متفرقة ، عارضها بأربعمائه مقامة فى الكدية تذوب ظرفا وتقطر حسنا ، ولا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى ، وعطف مساجلتها ووقف مناقلتها بين رجلين ، سمى أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبا الفتح الأسكندرى ، وجعلهما يتهاديان الدر ويتنافثان السحر فى معان تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ، يتطلع منها كل طريفة ، ويوقف منها على كل لطيفة ، وربما أفراد أحدهما بالحكاية ، وخص أحدهما بالرواية ، وسأذكر منها ما لا يخل طوله بالشرط المعقود ولا ينافى حصوله الغرض المقصود » اهـ . وهذا كلام نخرج منه إلى أن ابن دريد أنشأ أحاديثه فى بيئة فارسية ومعارض عجمية ، وأنه كان فيها أميل إلى اللغة والغريب ، بحكم لغويته التى كانت أغلب شىء عليه ، وأن البديع حين عارضه سمى أحاديثه مقامات [2] ولكنا نذكر أن الذى احتذاه أولا إنما هو أستاذ

---

(١) من قبل المقتدر الخليفة العباسى .

(٢) أصل المقامة فى اللغة كالمقام موضع القيام كمكانة ومكان . وقد

البديع أبو الحسن أحمد بن فارس ، العلامة اللغوى المتوفى سنة ٣٩٠ لا البديع . فقد وضع مقامات اتبع الأدباء نسقه فيها ، وكان أولهم اتباعاً تلميذه البديع المتوفى سنه ٣٩٨ فى مقاماته التى وصفها الحصرى آنفاً ، وكلاهما عاش فى بيئة فارسية كما عاش ابن دريد . ولعل من حظ البديع ضياع مقامات هذين الأستاذين وبقاء مقاماته ممثلة فى الثمن الباقى منها وهو خمسون مقامة فاعتبرت لذلك أولى المقامات .

بنى البديع مقاماته على الكدية (١) وجعل الحديث فيها بين شخصين خياليين هما عيسى بن هشام راوية ، وأبو الفتح الأسكندرى شحاذاً .

استعملت فى المجلس استعمال الأضداد كما قال المسيب بن علس :

وكالمسك ترب مقاماتهم وترب قبورهم أطيب

وكما قال نهشل الدارمى :

إنا نظرنا فى المقامة مالكا نظر المسافر أين ضوء الفرقد ؟

وانتقلت منه إلى الجماعة الجالسين كما قال لبيد العامرى :

ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيام

وكما قال زهير بن أبى سلمى :

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

وقد سبق المجلس المقامة فى هذا الاستعمال كما قال مهلهل :

نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس

ثم أطلق المحدثون المقامة على الحديث يقال فى مجلس واحد يستمع له ، وبعدئذ قصروه على هذا الضرب المعروف من الكلام .

(١) لعل سبب اختيار البديع للكدية فى بناء المقامات يرجع إلى انتشارها أيامه بأواسط آسيا فى صور شتى تألفت منها الطائفة المعروفة إذ ذاك بالساسانية من أعراب وأبناء سبيل وذوى عاهات وحواة وقرادة وسحرة ومشعوذين وغيرهم ممن كانوا يتحيلون فى جلب الرزق ولكن من طريق

فكانت جعبة فصاحة وبلاغة ، ولكنها وقد تركزت على الكدية وحدها ، جاءت بعيدة عن الروح القصصى ، غير خليقة أن تسمى قصصاً على الوضع الذى شرحناه ، ويكفى أن تعلم أن خمس عشرة منها لم يك فيها مع الكدية غيرها وهى الأزاذية (١) والبلخية والسجستانية والكوفية والأذربيجانية والجرجانية والأصفهانية والبصرية والفزارية والمكفوفية (٢) والبخارية والقزوينية والساسانية والقرديه والناحمية (٣) ولذا جاءت أقصر المقامات وأقلها روعة ؛ أما الباقيات فقد تضمنت مع انتهائها بالكدية غالبا ، أشياء أكسبتها جمالا وإن لم تنقلها عن الناحية اللغوية إلى القصصية ، أهمها الوصف وقد وقع فى عشرين مقامة انحدرت خمس منها إلى هوة الكدية أيضا بوصفها ألوان الأطعمة والأشربة وهى البغدادية والمضيرية (٤) والمجاعية والنهيدية (٥) والخمرية ، وتناول سائرها وصف أشياء أخرى متباينة كالأسد والفاتك فى الأسدية ، والفرس فى الحمدانيه (٦) وأنواع اللصوص وطرقهم فى الرصافية والمغزل فى المغزلية وكهل رث فى الشيرازية ، وحمامى وحجام فى الحلوانية ، والرجل يكون خشن الجانب أو لينه فى الخلفية (٧) ، واللص يتخذ ثوب الناسك فى النيسابورية ، والعلم فى العلمية وإخوان الدهر ما يفعلون وما يجب أن يفعل بهم فى الصيمرية (٨) ، والملوك فى الملوكية ، والدينار إلغازاً فى

الامتاع بقص الأخبار ورواية الأشعار والمناظرة والتهاجى والمدح ونحو ذلك مما عقد بين الأدب والكدية نسبا .

(١) الأزاذ : نوع من التمر (٢) ادعى فيها الأسكندرى كف بصره (٣) تسمى فيها الأسكندرى بالناحم (٤) المضيرة لحم يطبخ باللبن المضير أى الحامض كالخل (٥) النهيدة الزبدة (٦) أهدى فيها فرس إلى عظيم من بنى حمدان .

(٧) نسبه إلى خلف بن أحمد أحد الأجواد (٨) بلد قرب دينور

الصفرية ، والرجل يخدع مظهره ويؤذى مخبره فى السارية [١] وهى قريبة الشبه بالنيسابورية ، والوضعاء يعلون فى التميمية [٢] ثم المال والدعوة إلى فتح المطالب فى المطلبية . ويلى الوصف فى العناية ، المطارحات الأدبية وقد شغلت تسع مقامات ، ستا فى الشعر وهى : القريضية فى التفاضل بين الشعراء ، والغيلانية فى غيلان بن عقبة وهو ذو الرمة ، والأسودية [٣] فى إنشاد شعر مرتجل ، والأبليسية فى شياطين الشعراء ، والعراقية والشعرية وكلتاهما فى الألغاز عن أبيات الشعر ، ثم ثلاثا فى محاورات أخرى وهى الجاحظية فى مدح الجاحظ وذمه ، والمارستانية فى دحض مذاهب المعتزلة ، والدينارية فى التساب بين متشائمين . أما الست الباقيات فقد جاءت ثلاث منها فى الوعظ والإيصاء وهى : الأهوازية فى الحياة والموت ، والوعظية فى الدنيا والآخرة ، والوصية فى الاقتصاد والتجارة ، وثلاث فى التمويه والتدجيل وهى الموصلية فى محاولة إحياء ميت ورد سيل ، والحرزية فى عمل حرز يضمن النجاة من الغرق ، ثم الأرمينية فى التحيل لجلب الخبز والأدم .

وقد أبدع البديع فى مقاماته مع أنه أملاها ارتجالا أو فى حكم الارتجال بنيسابور ، الأبداع كله ، ولهذا بعد فيها عن تكلف صناعات البديع فجاءت قليلة الغريب سهلة المتناول ، يتعشق أول الكلام فيها آخره ويرتبط بعضه ببعض ارتباطاً يؤذن بصفاء قريحة وطول باع ، فأنت إذا بدأت فى قراءة واحدة منها تخيلت نفسك قد حللت روضاً ممتعاً ينسيك كل شىء غيره وكلما سرحت نظرك فى خميلة من خمائله أو زهرة من أزهاره تطلبتك أجمل منها حتى لا تشعر إلا وقد انتهيت إلى سياجه .

وقد أجاد فيها الوصف والتشبيه ، والمقامات العشرون التى تناولت الوصف كما ذكرنا مليئة بأوصاف تنطق بالحقيقة وتمثل الصورة ، وتشبيهات تستخف

---

(١) بلد بطبرستان (٢) نسبة إلى ابن الندى التميمى

(٣) نسبة إلى الأسود بن قنان .

القارىء عجباً وتأخذ بلبه حيرة ودهشاً ، فارجع إليها أو إلى المقامة الأسدية التى اخترناها نموذجا منها ، تجد المثل العليا لما ذكرنا . كما أحسن فيها الكناية وأحكم الألغاز ، فمن كناياته قوله فى شدة الروعة من أسد خرج عليه « فاذا السبع فى فروة الموت قد طلع من غابه » . وفى الخوف من فاتك لقيه فجأة « فراعنى منه ما يروع الوحيد من مثله وأخذنى ما يأخذ الأعزل من شاكى السلاح » . وفى بلدة نزلها ولم يقم إلا قليلا « فملتها حلو الفىء » وفى تمثيل فرقة من صاحب « فاصطحبنا ثلاثة أيام حتى جذبنى نجد والتقمه وهد » . وفى مجلس صفاء ليس فيه نموم « فأخذنا نتحدث ومافينا إلا منا . ومن ألغازه وكان كثير الألغاز فى أبيات الشعر قوله : « بيت نصفه يغضب ونصفه يلعب « يعنى قول عمرو بن كلثوم .

كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدى لاعبينا

وقوله : « بيت كاد يسقط فعاد » يعنى قول المتنبى :

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

وقوله : « بيت هو مهين بحرف ورهين بحذف » يعنى قول أبى نواس :

لقد ضاع شعرى على بابكم كما ضاع عقد على خالصة

إلى غير ذلك من الالغاز التى أكثر منها دون أن يحمل اللفظ مالا يحتمل أو يكلف المعنى مالا يطيق .

وليس هذا وغيره بغريب على رجل كان له من صفاء الخاطر وجودة القريحة وسعة الرواية وكثرة الحفظ ما لم يكن لغيره من كاتب أو شاعر ، قال عنه الثعالبى فى اليتيمة « إنه كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط ، وهى أكثر من خمسين بيتاً فيعيدها كلها دون أن يترك حرفا ، وكان ينظر فى أربع الورقات والخمس نظرة خفيفة ثم يسردها سرداً ، وكان يقترح عليه عمل قصيدة فى معنى بديع أو إنشاء رسالة فى باب غريب فيفرغ منها فى الوقت والساعة ، وكان وبما بدأ الكتاب المقترح عليه من آخره وانتهى بأوله

فيخرج الكتاب جيداً فى نوعه فريدا فى بابه » ولهذا القول شأنه لأنه قول معاصر أدركه لا محدث سمع عنه .

وقد زاول إنشاء المقامات بعد البديع أبو نصر عبد العزيز بن عمر المشهور بابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ وأبو القاسم عبد الله بن محمد المشهور بابن ناقيا المتوفى سنة ٤٨٥ ولكن مقاما تيهما لم تشهرا ، ثم جاء بعدهما فارس ميدان المقامات والمجلى فى حلبته الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ فأنشا مقاماته الخمسين التى عارض فيها البديع فبذه فى صناعة الكلام وإن اعترف له بفصل السبق فى هذا الفن ، وهذى كلمة فى التعريف بها.

بنى الحريرى مقاماته على الكدية كما فعل البديع ، وجعلها خمسين مقامة فجاءت وفق العدد الذى بقى لنا من مقامات سلفه المذكور . وقد جاءت فيها خمس عشرة فى الكدية وحدها ، ثمان خالصة لها وهى الكوفية والبرقعيدية[1] والبغدادية والمكية والصورية والتفليسية والمروية والساسانية ، وسبع فى التحيل لها وهى الدمشقية التى ادعى فيها خفر القافلة بدعوة لقنها فى المنام ، والفارقيه[2]، التى ادعى فيها حاجته إلى تكفين ميت ، والوبرية التى طلب فيها ناقة ادعى ضلالها ، والواسطية التى ختل فيها أهل الخان باطعامهم حلواء مخدرة ، والزبيدية التى باع فيها ولده على أنه غلام ، والعمانية التى علق فيها عزيمه الطلق على حامل لتضع ، والحرامية [3]، التى ادعى فيها أن ابنته فى الأسر وطلب فداءها ، وجاءت فيها ست للوعظ هى الصنعانية والساوية[4]، والرازية والرملية الأولى والتنيسية والبصرية ، وأربع فى الوصف الخالص الصريح هى الدينارية فى الدينار والسنجارية فى النمام ، والكرجية فى الشتاء ،

---

(١) برقعيد قصبة فى ديار بكر .

(٢) نسبة إلى ميافارقين مدينة الشام . (٣) نسبة إلى بنى حرام بالبصرة وهى أولى المقامات إنشاء . (٤) نسبة إلى ساوة مدينة بين الرى وهمذان .

والبكرية فى البكر والثيب ، ولا تخلو هذه المقامات الأربع من وصف أشياء غير التى بنيت عليها كما لاتخلو مقامة غيرها من أن يكون فيها وصف ، ولو لم يكن للحريرى من أوصاف غير افتنانه فى وصف أبى زيد بما يلائم شخصيته فى كل مقامة لكفاه ذلك فى تقلد زعامة الوصف أمام الواصفين ، وجاءت فيها عشر فى الحوار والمخاصمة هى الحلوانية فى محاسن التشبيهات ، والدمياطية فى المواصلة والقطيعة ، والأسكندرانية فى أثاث زوجته وحليها إذ باعه ، والرحبية [١] ، فى دعوى القتل على برىء والفراتية فى صناعتى الأنشاء والحساب والشعرية فى دعوى سرقة شعر والصعدية [٢] ، فى عقوق الابن والتبريزية فى نشوز الزوجة والرملية الثانية فى عصيانها والحجرية [٣] ، فى الحجامة . وجاءت فيها تسع فى التكنية والألغاز ، فمقامات التكنية أربع هى المعرية فى الكناية عن الأبرة والميل ، والنصيبية فى الكناية عن بعض ألوان الطعام وما يتعلق به ، والشيرازية فى الكناية عن الخمر ببكر رباها ، والنجرانية فى الكناية عن أشياء عشرة هى المروحة والحابول [٤] ، والقلم والميل والدولاب والمزملة [٥] ، والظفر وطاقة الكبريت وخمر العنب ومعيار الذهب .

ومقامات الألغاز خمس ، هى الفرضية فى مسألة توريث ، والنحوية فى مائة لغز نحوى ، والطيبية [٦] ، فى مائة لغز فقهى ، والملطية [٧] ، فى عشرين مقايضة كلامية [٨] ، والشتوية فى خمسين تورية ملغزة ضمنها قصيدة بائية

---

(١) نسبة إلى رحبة بن مالك بن طوق . (٢) نسبة إلى صعدة باليمن .
(٣) نسبه إلى حجر باليمامة .
(٤) هو حبالة الصائد . (٥) جرة يركب فى ثقب بها قصبة للشرب منها .
(٦) نسبة إلى طيبة مدينة الرسول . (٧) ملطية من بلاد الجزيرة . (٨) المقايضة هى الأحاجى وتكون بطلب كلمة واحدة تؤدى معنى كلام ، كطوامير فى معنى « جوع أمد بزاد » والفاشية فى معنى « أهمل حلية » وهكذا .

فى كل بيت لغز سوى بيت المطلع وثلاثة أبيات ختمها بها معجباً بنفسه وكم فيما أتى به حقاً من عجب ، على أن الأعجب منه ما جاء فى المقامات الست الباقية من التلاعب بالصناعات اللفظية التى ابتكرها لا التى أتى بها علم البديع ، وهى المقامة المغربية للعبارات التى تقرأ ردا وطردا ، والقهقرية للرسالة التى تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه ، والخيفاء للرسالة التى إحدى كلماتها معجمة والأخرى مهملة ، والرقطاء للرسالة التى أحد حروف كلماتها معجم والآخر مهمل ، والسمرقندية للخطبة العارية من النقط ، ثم الحلبية لعشر مقطعات من الأبيات ، أولاها عواطل من النقط ، والثانية حوال به ، والثالثة أخياف أى كلمة مهملة وأخرى معجمة ، والرابعة متائيم أى كل كلمتين مجنستان جناساً خطياً ، والخامسة مطرفات أى بطرفى كل بيت جناس بين كلمة وكلمتين ، والسادسة لما أشكل من ذوات السين ، والسابعة لما أشكل من ذوات الصاد ، والثامنة لما يجرى عليه هذان الحرفان ، والتاسعة لعقد هجاء الأفعال الناقصة ، والعاشرة وهى طويلة لما ورد من الكلمات فيه ظاء .

هذا ما نحا إليه الحريرى فى مقاماته من الفن المعجز الذى غطى على كل فن قبله وقطع الطريق على كل فن بعده . وهو مع هذا بعيد عن التكلف الممقوت ، ولذلك كان منصفاً للحقيقة بل غير موفيها حقها حين قال من وصفها فى مقدمتها « وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية ناضبة وهموم ناضبة ، خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، إلى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصعته فيها من الأمثال العربية واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة والخطب المحبرة ، والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية ، مما أمليت جميعه على لسان أبى زيد السروجى ، وأسندت روايته إلى الحارث

ابن همام البصرى [١] ، وما قصدت بالأحماض [٢] ، فيه إلا تنشيط قارئية وتكثير سواد طالبه ، ولم أودعه من الأشعار الأجنبية إلا بيتين فذين أسست عليهما بنية المقامة الحلوانية ، وآخرين توأمين ضمنتها خواتم المقامة الكرجية ، وما عدا ذلك فخاطرى أبو عذره ومقتضب حلوه ومره [٣] ، هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سباق غايات وصاحب آيات وأن المتصدى بعده لانشاء مقامة ولو أوتى بلاغة قدامة لا يغترف إلا من فضالته ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته ولله در القائل [٤] .

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة بسعدى شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم «

فمقامات الحريرى بالنسبة إلى مقامات البديع — وإن كانت هذه أكثرا انطباعا ، وأشد انسجاماً ، وأبعد عن زخرف الصناعة وغريب اللغة — أبدع فنوناً وأبرع خيالا وألطف فكاهة وأكثر أمثالا ، ولذلك جذبت إليها طلاب اللغة للاستفاده منها ، وأعلام الادب للعمل فيها ، فحظيت بمثل ما حظى به شعر المتنبى وشرحها كثير . منهم الشريشى المتوفى سنة ٦١٩ والمطرزى والعكبرى والطرائفى والزبيدى والطبلى والناصرى والباجى وغيرهم وأشهرهم الشريشى ، وقد طبع شرحه أكثر من مرة بمصر وبغير مصر ، أما

---

(١) أبو زيد السروجى هو المطهر بن سلام البصرى النحوى لزم الحريرى وتأدب عليه وتخرج به فأملى مقاماته على لسانه . أما الحارث ابن همام فيعنى به نفسه لقوله عليه الصلاة والسلام « كلكم حارث وكلكم همام » . فبطلا مقاماته ليسا خياليين كبطلى البديع . (٢) التلوين والتنويع . (٣) بالمقامات من الشعر ما يزيد على ما لكثير من الشعراء ولذلك عد الحريرى من الشعراء المكثرين على أن له ديوان شعر . (٤) قيل هو عدى ابن الرقاع وقيل غيره .

شروح غيره فبين معدوم ومخطوط ببعض مكاتب أوربة . وقد نشر أصلها العربى بالغرب فى القرن التاسع عشر ثم ترجمت فيه إلى بعض لغاته وإلى بعض اللغات الشرقية كالفارسية والتركية وغيرهما . ولم يك العجب بها فى القديم بأقل منه فى الحديث فهذا على بن الحسن المعروف بشميم الحلى المتوفى بالموصل سنة ٦٠١ وكان معجباً بنفسه لا يكاد يرى لأحد من المتقدمين عليه فضلا يقول « لا أعلم أحداجاء بما يرضى إلا أن يكون المتنبي فى مديحه ، وابن نباتة فى خطبه ، والحريرى فى مقاماته ، فهؤلاء لم يقصروا » . وقال له بعض إخوانه قد عجبت أن لم تصنف مقامات تدحض بها مقامات الحريرى فقال « إن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل ، قد عملت مقامات مرتين فلم ترضنى ، فأعرضت عنها وأهملتها ، وما أعلم أن الله خلقنى إلا لاظهر فضل الحريرى » .

وقال جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ صاحب الكشّاف وهو من هو بلاغة ، فى الحريرى ومقاماته .

أقسم بالله وآياته ومشعر الحجّج وميقاته
أنّ الحريريَّ حريٌّ بأن نكتب بالتبر مقاماته
معجزة تعجز كلّ الورى ولو سروا فى ضوء مشكاته

وللزمخشرى هذا مقامات خمسون أيضاً . ألفها قبل مقامات الحلى المذكورة ، وكذا لأبى منصور أحمد بن جميل البغدادى المتوفى سنة ٥٧٧ ، والأولى هى الباقية دون الثانية . وكلها فى الوعظ والارشاد بأسلوب على طريقة غير ما عرف فيهما للحريرى ، والبديع ، فأسلوبها ليس فيه محدث ومحدث عنه ، وطريقتها خلو كل الخلو من القصة . وقد جاء بعد هذين من تصدى لعمل المقامات فى العصر العباسى ، ولكن لم يشهر مع مقامات الحريرى والبديع فقير أوضاع ، كأحمد بن الاعظم الرازى المتوفى سنة ٦٣٠[1].

---

(١) تعدى عمل المقامات رجال العصر المذكور إلى رجال العصور

بعده حتى العصر الحديث ، كزين الدين بن صقيل الجزرى المتوفى سنة ٧٠١ ، وعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ ، وجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١٩ ، والشهاب الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ ، والشيخ ناصيف اليازجى المتوفى سنة ١٢٨٧ ، ثم المنشىء الأديب محمد بك المويلحى فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » الذى حذا فيه حذو البديع ، واختار له اسم راويته المذكور فأعاد إلى الأذهان ذكراه ، وأشهد لقد فاقه فى أن جاء حديثه هذا أدخل فى باب القصة من المقامات ، لما عالجه من تصوير الحوادث وتحليل الشخصيات ، فهو بطل المقامة فى الحديث كما كان البديع والحريرى بطليها فى القديم .

تدوين العلوم والكتابة العلمية

علمت من الخلاصة التى أثبتناها عن تدوين العلوم فى العصر الأموى ، أن ذلك العصر انقضى ولم يدون فيه شىء من العلوم الشرعية إلا التفسير الذى نسبه مجاهد إلى ابن عباس ، وعن حديث رسول الله الذى دونه محمد ابن عمرو بن حزم ، وأذاعه عمر بن عبد العزيز فى الأمصار ، والأول باق والثانى غير معروف ، أما الفقه فلم يدون فيه شىء ومثله القراءات . كما علمت أنه لم يدون من العلوم اللسانية إلا بعض كتب فى النحو ليس لها الآن وجود . وكذلك كان الشأن فى العلوم الأخرى من تاريخ وكيمياء وفلك وطب ، فلم يصل الينا مما ألف فيها إلا ترجمة ما سويه لكتاب أهرون السريانى فى الطب الذى أذاعه أيضاً عمر بن عبد العزيز ، ولذلك يحكم المؤرخون على ذلك العصر بأنه لم يكن عصر تدوين للعلوم ، ويعتبرون العصر العباسى هو العصر الحق للتدوين .

ذلك بأن الحال السياسية لم تكد تستقر أول العصر العباسى بعد خلافة السفاح وقليل من خلافه أخيه المنصور ، حتى أحس هذا الخليفة العظيم بشدة الحاجة إلى تدوين العلوم ، فحمل علماء الدين واللغة على جمع العلوم الشرعية واللسانية ، وأوعز إلى المترجمين من السريان والفرس أن ينقلوا من اليونانية والفارسية ما تحتاج إليه الدولة من علوم أخرى كالطب والفلك وغيرهما ، وبذل فى ذلك على جمود كفه المال الكثير . وتبعه فى هذا أولاده وأحفاده حتى زخر تيار العلوم والفنون على أيدى طبقة واضعة انتهى مجهودها بعصر الرشيد . ثم جاء المأمون ففضل آباءه وأجداده فى تشجيع حركة التأليف والترجمة ، فنشأت طبقة ثانية يصح أن تسمى طبقة التهذيب والتفصيل ، لما أنتجته طبقة الوضع ، فأتمت العصر الأول وسلخت نصف الثانى . وبعدها نشأت طبقة ثالثة ثم فيها استواء

الملكات ، وصح لذلك تسميتها طبقة التصنيف ، لأنها صارت عندها صناعة أخرجت البسيط والوسيط والوجيز فى شتى العلوم والفنون ، وبها انتهى العصر الثانى .

ولما جاء العصر الثالث نشطت حركة التأليف بعامل المنافسة بين رجال الدويلات ، واشتدت المنافسة بين الشرق والغرب ، فنمت العلوم وتعدد فروعها حتى تجاوزت الثلثمائة ، ووجدت علوم لم تكن موجودة ، ومن ثم سمى عصر نضج العلوم ثم سمى عصر المكاتب لأنها كثرت فيه ، كما سمى عصر توطن العلوم لأنها عمت جميع الحواضر ولم تعد وقفاً على بغداد ، وفيه انتشرت المؤلفات الشيعية بمظاهرة الفاطميين غرباً والفرس شرقاً فسمى لذلك عصر المذهب الشيعى .

ثم جاء العصر الرابع فاستمرت العلوم سائرة به فى طريق النماء حتى اتسعت الأبحاث وأخرجت المؤلفات الضخمة والمصنفات الجامعة ، فعرف بعصر الموسوعات . ثم انتشرت فيه حركة التعليم وأنشئت المدارس المنتظمة فعرف بعصر المدارس أيضاً . غير أنه قد حدث فيه انقلاب كثير ضد المذهب الشيعى الذى كان سائداً فى سلفه كما تقدم ، قضى على قوته وأحل المذهب السنى محله بعون السلاجقة شرقا والأيوبيين غربا ، بعد ذهاب آل بويه والفاطميين ، ثم كانت العلوم الأدبية فيه فى المرتبة الثالثة بعد العلوم الأخرى من شرعية وكونية ، وقد سبق ذلك كله مفصلا فى صدر الكتاب . ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلى أن الحركة العلمية فى الممالك الشرقية ونظيرتها فى الممالك الغربية كانتا فى العصر الثالث سواء ، أما فى العصر الرابع فكانت فى الشرق خيراً منها فى الغرب ، غير أنها اضمحلت فى الأول قبل اضمحلالها فى الثانى .

هذا والعلوم التى خلفها المسلمون فى العصر العباسى من وضعهم أو ترجمتهم نوعان ، إسلامية من شرعية كالتفسير والقراءات والحديث والفقه والأصول والكلام والمنطق وغيرها ، ولسانية كالنحو والصرف

واللغة والبلاغة بأقسامها ، والأدب ويلحق به التاريخ [1] ، وغيرها . ثم كونية من طبيعية ورياضية وإلهية وسياسية . وإليك كلمة موجزة عما ذكر من علوم النوع الأول بقسميه ، وأخرى مجملة عن النوع الثانى بأقسامه الأربعة .

العلوم الشرعية

١ — التفسير والقراءات

كان أول تفسير وضع ، التفسير المنسوب إلى ابن عباس برواية مجاهد من التابعين الذين كانوا يتلقون ذلك عن الصحابة فى العهد الأموى كمجاهد هذا وسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وطاووس بن كيسان وعطاء بن أبى رباح وغيرهم من أصحاب ابن عباس بمكة والمدينة ، وكابراهيم النخعى والشعبى من أصحاب عبد الله بن مسعود بالكوفة ، وكمالك بن أنس والحسن البصرى من أصحاب زيد بن أسلم بالبصرة . وقد أدرك بعض التابعين العصر العباسى على عهد المنصور ، فدونوا مع تابعى التابعين أمثال سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ويزيد بن هرون وآدم بن أبى إياس وإسحق بن راهويه ومحمد بن إسحق ومقاتل بن سليمان وغيرهم ، تفاسير للقرآن ، كما كتب بعضهم فى غريبه وبعضهم فى تأويل آياته وبعضهم فى مجازه ، ولكن تفاسيرهم جاءت حاوية لبعض التأويل الباطلة التى أخذوها من غير تحقيق عمن أسلم من اليهود ، كوهب بن منبه وعبد الله بن سلام وكعب الاحبار . ثم جاءت فى العصر الثانى طبقة حققت ذلك كان منها المفسر العظيم أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ صاحب

---

(١) من مباحث الادب أيضاً العروض والقافية وسيأتى القول عنهما بما فيه الغناء حيث الكلام على ألفاظ الشعر وأساليبه .

« جامع البيان فى تفسير القرآن » الذى يعد أول كتاب صحيح للتفسير المنقول ، واقتدى به فى ذلك جماعة ، ومنهم استمد الناس ، ثم جاء العصر الثالث فنشأت طبقة رغبت فى تجريد الروايات من الأسانيد وإضافة كثير من مباحث العلوم المختلفة التى كانت قد نضجت إذ ذاك إلى التفسير ، كالنقاش الموصلى صاحب « شفاء الصدور » وإبراهيم الثعلبى صاحب « الكشف والبيان » ولما جاء العصر الرابع بقيت هذه الطريقة ردحا ، كما فى البسيط لأحمد الواحدى تلميذ الثعلبى المذكور ، ثم لم تلبث الزيادات العلمية أن أخذت اتجاهاً يمثل روح المفسر ، كالبلاغة والاحتجاج للمعتزلة فى كشاف الزمخشرى ، والكلام والأصول فى مفاتيح العلوم للرازى ، كما ظهرت التفاسير بالرأى والقياس دون تقيد بآراء السلف .

أما القراءات فقد تعددت وجوهها فى أوائل العصر العباسى ، ولكن الناس فى جهرتهم كانوا يرجعون فى قراءتهم إلى سبعة ، هم أبو عمرو بن العلاء وأبو محمد يعقوب بن إسحق وحمزة بن حبيب وعاصم بن أبى النجود وعبد الله بن عامر وعبد الله بن كثير ونافع بن أبى نعيم . وقبيل الثلثمائة أحلوا فى هذا الاقتداء على بن حمزة الكسائى محل يعقوب ، فأجهد يعقوب نفسه فى الحصول على جديد فى رواية القراءات فنال ونال معه يزيد بن القعقاع وخلف بن هشام ، وعرفوا بالقراء الثلاثة بعد السبعة المذكورين . ثم عرفت قراءات أربع قبل انقضاء العصر منسوبة إلى قراء أربعة آخرين هم ابن محيصن المكى والأعمش الكوفى والحسن البصرى ويحيى اليزيدى . وعلى هذا بقيت القراءات (١) .

---

(١) قد فصلنا القول فى القراءات حيث الكلام على جمع القرآن وروايته فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

٢ — الحديث

كان أول تدوين للحديث ما قام به ابن حزم بأمر عمر بن عبد العزيز ، ولكنه ضاع كما تقدم فجاء العصر العباسى وليس له تدوين .

ولما كان الافتراء على رسول الله قد ازداد بعمل الزنادقة والضلال ، أمر المنصور مالك بن أنس فجمع كتابه الموطأ الذى أثبت فيه الحديث مرتبا على أبواب الفقه ، فكان أول كتاب فيهما معا . وقد حمل تمييز الصحيح من الموضوع أئمة العصر الثانى على اقتفاء آثار الرواة بالجرح والتعديل ، فكان من ذلك وضع مصطلح الحديث على يد كثير ، أشهرهم إسحق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ . ثم عمدوا إلى تدوين الأحاديث الصحيحة مجردة من الموضوعة ، وكانوا قبل ذلك يدونونهما معا اكتفاء بالتنبيه ، فوجدت كتب ستى أصحها ، جامع الصحيح للبخارى ، والجامع الصحيح للنيسابورى ، والسنن لابن ماجه القزوينى ، والسنن كذلك لأبى داود السجستانى ، والجامع لأبى عيسى الترمذى ، والسنن أيضا لأبى عبد الرحمن النسائى . وبعد هذه الكتب الستة لم تزد رواية الحديث فى العصر الثالث واتجه اهتمام أئمته إلى ترتيب شيخوخه وتبيين مراتبه والتوسع فى مصطلحه. ومن كبار المحدثين فيه ، الحاكم النيسابورى وأبو الفتح الرازى وتلميذه أبو بكر البيهقى وكان كل جهدهم خدمة الكتب المذكورة فلم تعرف لهم مؤلفات مستقلة . أما فى العصر الرابع فقد وجد من المحدثين ذوى التآلف كثير منهم البغوى صاب حمصابيح السنة ، والجزرى صاحب جامع الأصول فى أحاديث الرسول ، والنهاية فى غريب الحديث

٣ — الفقه وأصوله

عرفت أن أول كتاب دون فى الفقه موطأ مالك بن أنس إمام الحجازيين، الذين غلب عليهم التشدد وعدم إعمال الرأى ، لوقوفهم عند الرواية وكانت

كثيرة عندهم ، أما أهل العراق البعيدون عن الرواية فقد عملوا بالقياس والرأى فيما لا يخالف الكتاب والسنة وراء إمامهم الأعظم أبى حنيفة النعمان ، ولكن لما انتقل المحدثون إليه بالعراق مزجوا بالرواية الرأى وظهر ذلك جليا فى صاحبيه أبى يوسف ومحمد . واتفق أن رحل الشافعى إلى العراق فأخذ عن محمد وغيره ووضع مذهبا وسطا بين مذهب مالك وأبى حنيفة . ثم رحل إلى مصر فرجع عن بعض ما رأى ووضع مذهبا آخر فكان له مذهبان قديم وجديد . ثم جاء أحمد بن حنبل فأخذ من بعض أصحاب الحديث عن الشافعى ، ومن بعض أئمة القياس والرأى عن أبى حنيفة ، فكان مذهبه المعروف . وبذلك تمت فى العصر العباسى الأول المذاهب الأربعة . المالكى بالحجاز ، والحنفى بالعراق ، والشافعى بمصر . والحنبلى فى نجد والبحرين وبعض الشام . ولكل إمام من هؤلاء بقية من كتبه أهمها الموطأ لمالك ، والفقه الأكبر لأبى حنيفة ، والأم للشافعى ، والمسند لابن حنبل . وفى العصر الثانى تغير كثير من الآراء فى مسائل الفقه لانتشار العلوم المختلفة وبخاصة الفلسفة فتولدت مذاهب لم تكن موجودة كمذهب الطبرى القريب من الشافعى ، ومذهب داود بن على الظاهرى القريب من المالكى . ولكنها تضاءلت أمام المذاهب الأربعة التى لم يستجد بجوار أصولها فى العصر الثالث أيضا غير التلخيص والشرح والتعليق ، ومن خيار الفقهاء فى هذا العصر أبو الحسن الماوردى صاحب كتاب الحاوى الكبير فى الفروع فى فقه الشافعى وهو مطبوع ، وكذلك كانت الحال فى العصر الرابع ، ومن فقهائه أبو حامد الغزالى وله تأليف كثيرة فى الفقه منها البسيط فى الفروع ، والوسيط المحيط بأقطار البسيط ، والوجيز فى فقه الشافعى

أما الأصول فقد حمل على نشأته رسوخ ملكة الفقه فى الأئمة رسوخا جعلهم يحصرون مسائله فى أصول خمسة هى : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ثم الاستحسان على خلاف يسير فى الآخيرين ، ويسمون

الـكلام فيها أصول الفقه . وأول من ألف فيه الشافعى رحمه الله ، ومن بعده انتشر لدى الحنفية بالعراق وفى مقدمتهم أبو زيد الدبوسى . ومن اشتداد الجدل فيه بين المذهبين نشأ علم الجدل والخلاف . وقد سايرت هذه العلوم الفقه فى سائر العصور لأنها متفرعة عنه .

٤ — الـكلام والمنطق

نشأ علم الـكلام فى العصر العباسى على أثر تنكب بعض المتأخرين طريق السلف فى التوقف عن البحث فى المتشابه وما يوهم التشبيه . فإنهم حين تناولوا البحث فى الأمرين ضل كثير منهم فى التأويل ووقع فى التجسيم المنافى للتنزيه ، فهب الآخذون برأى السلف إلى مقاومتهم ولـكنهم لم يقنعوا الداخلين فى الأسلام ممن امتلأت دياناتهم القديمة بالشبه والأوهام فدخل الدين كثير من العقائد الفاسدة ، واضطر العلماء المحافظون أن يخرجوا عن التوقف إلى الجدل والمعارضة بكثرة القول فكان هذا مبدأ علم الـكلام . وقد ظهر الخلاف أول ما ظهر من واصل بن عطاء الذى اعتزل حلقة الحسن البصرى واتبعه فى ذلك أناس عرفوا باسم المعتزلة لهذا الاعتزال . وقد نمى هذا العلم ما كان عليه الخلفاء من اختلاف ، فبعضهم كان ينصر أهل السنة ، كالمهدى وبعضهم ينصر المعتزلة كالمأمون . ثم زاد الاعتزال نموا فى العصر الثانى وفرة الفلسفة ، لما كثر من ترجمة كتبها ، ولم يقف تياره إلا ظهور أبى الحسن بن إسماعيل الأشعرى الذى استعمل أدلة العقل مع النقل وأتم مباحث هذا العلم ، كما ألحق به مبحث الأمامة فكان له مذهب خاص اتبعه فيه جماعة عرفوا بالأشعريين . وقد أيده فى العصر الثالث أبو بكر الباقلانى فنسخ كل مذهب إلا مذهب الشيعة الذى بقى عليه كثير من الاتباع . ثم لقى مثل هذا التأييد فى العصر الرابع على يد كثير ، أشهرهم الرازى وحجة الله الغزالى صاحب التآليف الـكثيرة الواسعة فى هذا الباب ، ومنها كتاب الأحياء . وفيه كثير من مباحث الـكلام .

هذا وقد حملتهم الحاجة إلى البرهنة والاحتجاج فى علم الكلام ، على شق الطريق إلى علم المنطق فنبغوا فيه وساعدهم على هذا النبوغ ما نقلوه عن اليونان فى جميع مباحثه من فصول ، ولعله لهذا السبب استمر طوال العصور العباسية خاضعا للنظم اليونانية بل بقى عليها من بعدها إلى الآن .

العلوم اللسانية .

١ — النحو والصرف

وضع أبو الاسود الدؤلى النحو بالبصرة فى العصر الاموى كما عرفت فى كتابنا الثانى ، فاختلف إليه عدد من رجالها يتعلمونه عليه ، كان منهم عنبسة الفيل وعبد الرحمن بن هرون الأعرج ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وميمون الاقرن وغيرهم ممن عرفوا بالطبقة الأولى . وعنهم أخذت طبقة ثانية منها عبد الله بن إسحق الحضرمى ، وأبو الخطاب الاخفش الأكبر ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر الثقفى ، وعن هذه الطبقة الثانية انتقل النحو إلى الكوفة فكون بها طبقة أولى منها أبو مسلم معاذ الهراء ، وابن أخيه أبو جعفر الرؤاسى ، وقد تبارت فى التأليف مع الطبقة البصرية الثانية ولم يك للطبقة البصرية الأولى فيه سوى أوراق ، فكان لعيسى بن عمر كتابا الجامع والاكمال ، وهما أول ما ألف فى النحو البصرى ، وكان لأبى جعفر الرؤاسى كتاب الفيصل أول ما ألف فى نحو الكوفيين ، وقد أدركت هاتان الطبقتان العصر العباسى فتثقفت عليهما الطبقة التى وضعت أساس التأليف فى النحو وسائر علوم اللغة ، وكان رأسها الخليل بن أحمد مستخرج مسائل النحو ومصحح قياسه ومخترع العروض ومدون اللغة . وعن طبقة الخليل نشأت بالبصرة طبقة سيبويه صاحب الكتاب ، وبالكوفة طبقة الكسائى ، ودب بين الطائفتين الخلاف

واشتد الجدل حتى كانت تعقد بينهما المناظرات . وكان منشأ الخلاف أن البصريين يقدمون السماع على القياس الذى لا يأخذون به إلا لضرورة ، وقد ساعدهم على الاكتفاء بالسماع كثرة فصحاء العرب بالبصرة لقربها من البادية ، فى حين أن الكوفيين يعتمدون فى أكثر مسائلهم على القياس لقلة جالية العرب بالكوفة وقربها من الأعجام . ثم نشأت بالبصرة طبقة الأخفش الأوسط[1] شارح كتاب سيبويه ، وبالكوفة طبقة الفراء صاحب كتاب الحدود ، وعنه انتشر المذهب الكوفى ببغداد قبل أن يعرف بها المذهب البصرى . وبعدهما كانت فى البصرة طبقة التوزى والجرمازى والجرمى والمازنى والسجستانى ، وفى الكوفة طبقة ابن السكيت وابن سلام ثم ختمت طبقات البصريين بطبقة المبرد ، وطبقات الكوفيين بطبقة ثعلب وإليهما انتهى علم هؤلاء وعلم هؤلاء . وعلى هذا انقضى العصران الأول والثانى .

ولما توالت فتن الزنوج والقرامطة على المصريين جلا علماؤهما إلى بغداد ، ومن اختلاطهما نشأت طريقة البغداديين وهى خليط من المذهبين ولكن مع جعل مذهب البصريين الأساس . ولم يجد فى العصر الثالث جديد إذ كان أكثر مادون شروحا وتعليقات على المذهبين من غير تعصب ولا خلاف ، ومن علماء النحو فيه ابن جنى صاحب الخصائص فى أصول النحو ، وسر الصناعة فى النحو ، وشرح تصريف المازنى واللمع فى النحو ، والمحتسب فى إعراب الشواذ وعلل التثنية ، ثم ابن درستوريه والسيرافى والرمانى ولكل هؤلاء مؤلفات . وفى العصر الرابع وضعت أهم كتب النحو والصرف التى عليها معول العلماء الآن كالكافية فى النحو والشافية فى الصرف وهما لابن الحاجب ، وتصريف العزى لعز الدين الزنجانى فى الصرف ، ومفتاح العلوم للسكاكى وغيرها

---

(١) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة تلميذ سيبويه ، أما الأكبر المذكور آنفا فهو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد أستاذ سيبويه ، والاصغر هو أبو الحسن على بن سليمان تلميذ المبرد .

٢ — متن اللغة

كان المرجع فى معرفة معانى المفردات طوال العهد الأموى ، مشافهة الأعراب أو سؤال الأدباء . ولما جاء العصر العباسى فكر بعض الأئمة فى تدوين رسائل صغيرة فى فئات من الألفاظ كالتى تجمع أعضاء الإنسان أو بعض الحيوان أو النبات أو الجماد . ثم جاء الخليل بن أحمد ففكر فى اختراع طريقة جامعة سهلة تحصى بها كلمات العربية وتكتب معها معانيها ، فوضع «كتاب العين» الذى رتبه على حسب مخارج الحروف من الحلق إلى الشفة مبتدئاً إياه بحرف العين ، ولكن يظهر أنه لم يتمه وبقيت طريقة الرسائل جارية حتى أتمه جماعة بعد وفاته ، أشهرهم الليث بن المظفر فكان أول كتاب منظم فى متن اللغة . وفى العصر الثالث ألف ابن دريد «كتاب الجمهرة» منه ومن الرسائل المذكوره ومن كتب أخرى للأصمعى وأبى عبيدة وغيرهما ، ورتبه على حروف الهجاء من الهمزة إلى الياء ، وألف أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر كتابه التهذيب على ترتيب الخليل فى عشر مجلدات ، كما ألف الصاحب بن عباد المحيط فى سبع مجلدات ، وأحمد بن فارس المجمل حاذقا الشواهد ، والجوهرى الصحاح الذى جمع فيه أربعين ألف مادة . ثم حل العصر الرابع فألف الفيروزابادى القاموس المحيط ، والزمخشرى أساس البلاغة ، وبعدهما ألف الصغانى المتوفى سنة ٦٥٠ كتابيه تكملة الصحاح والعباب ، ثم جمع بينهما فى مجمع البحرين . على أن التأليف لم ينقطع بالانكباب على المعاجم عن أن يتناول نواحى أخرى من اللغة كالأجناس فى فقه اللغة للثعالبى ، وشرح غريب الحديث للجزرى وغيرهما

٣ — البلاغة

تطلق البلاغة فى عرف العلماء على علوم ثلاثة هى المعانى والبيان والبديع ، ولكل مباحث خاصة به كما هو معروف . وقد كان الدافع إلى

نشأتها الدفاع عن إعجاز القرآن الذى خاض فيه كثير من الزنادقة والفلاسفة بأنكاره أو بالحيدة عن أن سببه التناهى فى البلاغة . وقد تقدمت هذه العلوم مباحث منها قبل أن تكتمل كأنها إرهاص لها قبل هذا الكمال ، دعت اليها أسباب طارئة كتأليف أبى عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦ كتابه « مجاز القرآن » على أثر سؤال وجه إليه فى معنى قوله تعالى « طلعها كأنه رءوس الشياطين » وإجابته السائل بأن ذلك على حد قول الشاعر :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال(١)

وكالذى كان من الجاحظ فى تأليف كتابه « إعجاز القرآن » الذى بقيت منه أبحاث كثيرة منقولة فى كتاب الفصول المختارة من كتبه لعبيد الله ابن حسان ، وفى كثير من كتابه البيان والتبيين ، وكالذى كان من المبرد حين قال له الكندى الفيلسوف « أرانى أجد فى كلام العرب حشوا إذ أجدهم يقولون عبد الله قائم ، ثم يقولون إن عبد الله لقائم ، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد فقال له أبو العباس « بل المعانى مختلفة ، فالأول إخبار عن قيام والثانى جواب عن إنكار منكر ، وقد تكررت الألفاظ لتكرر المعانى » إلى غير ذلك من متعلق البيان والمعانى . ثم جاء ابن المتز فراقه ما كان يقع للشعراء من محسنات دون أن تعرف لها أسماء ، فحصر منها سبعة عشر نوعا سمى كلا منها وسماها فى مجموعها البديع ، وإن كان فيها بعض ما هو الآن من البيان كالاستعارة والكناية . ولهذا كله يمكن أن يقال إن البديع وضع قبل انتهاء العصر الثانى ، وإنه وضعت أبحاث كثيرة خلاله

---

(١) استعمل أبو عبيدة فى تلك التسمية كلمة مجاز بمعنى طريق التعبير لا بالمعنى الذى اصطلح عليه بعد ، ولذلك جاءت أبحاث كتابه خليطا من النحو والبلاغة وإن كان للثانية الكثرة وبخاصة البيان لأن السبب الحافز لوضع الكتاب كان منه كما رأيت .

وخلال الأول للمعانى والبيان . وقبيل انتهائه عقب قدامة بن جعفر على بديع ابن المعتز فى كتابه « نقد قدامة » الذى أتى فيه بعشرين محسنا وافق ابن المعتز فى سبعة منها ، واختص بثلاثة عشر كما اختص ابن المعتز بعشرة ، فتمت المحسنات ثلاثين . وفى العصر الثالث ألف أبو هلال العسكرى كتابه الصناعتين فى معظم أبحاث هذه العلوم الثلاثة فكان أول كتاب جامع لها وإن لم يميز بعضها عن بعض . وفى الرابع ألف إمام البلاغة عبد القادر الجرجانى كتابه « دلائل الاعجاز » ، وكتابه « أسرار البلاغة » مغلبا على الأول أبحاث المعانى ، وعلى الثانى أبحاث البيان ، فعد هذا أول تفرقة بينهما ، وكان البديع قد تميز كما مر آنفا ، وبهذا تكاملت هذه العلوم وتميزت تقريبا ، ثم حدث بعد عبد القاهر أن زاول البلاغة كثير من الأعجام متأثرين بالعجمة من جهة ، وبالفلسفة والمنطق من أخرى . فكتبوا فيها بأساليب مثلت الناحيتين المذكورتين فكانت عثرة فى طريق الفصاحة والبلاغة ، ومن هؤلاء السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ صاحب مفتاح العلوم فى النحو والصرف والبلاغة والعروض . وقد لخص قسم البلاغة منه الخطيب القزوينى فى كتابه « تلخيص المفتاح » ذى الشهرة الذائعة والشروح المتعددة وعنده وقف نمو هذه العلوم قبل أن يتم نضجها وهى فى حاجة إلى الانضاج الذى كان منظورا لها لولا ما دها العرب والعربية من أحداث[1] على أن الموصلى المتوفى سنة ٦٣٧ قد أجاد فى كتابه « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » .

---

(١) مما ذكر عن علوم البلاغة هنا ترى أنها من صنع علماء المشارقة ، أما علماء الممالك الغربية فقد كاد ينحصر عملهم فيها فى كتاب « تحرير التحبير » لعبد العظيم بن أبى الأصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ فقد أوصل فيه محسنات البديع إلى التسعين .

٤ — الأدب والتاريخ

عالجنا فى أول موضوع من كتابنا عن العصر الجاهلى ، التعريف بالأدب وتاريخه علاجا طويلا فهم منه أن أول معنى عرفته العرب لكلمة الأدب صنع طعام يحتفل بالدعوة إليه فى مأدبة ، وأنها قبيل الإسلام أخذت تستخدم فى التهذيب والتثقيف ، وأن الإسلام أذاع هذا المعنى ونشره لكثرة تعاليمه الداعية إلى مكارم الأخلاق ، وأن الناس توسعوا عقب ذلك فأطلقوا الأدب على كل ماله أثر فى التهذيب ، وبذلك تناول مأثور اللغة من كل نثر وشعر يحض على المحامد ويكره فى المذام . وعرف من يروى ذلك بالأديب ، ومن هنا جاء تعريف الأدب منذ صار الإسلام بأنه « معرفة كلام العرب نثرا وشعرا وكل ماله صلة به من أيام وأنساب وأخبار وغيرها » وعلى هذا كان التأديب فى عصر الراشدين ، ثم أخذ ينمو ويتسع مدة بنى أمية شاملا معه ما وضع من قواعد النحو إذ ذاك . وقد عظمت رواية الأدب بهذا المعنى لما كان من تشجيع الخلفاء عليها ، فنشأت الطبقة الأولى للرواة كما ذكرنا ذلك تفصيلا بالجزء الثانى . والذى نريد أن نقوله الآن هو أن ما روى فى العصر الأموى بقى غير مقيد فى كتاب حتى إذا ما جاء العصر العباسى ودخل الإسلام كثير من الأعاجم الذين تعلموا لغة العرب ، وجدت الحاجة إلى التوسع فى قواعد النحو للتحرز من الأخطاء ، وإلى الاكثار من الرواية للشواهد والمرانة ، وقد دفع الحرص على هذين الأمرين معا إلى تقييدهما بالتدوين ، كما حبب بعد مواطن العباسيين عن البوادى ، إلى طائفة من فصحاء الأعراب ، التردد على حواضر العراق لمد الرواة والمتعلمين لقاء ماكانوا ينالون من رزق ومال ، فكان من أشهرهم بالبصرة أبو البيداء الرياحى ، وأبو مالك بن كركرة ، وأبو الجاموس بن يزيد ، وأبو عدنان بن عبد الأعلى ، وشبيل بن عرعرة الضبعى . وكان من أشهرهم بالكوفة والحيرة أبو خيرة بن زيد وأبو محلم الشيبانى ،

ثم تعدى سيلهم المصرين إلى بغداد فكان منهم فيها أبو زياد وأبو ضمضم الكلابيان وأبو شبل العقيلى والفقعسى الأسدى ، بل تجاوزوها إلى خراسان كأبى العميثل مؤدب الطاهريين . ولكثير من هؤلاء كتب لم يصل منها شىء لضياعها ، ولكن معظم أدبهم وأدب غيرهم ممن لم يرحلوا عن البادية وإنما كان الرواة يرحلون إليهم ، قد دونه الرواة فى العصر العباسى الأول فكان مرجع الناس ، وأهم هؤلاء الرواة إذ ذاك ، أبو عمرو ابن العلاء ، وعنه أخذ أكثر النحاة والأدباء ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى صاحب نقائض جرير والفرزدق والشعر والشعراء ، والأصمعى عبد الله بن قريب صاحب الأصمعيات ورجز العجاج وعشرة كتب أخرى فى الانسان وكثير من الحيوان والنبات والجماد ، وأبو زيد الأنصارى صاحب النوادر فى اللغة وكتابى المطر واللبن ، والقاسم بن سلام صاحب كتب غريب الحديث وغريب المصنف والامثال وفضائل القرآن والمواعظ .

على أن هناك طائفة من الرواة غلبت عليهم رواية الشعر ، أشهرهم حماد جامع المعلقات ، والضبى صاحب المفضليات ، وخلف صاحب كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر ، والشيبانى جامع أشعار القبائل . وقبيل أن ينتهى العصر الأول العباسى نشأت طبقة ثانية كانوا يجمعون بين الروايات ويفاضلون بينها ، منهم محمد بن سلام صاحب طبقات الشعراء ، وأبو زيد محمد بن أبى الخطاب صاحب جمهرة أشعار العرب ، وله فى صدرها مقدمة طويلة ، تكلم فيها عن الشعر واللغة كلاما انتقاديا له فى عالم الأدب مكان ، ثم كانوا يحيدون فى كلامهم عن الأكثار من اللغة التى بدأت تتميز عن الأدب ، كما حاد أسلافهم أوله عن الأكثار من النحو ، فتميز منذ أول العصر .

ولما حل العصر الثانى أخذ الادب يستقل عن هذين العلمين إلا لماما ، ويعنى بالمأثور وبالكلام عليه شرحا وتعليقا وبالأخبار التى تتعلق برجاله ، ثم جلا الادباء فى أوله عن المصرين للأحداث النازلة بهما إلى بغداد التى استبحر فيها العمران ، وكانت الكتب المترجمة فى الادب الفارسى وغيره ، قد أنارت

للناس سبل التأليف فتغيرت بذلك كله وجهة الأدب وظهر هذا التغير فى أمور، منها فى المأثور تجاوز الرواية إلى التدبر فى المروى بما يحلل معناه تحليلا ينتهى بحكمة أو عظة . ومنها فى الخبر جمع أشتات الاخبار العربية على اختلافها مع ترتيبها أبوابا فى كل باب طائفة . ومنها غيرهما الميل إلى تدوين الحكم وأخبار الحكماء ومنافع العدل وسير العادلين والحث على الاقتداء بهم ، ولعل الدافع إلى هذا الميل ما ظهر فى ذلك العصر من فساد الحكم وتوالى الظلم حتى على الخلفاء ، إلى غير ذلك مما اصطبغت به كتب الادب وتوخاه فى التصنيف الادباء ، كالجاحظ إمامهم وفاتح الفتح فى التأليف ، فله كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وكتاب البخلاء ثم كتاب المحاسن والاضداد على خلاف ، وأخلاق الملوك وتنبيه الملوك ، وسحر البيان وفضائل الأتراك ، وسلوة الحريف ، والعرافة والزجر والفراسة عند الفرس ، وطبقات المغنين ، والتاج وغيرها ، سوى الرسائل الكثيرة المتنوعة ، وكابن قتيبة المقفى للجاحظ فى هذا الباب وصاحب هذه المؤلفات . عيون الأخبار فى عشرة كتب ، والمعارف فى التاريخ العام والشعر والشعراء وأدب الكاتب والأمامة والسياسة والشراب والأشربة والتسوية بين العرب والعجم وتفضيل العرب وغيرها ، وكقدامة بن جعفر صاحب كتاب نقد الشعر وكتاب نقد النثر وغيرهما ، ومحمد بن أحمد الوشاء صاحب الموشى ، وهو كتاب فريد فى بابه فيه غير المواعظ الكثيرة ، وصف الأزياء وألفاظ المكاتبات وما يكتب من الأشعار على الثياب والأدوات ، وقد طبع باسم الظرف والظرفاء ، وغيره إلى سائر أدباء هذا العصر وهم كثير وكتبهم أكثر .

ولما جاء العصر الثالث كان أكبر ظواهر الأدب فيه .

أولا : — انتشار الروح القصصية التى أحياها فى العصر الأول ابن المقفع ، ونماها فى الثانى من اقتفوا أثره فيها كالجاحظ ، وقد قدمنا القول على ذلك مبسوطا فى الكتابة حيث الكلام على القصص والمقامات .

ثانيا : — انتشار روح النقد وتعدد موضوعاته بعد أن فتحه فى العصر الثانى بالمعنى الذى نريد قدامة بكتابيه المذكورين ، فكان فى أدبائه من انتقد الرواية والأخبار ، كأبى الفرج فى كتابه الأغانى أضخم كتب الأدب وأحفلها بمواده وأجمعها لتراجم الشعراء والمغنين . ومن انتقد الشعراء كحسين بن بشر الآمدى المتوفى سنة ٣٧٠ فى كتابه « الموازنة بين ابى تمام والبحترى » فإنه لم يترك لكليهما شيئا مما يقوله متعصب له أو عليه ، إلا أورده فى أسلوب جدلى ممتع ونقاش حصيف ، وكالصاحب ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ فى كتابه « مساوى المتنبى » الذى كان شديد التحامل عليه فيه ، لعدم مدحه إياه مع عرضه عليه مشاطرته ماله ، وكعبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢ فى كتابه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » الذى تصدى فيه لدحض ما ذكره الصاحب وغيره من سائر الخصوم ، فانتصف للمتنبى انتصافا مؤيدا بالحجة والبرهان . كما كان فيهم من انتقد الكلام انتقادا مبنيا على قوانين البلاغة التى وضعت بعض قواعدها فى العصر الأول وتمت فى الثانى واطرد نموها فى الثالث ، كأبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ فى « كتاب الصناعتين الكتابة والشعر » فقد ملأه نقدا مؤسسا على ضوابط الفصاحة والبلاغة فى الأساليب والمعانى ، بل كان فيهم من طبق ذلك كله على نوابغ الشعراء وكبار الكتاب ، كالثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ فى كتابه « يتيمة الدهر » الذى سبق القول عنه ، وفى كثير من كتبه المعروف منها نحو الأربعين كالاعجاز والايجاز ، وخاص الخاص ، ونثر النظم ، وحل العقد ، وشمس الأدب فى استعمال العرب ، والكناية والتعريض ، وأجناس التجنيس ، وسحر البلاغة ، وغرر البلاغة والنهاية فى الكناية .

ولما جاء العصر الرابع اطرد رقى هاتين الظاهرتين ، فأما القصة فقد علمت ذلك عنها . وأما النقد فكان من أصحه وأمتعه ما وقع من عبد القاهر

فى كتابيه « دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة » وما وقع للموصلى فى كتابه «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » فقد أجاد فيه نقد الألفاظ والمعانى

هذا وإنما عددنا التاريخ من الأدب ، لأن كل من تعرض للعرب فيه تعرض لأدبهم ، وقد عنى بتدوينه منذ العصر العباسى الأول فى الأنساب والسير والطبقات والفتوح ، فكان من مؤرخى الأنساب أبو المنذر هشام بن محمد الكلبى صاحب جمهرة الأنساب ، ومن مؤرخى السير أبو محمد عبد الملك بن هشام راوى السيرة النبوية لأبى بكر محمد ابن إسحق ، ومن مؤرخى الطبقات أى التراجم ، أبو عبد الله محمد بن سعد صاحب طبقات الصحابة والتابعين ، ومن مؤرخى الفتوح أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدى صاحب المغازى وغيرها فى الفتوح .

وفى العصر الثانى توسع المؤرخون فخرجوا فى الأنواع المذكورة إلى أنواع كثيرة ، من تاريخ عام شامل لأخبار القدماء والمحدثين كأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ المشهور ، أوخاص بالناس أو البلدان كأبى الفضل أحمد بن طيفور صاحب تاريخ بغداد ويوسف بن الداية صاحب سيرة ابن طولون وابنه خماورية ، أو غيرهما من تاريخ العرب المتصل بأدبهم كمحمد بن حبيب صاحب كتاب القبائل والأيام فى أكثر من أربعين جزءاً . أو تاريخ الفتوح كأبى جعفر أحمد بن يحيى البلاذرى — خاتمة مؤرخى الفتوح — صاحب فتوح البلدان .

وفى العصر الثالث ساد التاريخ العام شىء من الرحلة لكثرة ما كان فيه من رحلات . ومن كبار الرحالة فيه ، على بن الحسين المروف بالمسعودى. كما تكاثرت التواريخ الخاصة للأمم أو الأشخاص أو المدن ، فمن رجالها فى تاريخ الأمم ، أبو عمر محمد الكندى صاحب تاريخ مصر ، ومنهم فى تاريخ الأشخاص ، أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبى صاحب اليمينى فى تاريخ يمين الدولة السلطان محمود الغزنوى وأبيه ، ومنهم فى تاريخ المدن أبو بكر

أحمد بن على الخطيب البغدادى صاحب تاريخ بغداد « غير السالف لابن طيفور » .

أما فى العصر الرابع فقد تعددت الموضوعات لتعدد الخلفاء والسلاطين وتنوعت الكتب وتبارى المؤرخون فى تدوين المعاجم والمطولات . فكان منهم ، مؤرخو الدول كالوزير جمال الدين على بن ظافر الازدى المصرى صاحب الدول المنقطعة « يعنى عن العباسية » وأصحاب السير كمؤيد الدولة مجدالدين أبى المظفر أسامة بن مرشد المنقذى صاحب كتاب الاعتبار فى سيرة حياته ووصف رحلاته ، ومترجمو الجامعات كأبى عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر صاحب الاستيعاب فى معرفة الاصحاب وفيه أكثر من ثلاثة آلاف ترجمة للصحابة ورواة الحديث ، ومؤرخو البلاد والمدن فى مختلف الاقطار كأبى القاسم على بن الحسن المعروف بابن عساكر الدمشقى صاحب تاريخ دمشق ، ثم المؤرخون العامون كأبى الحسن على بن محمد المعروف بعز الدين ابن الاثير صاحب الكامل أشهر كتب التاريخ ومن أوثقها وأوضحها وأوسعها ، وهو منذ الخليفة إلى سنة ٦٢٨ فى اثنى عشر جزءاً .

العلوم الكونية

عرفت أن العلوم الكونية أربعة أقسام ، طبيعية ورياضية وإلهية وسياسة.

فمن الطبيعية الكيمياء والطبيعة والطب والصيدلة والفلاحة والمواليد الثلاثة « الحيوان والنبات والجماد ». ومن الرياضية الجبر والحساب والهندسة والحيل «الميكانيكا » والفلك والجغرافية النظرية . ومن الألهية صفات الإله والسمعيات وقوى النفس وكل ماوراء الطبيعة . ومن السياسية تنظيم الملك وتدبير المنزل وتدبير المال والاخلاق ، وإليك كلمة مجملة عنها مجموعة كما وعدنا ، لانها ليست ذات صلة مباشرة بالادب تحوج إلى إفرادها كما أفردنا مواد العلوم الإسلامية من شرعية ولسانية قبل .

ذكرنا فى صدر الكتاب حيث الكلام على غلبة الفرس فيما طرأ على العرب ولغتها من جراء امتزاج الأعجام بها ، أن الفرس أحرزوا منذ القديم قسطاً وافراً من العلوم أوجدوا بعضه ، ثم ورثوا بعضاً عن الآشوريين والبابليين ، وترجموا بعضاً منذ القديم عن الهند والصين ، كما ترجموا بعضاً آخر عن اليونان على يد بعثة أرسلها سابور بن أزدشير إلى بلاد اليونان ، وعلى أيدى العلماء الوثنيين الذين رحلوا من اضطهاد جوستيان قيصر إلى بلاد الفرس أيام كسرى أنو شروان ، وبذلك كان العلم القديم كله تقريباً مستقراً فى بلاد الفرس . فلما اختلط العرب بهم على العهد العباسى اختلاطاً كبيراً ، رأى أبو جعفر المنصور حاجة الدولة الجديد إلى هذه العلوم ، فعمل على ترجمتها كما تقدم ، وتبعه فى ذلك خلفاؤه إلى أن جاء المأمون فوجه إلى الترجمة اهتماماً ليس فوقه اهتمام ، حتى أعاد ترجمة كثير من الكتب اليونانية والهندية عن لغتيها الأصليتين لا عن اللغة الفارسية كما حدث قبله ، وبذلك تم للعرب على عهده جل ما كان من علوم عند أمم الحضارة القديمة ولا سيما الفرس واليونان والهنود على أيدى تراجمة ماهرين .

وقد كان خلفاء الدولة يتخيرون من علوم كل أمة ما نبغت فيه ، فكانوا يعتمدون فى السير والحكم والتاريخ والموسيقى والآداب على الفرس ، وفى الفلسفة والمنطق والهندسة والطب على اليونان ، وفى الحساب والنجوم والعقاقير والأقاصيص على الهنود ؛ على أنهم نقلوا علوماً أخرى عن أمم غير هذه الثلاث كانت فيها ذات نبوغ ، كالفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم عن الأنباط والكلدان ، وكالكيمياء والتشريح عن المصريين ، ثم مزجوا ذلك كله بعضه ببعض وأخرجوه فى طابع عرفوا به ونسب إليهم فى العصر العباسى الأول ، فكانوا فى ذلك مثار الدهش والأعجاب . ومما ينبغى أن ينبه إليه هنا أن اعتزازهم بأدبهم جعلهم لا يعنون بنقل آداب غيرهم من تلك الأمم إلا ماتسرب إليهم من آداب الفرس بعمل أبناء فارس أنفسهم حين شاركوهم النفوذ وأرادوا إظهار مآثر أسلافهم فيها كما ظهرت

فى سائر العلوم ، ولو كان لأبناء الأمم الأخرى مثل مالأبناء الفرس فى هذه المشاركة لنقلوا آداب أممهم كما فعل هؤلاء .

وقد كان معظم النقلة من أهل العراق والشام وفارس والهند غير المسلمين الذين استحضرهم الخلفاء وأغدقوا عليهم المال . فكان أشهر المترجمين من اليونانية . آل بختيشوع طبيب المنصور ، وآل حنين بن إسحق وابن أخته حبيش الاعسم ، وآل سرجويه ، وآل ثابت الحرانى وأفراد غيرهم كقسطا بن لوقا ، والحجاج بن يوسف بن مطر ، ويوحنا البطريق وأسطفان بن باسيلى ، وموسى بن خالد وأبو عثمان الدمشقى وأبو بشر بن يونس ويحيى بن عدى . وكان أشهرهم من الفارسية ابن المقفع وآل نوبخت وخاصة الفضل ، وموسى ويوسف ابنا خالد وأبو الحسن على بن زياد التميمى والحسن بن سهل وأحمد بن يحيى البلاذرى ، وإسحق بن يزيد ، ومحمد بن الجهم ، وهشام بن القاسم ، وموسى بن عيسى ، وعمر بن الفرخان ، وجبلة بن سالم . وكان أشهرهم من الهندية منكه وابن دهن الهنديان . وكل هؤلاء نقلوا للخلفاء ومشاركيهم فى النفوذ . وكان ممن نقل للعلم ولنفسه بنو موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن وأبناؤهم من بعدهم .

هذا والكتب التى نقلت تعد بالمئات ولكن الباقى منها لا يتجاوز العشرات ، وأشهره المجسطى لبطليموس ترجمة الحجاج بن يوسف بن مطر ، والسياسة فى تدبير الرياسة ترجمة يوحنا الطريق ، ورسائل فى الطب ترجمة قسطا بن لوقا ، والمدخل فى الطب ورسائل أخرى فيه ، والنواميس لحنين ابن إسحق ، ومنطق أرسطو لابنه إسحق . وقبل أن ينتهى هذا العصر الأول اشتغل المسلمون أنفسهم بهذه العلوم الدخيلة فنبغ فيها من فلاسفتهم أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى الملقب فيلسوف العرب ، وامتد زمنه من المأمون إلى المتوكل ، فهو قد أدرك العصر الثانى وله تآليف كثيرة فى معظم العلوم الدخيلة ، عد منها ابن النديم فى الفهرست ٢٣١ كتابا موزوعة على ١٧ علما ومعدودة فى كل علم ولكن الباقى منها إلى الآن

لا يبلغ العشرين ، منها إلهيات أرسطو والمد والجزر واللون اللازوردى فى السماء وذات الشعبتين « آلة فلكية » واختبارات الأيام ورسالة فى الموسيقى ، ومقالة فى تحاويل السنين .

وفى العصر الثانى زاد اشتغال المسلمين بهذه العلوم . ومن نبغائهم فيها أبو نصر الفارابى الذى يلى الكندى فى المكانة ، ومن كتبه الباقية ١٢ كتابا فى المنطق و ٨ فى السياسة والأدب و ٢٧ فى الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى وأبحاث أرسطو وموضوعات أخرى . وأبو بكر محمد بن زكريا الرازى وله كثير من المؤلفات والمخترعات . فمؤلفاته تزيد عن المائتين ولكن الباقى منها بضع وعشرون أغلبها فى الطب الذى يقال فيه « كان معدوما فأحياه جالينوس ، وكان متفرقا فجمعه الرازى ، وكان ناقصا فكمله ابن سينا » ومنها كتاب الحاوى فى الأمراض ومداواتها ، والطب المنصورى ألفه للأمير منصور السامانى ، والطب الملوكى ألفه لصاحب طبرستان ، والمرشد والكافى وبرء الساعة فى الطب أيضا والجدرى والحصبة وهو أول كتاب أجاد تشخيص هذين الداءين ووصف الدواء لهما

ومن مكشوفاته الكيميائية زيت الزاج « حامض الكبريتيك » ولا تزال طريقة استحضاره له باستقطار مواد كبريتات الحديد مستعملة إلى الآن ، والكحول وقد استخرجه باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة . وله فى الكيمياء مؤلفات .

ولما جاء العصر الثالث زاد المشتغلون بهذه العلوم من المسلمين ، فنبغ كثير أشهرهم أبو على الحسين بن سينا الملقب بالشيخ الرئيس المتوفى سنة ٤٢٨ فقد انفرد بقوة العقل وسعة العلم وألف فى كل فن حتى زادت مؤلفاته على المائة ، وقد نقل الباقى منها إلى اللغات الأوروبية فأثر فى نهضتها الحاضرة تأثيرا بينا . منها فى الطب القانون فى ١٤ جزءا والشفاء فى ١٨ جزءا « بعض أجزائه فى علوم أخرى » وفيها فى الفلسفة الأشارات والنجاة وفى الالهيات والنفس الالهيات وقصيدة النفس ، وفى المنطق الاشارة

والعروس ، غير كتب أخرى فى الطبيعة والرياضة والسياسة والموسيقى وغيرها ، ومن المبرزين فيه أيضا جماعة إخوان الصفا ولا تزال رسائلهم إلى اليوم مرجعا فى كثير من مباحث هذه العلوم وخاصة الفلسفة . وقد تقدمت فى هذا العصر الكيمياء فأنشئت حوانيت الصيدلة وعرف كثير من المركبات، كما تقدم علم النبات ، فولدت أنواعه واستخرجت منه الأدوية المختلفة ، وكذا النجوم فبنيت المراصد وأبطلت صناعة التنجيم، والرياضيات والفنون الجميلة، ثم استمر تقدم هذه العلوم سائرا إلى الأمام بالمشرق فى هذا العصر حتى نقل إلى الأندلس وبخاصة رسائل إخوان الصفا فاهتم الأندلسيون بها .

وفى العصر الرابع اطرد نمو هذه العلوم بفضل ابن سينا وإخوان الصفا المذكورين .

هذا — وقد خلق تدوين العلوم بنوعيها كتابة علمية هى لغة التأليف ، كما حمل تقدمها على إحياء مجالس العلم والمناظرة التى انتهت بإنشاء المدارس فى العصر الأخير بالمعنى الذى نعرفه الآن ، وهذى كلمة عن كليهما تلائم المقام .

الكتابة العلمية أو لغة التأليف

جاءت كتابة التأليف مختلفة باختلاف نوعى العلوم من إسلامية وكونية، فكانت فى العلوم الأسلامية من شرعية ولسانية فى العصر الأول العباسى ، عبارة عن جمع الروايات وتصنيفها طوائف تقع كل منها تحت بحث خاص . وقليلا ما كان يزيد المصنف على هذا الجمع ما يربط بعض الروايات ببعض أو يشرح الغريب . وقد كانت هذه الزيادات أظهر فى اللسانية منها فى الشرعية ، كما كانت ذات فصاحة وبلاغة لرسوخ المصنفين إذ ذاك إلا فى الفقه والكلام ، فقد كانت فيهما بأقل درجات البيان . ولما جاء العصر الثانى نمت هذه الزيادات على ما رأيت آنفا فى تاريخ

العلوم واطراد نموها فى الثالث لنمو العقلية واتساع الأبحاث ، فظهرت شخصيات المؤلفين وازدادت ظهورا باغفال الأسانيد فى الرواية وبخاصة فى علوم اللسان مع بقائها ذات قوة فى التعبير وجمال فى الأداء ، حتى إذا ما جاء العصر الرابع فسد هذا الجمال فى أوله بالصناعة اللفظية التى أضرت بالتعابير ، وفى آخره بالصناعة المنطقية التى أصابته بالتعقيد .

وكانت فى العلوم الكونية المترجمة منذ العصر الأول — ما عدا الأدبية التى كانت آية فى البيان — لا تعدو العبارة الأعجمية الأصلية فى ثوب ترجمتها العربية دون تصرف كبير . ولكن حينما نهضت الترجمة فى آخره على عهد المأمون بما أغدق من ذهب على المترجمين ، وجد فيهم الحذاق الذين أعادوا ما ترجم من قبل بعبارة صحيحة توافق صحتها الجودة فى معظم الأحيان . وعلى هذا كانت العبارة فى العصر الثانى . أما فى الثالث حيث هضم المسلمون هذه العلوم وعمدوا إلى التأليف فيها بعد أن اختمرت معانيها فى نفوسهم ، فقد اقتربت لغة التأليف فى العلوم المترجمة ، من لغته فى العلوم الإسلامية الشرعية ، بل فى بعض اللسانية لأن التأليف حينذاك كان وضعا لا ترجمة ، ولهذا ظهر فيه تصحيح كثير من الأغلاط ، غير أن النهوض لم يستمر طويلا فى العصر الرابع الذى تسرب فيه من الفساد مثل ما تسرب إلى العلوم الإسلامية ، ولكنه كان فى تعقيد المعانى شراً منه فى تكلف الالفاظ .

هذا ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى ما استحدثه تدوين العلوم بنوعيها وخاصة الكونية فى اللغة من تأثير فى الألفاظ . فقد خرج كثير منها عن معانيه الأصلية إلى معان اصطلاحية جديدة تراها منبثة فى جميع العلوم ، وهأنت ذا تعرف طوائف منها فى العلوم الإسلامية شرعية ولسانية ، وهاك بعضا فى الكونية وخاصة الطب والفلسفة .

فمن الطبية ، الكحالة والصيدلة ، والتشريح والجراحة والتوليد ، فى فنون الطب ، والرطوبات والأمزجة والأخلاط كالحار والبارد والجاف

واليابس والسوداء والصفراء فى مصطلحات هذه الفنون ، والمسخن والمبرد والمرطب والمخفف والمسهل والمخدر وسائر مشتقاتها فى الأدوية ، والفسخ والرض والخلع والفتق والجبر فى الجراحة ، والصداع والصرع والسرطان وغيرها كثير فى الأمراض ، ومثلها ما جاء فى وصفها كالمزمنة والحادة والغب والربع وغيرها فى أوصاف الحمى مثلا .

ومن الفلسفية القدم والحدوث والحركة والسكون وغيرها فى الكلام ، والمريد والسالك والأنس والمشاهدة فى التصوف .

وقد نقلت ألفاظ أعجمية كثيرة بالتعريب أو على حالها فى أسماء العقاقير والأمراض والأدوات والفلسفة . كالبقدونس والمصطكى من العقاقير اليونانية ، والبابونج والزرنيخ من الفارسية ، كالقولنج والملنخوليا من الأمراض اليونانية ، والرسام والمارستان من الفارسية ، وكالاصطرلاب والأنبيق من الأدوات اليونانية ، والبركار والأسطوانة من الفارسية ، وكالهيولى والطلسم فى الفلسفة ، إلى غير ذلك مما زخر تياره حتى ألفت فيه كتب ، كالمعرب من الكلام الأعجمى لأبى منصور الجواليقى المتوفى سنة ٥٣٩ .

وقد جاوز التأثر بالعجمة الألفاظ إلى الأساليب لتأثر المترجمين بلغاتهم الأصلية . فكثر استخدام فعل الكون ، وأدخلت أل المعرفة على لا النافية وزيدت الألف والنون قبل ياء المتكلم ، كما زيد ضمير الغائب بين المبتدأ وخبره ، وصيغت كلمات من الاسم أو الضمير أو منهما معاً كالكمية والهوية والماهية . وكثر استعمال الجمل المعترضة والفعل المبنى للمجهول والألقاب وهكذا .

مجالس العلم والمناظرة وإنشاء المدارس

قد عرفت ما كان من عناية خلفاء المسلمين منذ الصدر الأول إلى آخر العصر الأموى بالأدب والشعر ، وما كان على عهودهم من علم فيما ذكرناه ،

وسقنا الشواهد عليه بكتابنا الثانى ، كما عرفت أن دوره فيهما كانت المساجد ولتعرف الآن أنها بقيت فى العصر العباسى كما كانت فى سابقيه ولكن ضم فيه إلى الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى والمسجد الأموى ، وجامعى البصرة والكوفة والمسجد العتيق بالفسطاط وسواها، مساجد بغداد ومسجد أحمد بن طولون والأزهر وجامع الحاكم وغيرها .

ولكن لما زخر الأدب وفاض العلم منذ العصر العباسى الأول وولع خلفاؤه بهما ولعاً شديداً ، أكثروا استقدام العلماء إلى مجالسهم وحاكاهم فى ذلك الأمراء والوزراء ، فصارت تعقد تلك المجالس للمناظرات فى العلوم اللسانية والشرعية وتغدق العطايا على المتناظرين ، وكان هذا أكبر حث للأدباء والعلماء على أن يهيئوا أنفسهم لتغذية هذه المجالس طمعاً فى المال . قال أسامة بن معقل « كان السفاح راغباً فى الخطب والرسائل يصطنع أهلهم ويثيبهم عليها فحفظت ألف رسالة وألف خطبة طلباً للحظوة عنده فنلتها ، وكان المنصور بعده معنياً بالأسمار والأخبار وأيام العرب ، يدنى أهلها ويجيزهم عليها ، فلم يبق شىء منها الا حفظته ، طلباً للقرب منه ، وكان الهادى مغرما بالشعر يستخلص أهله فما تركت بيتاً نادراً ولا شعراً فاخراً ولا نسيباً سائراً إلا حفظته ، ولم أر شيئاً أدعى إلى تعلم الآداب غير رغبة الملوك فى أهلها وصلاتهم عليها »، ونحن نقول لو بلغت حياة أسامة الرشيد لتحدث عنه أضعاف ما تحدث عن هؤلاء .

ولما فاضت العلوم الكونية على عهد المأمون امتلأت مجالسه ومجالس غيره بالمناظرات وبخاصة الفلسفة ، ولكن لم تكن المناظرة فى هذه العلوم الفلسفية على هدوء نظيرتها الأدبية ، فقد احتدم فيها النقاش واشتد الخلاف كما احتدم فيما يتصل بالفلسفة من علوم الدين كالكلام وبعض مسائل الفقه . وقد أشعل جذوة هذا الاحتدام إطلاق المأمون لحرية البحث وانغماسه فى أعقد مسائله كخلق القرآن إلى الهامة ، وتشدده فى ذلك تشددا أوقع الناس فى الفتن والمحن طوال عهده وعهد المعتصم والواثق من بعده ،

ولم ينجهم منها إلا المتوكل الذى قضى على ما كان يخالطها من أذى يستبيح الدماء . على أنه قد بقيت فى العصر الثانى الذى بدأه المتوكل بهذا التسكين خلافات كانت تثور حينا وتهدأ حينا بين الحنابلة المتشددين وأبناء المذاهب الأخرى المعتدلين ، فكانت المناظرات الدينية حية إزاء الأدبية فيه . ثم جاء العصر الثالث فخلق خلافا صحبه من المناظرات الدينية بين الشيعة وغيرهم شىء كثير كاد يقضى على الادبية لولا شغف رجال الدويلات بالادب ، وقد أدالت الايام فى العصر الرابع للسنة من الشيعة بما كان من قيام السلاجقة والايوبيين ، فحيى للسنة فيه مثل ما كان للشيعة فى سابقه ، ولكن مع خمول المناظرات فى الادب وسائر العلوم .

وإليك مناظرتين قصيرتين من النوعين الأدبى والعلمى ، أما النوعان المذهبى والفلسفى فمناظراتهما طويلة يمكن الرجوع فى مثلهما فيهما إلى ما كان من المأمون فى علويته وفى قوله بخلق القرآن .

١ — حضر عند الرشيد الاصمعى والكسائى فسأل الرشيد عن بيت الراعى:

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ودعا فلم أر مثله مخذولا

فقال الكسائى كان قد أحرم بالحج فضحك الاصمعى وتهانف ، فقال الرشيد ما عندك ؟ فقال والله ما أحرم بالحج ولا أراد أيضاً أنه دخل فى شهر حرام كما يقال أشهر وأعام إذا دخل فى شهر أو عام ، فقال الكسائى ما هو إلا هذا وإلا فما المعنى للاحرام : قال الاصمعى فخبرنى عن قول عدى بن زيد :

فتلوا كسرى بليل محرما فتولى لم يمتـــع بكفن

أى إحرام لكسرى فقـــال الرشيد فما المعنى ؟ قال يريد أن عثمان لم يأت شيئاً محرما يوجب تحليل دمه ، فقال الرشيد أنت يا أصمعى ما تطاق فى الشعر .

٢ — جاء عيسى بن عمر الثقفى مجلس أبى عمرو بن العلاء فقال ما شىء بلغنى عنك تجيزه قال وما هو ؟ قال بلغنى أنك تجيز «ليس الطيب إلا المسك» بالرفع.

فقال له أبو عمرو هيهات نمت وأدلج الناس ثم قال ليحيى بن المبارك وخلف الأحمر امضيا إلى أبى مبدية فلقناه الرفع فأنه يأبى وامضيا ،إلى المنتجع ابن نبهان فلقناه النصب فإنه يأبى ، فمضيا إلى أبى مبدية فقال ما خطبكما قالا جئناك لنسألك عن شيء من كلام العرب قال هاتياه ، فقالا كيف تقول « ليس الطيب إلا المسك » فقال أتأمرانى بالكذب على كبرسنى فأين الزعفران وأين الجاوى قال خلف « ليس الشراب إلا العسل » قال فما تفعل سودان هجر ما لهم غـــير التمر ؟ قال يحيى « ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله » فقال هذا كلام لا دخل فيه ، ليس ملاك الأمر إلا طاعه الله والعمل بها ونصب فلقناه الرفع فأبى . ثم جاءا إلى المنتجع فقالا له كيف تقول « ليس الطيب إلا المسك » ونصبا فقال ليس الطيب إلا المسك ورفع ، فجهدا به أن ينصب فلم ينصب فرجعا إلى أبى عمرو وعنده عيسى فأخبراهما بما سمعا ، فأخرج عيسى خاتمه من يده فدفعه إلى أبى عمرو وقال بهذا سدت الناس يا أبا عمرو .

إنشاء المدارس — انقضى العصر الأول ثم مضى الثانى والثالث كذلك ومتلقى العلم المساجد والمجتمعات العامة فى مثل المربد ، ثم المجالس الخاصة فى دور الخلفاء والعظماء ، وفيها جميعاً كانت تدور المناظرات دون أن يكون للعلماء أو الطلاب دور خاصه أو أرزاق مفروضة ، إنما كانت نفقة الطلاب على أهليهم ونفقه العلماء مما يحترفونه مع العلم ، أو يمنحونه من صلة نظير تأليف كتاب أو استفتاء فى موضوع ، مع غلبة التقشف فى المعيشة والزهد فى الدنيا على الجميع . ولكن ذلك لم يلبث أن أحدث فى الدورس اضطراباً وفى النفوس قلقاً لكثرة من أصبحوا فى حاجة إلى التعلم وقلة من بقوا يزاولون التعليم ، فما كاد يحل العصر الرابع حتى هال هذا الأمر نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقى ووزير ابنه ملكشاه وكان فيه ميل إلى العلم وأرخت له الأيام فى الوزارة نحو ثلث قرن، فشرع سنة ٤٥٧ فى تأسيس المدرسة النظامية نسبة إليه ببغداد فأتمها بعد سنتين وافتتحها فى حفل

حافل بجميع الطبقات وولى أبا إسحق الشيرازى رياسة التدريس بها ، وفرض لأساتذتها وطلابها المرتبات فكانت أول مدرسة بالمعنى المعروف الآن فى الإسلام (١) ، ثم بنى أخرى باسمها فى نيسابور وعهد بها إلى إمام الحرمين ، فكان عمله هذا سنة حسنة اتبعه فيها ذو الأمر بجميع الأقاليم ، وما كان يحبب فى هذا الإنشاء ، رغبة الخلفاء والولاة فى اكتساب قلوب العامة بتقريب العلماء وتعليم الفقراء ، ثم رغبة كثير من ذوى اليسار ببلاط السلاطين فى وقف أموالهم على سبيل الخير وأهمها التعليم مع الإبقاء على شىء من غلتها لأسرهم ليكسبوا بذلك الثواب على ما فعلوا من الله ، ويضمنوا لبنيهم بقاء هذا الشىء بعيدا عما كان يحدث كثيرا من الاغتصاب ثم التعصب لنصره فذهب على آخر من المذاهب الثلاثة الشافعى والمالكى والحنفى . وقد استمر عدد المدارس يتزايد كلما تعددت أسباب الأنشاء حتى غصت بها المدن الكبرى قبل انتهاء القرن السادس — ذكر ابن جبير فى رحلته أنه شاهد ثلاثين مدرسة فى بغداد — فكانت هذه الكثرة ملطفة للأحداث الخطيرة التى نزلت بالمسلمين منذ أواخر العصر العباسى ، وتعدته إلى ما بعده من العصور .

---

(١) أنكر الحافظ الذهبى فى كتابه تاريخ الإسلام هذه الأولية لنظام الملك وذكر بعض مدارس فى نيسابور ، منها البيهقية نسبة إلى البيهقى المتوفى سنة ٤٥٠ ، والسعيدية التى أسسها فيها الأمير نصر أخو محمود الغزنوى واليه بها ، على أن تاج الدين السبكى قد وفق بين الأمرين بقوله فى طبقاته « قد أدرت فكرى وغلب على ظنى أن نظام الملك أول من رتب فيها — أى فى المدارس — المعاليم للطلبة ، فإنه لم يصح لى أكان المدارس قبله معاليم أم لا ، والظاهر أنه لم يكن لهم — أى للطلبة — معلوم » .

الشعـــر

أولا – نماذجه

---

١ – قال بشار المتوفى سنة ١٦٧ ينسب وهو من مخضرمى الدولتين [١] :

يا ليلة تزداد نكرا من حب من أحببت بكرا
حوراء إن نظرت إليـــك سقتك بالعينين خمرا
تنسى التقى معـــاده وتكون للحكماء ذكرا
وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا
وتخـــال ما جمعت عليـــه ثيابها ذهبا وعطرا [٢]،
وكأنها برد الشرا ب صفا ووافق منك فطرا
جنيـــــة إنسيـــة أو بين ذاك أجل أمرا
وكفاك أنى لم أحط بشكاة من أحببت خبرا
إلا مقـــالة زائر نثرت لى الأحزان نثرا
متخشعاً تحت الهوى عشرا وتحت الموت عشرا [٣]،

---

(١) هو بشار بن برد الفارسى أصلا ، العقيلى ولاء ، الضرير الشاعر المتصرف فى فنون الشعر ، الذى أجمعت الرواة على تقدمه طبقات المحدثين المجيدين . وقد عمر نيفا وتسعين سنة .

(٢) نقاملون وطيب رائحة . (٣) ليس هذا العدد مرادا لذاته إنما يريد أن يسوى بين ألمه لهواها وألمه لخوف موتها من شكاتها .

٢ — وقال العباس بن الأحنف المتوفى سنة ١٩٢ ينسب أيضاً (٤)،

أزين نساء العالمين أجيبي ... دعاء مشوق بالعراق غريب
كتبت كتابي ما أقيم حروفه ... لشدة إعوالي وطول نحيبي
أخط وأمحو ما خططت بعبرة ... تسح على القرطاس سح غروب
أيا فوز لو أبصرتني ما عرفتني ... لطول تحولي بعدكم وشحوبي
وأنت من الدنيا نصيبي فإن أمت ... فليتك من حور الجنان نصيبي
وإني لأستهدي الرياح سلامكم ... إذا أقبلت من نحوكم بهبوب
وأسألها حمل السلام إليكم ... فإن هي يوما بلغت فأجيبي
أرى البين يشكوه المحبون كلهم ... فيارب قرب دار كل حبيب
أقول وداري بالعراق ودارها ... حجازية في حرة وسهوب (٢)،
وكل قريب الدار لا بد مرة ... سيصبح يوما وهو غير قريب
سقى منزلا بين العقيق وواقم ... إلى كل أطم بالحجاز ولوب (٣)،
أجش مديم الرعد دان ربابه ... بجود نسيمي شمأل وجنوب
أزوار بيت الله مروا بيثرب ... لحاجة متبول الفؤاد كئيب
وقولوا لهم يأهل يثرب أسعدوا ... على جلب للحادثات جليب
فانا تركنا بالعراق أخا هوى ... تنشب رهنا في حبال شعوب

---

(١) هو الفضل أبو العباس بن الأحنف الحنفي الشاعر الرقيق الحاشية اللطيف الطباع الغزل المخلص للغزل . فجميع ديوانه فيه وكله جيد .

(٢) الحرة الأرض الصلبة السوداء الحجارة ، والسهوب جمع سهب بالضم وهو الأرض المستوية السهلة . (٣) العقيق وواقم موضعان بالمدينة ، والأطم القصر أو الحصن أو كل بيت من حجارة ، واللوب جمع لوبة كاللاب جمع لابة وهي الحرة .

به سقم أعيا المداوين علمه ... سوى ظنهم من مخطىء ومصيب
إذا ما عصرنا الماء فى فيه مجه ... وإن نحن نادينا فغير مجيب
خذوا لى منها جرعة فى زجاجة ... ألا إنهـــا لو تعلمون طبيبى

وسيروا فإن أدركتم بى حشاشة
لها فى نواحى الصدر وجس دبيب (١)،

فرشوا على وجهى أفق من بليتى ... يثيبكم ذو العرش خير مثيب
فإن قال أهلى ما الذى جئتم به ... وقد يحسن التعليل كل أريب
فقولوا لهم جئناه من ماء زمزم ... لتشفيه من دائه بذنوب
وإن أنتم جئتم وقد حيل بينكم ... وبينى بيوم للمنون عصيب
وصرت من الدنيا إلى قعر حفرة ... حليف صفيح مطبق وكثيب
فرشوا على قبرى من الماء واندبوا ... قتيل كعاب لا قتيل حروب

٣ — وقال أبو نواس المتوفى سنة ١٩٨ يصف سلاف الشهد ونحله (٢)،

لا يصرفنك عن قصف وإصباء ... مجموع رأى ولا تشتيت أهواء
واشرب سلافا كعين الديك مذهبة ... من كف ساقية كالريم حوراء
لها ذيول من العقيان تتبعها ... فى الشرق والغرب فى نور وظلماء
ليست إلى النخل والأعناب نسبتها ... لكن إلى العسل الماذى (٣) والماء
نتاج نحل خلايا غير مقفرة ... خصت بأطيب مصطاف ومشتاء
ترعى أزاهير غيطان وأودية ... وتشرب الصفو من غدر وأحساء
فطس الأنوف مقاريف مشمرة ... خوص العيون بريئات من الداء

---

(١) صوت خفى لنفس يدب.
(٢) هو أبو على الحسن بن هانىء الفارسى أصلا الحكمى ولاء، أرق الشعراء حاشية، وأجودهم بديهة، وأفتحهم لأبواب الحديث من المعانى الرقيقة، وثانى الشعراء المحدثين بعد بشار عند الجاحظ. (٣) الأبيض.

من مقرب عشراء ذات زمزمة ... وعائذ متبع منها وعذراء

تغدو وترجع ليلا عن مساربها ... إلى ملوك ذوى عز وأحياء

كل بمعقلة يمضى حكومته ... فى حزبه بجميل القول والراء[1]

حتى إذا اصطك من بنيانها قرص ... أروينها عسلا من بعد إصداء

وآن من شهدها وقت الشيار[2] فلم ... تلبث بأن شيرت فى يوم أضواء

وصفقوها بماء النيل إذ برزت ... فى قدر قس كجوف الجب روحاء[3]

حتى إذا نزع الرواد رغوتها ... وأقصت النار عنها كل ضراء

استودعوها رواقيدا[4] مزفتة ... من أغبر قاتم منها وغبراء

وكم أفواهها زهر على ورق ... من حر طينة أرض غير ميثاء[5]

وعمرت حقباً فى الدن لم يرها ... حى من الناس فى صبح وإمساء

حتى إذا سكنت فى دنها وهدت[6] ... من بعد زمزمة منها وضوضاء

جاءت كشمس ضحى فى يوم أسعدها ... من برج لهو إلى آفاق سراء

كأنها ولسان المـــاء يقرعها ... نار تأجج فى آجام قصباء

لها من المزج فى كاساتها حدق ... ترنو إلى شربها من بعد إغضاء

كأن مازجها بالمـــاء طوقها ... منزوع جلدة ثعبان وأفعاء[7]

فاشرب هديت وغن القوم مبتدئا ... على مساعدة العيدان والناء[8]

---

(١) مقلوب رأى .
(٢) جنى العسل .
(٣) واسعة .
(٤) جمع راقود أو راقودة ، للدن والخابية .
(٥) غير سهلة مفككة .
(٦) من هدأت سهل وحذف .
(٧) ممدود أفعى .
(٨) مهموز ناى .

٤ — وقال مسلم المتوفى سنة ٢٠٨ يمدح يزيد الشيبانى فى قتله الوليد ابن طريف (١)

لولا يزيد وأيام لنا سلفت ... عاش الوليد مع الغاوين أعواما
كالدهر لا يثنى عما يهم به ... قد أوسع الناس إنعاما وإرغاما
ترى العفاة عكوفا حول حجرته ... يرجون أروع رحب الباع بساما
منية فى يدى هارون يبعثها ... على إعاديه إن سامى وإن حامى
خير البرية آباء إذا ذكروا ... وأكرم الناس أخوالا وأعماما
تظلم المال والأعداء من يده ... لا زال للمال والأعداء ظلاما
لا يستطيع يزيد من طبيعته ... عن المنية والمعروف إحجاما
أذكرت سيف رسول الله سنته ... وبأس أول من صلى ومن صاما
إن يشكر الناس ما أوليت من منن
فقد وسعت بنى حواء إنعاما
إذا الخلافة عدت كنت أنت لها ... عزا وكان بنو العباس حكاما
يصيب منك مع الآمال صاحبها ... حلما وعلما ومعروفا وإسلاما
كم بلدة بك حل الركب جانبها ... وما يلم بها الركبان إلماما
إذا علوا مهمها كان النجاء لهم ... إنشاد مدحك إفصاحا وترنما
لو كان يفقه رجع القول طائرها ... غنى بمدحك فيها بومها الهاما
لو لم تكونوا بنى شيبان من بشر ... كنتم رواسى أطواد وأعلاما

---

(١) هو صريع الغوانى مسلم بن الوليد الأنصارى الشاعر المتصرف ، البالغ المدح ، الجيد القول فى الشراب ، كأبى نواس ، وهو على ما قيل أول من أكثر البديع ، واخترع له هذا الاسم فاتبعه فى ذلك الشعراء وبخاصة أبو تمام ، وقد مات وهو يلى بريد جرجان للمأمون . وجل مدائحه فى البرامكة والمهالبة ويزيد بن مزيد الشيبانى .

٥ — وقال أبو العتاهية المتوفى سنة ٢١١ فى الحكمة (١)

الحرص داء قد أضر م بمن ترى إلا قليلا
كم من عزيز قد رأيت الحرص صيره ذليلا
فتجنب الشهوات واحذر أن تكون لها قتيلا
فلرب شهوة ساعة قد أورثت حزنا طويلا
من لم يكن لك منصفا فى الود فابغ به بديلا
وعليك نفسك فارعها واكسب لها فعلا جليلا
ولقلما تلقى اللئيم عليك إلا مستطيلا
والمرء إن عرف الجميل وجدته يبغى الجميلا
اضرب بطرفك حيث شئت فلن ترى إلا بخيلا

٦ — وقال أبو تمام المتوفى سنة ٢٣١ يرثى محمد بن حميد الطوسى (٢)

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
توفيت الآمال بعد محمد وأصبح فى شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله وذخرا لمن أمسى وليس له ذخر
وما كان يدرى مجتدى جود كفه إذا ما استهلت أنه خلق العسر
ألا فى سبيل الله من عطلت له فجاج سبيل الله وانثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة
دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر

---

(١) هو ابو اسحاق اسماعيل بن القاسم الفارسى أصلا ، العنزى ولاء ، شاعر سهل الألفاظ حكيم المعانى . أكثر الشعراء زهدا وحكمة .

(٢) هو حبيب بن أوس الطائى واحد عصره فى ديباجة اللفظ وصناعة الشعر وكثرة الحفظ وإجادة الرثاء ، وقد لاقى شعره شبه ما لاقى شعر المتنبى من عناية .

فتى دهره شطران فيما ينوبه ... ففى بأسه شطر وفى جوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده ... إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما
هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت فى مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر (١)
غدا غدوة والحمد نسج ردائه ... فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
تردى ثياب الموت حمرا فما دجا ... لها الليل إلا وهى من سندس خضر
كأن بنى نبهان (٢) يوم وفاته ... نجوم سماء خر من بينها البدر
يعزون عن ثاو تعزى به العلا ... ويبكى عليه البأس والجود والشعر
وأنى لهم صبر عليه وقد مضى ... إلى الموت حتى استشهداه والصبر
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ... ولكن كبرا أن يقال به كبر
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها ... وبزته نار الحرب وهو لها جمر
وقد كانت البيض المآثير فى الوغى ... بواتر فهى الآن من بعده بتر
أمن بعد طى الحادثات محمدا ... يكون لأثواب الندى أبدا نشر؟
إذ شجرات العرف جذت أصولها ... ففى أى فرع يوجد الورق النضر
لئن أبغض الدهر الحنون لفقده ... لعهدى به ممن يحب له الدهر
لئن غدرت فى الروع أيامه به ... فما زالت الأيام شيمتها الغدر
لئن ألبست فيه المصيبة طيئ ... فما عريت منها تميم ولا بكر
كذلك ما ننفك نفقد هالكا ... يشاركنا فى فقده البدو والحضر

---

(١) الأخمص كاصبع ما لم يصب الأرض من باطن القدم
(٢) عشيرته من طيء

سقى الغيث غيثا وارت الأرض شخصه
وإن لم يكن فيه سحاب ولا قطر

وكيف احتمالى للغيوث ضليعة ... بأسقائها قبرا وفى لحده البحر
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة ... غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر
ثوى فى الثرى من كان يحيا به الثرى ... ويغمر صرف الدهر نائله الغمر
عليك سلام الله وقفا فإننى ... رأيت الكريم الحر ليس له عمر

٧ — وقال ابن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ آخر شعراء العصر الأول وكتابه يرثى أم ابنه عمر وقد تركته ابن ثمان[1]

ألا من رأى الطفل المفارق أمه ... بعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أمه ... يبيتان تحت الليل يلتجيان
وبات وحيدا فى الفراش تجنه ... بلابل قلب دائم الخفقان
فلا تلحيانى أن بكيت فإنما ... أداوى بهذا الدمع ما تريان
فهذى عزمت الصبر عنها لأننى ... جليد فمن بالصبر لابن ثمان
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبة
ولا يأتسى بالنـــــــاس فى الحدثان

فلم أر كالأقدار كيف نصبننى ... ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى
أعينى إن لم تسعدا اليوم عبرتى ... فبئس إذن ما فى غد تعدانى

٨ — وقال البحترى المتوفى سنة ٢٨٤ يمدح الخليفة جعفرا المتوكل ويصف خروجه فى عيد فطر[2]

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان الزيات الكاتب البليغ والشاعر المتصرف والعالم الأديب . (٢) هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائى شاعر مطبوع متصرف فى فنون الشعر وخاصة المدح إلا الهجاء، وهو نقى الكلام ذو بدائع فى غير تكلف يعده أبو العلاء المعرى ، الشاعر ويعد أبا تمام وأبا الطيب حكيمين .

الله مكن للخليفة جعفر ... ملكا يحسنه الخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضلها ... والله يرزق من يشاء ويقدر
فاسلم أمير المؤمنين ولا تزل ... تعطى الزيادة فى البقاء وتشكر
عمت فواضلك البرية فالتقى ... فيها المقل على الغنى والمكثر
بالبر صمت وأنت أفضل صائم ... وبسنة الله الرضية تفطر
فانعم بيوم الفطر عينا إنه ... يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بمحفل ... لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت ... عددا يسير بها العديد الأكثر
والخيل تصهل والفوارس تدعى ... والبيض تلمع والأسنة تزهر
والأرض خاشعة تميد بثقلها ... والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس ماتعة[1] توقد بالضحى ... طورا ويطفئها العجاج الأكدر
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت ... تلك الدجى وانجاب ذاك العثير
وافتن فيك الناظرون فأصبع ... يومى إليك بها وعين تنظر
يجدون رؤيتك التى فازوا بها ... من أنعم الله التى لا تكفر
ذكروا بطلعتك النبى فهللوا ... لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلى لابسا ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع ... لله لا يزهو ولا يتكبر
فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما ... فى وسعه لمشى إليك المنبر
أيدت من فصل الخطاب بحكمة ... تنبى عن الحق المبين وتخبر
ووقفت فى برد النبى مذكرا ... بالله تنذر تارة وتبشر
ومواعظ شفت الصدور من الذى ... يعتادها وشفاؤها متعذر
حتى لقد علم الجهول وأخلصت ... نفس المروى[2] واهتدى المتحير
صلوا وراءك آخذين بعصمة ... من ربهم وبذمة لا تخفر

---

(١) يقال متعت الشمس إذا بلغت غاية ضوئها قبل الزوال (٢) المتفكر

الله أعطاك المحبة فى الورى وحباك بالفضل الذى لا ينكر
فلأنت أملأ للعيون لديهم وأجل قدرا فى الصدور وأكبر

٩ — وقال ابن الرومى المتوفى سنة ٢٨٤ يهجو إبراهيم بن المدبر(١)

يابن المدبر غرنى الرواد عمرا وليس لهم سواك مراد
أدعو على الشعراء أخبث دعوة إذ مجدوك وغيرك الأمجاد
قل لى بأية حيلة أعملتها هتفوا بأنك ـ لاحفظت ـ جواد
ما أنت والمعروف أو مفتاحه ذهبت بذينك دونك الأجواد
لكن إخال معاشرا خيبتهم نصبوا الحبائل للأسى فأجادوا
أثنوا عليك ليستميحك غيرهم فيخيب خيبتهم وتلك أرادوا
أرويت بالأصدار عنك حوائمى(٢)
لما أطال غليلها الأيراد
وسلوت ذكراك التى من مثلها تجوى القلوب(٣) وتقرح الأكباد
خيبتنى ثقة بلؤمك إنه لمن استعد لشاتم لعتاد
عن مثله نكص الهجاء مقهقرا ونبت سيوف الشتم وهى حداد
لا أن لؤمك جنة لكنه نجس يعاف وروده الوراد
فاهرب وأين بهارب من طالب فى كل مطلع له مرصاد
خذها إليك من الملابس ملبسا تشقى به الأرواح والأجساد
ضنكا إذا زرت عليك زروره(٤) ضاق الخناق فلم تسعك بلاد
ولئن شقيت بلبس برد مثلها فلطالما شقيت بك الأبراد

---

(١) هو أبو الحسن على بن العباس بن جريج الرومى ، شاعر فياض ذو نظم عجيب وتوليد غريب ، يقع على المعانى النادرة فيستخرجها ثم يوفيها ويحسن عرضها ، أجاد فى كل فنون الشعر ولا سيما الوصف والهجاء

(٢) جمع حائمة وهى العاطشة (٣) تحرق (٤) جمع زر : أخو العروة

شنعاء تضرب فيك نار شناعة تبقى نوائرها[1] وأنت رماد
تحبوك بدأتها بذكر نابه عقباه إخمال هو الأخماد
ولقلما يجدى على متبجح ذكر يمات بنشره فيباد
ما ينفع الحطب المحرق فى الصلى ضوء جريرته عليه فساد ؟

١٠ — وقال ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ يصف العقار وساقيها ومجلسها والصيد لشوائها[2]

وحلو الدلال مليح الغضب يشوب مواعيده بالكذب
سقانى وقد سل سيف الصبا ح والليل من خوفه قد هرب
عقارا إذا ما جلتها السقا ة ألبسها الماء تاج الحبب
فأصلح بينى وبين الزما ن وأبدلنى بالهموم الطرب
وما العيش إلا لمستهتر تظل عواذله فى شغب
يهيم إلى كل ما يشتهى وإن رده العذل لم ينجذب
ويسخو بما قد حوت كفه ولا يتبع المن ما قد وهب
فكم فضة فضها فى سرو ر يوم وكم ذهب قد ذهب
ولا صيد إلا بوثابة[3] تطير على أربع كالعذب
وإن أطلقت من قلاداتها وطار الغبار وجد الطلب
فزوبعة من بنات الريا ح تريك على الأرض شدا عجب
تضم الطريد إلى نحرها كضم المحب لمن قد أحب
لها مجلس فى مكان الرديـ ـف كتركية قد سبتها العرب

---

(١) أضوائها (٢) هو الخليفة العباسى عبد الله بن المعتز بن المتوكل ، العالم الأديب والكاتب البليغ والشاعر المتصرف القدير ذو التشبيهات الفائقة والتخيلات الرائعة فى شتى الأوصاف بعبارات مطبوعة كأنها مصنوعة (٣) يريد كلبة سلوقية نسبة إلى سلوق بلدة باليمن مشهورة بهذا النوع .

فظلت لحوم ظباء الفلا ... ة على الجمر معجلة تنتهب
وطافت سقاتهم يمزجو ... ن بماء الغدير بنات العنب
وحثوا الندامى بمشمولة ... إذا شارب عب فيها قطب
فراحوا نشاوى بأيدى المدا ... م قد نشطوا من عقال التعب
إلى مجلس أرضه نرجس ... وأوتار عيدانه تصطخب
وحيطانه خرط كافورة ... وأعلاه من ذهب يلتهب

١١ — وقال السرى الرفاء المتوفى سنة ٣٦٢ يرثى فتى من بنى شيبان كان له صديقاً فقتل وصلب [1]:

أبدر دجى غالته إحدى الغوائل ... فأصبح مفقوداً وليس بآفل
أتته المنايا وهو أعزل حاسر ... خفى غرار السيف بادى المقاتل
غلام إذا عاينت عاتق ثوبه ... رأيت عليه شاهـــداً للحمائل
يمسح بالمسك الذكى مرجلا ... يرف على المتنين مثل السلاسل
سواء عليه فى السوابغ مرة ... ثنى عطفه أم فى رقاق الغلائل
وعز على العلياء أن حيل بينه ... وبين ظبا أسيافه والعوامل
وعرى من برديه كالسيف منتضى ... فلم يعر من بردى عفاف ونائل
فأحبب به من راكب غير سائر ... مقيم ولكن زيه زى راجل
يعنبر أنفاس الرياح بشلوه ... فتعبق من أنفاسه تلك الشمائل
هو القدر المحتوم والسيف لم يكن ... ليخضب إلا من دماء الأفاضل
أحلك من أعلى الهواء محلة ... نأت بك عن ضنك الثرى والجنادل

---

(١) هو أبو الحسن السرى الرفاء بن أحمـــد بن السرى الكندى ، كان يرفو الثياب بالموصل ولكنه ولع بالشعر حتى أجاده ولم يكن يعرف سواه ، ولذا كان مطبوعاً عذب الألفاظ ، وله افتنان فى التشبيهات والأوصاف .

١٢ — وقال الصابى المتوفى سنة ٣٨٤ وهو فى سجن عضد الدولة يعزى نفسه عن حبسه ومصادرة ماله ، بنفسه وهمته [١] :

يعيرنى بالحبس من لو يحله ... حلولى لطالت واشمخرت مراكبه
ورب طليق أطرق الذل رقه ... ومعتقل عان وقد عز جانبه
وإنى لقرن الدهر يوما تنوبنى ... سطاه [٢] ويوما تنجلى بى نوائبه
ومن مد نحو النجم كيما يناله ... يدا كيدى لاقته أيد تجاذبه
ولا بد للساعى إلى نيل غاية ... من المجد من ساع تدب عقاربه
وإنى وان أودت بمالى نكبة ... نظيرى فيها كل قرم [٣] أناسبه
فما كنت كالقسطار [٤] يثرى بكيسه ... ويملق أن أنحى على الكيس سالبه
ولكن كليث الغاب إن رام ثروة ... حوتها لـــه أنيابه ومخالبه
يبيت خميصا طاويا ثم يغتدى ... مباحا له من كل طعم أطايبه
كذلك مثلى نفسه رأس ماله ... بها يدرك الربح الذى هو طالبه
وللمـــال آفات يهنأ ربه ... بها إن تخطته إليه مصائبه
ومن يكن السلطان فيه خصيمه ... فلا عار فى الغصب الذى هو غاصبه
وما ضرنى أن غاض ما ملكت يدى ... وفى فضل جاهى أن تفيض مذائبه [٥]
إذا كان مالى من طريف وتالد ... قتيل يدى فضل ففنيه جالبه
ولى بين أقلامى ولبى ومنطقى ... غنى قلما يشكو الخصاصة صاحبه

---

(١) هو أبو إسحاق الصابى إبراهيم بن هلال ، الكاتب المترئس على ديوان الإنشاء للخلفاء وملوك بويه ، والشاعر المطبوع المكثار فى جميع الفنون ، وصاحب المنزلة العالية على صابئيته فى النفوس .

(٢) جمع سطوة . (٣) شجاع . (٤) ناقد الدراهم كالقسطر .

(٥) جمع مذوب وهو كل ما يذاب فيه .

١٣ — وقال ابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ يتحدث عن قصة ناسباً (١) :

كيف العزاء وأين بابه والحى قد خفت ركابه
بأعز منتقب ينم م على محاسنه نقابه
والبدر فى قزع (٢) يشف م كما تشف به ثيابه
متأود حـــلو الشما ئل من أساوره حقابه (٣)
زعم المخـــبر أنه ضربت على سلع (٤) قبابه
فطلبته كالأيم (٥) أو كالسيل فى الليل انسيابه
فإذا أحم المقلتـــين يشين أنمله خضابه
يهتز مثل السمهرى م تدافعت فيه كعابه
وقف الولائد دونه كالقلب يستره حجابه
أقبلت أسأله وأعـــــلم أن حرمانى جوابه
ويلى على متلون الـ أخلاق يعجبه شبابه
لا رسله تترى إليـــنا بالسلام ولا كتابه

١٤ — وقال الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ وقد مر على قبر الصابى فى الجنينة ببغداد من غير القصيدة الطويلة التى رثاه بها حين موته (٦) :

---

(١) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة السعدى التميمى الشاعر المجيد ذو السبك الحسن والمعنى الجيد فى النسيب والمدح والأوصاف .
(٢) سحاب خفيف (٣) وشاح خصره. (٤) جبل بالمدينة. (٥) الثعبان
(٦) هو أبو الحسن محمد بن الطاهر ويلقب بالموسوى نسبة إلى جده موسى الكاظم الراجع بنسبه إلى الحسين بن على . نبغ فى الشعر يافعاً وأكثر منه مبدعا حتى أجمع الأدباء على أنه أشعر قريش ،لأنه أكثر مجيدا وهم بين مجيد مقل ومكثار غير مجيد . وكان ذا هيبة وجلال ، تولى نقابة الطالبيين فى حياة أبيه وله ديوان شعر كثير الأبواب حافلها ثم هو عالم ذو مؤلفات .

أيعلم أقبر بالجنينة أننا ... أقمنا به نعى الندى والمعاليا
حططنا فحينا مساعيه — إنها ... عظام المساعى — لا العظام البواليا
وما لاح ذاك الترب حتى تحلبت ... من الدمع أو شال ملأن المآقيا
نزلنا إليه عن ظهور جيادنا ... نكفكف بالأيدى الدموع الجواريا
أقول لركب رائحين تعرجوا ... أريكم به فرعا من المجد ذاويا
ألموا عليه عاقرين فأننا ... إذا لم نجد عقرا عقرنا القوافيا
وقفنا فأرخصنا الدموع وربما ... تكون على سوم الغرام غواليا
ألا أيها القبر الذى ضم لحده ... حساما على هام النوائب ماضيا
هل ابن هلال منذ أودى كعهدنا ... هلال على ضوء المطالع باقيا
وتلك البنان المورقات من الندى ... تواضب ماء أم بواق كما هيا
هو الخاضب الأقلام نال بها علا ... تقاصر عنها الخاضبونا العواليا
مفيد ضراب باللسان لو أنه ... بيوم وغى فل الجراز اليمانيا
مريز القوى نال المعالى واثبا ... إذا غيره نال المعالى حابيا
خلا بعدك الوادى الذى كنت أنسه ... وأصبح تقروه النوائب باديا
ملأت بمحياك البلاد فضائلا ... ويملأ مثواك البلاد مناعيا

١٥ — وقال النهامى المتوفى سنة ٤١٦ ينسب ويذكر الطيف[1] .

قالت أأنساك نجدا حب مطرف ... فقلت خبرك يغنينى عن الخبر
أخذت طرفى وسمعى يوم بينكم ... فكيف أهوى بلا سمع ولا بصر
وقد أخذت فؤادى قبل فاطلعى ... هل فيه غيرك من أنثى ومن ذكر
فان وجدت سوى التوحيد فيه هوى ... إلا هواك فلا تبقى ولا تذر
بيضاء تسحب ليلا حسنه أبدا ... فى الطول منه وحسن الليل فى القصر
يحكى جنى الأقحوان الغض مبسمها ... فى اللون والريح والتفليج والأشر

---

(١) هو أبو الحسن على بن محمد النهامى ، كاتب معروف وشاعر محسن ذرب اللسان مشهور ، له ديوان يغلب عليه المدح والرثاء والنسيب .

لو لم يكن أقحوانا ثغر مبسمها ... ما كان يزداد طيبا ساعة السحر
أهتز عند تمنى وصلها طربا ... ورب أمنية أحلى من الظفر
تجنى على وأجنى من مراشفها ... ففى الجنى والجنايات انقضى عمرى
أهدى لنا طيفها نجدا وساكنها ... حتى اقتنصنا ظباء البدو فى الحضر
فبات يجلو لنا من وجهها قمرا ... من البراقع لولا كلفة القمر
وراعها سر أنفاسى فقلت لها ... هواى نار وأنفاسى من الشرر
فما تنكرنا من الطيف الملم بنا ... ممن هويناه إلا قلة الخفر
فسرت أعثر فى ذيل الدجى ولها ... والجو روض وزهر الليل كالزهر
وللمجرة فوق الأفق معترض ... كأنها حبب يطفو على نهر
وللثريا ركود فوق أرحلنا ... كأنها قطعة من جلدة النمر
وأدهم الليل نحو الغرب منهزم ... وأشقر الفجر يتلوه على الأثر
فروع السرب لما ابتل أكرعه ... فى جدول من خليج الفجر منفجر
ولو قدرت وثوب الليل منخرق ... بالصبح رقعته منهن بالشعر

١٦ — وقال مهيار المتوفى سنة ٤٢٧ يمدح أبا القاسم الحسين بن على المغربى عند تقلده الوزارة ويهنئه بالنيروز ، وقد جاء لذلك من بابل إلى بغداد سنة ٤١٤[1] .

قد رفعت فى بابل راية ... للمجد من يلق بها يغلب
يصيح داعى النصر من تحتها ... ياخيل محيى الحسنات اركبى
جاء بها الله على فترة ... بآية من يرها يعجب

---

(١) هو أبو الحسن بن مهيار بن مرزويه الديلمى أحد من أسلم من نبغاء المجوس ، وكان إسلامه على يد الشريف الرضى ، وعليه تخرج فى الشعر فجاء على نحو منه فى جزالة القول وطول النفس ورقة الحاشية ، وقد فضل شعراء عصره ، وله ديوان ضخم بكثير من فنون الشعر وأخصها المدح فالنسيب فالصفات .

لم تألف الأبصار من قبلها أن تطلع الشمس من المغرب
فارتبعوا بعد مطال الحيا وروضوا بعد الثرى المجدب
وزارة قلبها شوقها منك إلى حولها القلب
قمت بمعناها وكم جالس يكفيه منها سمة المنصب
وهى التى إن لم تقد رأسها بمحصدات الصبر لم تصحب (١)
مزلقة راكب سيسائها (٢) راكب ظهر الأسد الأغلب
راحت على عطفك أثوابها طاهرة المرفع والمسحب
فتحت فى مبهم تدبيرها تنفس البلجة فى الغيهب
رد بنو يحيى وسهل لها والطاهريون بنو مصعب
فاضرب عليها بيت ثاوبها قبلك لم يعمد ولم يطنب (٣)
وامدد على الدنيا وجهالها ظلال حلم لك لم يعزب
واطلع على النيروز شمساً إذا ساق الغروب الشمس لم تغرب
يوم من القرس أتى وافدا فقالت العرب له قرب
فاغرس ونوه منعما واصطنع ترض مضاء الصارم المقضب
ولوقة الأعطاف لم تعتصف (٤) بالكلم المر ولم تتعب
جاءك معناها وألفاظها
فى الحسن بالأسهل والأصعب
أفصح ما قيل ولكنها فصاحة تهدى إلى يعرب

١٧ — وقال صردر المتوفى سنة ٤٦٥ يستهدى مدادا ويصف الدواة والقلم والقراطيس (٥):

---

(١) لم تسلس وتذل (٢) ظهرها (٣) لم يقم له عمود ولم يمد له طنب.
(٤) الولوقة اللامعة يريد القصيدة وهى مفعول لاصطنع.
(٥) هو الرئيس أبو منصور على بن الحسن من فارس كاتب شاعر، لشعره طلاوة وبهجة، فى جودة سبك وحسن معنى، وكان أبوه الحسن يلقب

إليك أشكو مشيبا لاح بارقه ... فى فرع دهماء تجرى بالأساطير
كانت مفارقها مسكا مضمخة ... فما لها بدلت منه بكافور
ومقلة عهدت كحلاء مرهمها ... طول البكاء على بيض الطوامير
يا حبذا هى والأقلام واردة ... فيها وصادرة سحم المناقير
كأنما كرعت فى ناظرى رشأ ... أو فى سويداء قلب غير مسرور
تحوى القراطيس منها روضة أنفا ... بها مفاخرة الظلماء للنور
فكيف لى بخضاب تسترد به ... من الشبيبة لوناً غير مهجور
لو أن صبغته فاز الشباب بها ... لما رمى الدهر فوديه بتغيير
وحاجة النفس إن قلت وإن كثرت ... إذا سمحت بها مثل الدنانير

١٨ — وقال الطغرائى المتوفى سنة ٥١٤ يصف هاجرة وغديرا (١):

وهاجرة سجراء (٢) تأكل ظلها ... ملوحة المعزاء (٣) رمضى الجنادب (٤)
ترى الشمس فيها وهى ترسل خيطها ... لتمتاح (٥) ريا من نطاف المذانب (٦)
سفعنا (٧) بها وجه النهار فراعنا ... بنقبة مسود المقاديم شاحب (٨)

صربعر لشحه ، فلما نبغ هو فى الكتابة والشعر لقب صردر . ويغلب على ديوانه المدح والنسيب والرثاء .

(١) هو مؤيد الدين أبو اسماعيل الحسين بن على الطغرائى نسبة إلى الطغرى وهى الطرة التى ترسم فى أعلى الكتب بنعوت الملك لأنه كان يرسمها ، وقد لقب بالأستاذ وبالمنشئ لجودة إنشائه ، ووزر للسلطان مسعود السلجوقى بالموصل . وكما كان فخر الكتاب كان نابغة فى الشعر وله ديوان كبير تصرف فيه فى كثير من الفنون وخاصة المديح والنسيب والحكمة والوصف ، ولاميته المعروفة بلامية العجم ذات مقام عظيم . (٢) حامية . (٣) مسودة لحصا . (٤) محروقتها . (٥) لتستقى . (٦) صافيات الجداول . (٧) حرقنا . (٨) بلون وجه ليل مسود الأوائل متغير .

فلما اعتسفنا[١] ظل أخضر غاسق على قمع الآكام[٢] جون المناكب
وردنا سحـــيرا بين يوم وليلة
وقد علقت بالغرب أيدى الكواكب
على حين عرت منكب الصبح جذبة
من الشرق واسترخى عنان الغياهب
غديرا كمرءاة الغريبة تلتقى بصوحيه أنفاس الرياح الغرائب
إذا ما نبال القطر تاحت له اتقى بموضونة حصداء من كل جانب
بمنعرج من ريد عيطاء[٣] لم تزل وقائعها يرشفن ظلم السحائب
تقبل أفلاذ الحيا وتكنها بطامية الأرجاء خضر التصائب
بعيس كأطراف المدارى[٤] نواحل
فرقنا بها الظلماء وحف الذوائب[٥]
نشحن به[٦] عذباً نقاخا كأنما مشافرها يغمدن بيض القواضب
رأين جمام الماء زرقا ومثلها سنا الفجر فارتابت عيون الركائب
فكم قامح[٧] عن لجة الماء طامح
إلى الفجر ظن الفجر بعض المشارب
إلى أن بدا قرن الغزالة ماتعا كوجه نظام الملك بين المواكب

١٩ — وقال ابن الخياط المتوفى سنة ٥١٧ يتسب من بائيته التى سارت بذكرها الركبان[٨]:

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه فقد كاد رياها يطير بلبه

---

(١) اقتحمنا (٢) مرتفعات الهضاب (٣) من حرف هضبة (٤) الأمشاط (٥) غزيرتها سوداؤها (٦) شربن منه (٧) رافع (٨) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبى الدمشقى شاعر مجيد طاف البلاد واستقر بفارس يمدح العظماء، وأغلب ديوانه مدح ورثاء ونسيب.

وإياكما ذاك النسيم فإنه إذا هب كان الوجد أيسر خطبه
خليلى لو أحببتما لعلمتما محل الهوى من مغرم القلب صبه
تذكر فذو الذكرى يشوق وذو الهوى
يتعوق ومن يعلق به الحب يصبه
غرام على يأس الهوى ورجائه وشوق على بعد المزار وقربه
وفى الركب مطوى الضلوع على جوى
متى يدعه داعى الغرام يلبه
إذا خطرت من جانب الرمل نفحة تضمن منها داءه دون صحبه
ومحتجب بين الأسنة معرض وفى القلب من إعراضه مثل حجبه
أغار إذا آنست فى الحى أنة حذارا وخوفا أن تكون لحبه
فيالسقامى من هوى متجنب بكى عاذلاه رحمة لحبه
أهيم إلى ماء ببرقة عاقل[1] ظمئت على طول الورود بشربه
وأستاف حر الرمل شوقا إلى اللوى
وقد أودعتنى الرقم قضبان كثبه
ولست على وجدى بأول عاشق أصابت سهام الحب حبة قلبه

٢٠ — وقال الغزى المتوفى سنة ٥٢٤ يمدح شرف الدين أبا الحسن على ابن الحسن البيهقى[2]

أرى الخلق متفقا فى الهوى ومختلفا فى المنى والمنن
فراعى حقوق وراعى حقاق وبانى معال وبانى مدن
وإنى لأكره مدح الورى ويشغلنى عنه هجو الزمن
ولكن دعتنى فلبيتها خلال أبى الحسن بن الحسن

---

(١) احدى برق نجد (٢) هو أبو إسحق ابراهيم بن يحيى الكلبى أقام بخراسان يقول الكثير الممتع فكان يضرب المثل بجودة شعره . وله ديوان ضخم غلب عليه المدح والوصف وفيه هجاء ونسيب .

غريب وإن كان فى داره ... وفقد النظير كفقد الوطن
يقوم الرجاء بتعويلنا ... عليه وبالروح قام البدن
علىّ العلا وظهير الندى ... إذا لم تمد بضبعى فمن
كلامى سلافة أهل العراق ... وصيتى عرافة أهل اليمن
ومن كل هزة ذى همة ... تعلمت الريح هز الفنن
بمسعاك رميت التقاط النجوم ... وأملت للضرع رد اللبن
وكنت امرأ أرخص النفس فى ... هواها وأغلى بنات الفطن
فعرج على أملى قبل أن ... يزيد الملام وتقوى الأحن
فأنت المبرز فى الحالتين ... بنظم القريض ونظم المنن
ومن جعل الشمس خريته ... كفته التماس وضوح السنن

٢١ — وقال الأرجانى المتوفى سنة ٥٤٤ يهجو أهل زمنه ويصف سوءهم (١)

ومعشر شرهم دان وخيرهم ... مكان بدر الدجى من باع معتنق
أدى اليهم خلو الربع من أنس ... وظالما كرع الظمآن فى الرنق
قل للذى شخصه فى القصر محتجب ... وعرضه الدهر مطروح على الطرق
يشرى الثناء ولا يعطى به ثمنا ... وذاك مبلغ رأس الجاهل الحمق
لحاكم الله من أغصان عارية ... من الندى والجنى والظل والورق
إذا مدحناهم لم يوقظوا كرما ... وإن تركناهم ناموا على حنق
ونستسك إذا ازوروا مسامعهم ... بكل منظومة كاللؤلؤ النسق
مدائح لا تقاء الشر تحسبها ... رقيا العقارب تكسو أوجه الورق

---

(١) هو القاضى ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرجانى، شاعر مكثار فى رقة لفظ وجودة وصف، وله ديوان على ضخامته يقال إنه لم يجمع عشر شعره، وهو متصرف فى كثير من الفنون ولاسيما المدح والنسيب والوصف.

أعناقكم ملؤها درى وليس لكم ... وأحمد الله أدنى المن فى عنق
وما خلقنا حمامات فنطربكم ... سجعا ونملك أطراقا من الحلق
والله لولا محاماتى وإن لؤموا ... على الكريمين من نفسى ومن خلقى
إذا لسارت بما يخزيهم كلم ... أربها من حواشى مقول نطق
إذا شننت على عرض أوابدها ... أجلين عن قدد منه وعن مزق
تهتز منهن أعطاف الورى طربا ... إلا الذين أباتتهم على قلق
كالسيف يحمده غير القتيل به ... يوم الجلاد إذا ما أحمر من علق

٢٢ — وقال الأبيوردى المتوفى سنة ٥٥٧ يفتخر بقومه وأوليته (١).

أنا ابن الأكرمين أبا وأما ... وهم خير الورى عما وخالا
أشدهم إذا اجتلدوا قتالا ... وأوثقهم إذا عقدوا حبالا
وأرجحهم إذا قدروا حلوما ... وأصدقهم إذا افتخروا مقالا
وأصلبهم لدى الغمزات عودا ... إذا الخفرات خلين الحجالا
وإن دعيت نزال مشوا سراعا ... إلى الأقران وابتدروا النزالا
يكبون العشار لمعتفيهم ... ويروون الأسنة والنصالا
ويثنون المغيرة عن هواها ... إذا الوادى بظعن الحى سالا
ويحتقبون أعمارا قصارا ... ويعتقلون أرماحا طوالا
على أثباج مقربة تمطت ... بهم ورعالها تنضو الرعالا
فجروا السمر راجفة صدورا ... وقادوا الجرد راعفة نعالا
بأيد يستشف الجود فيها ... تفيد محامدا وتفيد مالا
وهم فتحوا البلاد بياترات ... كأن على أعرتها نمالا
ولولاهم لما درت بفىء ... ولا أرعى بها العرب الفصالا

---

(١) هو أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردى نسبة إلى أبيورد بخراسان، وهو سفيانى كان رواية نسابة شاعرا رقيقا، قسم أشعاره أقساما منها العراقيات والنجديات ولقى شعره خدمات من الأدباء وأغلبه مديح وفخر ونسيب

٢٣ — وقال سبط بن التعاويذ المتوفى سنة ٥٨٣ من مدحة للخليفة الناصر يصف غلمانه الأتراك[١] .

القائد الغلب[٢] الكماة عوابسا ... والبيض فى أيمانهم تتبسم
سيان سلمهم وحربهم فما ... ينفك يقطر من أكفهم الدم
ترك إذا لبسوا التراثك[٣] أيقنت ... صم العوالى أنها ستحطم
يزداد إشراقاً ضياء وجوههم ... والجو بالهبوات أربد أقتم
فهم إذا حسروا ظباء خميلة
وهم أسود شرى إذا ما استلأموا[٤]

ركبوا الدياجى[٥] والسروج أهلة ... وهم بدور والأسنة أنجم
وكأن إيماض السيوف بوارق ... وعجاج خيلهم سحاب مظلم
من كل من بجماله نار الهوى ... وببأسه نار الوغى تتضرم
فى ثنى بردته قضيب تق وفى الد م رع المفاضة منه طود أبهم[٦]
بشر أرق من الزلال وتحته ... كالصخر قلب لا يرق فيرحم
يصمى الخلى[٧] بطرفه وبكفه ... يصمى الكمى بجؤذر أم ضيغم
هو تارة للحسن فى أترابه ... علم رطوراً فى الكتيبة معلم

---

(١) هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب بديوان المقاطعات ببغداد ولكنه شهر بسبط بن التعاويذى نسبة إلى جده لأمه أبى محمد المبارك بن المبارك الزاهد المعروف بابن التعاويذى لأنه كفله صغيراً . كان شاعر وقته وله ديوان ضخم جمعه وبوبه بنفسه فى المدح والنسيب والصفات والرثاء والهجاء وأكثر هذه الفنون فيه المدح .

(٢) الشجعان جمع أغلب وهو الأسد (٣) جمع تريكة وهى البيضة

(٤) لبسو اللأمات وهى الدروع (٥) يعنى الخيل السود كالدياجى

(٦) جبل صعب المرتقى (٧) يرميه فيقتله

ثانياً – حياته

لم يزل الشعر وما زال فى كل عصر مرءاته الصافية التى تنطبع فيها صورته الحقة ، لأنه فيض الشعور ونبع الوجدان ، ولأن رجاله أدق الناس شعورا وأرقهم وجدانا . ولذا رأيته فى الحياة الجاهلية صورة ناطقة لما كان فيها من حس ومعنى ، حتى عده المؤرخون ديوانها وسجلها ، ورأيته فى صدر الإسلام قد بقى كما كان فيما بقى ، وحاد عن الخوض فيما ترك ، وتلون فيما تلون على شاكلته وغراره . ثم رأيته فى العصر الأموى قد جنح جنوحا قويا إلى ما اختطه العصر حتى كاد يكون قصرا على ما كان الغرض الذائع فيه . فجاء فى العصبية والسياسية تأييدا ومعارضة ، وفى رفع الأولياء ووضع الخصماء مدحا وهجوا ، ثم بين ذوى البطالة المبعدين عن ميادين العمل ، غزل إباحة ومتعة من ذوى الجدة المترفين ، ونسيب تصوف وعفة من ذوى العدم المتقشفين . على أنه فى هذين العصرين الإسلاميين لم يبتعد كثيرا عما اختطه له العصر الجاهلى ، لأن الدولة فيهما بقيت عربية خالصة نظارة إلى عروبتها وبداوتها بقوة حادت بها عن التأثر الكبير بما لسواها . أما فى العصر العباسى الذى اختط عاصمته فى ديار الأعجام واختلط بل امتزج بالفرس أتم امتزاج واتخذ منهم بدل العرب الوزراء وسائر الأعوان ، حتى تغير بذلك نظام الحياة إلى ما شرحنا آنفا فى الجنس والدين واللغة وشئون الاجتماع ، فلم يك مفر للشعر وهو كما ذكرنا مراءة العصور أن ينطبع كل ذلك فيه ويظهر أثره به ظهورا بينا يخالف ما كان لماضيه فى الأغراض والمقاصد ، وفى المعانى والأخيلة ، ثم فى الألفاظ والأساليب ، على ماسترى فى هذا البيان الذى يتناول تفصيل مايخص الشعر فيما أجملنا سابقاً من تأثر اللغة فى هذه النواحى الثلاث .

١ — ناحية الأغراض والفنون

لعله من الملائم وقد عرفت الأغراض الثلاثة التى كانت أهم أغراض الشعر فى العصر الأموى أن نبدأ بها الآن فى هذا العصر العباسى ، وبعدها نزجى القول إلى ما كان له فيه من سائر الفنون .

١ — العصبية والسياسية : أحيت الدولة الأموية العصبيات وكانت أقوى ما تكون بين اليمنية والمضرية منذ تقريب معاوية اليمن وإبعاده قيساً ، فكانت الملاحاة بين العنصرين قوية شديدة ، وكانت تزداد شدة كلما تقدمت بالدولة الأيام ، حتى ورثتها الدولة العباسية بالغة منتهاها ، وقد زاد العنصر اليمنى قوة على المضرى أن أم السفاح كانت منه — ولذلك خلفه أخوه ابراهيم الإمام قبل أبى جعفر وهو أكبر منه لأنه ابن أم ولد — هذا مع من انضم إلى شعراء اليمن العرب من الموالى الذين كانوا ينتمون إلى قبائله ولاء وهم كثير منهم أبو نواس الحكمى الذى يقول فيهم :

وقد ناخت عن أحساب قوم ... هم ورثوا مكارم ذى نواس
فإن تك أو قدت للحرب نار ... فما غطيت خوف الحرب راسى
سأبلى خير ما أبلى محام ... إذا ما النبل ألجم بالقياس (١)
فما بال النعاج ثغت بشتمى (٢) ... وفى زمعاتهن دم الفراس (٣)
وما حامت عن الأحساب إلا ... لترفع ذكرها بأبى نواس

غير أن ظهور الشعوب الأخرى بمعاداة هذين العنصرين العربيين معا ، كان من شأنه أن يخضد شوكة هذا الخلاف ويضعف منه ، على أن تبقى الصولة لمضر لبقاء الخلافة بعد النبوة فيها كما كانت ، ولذا بقى الفخر لها

---

(١) جمع قوس . (٢) صوتت به . (٣) الزمعات هنات زائدات وراء الأظلاف

وحدها دون اليمن حتى على ألسنة الخلفاء الذين ينبغى أن يكونوا آخر المتعصبين كما تلمح ذلك فى قول ابن المعتز مفتخرا :

إذا شئت أوقرت البلاد حوافرا ... وسارت ورائى هاشم ونزار
وعم السماء النقع حتى كأنه ... دخان وأطراف الرماح شرار

وقد استغل العباسيون الشعر فى تأييد ملكهم ضد الطامعين فيه من آل على كما كان يفعل الأمويون ، فقوبل شعراؤهم الموالون أمثال مروان ابن أبى حفصة وعلى بن الجهم وأبان بن عبد الحميد بطبقة من الشعراء المعارضين الذين يتعصبون لآل على ، كالسيد الحميرى ودعبل الخزاعى ومسلم بن الوليد ، وطالت الملاحاة بين الطبقين فى شدة واحتدام كما ترى فى هذين المثلين :

قال مروان يخاطب بنى على طالبا إليهم تخلية الطريق لبنى العباس :

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم ... حطم المناكب يوم كل زحام
وارضوا بما قسم الاله لكم به ... ودعوا وراثة كل أصيد حامى
أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثة الأعمام [1]

وقال الحميرى وكان يفضل عليا على الراشدين كما يفضل أبناءه على العباسيين

---

(١) شاع استعمال هذا المعنى الذى ألم به مروان تأييدا ونقضا
قال الطاهر بن على العباسى فى تأييده زائدا عليه

لو كان جدكم هناك وجدنا ... فتنازعا فيه لوقت خصام
كان التراث لجدنا من دونه ... فحواه بالقربى وبالإسلام
حق البنات فريضة معلومة ... والعم أولى من بنى الأعمام

وقال محمد بن يحيى التغلبى فى نقضه زائدا أيضا

لم لا يكون وإن ذاك لكائن ... لبنى البنات وراثة الأعمام
للبنت نصف كامل من ماله ... والعم متروك بغير سهام

إذا أنا لم أحفظ وصاة محمد ... ولا عهده يوم الغدير المؤكدا(١)
فإني كمن يشرى الضلالة بالهدى ... تنصر من بعد التقى وتهودا
ومالى وتيم أو عدى وإنما ... أولو نعمتى فى الله من آل أحمدا
تتم صلاتى بالصلاة عليهم ... وليست صلاتى بعد أن أتشهدا
بكاملة إن لم أصل عليهم ... وأدع لهم ربا كريما ممجدا
بذلت لهم ودى ونصحى ونصرتى ... مدى لدهر ماسميت ياصاح أحمدا
وإن امرأ يلحى على صدق ودهم ... أحق وأولى فيهم أن يفندا
فإن شئت فاختر عاجل الغم ظلة ... وإلا فأمسك كى تصان وتحمدا

ما للطليق وللتراث وإنما ... صلى الطليق مخافة الصمصام

وذكر صاحب الأغانى أن بيت مروان الأخير هذا ، كان السبب فى قتله ، فقد روى عمن حدثوه عن عطية الأضجم أنه قال « لزمت مروان لما قال هذا البيت وعاهدت الله أن أغتاله فأقتله أى وقت أمكننى ذلك ، وما زلت ألاطفه وأبره وأكتب أشعاره حتى خصصت به فأنس بى جدا ، وعرفت ذلك بنو حفصة جميعاً ، فأنسوا بى ولم أزل أطلب له غرة حتى خلا لى البيت يوما فوثبت عليه فأخذت بحلقه فما فارقته حتى مات ، فخرجت وتركته فخرج إليه أهله بعد ساعة فوجدوه ميتا وارتفعت الصيحة فحضرت وتباكيت وأظهرت الجزع عليه حتى دفن وما فطن بما فعلت أحد ولا اتهمنى به » .

(١) يعنى غديرخم بين مكة والمدينة فعنده أخذ رسول الله بيد على ابن أبى طالب وقال لمن معه ، ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال فمن كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وهذا حديث يدفعه غير الشيعة .

وقد حرك ماجد للموالى فى العصر العباسى من تقريب ، ما كان مالئا نفوسهم من حقد على العرب طوال العهد الأموى . فأخذوا يفاخرونهم ويذكرون مثالبهم وأخذ العرب يردون عليهم ما يقولون ، حتى نشأت عصبية أعم من السابقتين بين العرب والعجم ، قوى فيها سلطان العجم لنفوذ الفرس وكثره شعراء الموالى . فعلن أمر الشعوبية وصار لها شأن خطير ، وتعصب لها عدد وافر من الشعراء كبشار وديك الجن[٢] والخريمى[٣] وغيرهم ، وقام من ينافح عن العرب ويرد على هؤلاء ، أمثال يزيد المهلبى ولكنهم قليل وهاك مثلين مما كان يقال :

دخل أعرابى على مجزأة بن ثور السدوسى فتنقص الموالى أمام بشار فقال بشار .

خليلى لا أنام على اقتسار ... ولا آبى على مولى وجار
سأخبر فاخر الأعراب عنى ... وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزا ... ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يابن راعية وراع ... بنى الأحرار حسبك من خسار
وكنت إذا ظمئت إلى قراح ... شركت الكلب فى ولغ الأطار[١]
تريغ[٢] بخطبة كسر الموالى ... ويلسيك المكارم صيد فار
وتغدو للقنافذ تدريها ... ولم تعقل بدراج الديار[٣]
وتتشح الشمال للابسيها ... وترعى الضأن بالبلد القفار
مقامك بيننا دنس علينا ... فليتك غائب فى حر نار
ونخرك بين خنزير وكلب ... على مثلى من الحدث الكبار

---

(٢) هو عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام الحمصى .
(٣) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان مول آل خريم المريين الذبيانيين .
(١) خليط من دم ورماد تلطخ به القدور (٢) تريد (٣) الدراج كرمان طائر .

ولما قتل الخدم الخليفة المتوكل قال يزيد المهلبى من مرثيته يعيب على بنى العباس إبعاد العرب وتقريب الموالى .

لما اعتقدتم أناساً لا حلوم لهم ... ضعتم وضيعتم من كان يعتقد
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم ... حمتكم السادة المذكورة الحشد
قوم هم الجذم والأنساب تجمعهم ... والمجد والدين والأرحام والبلد
إذا قريش أرادوا شد ملكهم ... بغير قحطان لم يبرح به أود
أضحى شهيد بنى العباس موعظة ... لكل ذى عزة فى رأسه صيد
خليفة لم ينل ما ناله أحـــد ... ولم يضع مثله روح ولا جسد
قد وتر الناس طرائم قد صمتوا ... حتى كأن الذى نبلوا به رشد
من الألى وهبوا للمجد أنفسهم ... فما يبالون ما نالوا إذا حمدوا ؟

وقد ضعف أمر هذه العصبيات جميعا بتغلب الأتراك على العرب فى العصر الثانى ثم بانحلال الدولة إلى دويلات فى الثالث إلا ما كان من الأشادة بالعلوية فى مصر أيام الفاطميين وبالعربية فى الشام أيام الحمدانيين ، على أن هذه الأشادة لم تلبث أن زالت فى العصر الرابع الذى تملك فيه الأتراك شرقاً والأكراد غرباً .

٢ — المدح والهجاء — وكما فنى الشعر السياسى فى المدح والهجاء على العهد الأموى فأصبح لهما تبيعاً لا استقلال له ، لم يلبث أن صار كذلك فى العهد العباسى منذ عصره الأول لميل النفوس بطبعها إلى حب الثناء وغلوها فى هذا الحب واتخاذ الشعراء هذا الميل أحبولة لتصيد المال ثم سخاء ذوى الأمر لهم ببذله سخاء منقطع النظير . ولهذا كثر قائلو المديح وطالبوه ، وتعدى الشعراء التكسب بالشعر للعيش والحياة ، إلى التكسب به لاقتناء الثروات الواسعة ومجاراة ذوى اليسار والبذخ فى مظاهر الرفاهة والتمتع بنعمى الحياة[1] ومن ثم هجروا مواطنهم الأولى وأقاموا فى بغداد متحضرين

---

(١) ذكر صاحب الأغانى أن سلما الخاسر خلف ثروة مقدارها

يتمتعون فيها بأجزل العطايا وأسنى الصلات حتى من الخليفة المنصور على ما كان معروفاً به من التشدد فى خزن المال . روى أن أبا دلامة لما أنشده قوله :

لوكان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا فى شعاع الشمس كلكم ... إلى السماء فأنتم أطهر الناس
وقدموا القائم المنصور رأسكم ... فالعين والأنف والأذنان فى الراس

قال له بأى شىء تحب أن أعينك قال تملأ لى هذه الخريطة دراهم فملئت فوسعت أربعة آلاف درهم .

ومنذ عهد ابنه المهدى أخذت الأموال تتدفق على الشعراء . قيل دخل عليه عمرو بن سلم الخاسر فأنشده :

أليس أحق الناس أن يدرك الغنى ... مرجى أمير المؤمنين وسائله
لقد بسط المهدى عدلا ونائلا ... كأنهما عدل النبى ونائله

فقال له أما ما ذكرت يا سلم من الجود فوالله ما تعدل الدنيا عندى خاتمى هذا ، وأما العدل فإنه لا يقاس برسول الله صلى الله عليه وسلم أحد فيه ، وإنى لأتحراه جهدى . ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب . ودخل عليه بعدها فأنشده :

إن الخلافة لم تكن بخلافة ... حتى استقرت فى بنى العباس
شدت مناكب ملكهم بخلافة ... كالدهر يخلط لينه بشماس

فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوباً . ثم دخل عليه بعدهما فأنشده :

أفنى سؤال السائلين بجوده ... ملك مواهبه تروح وتغتدى
هذا الخليفة جوده ونواله ... نفد السؤال وجوده لم ينفد

خمسون ألف دينار وألف ألف وخمسمائة ألف درهم غير الضياع . وقد خلف مروان أكثر من ذلك ومثلهما فى هذا جمهرة من الشعراء غير مبذريهم الذين كانوا يفوقونهم كسبا ولكنهم لا يبقون على شىء كأبى نواس .

وقد أعطى ابنه الهادى عشرين ألف درهم لشاعر أجاد وصف الصمصامة سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدى حين حصل عليه وكان مغرما باقتناء السلاح وسيأتى هذا الوصف

أما الرشيد فقد غطى فى ذلك على ما كان لأبيه وأخيه . مدحه مروان بقصيدة يقول فيها :

وسدت هارون الثغور فأحكمت ... به من أمور المسلمين المرائر
وما انفك معقودا بنصر لواؤه ... له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية ... على الرغم قسرا عن يد وهو صاغر
ترى حوله الأملاك من آل هاشم ... كما حفت البدر النجوم الزواهر

فأعطاه خمسة آلاف دينار وكساه خلعته وأمر له بعشرة من رقيق الروم وحمله على برذون من خاص مراكبه . ثم كان جوده على الشعراء يجاوز كل أمل فى محافل البيعات .

وكذلك كان أبناؤه الأمين والمأمون والمعتصم ولا سيما المأمون على طول مدته فى الخلافة . قال لمحمد بن الجهم يوما أنشدنى ثلاثة أبيات فى المديح والهجاء والرثاء ولك بكل بيت كورة فأنشده فى المديح .

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وأنشده فى الهجاء

قبحت مناظرهم فحين خبرتهم ... حسنت مناظرهم لقبح المخبر

وأنشده فى الرثاء

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه ... فطيب تراب القبر دل على القبر

وعلى مثل هذا كان للشعراء الواثق والمتوكل ابنا المعتصم وبخاصة المتوكل ، ومدائح البحترى فيه وعطاياه للبحترى مما ضربت به الأمثال . ومن بعده تغير مجرى التاريخ

وقد اقتدى بالخلفاء فى ذلك ، الأمراء والوزراء . وأخبار آل برمك

فى هذا أشهر من أن نذكر أو ينالها تعداد ، وكفى أنها كانت من أهم بواعث الحقد عليهم فى نفس الرشيد .

بذلك وغيره كثرت المدائح وجادت وكثرت فيها المبالغات كما قرأت بالنماذج فى مدحتى مسلم وأبى تمام .

هذا وإذ كان من شأن الشاعر المتكسب بشعره ، أن يتخذ الهجو عصا فى هذا الباب يهيب بها على المماطلين ، وينال بأذاها البخلاء والمانعين ، لم يك مفر من أن يكثر الهجاء مع المديح ، على أن مما أكثره غير ذلك ، تحاسد الشعراء وما أنتجه فى نفوسهم من عداوة أعادت ذكرى ما كان بين الفرزدق وجرير وحلبتهما بصورة أوسع أفقا وأشد بشاعة ونكرا ، ولا يجوز أن نغفل هنا ذكر العصبيات الماضية وماخلفته من ألوان الهجاء .

ثم قد وسعت حرية المأمون الشعراء الهاجين إلى درجة أنه كان يسمع هجوه بنفسه ويصفح . روى أن دعبلا حين هجاه بقوله :

أيسومنى المأمون خطة عاجز	أو ما رأى بالأمس رأس محمد
يوفى على هام الخلائف مثل ما	توفى الجبال على رءوس القردد
ويحل فى أكناف كل ممنع	حتى يذلل شاهقا لم يصعد
إن التراث مهد طـــلابها	فاكفف لعابك عن لعاب الأسود
إنى من القوم الذين سيوفهم	قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله	واستنقذوك من الحضيض الأوهد

لم يزد أن قال « قاتل الله دعبلا متى كنت خاملا ، وفى حجر الخلافة ولدت وبدرها غذيت ، وفى مهدها ربيت »[1] فتنزل الشعراء لذلك فى

---

(١) روى أن أبا سعد المخزومى دخل على المأمون وأنشده شعر دعبل هذا ثم قال « أتأذن لى يا أمير المؤمنين أن أجيئك برأسه » فقال له « لا ، هذا رجل نفر علينا فانفر أنت عليه فأما قتله بلا حجة فلا »

عهده — كما تنزلوا قبل عهده إرضاء للسياسة والعصبيات — إلى الاقذاع فى الهجو والبذاءة فى الألفاظ ، وقد جعلهم يغلون فى ذلك أشد غلو ، ضعف الوازع الدينى وما جرته مثالب المدنية على النفوس من الانغماس فى مفاسدها والفتنة بها إلى أن عد بعضها من المحاسن وهو من المقابح فى الحضيض . هذا إلى أن التسابق فى التهاجى كان رغبة بين بعض الشعراء وبعض دون أن يرتكز فى نفوسهم إلى أحقاد أو أسباب سواه

قال بشار يهجو المهدى ويحرض على وزيره يعقوب بن داود :

بنى أمية هبوا طال نومكم ... إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الزق والعود

وقال أبو نواس يهجو المفضل بن سيابة بالبخل

أصبحت أجوع خلق الله كلهم ... وأفزع الناس من خبز إذا وضعا
خبز المفضل مكتوب عليه ألا ... لا بارك الله فى ضيف إذا شبعا
إنى أحذركم من خبز صاحبنا ... فقد ترون بحلقى اليوم ما صنعا

وقال أبو العتاهية يهجو معن بن زائدة بالجبن :

فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخالا
فما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا

وشاع هجوهم بدمامة الخلق كما قال البحترى يذم بكبر الأنف

رأيت الخثعمى يقل أنفا ... يضيق بعرضه البلد الفضاء
سما صعدا فقصر كل سام ... لهيبته وغص به الهواء
هو الجبل الذى لولا ذراه ... إذن وقعت على الأرض السماء

وقد ساد الهجاء المديح فى العصر الثانى لقلة الأجواد وعدم معرفة ذوى اليسار ببلاغة القول ، فظهر تبرم الشعراء من هذه الحال والاكثار من هجو الناس والزمن ، ونبغ فى هذه الناحية ابن الرومى نبوغا لم يصله سواه ، كما رأيت فى ذمه ابن المدبر آنفا وكما ترى الآن حيث يذم رؤساء

زمنه لبخلهم على مدحه لهم ، فيقول

قل للذين مدحتهم فكأنما مسخوا كلابا غير ذات خلاق
ردوا على صحائفاً سودتها فيكم بلا حق ولا استحقاق
ما كان مثلى مادحا أمثالكم لولا اتهامى ضامن الأرزاق
أسخطت خلاق البرية فيكم فبلغتم منى رضا الخلاق
أغرقت فى نزعى لكم ولربما حرم الرماة الصيد بالأغراق

ولما أقبل العصر الثالث تفجرت ينابيع الجود من جديد على أيدى حكام الدويلات وعظماء رجالها ، وبذلك بلغ المدح الذروة التى ليس فوقها ارتفاع ، ولكن مع بقاء الهجو مسايرا له إذ لا غنى عنه فى تقريع اللؤماء . غير أن حال الشعر عادت فى العصر الرابع إلى الكساد لتغلب العجمة على الحكام ، فالتفت الشعراء بمدائحهم إلى القديم ومن ذلك نشأ شعر التصوف بالغزل فى ذات الله ومدح النبى والخلفاء .

٣ — الغزل لقد ابتعد الغزل أول العهد العباسى عما كان له فى عصر بنى أمية ابتعاداً كثيراً لم يحدث مثله للفنين السابقين معه ، وكان المنشأ الأول لهذا الابتعاد فتن المدنية ومفاسد الحضارة التى تعدت الطبقة العليا إلى ما دونها من سائر الطبقات فمات بذلك النسيب العذرى ولم يعد يظهر إلا على ألسنة القليل كالعباس بن الأحنف وقد رأيت له قصيدة فيه . أما جمهره المتغزلين فقد انساقوا وراء المتعة والاباحة إلى حد أباح لهم ما كان غير موجود حتى فى الغزل اللاهى أيام بنى أمية ، من كشف فى الوصف ، وتبذل فى القصة ، وفحش فى الألفاظ ، كما يقول بشار فى معشوقته فاطمة .

عجبت فطمة من نعتى لها هل يجيد النعت مكفوف البصر
أذرت الدمع وقالت ويلتى من ولوع الكف ركاب الخطر
أمتا بدد هـذا نقبى ووشاحى حله حتى انتثر
فدعينى معه يا أمتا علنا فى خلوة تقضى الوطر
أقبلت مغضبة تضربها واعتراها كجنون مستعر

بأبى والله ما أحسنه دمع عين يغسل الكحل قطر

وقد حملهم الاستهتار باللذة والاستمتاع بالغلمان استمتاعهم بالنساء ، أن يتغزلوا فى المذكر كما يتغزلون فى الأناث ، وتلك عادة سيئة قذرة كانت شائعة بين الفرس وانتقلت إلى العرب بفسدة الموالى ومن لف لفهم من ذوى الاباحة والمخنثين ، كأبى نواس وحماد عجرد ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وحسين بن الضحاك وأمثالهم ممن كان همهم الاجتماع على الشراب مع القيان والغلمان ، يشربون ويمزحون ويصفون الخمر ويهزلون لا يردعهم عن دناءات النفوس حلق ، ولا يزعهم دين ، فكان غزلهم دعارة وعهرا ، وقوى ذلك فيهم انحطاط المستوى العام للأخلاق .

قال العاهر أبو نواس فى غلام :

يا بدعة فى مثال يجوز حد الصفات
فالوجه بدر تمام بعين ظبى فلاة
والقد قد غلام والغنج غنج فتاة
مذكر حين يبدو مؤنث الخلوات
زها على بصدغ مزرفن الحلقات(١)
من فوق خد أسيل يضىء فى الظلمات

وقال ابن الضحاك الخليع فى غلام يستحم :

وابأبى أبيض فى صفرة كأنه تبر على فضه
جرده الحمام عن درة تلوح فيها عكن بضه
غصن تبدى يتثنى على مأكمة مثقلة النهضه
كأنما الرمش على خده طل على تفاحة غضه
صفاته فاتنة كلها فبعضه يذكرنى بعضه

وقد أنتج الاحدار فى هذه الحمأة القذرة ، وصف محاسن المذكر

---

(١) ذرفن صدغه : جعله مستديراً كالزرفين بالضم وهو حلقه الباب .

كالعدار[1] وشيوع هجو الناس باللوطية والأبنة ، مع الاسترسال فى هذه السبل بصراحة فى الوصف والحكاية ، صارت سبة للأدب العربى وقذى فى عيون قارئيه . ثم كان أن عمد المتغزلون إلى إظهار المتغزل فيه بصورة المذكر ، وإن كانت الصفات صفات إناث كما يقول أبو نواس :

يا قمرا أبصرت فى مأتم ... يندب شجواً بين أتراب
يبكى فيذرى الدر من نرجس ... ويلطم الورد بعناب
أبرزه المأتم لى كارها ... برغم دايات[2] وحجاب
لا تبك ميتاً حل فى قبره ... وابك قتيلا لك بالباب

وعلى ذكر الغزل وما وقع فيه من جديد نذكر الحملة التى وجهت إلى ما كان من ابتداء القصائد فى كل الأغراض ما عدا الرثاء ، بما كانت تبدأ به إلى هذا العصر من تشبيب يتناول الوقوف بالديار والأطلال والتألم لمفارقة أصحابها لها وسير الأبل مفرقة أو محققة للقاء ، مع ما قد يأتى خلال ذلك كله من محاسن المحبوبة وصفاتها على أسلوب الغزلين فنقول : إن أول من قادها أبو نواس[3] فقد رفع عقيرته ينعى على الشعراء هذا التشبيب بالقديم ويطلب إليهم فى سخرية لاذعة هجره إلى ما أصبح ملائما من جديد . كأن يجبه من يقف على الطلول فيقول :

---

(١) من ذلك قول بعضهم :

أيا قمراً ، من شمس طلعة وجهه ... وظل عذاريه ، الدجى والأصائل

(٢) جمع داية وهى الظئر أى المرضع واستعمل فى العاطفة على ولد غيرها

(٣) قيل إن أول من تنبه إلى ذلك مطيع بن إياس وقد اجتمع بفتى من أهل الكوفة ودار الحديث بينهما فى هذا الشأن فقال مطيع :

لأحسن من بيد يحار بها القطا ... ومن جبلى طى ووصفكما سلما
تلاحظ عينى عاشقين كلاهما ... له مقلة فى وجه صاحبه ترعى

تبكى على طلل الماضين من أسد ... لادر درك قل لى من بنو أسد ؟
لاجف دمع الذى يبكى على حجر ... ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

أو يشمت بتفاعيل الرياح والأمطار فى الرسم فيقول :

دع الرسم الذى دثرا ... يعانى الريح والمطرا
ألم تر ما بنى كسرى ... وسابور لمن غبرا

ثم يطلب أن يكون البديل صفة الخمر فيقول :

صفة الطلول بلاغة القدم ... فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ويفعل هذا فى قصائده مشركا معه هذا التنديد تارة كمطلعه :

لا تبك رسماً بجانب السند ... ولا تجد بالدموع للجرد
ولا تعرج على معطلة ... ولا أثاف خلت ولا وتد
ومل إلى مجلس على شرف ... بالكرخ بين الحديق معتمد
بهد صففت نمارقه ... فى ظل كرم معرش خضد
ثم اصطبح من أسيرة حجبت ... من كل عين بالصون والرصد
محجوبة فى مقيل حوبتها ... تسعين عاماً محسوبة العدد

أو مكتفياً بالتنبيه تارة كمطلعه :

دع الربع ما للربع فيك نصيب ... وما إن سبتى زينب وكعوب
ولكن سبتى البابلية إنها ... لمثلى فى طول الزمان سلوب

وكثيرا ما كان يقصد إلى الخمر قصدا كأن يقول :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء ... ودوانى بالتى كانت هى الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... لو مسها حجر مسته سراء[1]

ولما حبسه الخليفة لذلك عاد إلى الأطلال ولكن بهذا الأسلوب

---

(١) نرى أن نثبت هنا البيت الثالث بعد هذين البيتين ، مثلا لما طالما نبهنا عليه من الفحش فى المعنى والبذاء فى اللفظ وهو

من كف ذات حر فى زى ذى ذكر ... لها محبان لوطى وزناة

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا
فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
دعانى إلى نعت الطلول مسلط تضيق ذراعى أن أرد له أمرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتنى مركبا وعرا

وقد أثرت هذه الحملة فى شعراء العصر الأول أشد تأثير فاتبعه فيها كل ذى هوى للخمر ، وابتدأ بالمقصود فى القصيدة من صد عنها ، إلا طائفة قليلة بقيت على عرف الأقدمين فى الابتداء ، واستحدث الجميع المعانى إلا طائفة أقل منها كانت تنزع أحيانا منزع البدو فى المعنى المراد ، كدعبل إذ يقول من قصيدة مطلعها :

بانت سليمى وأمسى حبلها انقضبا وزودوك ولم يرثوا لك الوصبا

فى بذل المال للثناء :

قالت سلامة أين المال قلت لها المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا
هذى سبيلى وهذا فاعلمى خلقى فارضى به أو فكونى بعض من غضبا.

وقد استمرت المبادىء على هذه الأنحاء طوال العصر الثانى بعد الأول ولما جاء الثالث بقيت عليه تقريبا فى العراق وفارس وخراسان وعادت إلى القديم فى الجزيرة والشام ومصر مع نزوع القول فى جميعها إلى هذا المنزع الجديد.

ولما حل العصر الرابع نشأ بجانب هذا الغزل المكشوف غزل عف بعث به أخوه العذرى القديم ، لانتشار الروح الصوفية فيه كما رأيت فى قصيدة ابن الخطاط .

هذا — ولقد كان للشعر منذ العصر العباسى الأول جولات واسعات فى فنون أخرى غير هذه الفنون الثلاثة ، جاء بعضها أول ما جاء نتيجة لها ، كالفخر الذى دفعت إليه العصبية ، والمجون الذى أنشأه الاستهتار ، والخمريات التى شغلت المطالع أولا واستقلت بعد بسائر القصيد ، وجاء بعضها مستقلا عنها كالرثاء والزهد والصفات . فهذه ستة فنون غير الثلاثة السابقة ، وإليك كلمة عن كل فن منها على سبيل الأجمال

١ — الفخر — حالف الفخر العصبيات منذ العهد الجاهلى إلى آخر العصر الأموى وكان ينزع فيها جميعا عن الحسب والنسب ولكن استمرت منازعه الحسبية العظامية غلابة على النسبية العصامية حتى العصر العباسى الأول الذى قامت فيه الشعوبية على قدم وساق فانعكست الآية بسلته المعفية على كل قديم . ثم توارى الأمران تقريبا فى العصر الثانى وعادا إلى الظهور كفرسى رهان فى الثالث الذى حظى الفخر فيه بعدد وافر من الشعراء جمعوا فى مفاخرهم بين المظهرين . ثم جاء العصر الرابع فنضبت فيه الصفات الشخصية وأصبح الفخر إما بالعظام كما رأيت فى مفخرة الأبيوردى بسفيانيته أو بانتحال الصفات على غير أساس كما سترى بعد

وهذا مثل لأحد مجيدى الفخر فى العصر الثالث وهو الشريف الرضى ، قال من قصيدة

أنا من علمت قديمه وحديثه ... علم اليقين وإن جهلت فسائلى
قومى الملوك وخيم نفسى خيمها ... أفلح بمثل أواخرى وأوائلى[1]
نحن الولاة العادلون ولم تزل ... آثارنا حلى الزمان العاطل
وإذا الخصوم تجادلوا فى مجدهم ... ظهرت دلالة مجدنا فى كامل

٢ — المجون — كان منشأ المجون وهو من مستحدثات العصر العباسى كما قلنا ، الاستهتار الذى استهان بالدين فكانت الزندقة والإلحاد ، واستهتر بالأخلاق فكانت الرذيلة والفساد ، ثم استهزأ بالعرف فكان الفحش فى المعانى والبذاء فى الألفاظ . وشياطينه الأوائل وغارسو بذوره هم تلك الطائفة التى ذكرنا فى الخروج على القديم

وقد ساعد على انتشار هذه السموم ما غزا البيئات العربية من الآراء الفلسفية المختلفة ، والأباحية الداعية إلى مشاركة الانسان لأخيه الانسان

---

(١) أسبق بهم وأظفر

فى كل شىء ، ثم عبادة المادة وعدم المبالاة بزواجر الأديان . ذكروا أن مطيع بن إياس مر بيحيى بن زياد وحماد بن إسحق وهما يتحادثان فقال لهما فيم أنتما قالا فى قذف المحصنات فقال « أو فى الأرض محصنة تقذفانها » كما ساعد عليها أيضا ما كان يعقده بعض الأمراء والوزراء من مجالس الشراب والمنادمة التى يحضرها أمثال هؤلاء فيعمرونها بالتهتك والخلاعة ويحاكونها فى صورة أشنع منها بمنازل بعضهم ، كما كانوا يفعلون فى منزل إسماعيل القراطيسى بالكوفة . ولقد جرت صحبة هؤلاء إلى إفساد كثير من أبناء الخلفاء ، فالأغانى يذكر أن جعفر بن المنصور أفسده مطيع بن إياس ، ومحمدا الأمين أفسده أبو نواس وحسين بن الضحاك . ولم يلبث اضطراب الحركة الفكرية وتزاحمها فى أذهان الناس بما نقل واستنبط من حقائق فلسفية مختلفة فى الدين والرياضة والفلك والطب وسائر العلوم ، أن فصل ذوى المجانة فى الدين عن مجان الفضيلة والعرف ، فكان من الأولين طائفة الزنادقة الملحدين الذين كان دأبهم التشكيك فى حقائق الدين بشكل جدى لا مجانة فيه ، كصالح بن عبد القدوس وأبان بن عبد الحميد وعمارة بن حمزة وغيرهم ، وكان من الآخرين مجان الهزل الذين دأبهم التضحيك كمن ذكرنا مع أبى نواس . ومن أمثلة مجونهم قول دعبل عن ديك له أخذه صالح بن على بن عبد القيس لضيوفه وقد سقط على سطحه.

أسر المؤذن صالح وضيوفه ... أسر الكمى هفا خلال المائط[1]
بعثوا عليه بناتهم وبنيهم ... ما بين ناتفة وآخر سامط
يتنازعون كأنهم قد أوثقوا ... خاقان أوهزموا كتائب ناعط[2]
نهشوه فانتزعت له أسنانهم ... وتهشمت أقفاؤهم بالحائط

---

(١) بالتسهيل للقافية مكان الصراع ومفعول أسر المؤذن وهو الديك
(٢) خاقان لقب ملك الترك ، وناعط هو ربيعة بن مرثد الهمدانى صاحب مخلاف باسمه

وقد كان لهذا النوع من المجون شأن كبير فى العصر العباسى الثالث ومن مشهورى رجاله بالعراق أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن سكرة الهاشمى ، وأبو عبد الله بن أحمد بن حجاج . فمن مجون ابن سكرة قوله فى جارية بخراء تدعى خمرة جعلها محطا لكثير من مجونه .

هل لك يا خمرة فى تجرة ... مربحـــة ما مثلها تجره
سيرى إلى البصرة واسترزقى ... ربك بالنكهة فى البصره
يزكوبها النخل وتحمر فى ... غير أوان الحمرة البسره

ومن مجون ابن حجاج قوله لرجل دعاه إلى عرس ثم أخلف .

أين نصيبى من الطعام وما ... طمعت فى لعقة من المرقه
أشفقت منى وكان يقنعنى ... عندك ماليس يوجب الشفقه
قطعة لحم فى وزن خردلة ... على رغيف كأنه ورقه

٣ ــ الخمريات : قلنا إن الخمريات شغلت مطالع القصائد أولا مكان التشبيبات القديمة ، ثم استقلت بعد بسائر القصيدة ، ولذلك تعد من الفنون الجديدة فى العصر العباسى . نعم إن الخمر نالها فى عهد بنى أمية شىء من أيام يزيد بن معاوية ، وأشياء على أيام الوليد بن يزيد ، ولكن ذلك لم يصل بها إلى أن تكون فنا من فنون الشعر مستقلا حتى جاء أبو الهنـــدى عبد المؤمن بن عبد القدوس الرياحى ، وكان شاعرا مطبوعا من مخضرمى الدولتين ، فأشاد بذكرها لأدمانه المعاقرة وشغفه بالشراب ، مع ما كان يرمى به من الفسق وفساد الدين حتى كاد شعره يكون كله فيها ، وكان فى تلك الأشادة كثير الحض عليها كقوله .

قل للسرى أبى قيس أتهجرنا ... ودارنا أصبحت من داركم صددا
أبا الوليد أما والله لو عملت ... فيك الشمول لما فارقتها أبدا
ولا نسيت حياها ولذتها ... ولا عدلت بها مالا ولا ولدا

ثم جاء أبو نواس فلم يعدل بوصفها شيئا من الفنون ، حتى بلغ ما قاله فيها من القصائد والمقطعات والمطالع بضعة آلاف من الأبيات ، ولذا عد

إمام واصفيها بالأجماع ، واقتدى به فى ذلك عدد ممن عاصروه وإن لم يساووه . وكذلك كانت الخمريات فى العصر الثانى . ثم استفحل أمرها فى الثالث على عهد آل بويه الذين كان أغلب شعرهم فيها لم حتى لم تبق زيادة لمستزيد . وعلى هذا الطغيان كانت فى العصر الأخير ، وقد رأيت من ذلك نماذج لأبى نواس ولابن المعتز وقبلها مثلها لمعز الدولة وأبى العباس ابن ركن الدولة ، فلم يبق إلا نموذج نأتى به من العصر الرابع فخذه للطغرائى يصفها فى شيبه ويجعلها بديلة الشباب .

قد كان لى فى شبيبتى مرح ... يحدث لى بغتة بلا سبب
فمذ تولى الصبا تبين لى ... أن الصبا كان موجب الطرب
حظ تولى فلست أدركه ... إلا بعون من ابنة العنب
فهاتها من شبيبتى بدلا ... أقضى بها بعض ذلك الأرب
صفراء مثل النضار ألبسها ... مزاجها لؤلؤاً من الحبب
فأسعد الناس من حوت يده ... ما شاء من لؤلؤ ومن ذهب

٤ — الرثاء — ليس الرثاء محتاجا بعصر ما فى وجوده إلى تعليل ، ما دامت رحى المنايا دائرة وما دام الدهر نقادا يستلب النفيس ويفجع بالعزيز . وكل ما نريد أن ننبه عليه الآن ، أن الرثاء فى رقيه وانحطاطه كان سائرا وراء المديح ، وأنه لذلك بلغ فى العهد العباسى من جودة المعانى وحسن التعبير ، ما لم يصل إليه فى سابق أو لاحق من العصور ، وقد رأيت من مراثى العصر الأول قصيدة أبى تمام فى ابن حميد وهى مضرب الأمثال فى عظمة المعانى وقوة الأداء ، ورأيت فى الثانى مقطعة ابن الزيات فى رثاء أم ابنه عمر ، وهى فيض من العاطفة الباكية والشعور المحزون ، ثم رأيت فى الثالث — وهو أرقى العصور رثاء لأنه أرقاها مدحا — رثاء الرفاء لصديقه المصلوب ، وهو نوع من الرثاء جديد ، ورثاء الرضى للصابى ، ولعله أروع رثاء يتبين فيه صدق الأخاء . وإليك فى الرابع وكان الرثاء فيه

متطامنا كالمديح ، كما كان عاما أكثر فيه خاصا وإليك نموذجاً لأبى إسحق ابراهيم بن يحيى الغزى المتوفى بخراسان سنة ٥٢٥ قال :

هى الحوادث لا تبقى ولا تذر ... ما للبرية من محتومها وزر
لو كان ينجى علو من بوائقها ... لم تكسف الشمس بل لم يخسف القمر
قل للجبان الذى أمسى على حذر ... من الحمام متى رد الردى الحذر
ينجو النهيك وأطراف الرماح له ... طوق ويدهى بشىء ما له خطر (١)
ومن تمسك بالدنيا وزخرفها ... غرته خضرة عود ماله ثمر

٥ — الزهد — من النواميس المقررة فى حياة الجماعات ، أن نزوع طائفة ما إلى ناحية ذات غلو وإفراط ، يقتضى نشأة أخرى مضادة لها فى الاتجاه ، ولذلك لما كان الوازع الدينى على عهد الراشدين وبنى أمية قويا يكاد يشترك فى الخضوع له الناس جميعا دون استهتار أحد بالخروج عليه فى تبجح وتظاهر ، لم تكد ترى الزهد والغلو فى الدين بادياً للعيان . أما حين غزت الأباحية الشعب العربى على عهد بنى العباس للأسباب الكثيرة التى ذكرنا فيما قدمنا ، ونشأت من غزوها طائفة المستهترين ، فلم يك مفر أن توجد طائفة تقاوم تلك ، همها التزهيد فى هذه الحياة بتجسيم مقابحها وتكذيب زخارفها وعدم الاغترار بما فيها من متاع إن هو إلا حطام ، بقدر ترغيبها فى الآخرة وما فيها من لذة وخلود . نعم جدت هذه الطائفة ، وعلى أنها كانت إزاء تلك قليلة العدد محدوده الأشخاص ، أمكنها بقوة الدين ومدده القويم ، أن تنتج من المواعظ ونواحى الأرشاد ما أنار السبل على أيامهم ، وبقى بعدهم هدى للناس . ثم كان أشخاصها ذوى مكانة فى نفوس الخلفاء وسائر الحكام ، إن لم يكن لدى بعضهم عن عقيدة وإخلاص ، فلا أقل أن يكون استرضاء للعامة بتقريب هؤلاء الوعاظ ، وقد كان إمامهم فى العصر العباسى الأول أبو العتاهية الذى سلف من قصصه ووعظه ما فيه الغناء .

---

(١) النهيك الشجاع الناهك كالنهوك ، فعيل بمعنى فاعل .

ولقد تفرع عن هذا الوعظ بالتزهيد ، نوع آخر من الحكمة ، هو تأديب النفس بضرب الأمثال وقص الحكايات ، وأول من فعل ذلك أبان بنظمه كليلة ودمنة ، وتبعه من ذكرنا آنفا حيث الكلام على هذا الكتاب . ثم اتصل الزهاد والمؤدبون فلم تخل الأرض من حجج منهم لله على توالى العصور . على أن التأديب بالتزهيد لم يعدم أن يصدر على لسان كثير من المستهترين ، فيكون حجة عليهم وتقوية للزاهدين . وهذا أبو نواس يقول :

أخى ما بال قلبك ليس ينقى ... كأنك لا تظن الموت حقا
ألا يا بن الذين فنوا وبادوا ... أما والله ما بادوا لتبقى
ومالك فاعلمن فيها مقام ... إذا استكملت آجالا ورزقا
ومالك غير ما قدمت زاد ... إذا جعلت إلى اللهوات ترقى
وما أحد بزادك منك أحظى ... وما أحد بزادك منك أشقى

٦ — الوصف : وعلى قدم الوصف فى الشعر العربى منذ العهد الجاهلى ، لم يبلغ فيه ولا فى العصرين بعده شيئاً مما بلغ فى عصر بنى العباس . ذلك بأن منابعه الحسية من مظاهر طبيعة وآثار حضارة ، والمعنوية من مشاعر نفوس ومدركات عقول ، كانت محدودة فى الأول واقفة عند حدود قريبة فى الآخرين . أما فى العصر العباسى وقد تجلت فيه مظاهر الطبيعة وآثار الحضارة ، وخطت فيه الوجدانات والعقول خطوات لم تك فى حساب ، فقد أصبح الشاعر إذا غار فى أعماق الفكر لا ينتهى لقرار ، وإذا طار مع الخيال لا يقف عند سماء ، ولذلك بلغوا فى الناحيتين مبلغاً يدهش عقل من لا يحيط بنواحى هذا الانقلاب الشمول . وليس يألو ما ذكرنا من نماذج ، وما سيأتى منها وبخاصة فى ناحية المعانى والأخيلة أن يكون دلائل ناطقة وآيات بينة على صدق ما نقول ، ويكفى أن الوصف قد خلق بعض نواح منذ العصر الأول وأنضجها فيه حتى صارت فناً مستقلا كما تقدم فى الخمريات . ولم يقف دون السير فى هذا العصر نفسه بفن آخر جديد هو

وصف الرياض وما تحوى من آيات جمال كما سترى فى بعض ما اخترنا . ثم ما كاد الزمن يخطو إلى العصر الثانى حتى استوى هذا الفن على سوقه يعجب الزراع ، وصدر فيه على ألسنة كثير من الشعراء ما يبهر الناظرين ، وإليك بعض ما قيل .

قال ابن المعتز يصف إقبال الربيع :

ما ترى[1] نعمة السماء على الأر ض وشكر الرياض للأمطار ؟
وغناء الطيور كل صباح وانفتاق الأشجار بالأنوار
وكأن الربيع يجلو عروسا وكأنا من قطره فى نثار

وقال على بن الجهم يصف الورد :

لم يضحك الورد إلا حين أعجبه حسن الرياض وصوت الطائر الغرد
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها وراحت الراح فى أثوابها الجدد
وقابلته يد المشتاق تسنده إلى الترائب[2] والأحشاء والكبد
كأن فيه شفاء من صبابته أو مانعاً جفن عينيه من السهد
بين النديمن والخلين مصرعه وسيره من يد موصولة بيد
ما قابلت طلعة الريحان طلعته إلا تبينت فيه ذلة الحسد
قامت بحجته ريح معطرة تشفى القلوب من الأوصاب والكمد
لا عذب الله إلا من يعذبه بمسمع بارد أو صاحب نكد

وقال ابن الرومى — وكان مولعاً بالخلاف — يفضل النرجس على الورد:

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلا توردها عليه شاهد
لم يخجل الورد المورد لونه إلا وناحله الفضيلة[3] عائد
للنرجس الفضل المبين إذا بدا بين الرياض طريفه والتالد
فصل القضية أن هذا قائد زهر الربيع وأن هذا طارد
شتان بين اثنين هذا موعد بتصرم الدنيا وهذا واعد

---

(١) ما هنا مخفف أما . (٢) عظام الصدر . (٣) ناسبها إليه .

فإذا احتفظت به فأمتع صاحب ... بحياته لو أن حيـــا خالد
ينهى النديم عن القبيح بلحظه ... وعلى المدامة والسماع مساعد
أطلب بعقلك فى الملاح سميه ... أبدا فانك لا محالة واجد
والورد إن فتشت فرد فى اسمه ... ما فى الملاح له سمى واحد (١)
هذى النجوم هى التى ربتهما ... بحيا السحاب كما يربى الوالد
فانظر إلى الولدين من أدناهما ... شبها بوالده فذاك الماجد
أبن الخدود من العيون نفاسة ... ورياسة لولا القياس الفاسد

وحين أقبل العصر الثالث صارت الزهريات من أوسع فنون الشعر ، فلم تبق زهرة ولا ريحانة ولا أى شىء مما تنبت الرياض على اتساع الرياض ، إلا أشبعه شعراؤه نعتاً ووصفاً . استمع إلى القاضى عـــلى بن محمد التنوخى يقول :

ورياض حاكت لهن الثريا ... حللا كان غزلها للرعود
نثر الغيث در دمع عليها ... فتحلت بمثل در العقود
أقحوان معانق لشقيق ... كثغور تعض ورد الخدود
وعيون من نرجس تتراءى ... كعيون موصولة التسهيد
وكأن الشقيق حين تبدى ... ظلمة الصدغ فى خدود الغيد
وكأن الندى عليها دموع ... فى عيون مفجوعة بفقيد

وعلى هذا الافتنان بقيت الزهريات فى العصر الرابع ، قال الأرجانى يصف روضة فى مطلع قصيده غزلية .

ما روضة أضحكت صبحا بباسمها ... دموع قطر عليها الليل ينسفك
فالنرجس الغض عين كلها نظر ... والأقحوانة ثغر كله ضحك
وللشقائق زى وسطها عجب ... إذا تمايلن والأرواح تأتفك (٢)

---

(١) يظهر أن التسمية كانت شائعة بنرجس دون ورد . (٢) تتناوح فى تصرفها .

حمر الثياب تطير الريح شائلة أذيالها وهى بالأزرار تمتسك
إذا الصبا نبهت أحداقها سحرا حسبت مسكا على الآفاق ينفرك
أتم طيبا وحليا من ترائبها[1] إذا اعتنقنا وخيل الليل تعترك

هذا ولم يترك الوصف شيئا بعد هذين الفنين من سائر فنونه إلا أجاد فيه كما ترشد إلى ذلك بعض النماذج والمستشهد به من الأبيات ، ومن العسير أن نتعرض للاستقصاء فإن الباب طويل .

١٠ — وأخيرا هذا فن عاشر لا يصح إغفال التنبيه عليه هنا وهو ضبط قواعد العلوم والفنون على اختلاف أنواعها بالمزدوجات وغير المزدوجات ، نعم إن هذا الفن قد ابتذل الشعر وحط من قدره ، لأنه أخرجه فى معناه من أودية الخيال ومشاعر الوجدان ، وبعد به فى لفظه عن أناقة التعبير ورشاقة الأسلوب ، ولكن ذلك ليس بمخرجه عن أنه من فنون الشعر على أية حال ، وإذ قد فاتنا التمثيل له فيما مضى فلنأت منه فى كل من العصرين الثالث والرابع بمثال لكثرته فيهما نظراً لتقدم العلوم .

قال ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ فى تعريف الحد من منظومة له فى المنطق .

إذا أردت أن تحد حدا فرتب الجنس القريب جدا
فإنه يحصر كل ذاتى يكون للمحدود فى الصفات
ثم اطلب الفصول فهى الحاده من صورة أخذتها أو ماده

وقال الحريرى فى أدوات الشرط من ملحة الأعراب .

هذا وإن فى الشرط والجزاء تجزم فعلين بلا امتراء
وأختها أى ومن ومهما وحيثما أيضاً وما وإذما
وأين منهن وأنى ومتى فاحفظ جميع الأدوات يافتى

---

(١) أتم خبر ما النافية المفتتح بها الشعر .

٢ — ناحية المعانى والأخيلة

لقد كان نضج العقول واتساع الأفكار بما حدث فى العهد العباسى من تدوين العلوم وترجمتها ، عاملا مهما على تفسيح ميادين المعانى وتفجير ينابيعها ، وكان وضع القصة المعتمدة على الفرض والتخيل ، ومظهر الحضارة المصحوبة بمحاسن الطبيعة وجمالها ، منميا لملكة التصور ومكثرا لأنواع الأخيلة . كما كانت الملاحاة الدائبة بين الجماعات من جنسية ومذهبية ، والخصومة القائمة بين الزهاد والمستمتعين من أقوى البواعث على نشر المباحثة والمناظرة ، وخلق القدرة على الجدل والسفسطة ، فلم يعد الناس يتقبلون القضايا مجردة من الحجة والدليل . وكل هذا عاد على المعانى والأخيلة بتقدم واضح ورقى كبير ، أجملنا مظاهره حيث الكلام على ما كان لحياة اللغة فى ذلك من نصيب . وها نحن أولاء مفصلوه فى الشعر تفصيلا يعتمد أول ما يعتمد فى التمثيل له على ما أسلفنا من نماذج .

١ — استنباط الدقيق والجديد من المعانى — جال الشعراء فى هذا الميدان جولات بعيدة المدى ، ظهر أثرها متشعب النواحى فى كل ماعالجوا من فنون الشعر ، حتى لقد تزاحم الكثير منها فى القصيدة الواحدة تزاحما كان غير معروف ، كما فعل ابن الرومى فى قصيدته السابقة التى تصدى فيها لهجاء إبراهيم بن المدبر ، حيث جعل ثناء رواده عليه شركا ليستميحه غيرهم فيخيب خيبتهم ، وحيث جعل نكوص هجائه عنه لنجاسة لؤمه لا لأنه جنة ، وحيث جعل هذا الهجاء لباساً يضنى روحه ويشقيها انتقاما للأبراد التى طالما أشقاها جسده ، وهكذا من سائر المعانى الدقيقة التى عالجها . وكما فعل الرفاء فى رثائه صديقه الفتى المصلوب من بنى شيبان ، إذ تصوره بدرا مفقودا مع أنه غير آفل ، وإذ سوى بين ثنى عطفه فى غلالة الصلب وسابغة الحرب ، وإذ جعله معرى كالسيف منتضى ، وإذا اعتقد أن القدر أحله

الهواء ضنابه عن ضنك الثرى ، إلى آخر ما عالج [1] ، وكما فعل الصابى فى قصيدته التى يعزى بها نفسه وهو فى السجن ، من تفضيل من سجنه عزه على من أطلقه ذله ، ومن جعله هذه النائبة أثراً لمنازلته الدهر ، وتلك اليد ضده والسعاية به أثرا لمده يده إلى النجم وسعيه نحو المجد ، إلى آخر ما تناول وهو كثير . ولغير هؤلاء فيما تقدم من نماذج تناول دقيق للمعانى وإن لم يك فى القصيدة بالكثير ، كالذى رد به التهامى تهمة حبيبته إياه أنه نسيها بجديد ، من أنها أخذت حواسه وعقله ، فكيف يعشق لو أراد ، وكالذى ألم به مهيار فى تهنئته ابن على المغربى بالنيروز وهو يهنئه بالوزارة ، وكالذى عالجه الغزى فى مدحه البيهقى من خلطه مدحه ببيان أنه يكره مدح الناس ، فى شبه تخويف بما قد يحمله عليه المطل من هجاء ، ثم كالذى قاله الأرجانى فى هجو أهل زمنه وسوء حالهم من عدم إعطائهم إذا مدحوا وحنقهم إذا لم يمدحوا وهذه طائفة ثانية من المعانى الدقيقة التى تظهر عليها الجدة مع دقتها .

---

(١) معظم ما وقع من معان فى المصلوبين جاء جديدا ، لأن التمثيل بقتلاه لم يكن شائعاً ، ومن أسير القصائد فيه قصيدة أبى الحسن الأنبارى فى أبى طاهر محمد بن بقية وزير عز الدولة بن بويه ، حين قبض عليه عضد الدولة إذ انتصر على ابن عمه المذكور وقتله وصلبه ، ومنها .

علو فى الحياة وفى الممات ... لحق تلك إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود ندى أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيباً ... وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء ... كمدهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا ... عن الأكفان ثوب السافيات

قال بشار ينسب العشق إلى الأذن كالعين :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لاترى تهذى فقلت لهم ... الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقال فى إهلاك ماله بعدوى كفه من كف ممدوحه :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت وأعدانى فأتلفت ماعندى

وقال أبو نواس يشبه نفسه وقد حرم عليه الخليفة الشراب — فكان يمدح الخمر ولا يشربها — بقعدى الخوارج يحرض على الخروج ، ولا يحمل السلاح .

فكأنى بما أزين منها ... قعدى يزين التحكيما
كل من حمله السلاح إلى الحر ... ب فأوصى المطيق ألا يقيما

وقريب من هذا قول الغزى :

أنا فى الحلة الغداة كأنى ... علوى فى قبضة الحجاج

وقال إسحق بن إبراهيم الموصلى فى فلسفة الهجر :

أخاف عليها العين من طول وصلها ... فأهجرها الشهر بن خوفا من الهجر
وما كان هجرانى لها عن ملالة ... ولكننى أملت عاقبة الصبر
أفكر فى قلبى بأى عقوبة ... أعاقبه فيها لترضى فما أدرى
سوى هجرها والهجر فيه دماره ... فعاقبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كمن خاف الندى أن يبله ... فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

وقال ابن المعتز جاعلا تحكم الضيف بربعه أنفذ من تحكم آبائه على الأمم :

حكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من ... حكم الخلائف آبائى على الأمم
فكل ما فيه مبذول لطارقه ... ولا زمام له إلا على الحرم

وقال ابن الرومى يحل لنفسه عدم تغاضيه عن خطأ صديقه :

يا أبا القاسم الذى كنت أرجو ... ه لدهرى قطعت متن الرجاء
أنت عينى وليس من حق عينى ... غض أجفانها على الأقذاء

وقال فى الحبيبة تقتل بنظرها وإعراضها :

نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظها ثم انثنت عنـــه فظل يهيم
فالموت إن نظرت وإن هى أعرضت
وقع الســـهام ونزعهن أليم

وقال أبو تمام يجعل نغمة الطالب تعويذة لعطايا الممدوح كيلا تجن :

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها بنغمة طالب

وقال يذكر فضل الحاسد على المحسود :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وقال يذكر فضل قبور بنى مالك على الثرى :

بنى مالك قد نبهت خامل الثرى قبور لكم مستشرفات المعالم
غوامض قيد الكف من متناول وفيها علا لا يرتقى بالسلالم

وقال يجعل المجد شفيعه فى عدم التقاضى :

وإذا المجد كان عونى على المر ء تقاضيته بترك التقاضى

إلى غير ذلك مما لا يتناوله إحصاء .

هذا . ولقد كانت رغبة المحدثين فى تدقيق المعانى حاملة لهم على استخراج المكنون وتجلية المستور ، فجاءت لذلك لابسة ثوب الجدة والابتكار ، ولعلهم لهذا كانوا إذا ألموا بقديم جعلوا لأنفسهم فيه ميزة أو بدأ بجديد ، وهذه ناحية حافلة بالأمثال المشرفة لكثير منهم فى كثير من أبواب الأدب ولا سيما باب السرقات . وقد ذكر منها طائفة صالحة أبو هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين ، وهذا بعض ما جاء فيه وفى غيره كالعمدة لابن رشيق والمثل السائر للموصلى .

قال أبو نواس ، وله فى هذا الباب باع طويل :

وإذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام

فكان أوثق وأسخى وأرق من الفرزدق حيث يقول :

متى تأتى الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى

وقال فى محاسن حبيب باك :

يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب

فكان فاضلا الأسود بن يعفر بالزيادة والرقة إذ يقول :

يسعى بها ذو توأمين كأنما قنأت أنامله من الفرصاد[1]

كما كان معبد الطريق لأن يزيد عليه غيره كالوأواء الدمشقى فى قوله .

وأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد

وقال فى دقة أخذ :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

فكان بيته أعم معنى وأشد مبالغة من بيت جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا

ومثل هذا فى دقه الأخذ قول أبى تمام :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر

فانه جعل الموت فى الحرب انتصاراً ، كما جعل ابن الوردى اجتهاده عذراً فى قوله :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذراً أو ينال رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وقال فى تمنى الطير غزوة ممدوحه لتأكل من لحم قتلاه .

تتمنى الطير غزوته ثقة باللحم من جزره

فكان له فضل الإيجاز مع الإيضاح على النابغة حيث يقول :

---

(١) الضمير راجع إلى دور المناذرة بعد خلوها منهم وتهدمها ، وقنأت اشتدت حمرتها ، والفرصاد التوت الأحمر أو صبغ أحمر .

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجيشان أول غالب

وقال فى ذلك مسلم :

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه فى كل مرتحل

وقال فيه أبو تمام :

وقد ظللت أعناق أعلامه ضحى بعقبان طير فى الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل[1]

وقال أبو تمام فى إعراض ممدوحه عن الدنيا للسؤدد :

يصد عن الدنيا إذا عن سؤدد ولو برزت فى زى عذراء ناهد

فكان قوله بزيادته أقوى من قول المعذل بن غيلان :

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء فى جانب الفقر

وقال منصور النمرى :

فلو كنت كالعنقاء أو كسموها لخلتك إلا أن تصد ترانى

ففضل النابغة حيث يقول :

فانك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وهذا معنى أكثر فيه المحدثون غير منصور فأجادوا ، قال سلم الخاسر .

ولو ملكت عنان الريح أصرفها فى كل ناحية ما فاتك الطلب

وقال البحترى :

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجيهم من خوف بأسك مهرب

وقال على بن جبلة .

وما لامرىء حاولته منك مهرب ولو رفعته فى السماء المطالع
بلى هارب لمكانه لا يهتدى ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

---

(١) ثم جاء المتنبى ففضل الجميع بما زاد فيه إذ يقول :

يفدى أتم الطير عمرا سلاحه نسور الملا أحداثها والقشاعم
وما ضرها خلق بغير مخالب وقد خلقت أسيافه والقوائم

على أنا لا نغمط المتقدمين حقهم فى أن لهم من المعانى ما لم يزد فيه المتأخرون قلوا أم كثروا ، كقول عمر بن أبى ربيعة .

لقد دب الهوى لك فى فؤادى دبيب دم الحياة إلى العروق

فقد أخذه مسلم كما هو فى قوله .

تجرى محبتها فى قلب عاشقها جرى السلامة فى أعضاء منتكس

وأخذه أبو نواس كذلك ولكن نقله إلى الخمر بقوله .

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم

٢ — الإكثار من ضرب المثل وحسن التعليل — كان من أهم الدواعى إلى طلب الأمثال حاجة العقلية الجديدة إلى شفع القضايا بما يوضح معناها ويؤيد دعواها ، وقد ساعد القائلين على ضربها ما انتشر فى البيئات الجديدة منذ الصدر الأول من ترجمة الأقاصيص فى الحكم والأمثال ، ووضع قواعد العلم فى مختلف الفنون ، ولذلك نعد منها ما سيأتى فى استخدام مصطلحات العلوم . وأنت إذا رجعت إلى ما أسلفنا من نماذج ألفيت ذلك كثير الانبثاث فى ثناياها لابن الرومى والصابى والأرجانى وغيرهم فارجع إلى ما اخترنا لهم تجدها بارزة فيه . وهذه طائفة ثانية .

قال أبو العتاهية .

يا رب ذى نشب تكنفه حب الحياة وغره نشبه
قد صار مما كان يملكه صفرا وصار لغيره سلبه
يا صاحب الدنيا المحب لها أنت الذى لا ينقضى تعبه
إن استهانتها بمن صرعت لبقدر ما تسمو به رتبه
وان استوت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه

وقال أبو تمام .

وطول مقام المرء فى الحى مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإنى رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وقال

إن ريب الزمان يحسن أن يهدى ... الرزايا إلى ذوى الأحساب
فلهذا يجف بعد اهتزاز ... قبل روض الوهاد روض الروابى

وقال

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالى

وقال

يأيها الملك النائى برؤيته ... وجوده لمراعى جوده كثب
ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا ... إن السماء ترجى حين تحتجب

وقال البحترى .

دنوت تواضعا وعلوت مجدا ... فشأناك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى ... ويدنو الضوء منها والشعاع

وقال

دان على أيدى العفاة وشاسع ... عن كل ند فى الندى وضريب
كالبدر أفرط فى العلو وضوءه ... للعصبة السارين جد قريب

وقال

وقد زادها إفراط حسن جوارها ... خلائق أصفار من الحسن خيب
وحسن دراى الكواكب أن ترى ... طوالع فى داج من الليل غيهب

وقال ابن الرومى

وما الحسب الموروث لا در دره ... بمحتسب إلا بآخر مكتسب
إذا العود لم يثمر وإن كان شعبة ... من المثمرات اعتده الناس فى الحطب

وقال

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها يهدد
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأوسع مما كان فيه وأرغد

وقال قابوس بن وشمكير

ياذا الذى بصروف الدهر عيرنا ... هل عاند الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تطفو فوقه جيف ... وتستقر بأقصى قاعه الدرر
وفى السماء نجوم لا عداد لها ... وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وقال ابن المعتز

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم ... من شدة الفتك نالها الوصب
حمرتها من دماء من قتلت ... والدم فى النصل شاهد عجب

وقال ابن نباتة السعدى من وصف فرس أغر محجل

وأدهم يستمد الليل منه ... وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير زهوا ... ويطوى خلفه الأفلاك طيا
فلما خاف وشك الفوت منه ... تشبث بالقوائم والمحيا

وقال ابن شبل البغدادى

يفنى البخيل بجمع المال مدته ... وللحوادث والأيام ما يدع
كدودة القز تبنيه ويهدمها ... وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

٣ — استخدام الأدلة المنطقية والآراء الفلسفية — لم تكن شاعرية الشاعر قبل العصر العباسى تعتمد منه على ثقافة علمية ، ولذلك بقى شعره فطرياً ليس فيه أثر من تثقيف وتعليم . أما فى العصر العباسى فقد انخرط الشعراء فى زمرة العلماء ، وأصبح منهم فى كل ناحية أعلام ، وتأثر شعرهم من هذه الناحية تأثراً شديدا ، فكان ميداناً لأفكارهم المنطقية ومجالا لآرائهم الفلسفية ، وظهر فيه العقل المثقف بمظهر الغلبة على العقل الفطرى ، وكان المجتمع الجديد بما فيه من حوار ونقاش فى الدين وغير الدين منميا لهذه الظاهرة دافعاً لها إلى الأمام . ولعل أول خطوة فى سلوك هذه السبيل كانت القدرة على صوغ الحكمة بعد ضرب المثل وإحسان التعليل ، على ألسنة كثير من شعراء العصر الأول كبشار وأبى العتاهية . وبعدها كان اقتباس بعض المعانى الفلسفية لشيوع العلوم القديمة بين المسلمين بعد ترجمتها منذ

عهد المنصور إلى عهد المأمون . وقد ظهر هذا الاقتباس على ألسنة بعض شعراء العصر الثانى كابن الرومى

ولما جاء العصر الثالث وفاضت فيه العلوم الفلسفية فيضاً ، اغترف الشعراء منها اغترافا ظهر غزيرا على لسان أوائلهم ، ثم زاد غزارة وعمقاً بعقلية أواخرهم . ولكن هذا المعين بعد فى العصر الرابع على الشعراء فعجزوا عن الامتياح ، ومن حاول منهم السقيا على طول الرشاء أبعد التفكير ووقع فى الخفاء .

وهذى بعض أمثلة لمن ذكرنا من الشعراء

قال بشار فى الحكم القريبة من وحى الفطرة

إذا كنت فى كل الأمور معاتيا ... صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فإنه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه؟
ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقال فى فلسفة الحيرة وكان من أصحابها

طبعت على ما فى غير مخير ... هوايَ ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد ... وقصر علمى أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر ... وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا

وقال أبو العتاهية وكانت فلسفته فى الزهد والدين — وله فى ذلك الأرجوزة التى قلنا آنفا إن بها أربعة آلاف مثل — يعظ ويذكر

يا عجبا للناس ، لو فكروا ... وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها ... فانما الدنيا لهم معبر
الخير مما ليس يخفى هو الـ ... معروف والشر هو المنكر
والموعد الموت وما بعده الـ ... حشر فذاك الموعد الأكبر
لا فخر إلا فخر أهل التقى ... غدا إذا ضمهم المحشر
ليعلمن الناس أن التقى ... والبر كانا خير ما يذخر

عجبت للانسان فى فخره وهو غدا فى قبره يقبر
ما بال من أول نطفـــة وجيفة آخرة يفخر
أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر
وأصبح الأمر إلى غيره فى كل ما يقضى وما يقدر

وقال ابن الرومى فى الحيرة بين حب المال والخوف من طلبه :

أذاقتنى الأسفار ما كره الغنى إلى وأغرانى برفض المطالب
فأصبحت فى الأثراء أزهد زاهد وإن كنت فى الأثراء أرغب راغب
حريصاً جباناً أشتهى ثم أنتهى بلحظى جناب الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فانه فقير أتاه الفقر من كل جانب
تنازعنى رغب ورهب كلاهما قوى وأعيانى اطلاع المغايب
فقدمت رجلا رغبة فى رغيبة وأخرت رجلا رهبة للمعاطب
أخاف على نفسى وأرجو مفازها وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ومن أين والغايات بعد المذاهب
وصبرى على الأقتار أيسر محملا على من التغرير بعد التجارب

وقال أيضاً وكان شغوفا بمخالفة المألوف فى فلسفته[1] يمدح الحقد ويحسنه .

وخير سجيات الرجال سجية توفيك ما تسدى من القرض بالقرض
ولا عيب أن تجزى القروض بمثلها بل العيب أن تدان دينا ولا تقضى
ولولا الحقود المستكنات لم يكن لينقض وترا آخر الدهر ذو نقض
وما الحقد إلا توأم الشكر فى الفتى وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
فحيث ترى حقداً على ذى إساءة فثم ترى شكرا على حسن القرض

---

(١) يدل على تأصل هذه الهوية فى نفسه قوله .

فى زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول هذا مجاج النحل تمدحه وإن ذممت فقل قىء الزنابير
مدحا وذما وما جاوزت وصفهما حسن البيان يرى الظلماء كالنور

٢ — الأبداع فى التصوير والإغراب فى الخيال — كانت هذه الناحية أظهر النواحى فى شعر العصر العباسى منذ أن بدأ إلى أن زال ، ذلك بأنه ورث إذ بدأ حضارة فارسية ضاربة فى القدم إلى عهد سحيق ، وفيها من آثار الخيالات الواسعة والتصاوير البارعة ، ومن صناعات الأيدى الصناع ذات المهارة والنقش الشىء الكثير ، هذا إلى ما جادت به طبيعة تلك البلاد من مناظر ذات بهجة وسحر ، فكان شعراء بغداد حيث تلفتوا وجدوا منابع الخيال على بعد قرارها أجرى من السلسال وأصفى من الزلال ، ولذلك جروا فى ميدانه وطاروا فى سمائه إلى مدى بعيد أنتج من التصاوير الهائلة والخيالات المبدعة ما جاء فتنة للناظرين ، وصار لمن خلفهم من الشعراء بعد انتشار الآداب فى الحواضر والأمصار ، المأخذ ومحل المحاكاة حتى فى مصر والشام وغيرهما من سائر الأقاليم مع الاحتفاظ لكل إقليم بسمة حضارته وطبيعة أرضه إلى حد ما . وإليك بعض ما كان لهؤلاء وهؤلاء من آثار نفيسة مشكورة فى هذا الباب بعد أن نشير إلى ما برز منه فى النماذج قبل .

رأيت فيما رأيت وصف بشار لحبيبته وكيف أبدع فى تشبيهات محاسنها ، ووصف أبى نواس سلاف الشهد ونحله كيف انسجم فيه التصوير وتسلسل الخيال ، ووصف البحترى خروج المتوكل فى عيد فطر للصلاة وكيف اشتق من شعائر الدين عن طريق الخيال ما خلع على الموكب جلالا ليس بعده جلال ، ووصف ابن المعتز الخمر وساقيها ومجلسها والخروج لصيد شوائها ، وتحيله فى وصف الكأس والبذل والاستهتار بالشراب ، وفى السلوقية كيف تصيد وفى طرائف السقاة ونشوة الشاربين ، ثم فى مجلس الشراب أرضه وسمائه وحيطانه واصطخاب العيدان فيه . ووصف السرى الرفاء لصديقه المصلوب وما تضمن من خيال جديد ، ووصف التهامى للثغر والطيف ومظاهر الليل فى ثباته أولا وفى انهزام أدهمه أمام أشقر الفجر ثانيا ،

إلى آخر ما أغرب من خيال ، ووصف صردر لمداد دواته وقد بدأ يعلوه المشيب وما اندفع إليه من وصف القلم والقراطيس ، ووصف ابن التعاويذى غلمان الناصر الأتراك وصفاً عقد فيه بين فتنة الجمال وجرأة الأقدام . إلى غير هذه من مظاهر الحضارة المختلفة الألوان . على أنه لا يفوتنا التنويه بتعرض الطغرائى لمظهر بدوى دفعه إليه ذكر القديم والحنين إلى ديار الأعراب ، هو وصفه هاجرة بدأ فيها مع صحبه رحلة جاوزتها إلى الليل فاستغرقته الى السحر حيث وردوا غديرا اشتبه ماؤه على عيسهم بضوء الفجر المنبعث عليهم من الشرق ، الى غير ذلك مما بلغ فى تصويره حداً نرى من الظلم له التعرض لوصفه دون ذكره ، فلترجع اليه هناك ولنعد نحن الى ما وعدنا به من خيال وتشبيه بعد الإشارة الى هذه الأوصاف .

قال بشار يشبه فؤاد المضطرب وعين المسهد الخائف .

كأن فؤاده كرة ترامى ... حذار البين لو نفع الحذار
يروعه السرار بكل شىء ... مخافة أن يكون به السرار(١)
أقول وليلتى تزداد طولا ... أما الليل بعدهم نهار
جفت عينى عن التغميض حتى ... كأن جفونها عنها قصار

وقال فى نوع شرابه ومحاسن محبوبته .

أيها الساقيان صبا شرابى ... واسقيانى من ريق ثغر برود
إن دائى الصدى وإن شفائى ... شربة من رضاب بيضاء رود(٢)
عندها الصبر عن لقائى وعندى ... زفرات يأكلن قلب الجليد
ولها مبسم كغر الأقاحى ... وحديث كالوشى وشى البرود
نزلت فى السواد من حبة القـ ... ـلب ونالت زيادة المستزيد

---

(١) المسارة مصدر ساره يساره سرارا ومسارة . (٢) متمهلة لينة

ثم قالت نلقاك بعـــد ليال والليـالى يملين كل جديد
لا أبالى من ضن عنى بوصل إن قضى الله منك لى يوم جود

وقال فى تشبيه العظام بالخيزران وهو جديد :

ودعجاء المحاجر[1] من معد كأن حديثها ثمر الجنان
إذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران

وقال فى معنى بدوى زاده قوة وأسرا :

ويوم كتنور الأماء سجرته وأوقدن فيه الجزل حتى تضرما
رميت بنفسى فى أجيج سمومه وبالعيس حتى بض منخرها دما

وقال أبو نواس فى نواح من تشبيهات الخمر :

فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة فى كف جارية كمشوقة القد
تسقيك من طرفها خمرا ومن يدها خمرا فما لك من سكرين من بد
كأساً إذا انحدرت فى حلق شاربها رأيت حمرتها فى العين والخد

وقال إسحاق بن ابراهيم الموصلى فى غزو محاسن محبوبته إياه :

غزتنى بجيش من محاسن وجهها فعى لحاظى ليدفع عن قلبى
فلما التقى الجيشان أقبل طرفها
يريد اغتصاب القلب قسرا على الحرب
ولما تجارحنا بأسياف لحظنا
جعلت فؤادى فى يديها على العضب
وناديت من وقع الأسنة والقنا
على كبدى ياصاح مالى وللحب
فصرت صريعاً للهوى وسط عسكر
قتيل عيون الغانيات بلا ذنب

وقال أبو تمام فى الغيث والسحاب :

سحاب إذا ألقت على خلفه الصبا يدا قالت الدنيا أتى قاتل المحل

---

(١) سوداء العين فى سعة .

إذا ما ارتدى بالبرق لم يزل الندا له تبعاً أو يرتدى الروض بالبقل
إذا انتشرت أعلامه حوله انطوت بطون الثرى منه وشيكا على حمل

وقال البحترى من وصف بركة المتوكل :

تنصب فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا
مثل الجواشن[1] مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها وريق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها

وقال فى لؤلؤ الثغر ولؤلؤ الحديث :

ولما التقينا واللوى موعد لنا تعجب رائى الدر منا ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وقال ابن الرومى فى خباز رقاق :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء[2] كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح[3] دائره فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

وقال فى صانع زلابية :

ومستقر على كرسيه تعب روحى الفداء له من منصب نصب
رأيته سحراً يقلى زلابيـــة فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجيناً من أنامله فيستحيل شبابيكا من الذهب

وقال ابن المعتز فى الخمر :

وأمطر الكأس ماء من أنامله فأنبت الدر فى أرض من الذهب
وسبح القوم لما أن رأوا عجبا نوراً من الماء فى نار من العنب

---

(١) الدروع ، جمع جوشن (٢) مستديرة مقورة (٣) تنبسط

وقال فى أثر النشوة :

وقد شربوا حتى كأن رءوسهم ... من اللين لم يخلق لهن عظام

وقال فى قيام الساقين على رءوس الندامى :

وكأن السقاة بين الندامى ... ألفات بين السطور قيام

وقال فى سيفه :

ولى صارم فيه المنايا كوامن ... فما ينتضى إلا لسفك دماء

ترى فوق متنيه الفرند[1] كأنه ... بقيـــة غيم رق دون سماء

وقال فى فرسه :

ولقد وطئت الغيث يحملنى ... طرف كلون الصبح حين وقد

وكأنه موج يسيل إذا ... أطلقته وإذا حبست جمد

وقال السرى الرفاء فى حدائق :

وحدائق يسبيك وشى بروده ... حتى تشبهها سبائب[2] عبقر

يجرى النسيم خلالها فكأنها ... غمست فضول ردائه فى عنبر

باتت قلوب المحل تخفق بينها ... بخفوق رايات السحاب الممطر

وقال أبو الفضل الميكالى فى شرار النار :

كأن الشرار على نارنا ... وقد راق منظرها كل عين

قراضة تبز إذا ما علا ... فأما هوت ففتات اللجين

وقال ابن بابك فى غدير تعتدل عليه الغصون وتميل :

وغدير ماء أفعمت أطرافه ... كالدمع لما ضاق عنه مجال

قمر الرياض إذا الغصون تعدلت ... وإذا الغصون تهدلت فهلال

وقال الصابى يصف يد كاتب :

وكم من يد بيضاء حازت جمالها ... يد لك لا تسود إلا من النقس[3]

إذا رقشت بيض الصحائف خلتها ... تطرز بالظلماء أردية الشمس

---

(١) ما يظهر على صفحتيه من تموجات .

(٢) جمع سبيبة وهى الشقة الرقيقة كالخمار (٣) المداد الأسود

٥ — المبالغة والتهويل : لعل أول ما حبب إلى شعراء العصر العباسى المبالغة والتهويل ، أن معظمهم كانوا من المولدين الراجعين فى نسبهم إلى أصل فارسى ، وللفرس ولع بالمبالغة والأغراق شديد . وإذ كانت هذه الفئة المولدة فى العصر العباسى الأول ذات شأن لدى الخلفاء ووزراء الفرس ورجالاتهم ذوى النفوذ ، فقد اكتسبوا رفعة جعلتهم القدوة أمام غيرهم من سائر الشعراء ، وانساق الجميع إلى هذه الظاهرة رغبة فى التحبب ، وأكثروا منها فى مدائحهم طمعاً فى ابتزاز المال . على أن هناك سبباً آخر لشيوع المبالغة والغلو بين طبقات الشعراء بعيدا عن تلك الطبيعة الفارسية وهذه الرغبة فى جذب المال ، هو تفتح أبواب المعانى واتساع مناحى التفكير ومسابقة الشعراء بعضهم بعضا فى هذا الميدان وطمع كل أن يكون المجلى فى تلك الحلبة أمام مناظريه ، فإن هذا الطمع لا بد يحدوه إلى الأتيان بجديد قلما تسعفه الحقائق الخالصة فيه فينزع عنها إلى ضروب المبالغات والتهويل . وإن نظرة إلى ما أسلفنا من نماذج لتريك هذه الظاهرة بادية للعيان وبخاصة كما ذكرنا فى المديح . فهذا مسلم قد رفع يزيد الشيبانى فى شجاعته إلى حيث شابه رسول الله ثم جعله عز الخلافة وعدة بنى العباس . وهذا أبو تمام فى رثائه ابن حميد الطوسى قد بالغ فى كثير من صفاته حتى جعل موته بين الطعن والضرب نصرا وحياة . وزاد عنه البحترى من شعراء العصر الثانى فى مدحه المتوكل على الله . وما كاد يحل العصر الثالث حتى صارت المبالغات أساسا للقول وارتفع بها شعراؤه إلى ما كان يمقت قبلا من غلو وإغراق ، ثم كان العصر الأخير أشد طغيانا وأكثر افتتانا فى هذا الباب كما ترى ذلك فى قصيدة الأبيوردى التى اخترناها نموذجا للفخر فيما اخترناه .

وإليك طائفة أخرى غير التى أشرنا إليها فى النماذج من المبالغات . قال بشار فى نحافته من أثر الحب .

سلبت عظامى لحمها فتركتها ... عوارى فى أجلادها تتكسر
وأخليت منها مخها فجعلتها ... أنابيب فى أجوافها الريح تصفر

خذى بيدى ثم ارفعى الثوب فانظرى ... غنى جسدى لكننى أتستر
وليس الذى يجرى من العين ماؤها ... ولكنها نفس تذوب فتقطر

وقال أبو نواس من مدح الرشيد .

ملك تصور فى القلوب مثاله ... فكأنه لم يخل منه مكان
ما تنطوى عنه القلوب بنجوة ... إلا يحدثه بها اللحظان (١) ،
حتى الذى فى الرحم لم يك صورة ... لفؤاده من خوفه خفقان

وقال منصور النمرى من مدحه أيضاً .

خليفة الله إن الجود أودية ... أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت امرأ فالله رافعه ... ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصما ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن أخلف القطر لم تخلف مخايله ... أوضاق أمر ذكرناه فيتسع

وقال ابن الرومى من هجائه ابن يوسف .

لو أن قصرك يا بن يوسف كله ... إبر يضيق بها فناء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ... ليخيط قد قميصه لم تفعل

وقال إبراهيم بن سيار النظام .

توهمه طرفى فآلم خده ... فصار مكان الوهم من نظرى أثر (٢)
وصافحه كفى فآلم كفه ... فمن صفح كفى فى أنامله عقر
ومر بفكرى خاطرا فجرحته ... ولم أر خلقا قط يجرحه الفكر

وقال ابن دريد يخاطب الدهر ويعلو عليه .

مارست من لوهوت الأفلاك من ... جوانب الجو عليه ماشكا
ولو حمى المقدور منه مهجة ... لرامها أو يستبيح ما حمى
تغدو المنايا طائعات أمره ... ترضى الذى يرضى وتأبى ما أبى

---

(١) مصدر كاللحظ . (٢) بتسكين الثاء .

٦ — تمحيص الأفكار وترتيب العناصر — أظنني فى غير حاجة أن أعلل هذه الظاهرة الآن ، لأن أسبابها أوضح من أن ينبه عليها . على أن أجمل هذه الأسباب فى أن الشعراء العباسيين أصبحوا ينزعون فى الفطرة الشعرية لا عن تلك الفطرة وحدها كما كان أسلافهم ، بل عنها ممزوجة بثقافة تجمع إلى مسائل الأدب والعلم والفلسفة وغيرها مما يوسع العقل والفكر ، فنون حضارة وارفة الظلال تنمى الذوق وترقى الأحساس بالجمال . ولذلك كانوا يمحصون أفكارهم وينظمون عناصر أقوالهم ثم يبرزونها فى ثوب ذى جمال خلاب كما سبق ذلك بناحيتيه ظاهرا فى النماذج أتم ظهور .

فقصيدة العباس بن الأحنف قصة غزلية محكمة النسج قوية الأداء . وقصيدة أبى نواس أجمع وصف يتناول صنع خمر الشهد منذ خرج النحل يتغذى لخلاياها إلى أن غادرت الدنان بعد حقب إلى آفاق السراء . وقصيدة ابن المعتز وصف يحكى العيان فى الدعوة إلى الخمر والصيد لها والجلوس عقب ذلك فى مجلس شرابها . وقصيدة ابن نباتة حكاية زورة ليلة لحبيب ، ذات تسلسل وانسجام . وقصيدة الطغرائى أحسن ما يصف به واصف رحلة بدوية فى هاجرة نهار وظلام ليل ، ترد بعدها الأبل غديرا فى منبلج الصباح .

ولقد حملت هذه الظاهرة شعراء العباسيين أن يبرعوا البراعة كلها فى ابتداء القصيدة ، وفى الانتقال خلالها من المطلع إلى ماهو الغرض المقصود فيها ، ثم فى إنهائها ، إلى درجة حملت رجال البلاغة على تدوين هذه المحاسن الثلاثة فى البديع باسم حسن الابتداء وحسن الانتقال وحسن الانتهاء . ومن الأول تفرعت براعة الاستهلال .

فحسن الابتداء ويسمى براعة المطلع أن يتخير الشاعر لمطلع قصيدته المعانى الصحيحة الملائمة ، والألفاظ الرشيقة العذبة ، ويتحرز مما يتطير منه من المعانى وما يستكره ويجفى من الألفاظ ، لأن المطلع أول ما يقرع السمع فيسترعى الآذان أو تمجه الآذان . فإذا أضاف إلى هذا الحسن

جعل أول بيت من القصيدة مشعرا بالغرض منها فى إشارة لطيفة فقد ضم إلى براعة المطلع براعة أخرى هى براعة الاستهلال وضمن بهذين حسن التقبل والأصغاء .

فمن محاسن الابتداء قول أبى نواس .

لمن دمن تزداد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم

وقول البحترى .

بودى لو يهوى العذول ويعشق ليعلم أسباب الهوى كيف تعلق

وقول صريع الغوانى .

أجررت ذيل خليع فى الهوى غزل وشمرت هم العذال فى عذلى

وقول النهامى .

حازك البين حين أصبحت بدرا إن للبدر فى التنقل عذرا

ومما ضم إلى براعة المطلع براعة الاستهلال قول أبى تمام فى الرثاء .

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وبراعة المقطع وتسمى حسن التخلص هى الانتقال مما بنى عليه مطلع القصيدة من نسيب أو غيره إلى الغرض الأصيل ، على معبر من قوة الاتصال بين المعنيين فى دقة لطف وحسن وئام ، كقول مسلم فى يحيى وابنه جعفر .

أجدك هل تدرين كم رب ليلة كأن دجاها من قرونك تنشر

لهوت بها حتى تجلت بغرة كغرة يحيى حين يمدح جعفر

وكقول البحترى فى الفتح بن خاقان .

رياض تردت بالنبات مجودة بكل جديد الماء عذب الموارد

إذا راواحتها مزنة بكرت لها شآبيب مجتاز عليها وقاصد

كأن يد الفتح بن خاقان أقبلت عليها بتلك البارقات الرواعد

وبراعة الختام وتسمى الانتهاء هى أن تختم القصيدة بما يشعر بالانتهاء

فهى فى النهاية نظير براعة الاستهلال فى الابتداء ، وهى آخر ما يعى السمع ويرتسم فى النفس كقول الأرجانى .

علاك سوار والممالك معصم وجودك طوق والبرية جيد

وكقول الغزى .

بقيت بقاء الدهر ماذر شارق وغارد جديد المكرمات وأنجدا

هذا وقد كانت عناية الشعراء قبل العصر العباسى بهذه البراعات قليلة وما كان عليهم فى إغفالها من عاب . أما فى العصر العباسى فقد عنوا بها أتم عناية ولذلك كان من المآخذ عليهم إغفالها ، وكان من المآخذ الشديدة أن يأتوا فيها بما يعاب[1] .

---

(١) ظهر عيب المولدين أكثر ما ظهر فى المطلع والانتقال دون الانتهاء . . .

فمن سوء المطلع ما كان من إسحق الموصلى إذ دخل على المعتصم وقد فرغ من بناء قصر فأنشده :

يا دار غيرك البلى ومحاك يا ليت شعرى ما الذى أبلاك

فتطير المعتصم وأمر بهدم القصر :

ومن الانتقال المقتضب قول البحترى :

وهوى تجـــدده الليالى كلما قدمت وترجعه السنون فيرجع

يأيها الملك الذى سقت الورى من راحتيه غمامة ما تقلع

ومن سوء المطلع وقبح الانتقال ماكان من أبى نواس إذ دخل على الفضل البرمكى فأنشده مبتدئاً .

أربع البلى إن الخشوع لبادى عليه وإنى لم أخنك ودادى

ثم انتقل إلى مدح البرامكة بقوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بنى برمك من رائحين وغادى

٣ — ناحية الألفاظ والأساليب

لقد كان نصيب الشعر فى العصر العباسى من الدقة فى انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة الممثلة للمعنى أتم تمثيل ، ومن التأنق فى صوغ العبارات المحكمة الرائعة المفهمة للغرض فى أحكام وقوة أداء ، أوفر من نصيب النثر ، ذلك لأن الشعر مجال الأناقة والظرف ، ولغة الحسن والجمال ومأخذ الغناء والأصوات ، وكل ذلك يستدعى عذوبة تنسجم مع وجدان الشاعر ، ويطلب خفة تطير مع خياله ، كما يطلب نغما يتسق وموسيقية الوزن وجرس القافية ، إلى غير ذلك مما لا وجود له فى نفس الناثر ولا مطلب له فى القول المنثور.

غير أن الشعراء فى هذا العصر قد وقع منهم فى ناحية الألفاظ والأساليب ما لم يكن من زملائهم السالفين ومن ثم وسمهم العلماء باسم المولدين أو المحدثين[1] وضنوا عليهم أن يكون كلامهم موطن حجة واستشهاد .

فكان ذلك منه عجباً وهو البارع فى البراعات يجمعها فى قصائده جمعا ، كما فعل فى قصيدته إذ عزم على الرحلة من بغداد إلى مصر لمدح الخصيب فقد تحدث عن زوجته فى مبدئها فقال :

تقول التى من بيتها خف محملى عزيز علينا أن نراك تسير

وتخلص من المدح بقوله مخاطباً لها .

ذرينى أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير

ثم ختمها بقوله مخاطباً الممدوح .

فإن تولنى منك الجميل فأهله وإلا فانى عاذر وشكور

(١) المولد لغة اسم لكل من نشأ غير خالص العروبة مقرفا كان أم هجينا ، ولكن المولدين أطلقوا فى اصطلاح الأدب على الشعراء الذين نشئوا فى العصر العباسى ولو كانوا عرباً خلصاً دون من سبقوهم ولو كانوا غير خالصى العروبة ، كما أطلق عليهم كذلك اسم المحدثين أى الذين حدثوا بعد الأصيلين .

١ — فهم قد تصرفوا فى بعض الكلمات العربية تصرفا أخرجها عن معانيها القديمة إلى معان لم تك معروفة للعرب ، ثم كانوا كثيراً ما يشتقون منها بعد هذا الإخراج إلى المعنى الجديد ما هو منه كما فعلوا فى كلمة « قصف » وأصل معناها كسر الغصن الصغير ، فأنهم أطلقوها على اللهو كما قال أبو نواس :

لا يصرفنك عن قصف وإصباء بجموع رأى ولا تشتيت أهواء

وكما قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد أراد الخروج عن بغداد إلى اليمن لولاية :

أيرحل آلف ويقيم إلف وتحيا لوعة ويموت قصف

على بغداد دار اللهو منى سلام ما سجا للعين طرف

ثم استعملوا منها على هذا المعنى كل أنواع المشتقات (١) .

٢ — وهم قد استعملوا كثيراً من الألفاظ المعربة ولعل كثيراً منها كان من تعريبهم أنفسهم ، وأمثلة هذا كثيرة جداً ، منها لفظ آذريون معرب آذركون أى لون النار ، لورد أحمر الورق أو أصفره مع سواد الوسط فيهما ، ولذلك يشبه الأحمر منه بكأس عقيق فيه مسك كقول عبد الله بن المعتز .

---

(١) أشار إلى المعنيين فى العصر المغولى عفيف الدين التلمسانى حيث يقول .

تبسم زهر البان عن طيب نشره وأقبل فى حسن يجل عن الوصف

هلموا إليه بين قصف ولذة فان غصون البان تصلح للقصف

وطاف بها ساق أديب بمنزل كخنجر عيار صناعته الفتك
وحمل آذريونه فوق أذنه ككأس عقيق فى قرارتها مسك

كما يشبه الأصفر بمدهن ذهب فيه غالية ، وهى أخلاط طيب سوداء كقوله أيضا

سقيا لروضات لنا من كل نور حاليه
عيون آذريونها والشمس فيه كاليه[1]
مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه

والألفاظ المعربة أكثر من أن تحصى — وقد ذكرنا منها طائفة كبيرة فى التعريب قبل .

٣ — وهم قد نقلوا بعض الألفاظ الأعجمية على حالها من غير تعريب تظرفاً وتملحاً ، كلفظى آب سرد بمعنى الماء البارد فى قول العمانى

لما هوى بين غياض الأسد وصار فى كف المزبر الورد
آل يذوق الدهر آب سرد

وكلفظة ير للكأس الملأى فى قول إبراهيم الموصلى

إذا ما كنت يوماً فى شداه[2] فقل للعبد يسقى القوم يرا
فإن السقى مكرمة ومجـــد ومدفأة إذا ما خفت قرا

وقد ذاع استعمال كلمتى نيروز معرب نوروز ومهرجان منقولة كماهى ، على ألسنة جمهرة الشعراء ولاسيما فى البيئات الفارسية [3]

---

(١) ناظرة ، من كلأ بصره فى الشىء ردده فيه .

(٢) كغراب تبلبل فكر .

(٣) كلاهما عيد من أعياد الفرس ، فالنيروز ستة الأيام الأوائل من أول شهر سنتهم « أفرودين » ويوافق أول الربيع وهم يزعمون أنه أول

قال عبد الصمد بن بابك يمدح الصاحب بن عباد

لقد نشر النيروز وشيا على الربا ... من النور لم تظفر به كف راقم
كأن ابن عباد سقى المزن نشره ... فجاد برشاش من الوبل ساجم

وقال أيضاً يمدح فخر الدولة بن بويه ويهنئه بالمهرجان

أيا شاهنشاه صل الأمانى ... بتجديد البشائر والتهانى
فقد حزت السعود وجاء يحدو ... سبوت الدهر سبت المهرجان

٤ — ثم هم قد استخدموا كثيرا من ألفاظ العلوم والفنون والصناعات ومصطلحاتها . قال أبو الفتح البستى

عزلت ولم أذنب ولم أك جانيا ... وهذا لأنصاف الوزير خلاف
حذفت وغيرى مثبت فى مكانه ... كأنى نون الجمع حين يضاف

وقال الصابى فى سابور وزير بهاء الدولة وكان قد صرف عن الوزارة ثم أعيد إليها

قد كنت طلقت الوزارة بعدما ... زلت بها قدم وساء صنيعها
فغدت بغيرك تستحل ضرورة ... كيما يحل إلى ثراك رجوعها
فالآن قد عادت وآلت حلفة ... ألا يبيت سواك وهو ضجيعها

وقال عبد الوهاب بن محمد البغدادى المتوفى بمصر سنة ٤٢٢

الزمان الذى ابتدأ الفلك فيه الدوران، ويسمون اليوم السادس منها النيروز الكبير ، لأن الأكاسرة كانوا ينصرفون فيه إلى مجالس أنسهم مع ظرفاء خواصهم بعد جلوسهم لرد المظالم فى أيامه الخمسة الأولى . والمهرجان سته الأيام الأوائل كذلك من أول شهرهم السادس « مهرماه » ويوافق أول الخريف ويسمى آخرها أيضاً المهرجان الكبير . فالنيروز استقبال الربيع والمهرجان استقبال الخريف وهما أعدل فصول السنة ومن ثم وقعت بينهما المناظرات .

ونائمة قبلتهـــا فتنبهت وقالت تعالوا فاطلبوا اللص بالحد
فقلت لها إنى فديتك غاصب وماحكموا فى غاصب بسوى الرد

وقال ابن الرومى

ما عذر معتذلى موسر منعت كفاه معتزليا معسرا صـــفدا
أيزعم القدر المحتوم ثبطـــه إن قال ذاك فقد حل الذى عقدا

وقال أبو نصر أحمد بن يوسف المتوفى سنة ٤٥٣

ولى غلام طـــال فى دقة كخط إقليدس لا عرض له
وقد تناهى عقـــله خفة فصار كالنقطة لا جزء له

وقال أبو الحسن بن أبى الغنائم المتوفى سنة ٥٦٠

تعس الزمان فللغرام قضية ليست على نهج الحجا تنقاد
منها بقاء الشوق وهو بزعمهم عرض وتفنى دونه الأجساد

٥ — ولم يتحرز شعراء هذا العصر وقد ابتذلوا الشعر بألفاظ العلوم ومصطلحاتها ، أن يجعلوا منه لغة تأليفية فى كثير من العلوم والفنون من نحو وفقة وتاريخ وطب وغيرها مما ألفوا فيه منظومات يسهل على الناشئين حفظها وتحصيل مسائل العلوم بتعليقها وهذه ظاهرة بدت منذ نظم أبان كليلة ودمنة واستمرت تتزايد وتنمو حتى بلغت مبلغها فى نهاية العصر ، ومن مثلها فى تلك النهاية ملحة الإعراب للحريرى وقد سبقت الإشارة إليها.

٦ — هذا وقد انحدر الشعراء إلى استعمال كثير من ألفاظ السخف والبذاء وعبارات الخلاعة والمجانة كما اتضح ذلك آنفاً حيث الكلام على الأغراض التى تستدعيه كالهجاء والغزل والمجون .

٧ — على أنهم قد أحسنوا الإحسان كله فى استخدام ألفاظ التشبيه والمجاز والكناية مما رأيته حيث القول على الإبداع فى التصوير والأغراب فى الخيال من الكلام على المعانى والأخيلة قبل .

٨ — ثم أكثروا من محسنات البديع على اختلاف أنواعها وبخاصة الجناس ، وسنكتفى بالتمثيل له لأنه أظهر المحسنات فى اللفظ والأسلوب وأكثرها أنواعا .

فمن الجناس المماثل وهو المتفق اسمية وفعلية قول ابن الرومى وكان مولعا بالجوارى السود .

للسود فى السود آثار تركن بها ... وقعا من البيض يثنى أعين البيض (١)

ومن المستوفى وهو المختلف اسمية وفعلية قول البستى :

فقال لى دعنى ولا تؤذنى ... إلى متى أجرى بلا أجر

ومن المركب وهو المتفق لفظا وخطا قول أبى الفضل الميكالى .

تفرق الناس فى أرزاقهم فرقا ... فلابس من ثراء المال أو عار

كذا المعايش فى الدنيا وساكنها ... مقسومة بين أدماث وأوعار

من ظن بالله جوراً فى قضيته ... افتر عن مأثم فى الدين أو عار

ومن المفروق وهو المتفق لفظا لا خطا قول البستى .

كم من أخ قد هدمت أخلاقه ... فى آخر ما قد بنى فى أول

يرمى سهاما إن أسر المقت لى ... بالكيد لا يقصدن غير المقتل

ومن المطرف وهو المختلف بزيادة حرف قول البحترى .

فان صدفت عنا فربت أنفس ... صوادإلى تلك الوجوه الصوادف

ومن المذيل وهو المختلف بأكثر من حرف قول بعض العباسيين .

فيالك من حزم وعزم طواهما ... جديدالردى تحت الصفاوالصفائح

ومن المشتق وهو ما يرجع إلى أصل واحد قول أبى تمام .

وأنجدتم من بعد اتهام داركم ... فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد

ومن المطلق وهو ما لا يرجع إلى أصل واحد قول أبى نواس .

فما السلاف ازهدتنى بل سوالفه ... ولا الشمول دهتنى بل شمائله

ومن المضارع وهو ما اختلف بحرف مقارب المخرج قول الرضى .

لا يذكر الرمل إلاحن مغترب ... له إلى الرمل أوطار وأوطان

---

(١) السود الأولى جمع سوداء للجارية والثانية جمع سواد القلب ، والبيض الأولى جمع أبيض للسيف والثانية جمع بيضاء للمرأة .

ومن اللاحق وهو ما لا تقارب فى حرفيه قول البحترى .

لست عن ثروة بلغت مداها غير أنى امرؤ كفانى كفانى

ومن اللفظى وهو ما اختلف بحرف مقارب الخط قول الأرجانى :

وبيض الهند من وجدى هواز بإحدى البيض من عليا هوازن

ومن جناس العكس أى القلب قول ابن نباتة السعدى فى الأمير بهرام :

قيل كل القلوب من رهب الحب تضطرب

قلت هـذا تخرص قلب بهرام مارهب

والقول فى الجناس يطول .

٩ — وقد حلا لكثير من الشعراء فى هذا العصر أن يودعوا أشعارهم تصرفات لفظية تدل على تملكهم زمام الصناعة إلى حد كبير ومن أعلامهم فى ذلك ، الحريرى الذى تعدى بتلاعبه فى هذا ، ميدان النثر إلى الشعر فأتى بالعجب العجاب .

قال من مقطعة عاطلة الأبيات :

أعدد لحسادك حد السلاح وأورد الآمل ورد السماح

وقال من أخرى حاليتها :

شغفتنى بجفن ظبى غضيض غنج يقتضى تغيض جفنى

وقال من ثالثة إحدى كلماتها مهملة والأخرى معجمة .

اسمح فبث السماح زين ولا تخب آملا تضيف

وقال من رابعة خطية الجناس .

زينب زينت بقد يقد وتلاه ويلاه نهد يهد

وقال من خامسة مطرفته .

سم سمة تحسن آثارها واشكر لمن أعطى ولو سمسمه

وهكذا مما جاوز فنون البديع المعروفة على كثرتها إلى ماعداها ابتكارا واختراعا .

١٠ — وبما ظهر واضح الأثر بألفاظ الشعر وأساليبه فى العصر العباسى ما اخترع فى أوزانه وقوافيه ، وهذى كلمة عما جد فى كل منهما .

الأوزان — حصر الخليل بن أحمد أوزان الشعر التى نظم عليها العرب فى خمسة عشر بحراً معروفة ، وأجهد تلميذه الأخفش نفسه أن يجد غيرها فلم يظفر إلا ببحر واحد سماه المتدارك لأنه تدارك به على الخليل .

وقد أثبت الاستقراء أن كل ما قيل من الشعر إلى آخر العهد الأموى لا يخرج بحال عن هذه البحور . وبالرغم من أن جمهرة الشعراء فى العصر العباسى وبعده بقوا ينظمون عليها ، فقد نظم بعض المولدين على أوزان غيرها جرياً وراء الأنغام الموسيقية الجديدة التى نقلتها إليهم الحضارات المختلفه ، أو رغبة فى عدم التقيد بالقديم وولوعا باختراع جديد فى الأوزان كما اخترعوا فى كل شىء للشعر غيرها .

وقد جاء هذا الجديد نوعين :

أحدهما الأوزان المأخوذة من البحور بالقلب أو التحريف .

فمما جاء بالقلب ، المستطيل مقلوب الطويل وأجزاؤه « مفاعيلن فعولن » أربع مرات مثل .

لقد هاج اشتياقى غرير الطرف أحور
أدير الصدغ منه على مسك وعنبر

والمتئد مقلوب المجتث من غير جزء أى « فاعلاتن مستفع لن » مرتين مثل .

كن لأخلاق التصابى مستمريا ولأحوال الشباب مستحليا

وقد يقع القلب فى تفاعيل البحر الواحد على صوتين تأخذ كل صورة اسما ، كما حدث فى المضارع وأجزاؤه « مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن » مرتين فقد أخرت فيه فاع لاتن من غير جزء باسم المنسرد مثل :

على العقل فعول فى كل شأن ودانى كل من شئت أن تدانى

وقدمت باسم المطرد كذلك مثل :

ما على مستهام ربع بالصد ؟ فاشتكى ثم أبكانى من الوجد

ومما جاء بالتحريف المتوافر المأخوذ من بحر الرمل وهو «فاعلاتن» ست مرات فإنه أبدل بنونها الساكنة كافاً متحركة وحذف من تفعيلتى الضرب والعروض السبب فصـــار وزنه « فاعلاتك فاعلاتك فاعلن » مرتين مثل :

ما وقوفك بالركائب فى الطلل ما سؤالك عن حبيبك قد رحل

والثانى ما جاء على أوزان غير أوزان البحور وهو فنون سبعة ، ثلاثة لا يجوز فيها اللحن مطلقاً وهى الدوبيت والسلسلة ثم الموشح ، وثلاثة ملحونة دائماً وهى الزجل والكان كان ثم القوما ، وواحد كالبرزخ بين هذه وتلك يكون معرباً وملحوناً على ألا يجتمع الأعراب واللحن فى دور واحد منه وهو المواليا .

فالدوبيت أصله فارسى يأتى بيتين بيتين ومعنى دو اثنان وهو يسمى الرباعى أيضاً لأن فى البيتين أربعة أشطر ، وقد اقتبسه البغداديون ونظموا منه على أوزان أشهرها « فعلن متفاعلن فعولن فعلن » مرتين مثل :

إن جئت ربا الحمى ولاحت نجد فاذكر ولهى وما جناه البعد

قد كنت أقاسى الصد حتى رحلوا يا ليتهم عادوا وعاد الصـــد

والسلسلة من مخترعات البغداديين ووزنه « فعلن فعلاتن متفعلن فعلاتان » مرتين ومنه :

يا معتدل القد إن صبرى قد بان والدمع لخافى الغرام أظهر إذ بان

جددت شجونى وقد كحلت جفونى بالسهد فبينى وبين نومى شتان

والموشح نشأ أول ما نشأ بالأندلس ومنها انتقل إلى المشرق فى عصر بنى بويه ، وهو ذو أوزان كثيرة منها « مستفعلن فاعلن فعيل » مرتين مثل .

يا جيرة الأبرق اليمانى وهل إلى وصلكم سبيل

والزجل نظم العوام بالعامية على منوال الموشح ،وليس فى هذه الفنون أكثر أوزاناً منه على أنه لا ضابط لأوزانه ومنه :

الفراق نار والوصال جنه والخلائق بعضهم يعشق
ولهيب الهجر يتوقـد والوصال م الملاح يشتق

وقد تقصر أشطاره الثانية عن الأولى مثل :

عن محرم شرابنا صمنا ونفطر بالثمـار
حين وجدنا سفر جل البستان يذهب ل صفرار

والـكان كان نظم اخترعه أهل بغداد واستعملوه فى النصيحة والوعظ بحكاية كان وكان ، ولذلك أخذ هذه التسمية ووزنه واحد مستفعلن فاعلاتن مستفعلن فاعلن وشطره الأول دائماً أطول من الثانى ، ومنه قول بعضهم :

يا قاسى القلب مالك تسمع وما عندك خبر
ومن حرارة وعظى قد لانت الأحجار
أفنيت مالك وحالك فى كل مالا ينفعك
ليتك على ذى الحال تقلع عن الأصرار

والقوما نظم اخترعه البغداديون أيضاً ليغنوا به الناس فى رمضان كى يقوموا للسحور ، ومنه قول بعضهم :

يا من جنابه شـديد ولطف رأيه سديد
ما زال برك يزيد على أقل العبيـد

٧ — أما المواليا فقد نشأ كما يقولون على لسان جارية للبرامكة كانت ترثيهم به وتقول يا مواليا وهو كما قلنا دون سائر الفنون المذكورة يأتى عامياً ويأتى صحيحاً . فمن عاميه قول بعضهم .

حلف على كجاره أن يقاطعنى وصد عنى وأقسم ما يطاوعنى
كم ذا يصد وكم يرجع صدعنى إن كنت آنا المطلق لا يراجعنى

ومن صحيحه قول آخر :

ياطاعن الخيل والأبطال قد غارت والمخصب الربع والأمواه قد غارت
هو اطل السحب من كفيك قد غارت والشهب مذ شاهدت أضواك قد غارت

القوافى التزمت العرب القافية فى القصيدة الواحدة كما التزمت فيها الوزن فلم يغيروا حرف القافية فى قصيدة مهما طالت بل لم يحيدوا عن نظم راعوها فى مجموع الحروف التى تشملها القافية بنهاية البيت — وهى من آخر حرف ساكن فيه إلى أول حرف متحرك قبل ساكن بينهما مع دخول هذا المتحرك فيها — وقد استمر ذلك مراعى إلى نهاية العصر الأموى كما كانت الحال فى الأوزان ثم أفلت الشعراء بعده من القافية كما أفلتوا من الوزن لأسباب قد تتحد مع بعض السابقة كالرغبة فى النزوع عن القديم إلى جديد ، وقد تختلف كالفرار من تضييق الحرف الواحد فى القافية لكل قصيدة إذ صار هذا من نصيب القافية وحدها ، كما كان تنويع الوزن للغناء من نصيب الأوزان . على أنهم فى هذا الخروج عن القافية الواحدة لم يوسعوا المجال كما وسعوه فى الأوزان فانحصر فيما يأتى : —

١ — المزدوج وهو ما اقتصرت فيه التقفية فى كل بيت على عروضه وضربه دون ما حولها فى الأبيات ، وأهم ما حمل القوم عليه إطالتهم الباسقة فى نظم قواعد العلوم والكتب وطوال المواعظ وغيرها وقد عرفت ما كان من نظم أبان بن عبد الحميد لكليلة ودمنة ، ووضع الحريرى ملحته فى قواعد الإعراب ، وكلاهما من المزدوج ولأبى العتاهية مزدوجة سماها ذات الحكم والأمثال اشتملت على أربعة آلاف مثل منها قوله :

لكل ما يؤذى وإن قل ألم ما أطول الليل على من لم ينم

ولبشر بن المعتمر مزدوجة فى فضل على كرم الله وجهه على الخوارج يقول فيها عنهم :

ما كان من أسلافهم أبو الحسن ولا ابن عباس ولا أهل السنن
غر مصابيح الدجى مناجب أولئك الأعلام لا الأعارب

وللصابى مزدوجة كتب بها إلى أبى الفرج الببغاء فى وصف الببغاء أولها :

ألفتها فصيحة مليحه ناطقة باللغة الفصيحة

وللببغاء رد عليه بمزدوجة أخرى يقول فيها :

تميزت فى الطير بالبيان عن كل مخلوق سوى الإنسان

ولابن المعتز مزدوجة فى الشراب يقول فيها :

لى صاحب قد لامنى وزادا فى تركى الصبوح ثم عادا

٢ — المشطر وهو أن تتحد القافية فى أشطار القصيدة أربعة أربعة أو أكثر فيسمى مربعاً أو مخمساً وهكذا، كقول بعضهم من مشطر مربع يتغزل:

جار عليه حاكم الغرام فدق أن يدرك بالأوهام

فلو أتاه طارق الحمام لم يره من شدة السقام

٣ — المسمط وهو أن يؤتى بأقسمه من قافية واحدة بعدها قسيم من قافية أخرى ثم يؤتى بمثل تلك الأقسمة عددا ووزناً من قافية أخرى وبعدها قسيم من قافية القسيم المذكور ووزنه وهكذا من المخالفة فى الأقسمة المتعددة والاتحاد فى القسيم المفرد، وقد تقدم التمثيل لذلك صفحة ٣٩ .

وقد يبتدأ ببيت مصرع غير الأقسمة يأتى على القسيم الملتزم مثل

توهمت من هند معالم أطلال

عفاهن طول الدهر فى الزمن الخالى

مرابع من هند خلت ومصايف يصيح بمغناها صدى وعوازف

وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف

بأسحم من نوء السماكين هطال

ومستلئم كشفت بالرمح ذيله أقمت بعضب ذى سفاسق[1] ميله

فجعت به فى ملتقى الخيل خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله

---

(١) طرائق جمع سفسفة بفتحتين أو كسرتين مع سكون الثانى وفتح الثالث

كأن على سربالة نضح جريال [١]

كما قد يبتدأ ببيت غير مصرع يلتزم مثله قافية وضربا بعد كل قسيم كقول ابن المعتز .

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

وندیم همت فى غرته وبشرب الراح مزراحته كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق إليه واتكا وسقانى أربعا فى أربع

مالعينى غشيت بالنظر أنكرت بعدك ضوء القمر وإذا ماشئت فاسمع خبرى

غشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى [٢]

---

(١) الجريال صبغ أحمر قيل هو العصفر ، وتعزى هذه الأبيات فى بعض الكتب إلى امرىء القيس وهى نسبة غير مسلم بها وغير متفقة مع طبيعة الأشياء .

(٢) بهذا الذى ذكرناه من تغير فى لفظ الشعر وأسلوبه نكون قد تناولنا كل ما عددناه من تغير حياة اللغة جملة فى ألفاظها وأساليبها بصفحتى ٣٨ ، ٣٩ ماعدا الشغف باستعمال ألفاظ القرآن ، والتوسع فى ألقاب التعظيم والتغالى فى الأطناب والإيجاز . لأن هذه الثلاثة كانت أظهر فى النثر منها فى الشعر وإن لم يخل بعض الشعر منها . فقد طالت القصيدة جدا فى العصر العباسى الثالث كما انتشرت الأبيات المفردة ، وكثرت فيه الألقاب على ما رأيت فى بعض ما مضى ، ثم وجد من الشعراء منذ العصر الأول من اقتبس ألفاظ القرآن كأبى العتاهية إذ يقول :

المرء آفته هوى الدنيا والمرء يطغى كلما استغنى

هـــذا

ومما تقدم عن الشعر نماذج وقولا فى تلك النواحى الثلاث ، يتبين القارىء فضل المولدين عليه وكثرة حسناتهم فيه ، كما لا يعدم أن يجد لهم فى كل ناحية بعض السيئات ، كنقل الأعجمى على حاله ، واستعمال ألفاظ السخف والبذاء ، وتعمل الصناعة اللفظية ، وغيرها فى الألفاظ والأساليب . وكتعمد الفلسفة إلى درجة الخفاء ، والتصوير إلى حد الأغراب ، والغلو فى المبالغات إلى قمة الأغراق ، وغيرها فى المعانى والأخيلة . وكعدم التعفف عن الغزل فى المذكر ، والانحدار فى الخمريات ، والأسفاف فى المجون ، وغيرها فى المقاصد والأغراض . على أن ذلك لا يبرر لنا التعصب عليهم تعصبا يعمينا عما لشعرهم من حسن وجمال أو يجعلنا ننكره مع معرفتنا بجودته كما كان يفعل فى الحالتين كثير من القدماء [1] ، فإن العقل يقضى بالعدل فى الحكم لهم وعليهم كالأقدمين سواء . وقد أنصفهم ابن قتيبة فى ذلك بعض الأنصاف [2] .

---

(١) من رجال الحالة الأولى أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ فقد كان يأنف أن يروى للشعراء الاسلاميين فضلا عن المحدثين وهو الذى جالسه الأصمعى حياة طويلة فما سمعه يحتج ببيت إسلامى وكذلك كان الأصمعى ، ولكنه كان يستحسن بعض الشعر الحديث . ومن رجال الحالة الثانية ابن الأعرابى المتوفى سنة ٢٣١ فقد روى عنه أنه عرضت عليه أرجوزة لأبى تمام على أنها لأحد شعراء العرب فنالت منه نهاية الاستحسان حتى قال « هذا هو الديباج الخسروانى » واستكتبها فلما أنهاها قيل له إنها لأبى تمام فلم يخجل أن قال « من أجل هذا أرى عليها أثر الكلفة » وألقى الورقة من يده وقال « خرق خرق يا غلام » .

(٢) كان ابن قتيبة يقدم القديم من ناحية الجزالة وسلامة العبارة ،

وبعد

فانا واجدون من الحتم ألا ننهى الكلام على الشعر بعد الذى أسلفنا عن نهضته من حيث المظاهر والأسباب فى تلك النواحى الثلاث دون أن نتعرض إجمالا لثلاث نواح أخرى تتصل بتلك النهضة . هى مواطن الشعر وطبقات رجاله ، والعوامل المساعدة لأسباب نهوضه ، ثم الغناء ومجالسه ، لاتصاله الوثيق بالشعر والشعراء .

١ — مواطن الشعر وطبقات رجاله

عرفت مما ذكرنا عن طابع كل عصر من العصور العباسية الأربعة فى حياة اللغة أن بغداد فى العصر الأول كانت محط الرحال وكعبة الآمال ومظهر العظمة والجلال ، لقوة الخلفاء فيه قوة تجعلهم مناط تحقيق الآمال ومفزع تفريج الكروب والآلام ، ولذلك تركز فيها كل شىء وقصدها ذوو الغايات من كل فن وفى مقدمتهم جمهرة الشعراء قصد توطن وإقامة لا زيادة وإياب ، ومن هنا كانت كل طبقاتهم من أهلها وإن كانوا فى النشأة والنسب متعددى الأوطان . وعرفت أنها بالرغم مما أصابها فى العصر الثانى بقيت مركز الأدب وعش الشعر ولكن فى تطامن وخضوع ، وقد ظهر من الشعراء فى العصرين ست طبقات ، أولاهما طبقة بشار من مخضرمى الدولتين وأشهر رجالها بشار وحماد عجرد ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وصالح ابن عبد القدوس وأبو دلامة والسيد الحميرى ومروان بن أبى حفصة ، ومن رجازها رؤبة بن العجاج . وثانيتها طبقة أبى نواس التى نشأت فى صدر

ولأنه مرجع النحوى فى الشواهد واللغوى فى معانى المفردات والتراكيب، ويقدم الحديث لعذوبة ألفاظه وحلاوة معانيه وشدة ارتباطه .

الدولة العباسية وأشهر رجالها أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع ابن عمرو السلمى وسلم بن عمرو الخاسر والحسين بن الضحاك والعباس بن الأحنف وأبان بن عبد الحميد وكلثوم بن عمرو العتابى وأبو الشيص محمد بن رزين، ومن رجازها عمارة بن عقيل . والثالثة طبقة أبى تمام التى نشأت فى آخر العصر الأول ومعظم رجالها أدراك العصر الثانى وأشهرهم أبو تمام ودعبل الخزاعى وديك الجن عبد السلام بن رغبان وعلى بن الجهم . والرابعة طبقة البحترى التى ظهرت شاعريتها فى أول العصر الثانى وأشهر شعرائها البحترى وابن الرومى وابن الزيات . والخامسة طبقه ابن المعتز فى وسط هذا العصر ومن شعرائها عبد الله بن المعتز وأبو الحسن على بن محمد البسامى البغدادى . أما السادسة فهى الناشئة فى آخره ومن شعرائها أبو القاسم نصر بن أحمد المعروف بالخبز أرزى وأبو بكر الحسن بن على المعروف بابن العلاف ، ومن الشواعر فى العصر الأول علية بنت المهدى ، ومنهن فى الثانى فضل جارية المتوكل على الله العباسى ، وكان منزلها مجتمع الأدباء . . .

وقد عرفت أيضاً أنها بدأت منذ العصر الثالث تفقد نفوذها وسطوتها لتفكك أوصال الدولة بإنشاء الدويلات المزاحمة لها بحواضرها فيما كانت به ذات استئثار ، فأخذ كل شىء يرحل عنها إلى تلك الحواضر حتى لم يبق لها إلا نصيب يسير ، وكان أن توزع الشعراء على الأقاليم أكثر مما توزع الأدباء والعلماء فصار لشعراء كل أقليم من المزايا والخواص ما لم يكن لغيرهم من سائر الشعراء .

وإنك بالرجوع إلى ما ذكرنا فى التصوير السياسى لهذا العصر تجدهم كانوا منضوين فى الممالك الشرقية لأمارات غير عربية كآل بويه بالعراق وفارس ، والسامانيين فيما وراء النهر ، والغزنويين بخراسان ، فى حين كانت الممالك الغربية عربية كالحمدانيين بالجزيرة والشام ، والفاطميين بمصر . ومن ثم نحكم بأن الشعر فى الممالك الغربية كان خيرا منه فى الشرقية ، كما نحكم بأنه

كان فى العراق وفارس خيرا منه فيما وراء النهر وخراسان كما كان فى الشام والجزيرة خيرا منه فى مصر ، وأنه كان فى الوسطين خيراً منه فى الطرفين . وإليك أسماء أشهرهم فى الممالك الشرقية على أيام آل بويه :—

فمن شعراء العراق وفارس، الصابى وتاج الدولة بن عضد الدولة البويهى وكثير غيره من آل بويه والوزير المهلبى أبو محمد الحسن بن محمد وابن دريد والقاضى التنوخى أبو القاسم على بن محمد وابن لنكك أبو الحسن محمد بن محمد وأبو عبد الله الحسين بن على النمرى وأبو الحسن محمد بن عبد الله السلامى وابن نباتة السعدى والشريف الرضى ومهيار وأبو الحسن على بن زريق وابن سكرة وابن حجاج .

ومن شعراء ما وراء النهر وخراسان ، أبو الطيب طاهر بن محمد الطاهرى وأبو الحسن على بن الحسن اللحام وأبو محمد الحسن بن على المطرانى وأبو طالب عبد السلام بن الحسن المأمونى وأبو محمد عبد الله بن عثمان الواثقى وأبو محمد عبد الله بن إبراهيم الرقاش والخوارزمى والهمذانى وأبو الفتح البستى وأبو الفضل الميكالى وأبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبى وأبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى ، وقد كان للثعالبى هذا على شعراء هذا العصر الثالث فضل ليس لغيره مثله بتدوين أخبارهم فى كتابه الخالد « يتيمة الدهر » ذى الأقسام الأربعة ، فقد جعل القسم الأول وهو أضخمها لشعراء الشام وما حواليها من الجزيرة شرقاً ومصر غرباً وفيه عنى بآل حمدان ، وجعل الثانى لشعراء أهل العراق وفيه عنى بآل بويه ، وجعل الثالث لشعراء فارس وما إليها من جرجان وطبرستان منشأ البويهيين ، وجعل الرابع لشعراء ما وراء النهر وخراسان مواطن السامانيين والغزنيين .

ولما حل العصر الرابع وطوحت أحداثه بآل بويه فى العراق وفارس ، ومن قبلهم بالسامانيين فيما وراء النهر وبالحمدانيين فى الجزيرة والشام ، اضمحل الأدب والشعر فى خراسان إذ لم يبق فيها إلا الغزنيون وليسوا

للعربية بنصراء ، وبقى ضعيفاً فى فارس والعراق ، ثم تنزل عن الهامة التى كانت له فى الجزيرة والشام ولكنه ارتفع إليها فى مصر لبقاء الفاطميين . حتى إذا ما زال الغزنيون من الشرق والفاطميون من الغرب فى نصفه الثانى تقلص نهائيا من القاصية واشتد ضعفه فى فارس وصار وسطا فى العراق والجزيرة ثم نزل عن الهامة فى مصر حتى كاد يصل مستوى الشام، ولكن ساعد على بقائه نامياً فيهما إذ ذاك الحروب الصليبية أيام بنى أيوب. وهذه أسماء أشهر الشعراء بالمشرق فى ذلك العهد .

فى العراق — الطغرائى ودلال الكتب أبو المعالى سعد بن على الخزرجى وابن التعاويذى ونجم الدين أبو الغنائم محمد بن على المعروف بابن المعلم الواسطى وحسام الدين أبو يحيى عيسى بن سنجر الحاجرى والصرصرى أبو زكريا يحيى بن يوسف البغدادى ثم محيى الدين الوترى البغدادى المتوفى سنة ٦٦٢ . وفى فارس — صردر وأبو الحسن على ابن الحسن الباخرزى ومعين الدين أحمد بن عبد الرازق الطنطرانى ، توطن مصر بعده وابن الخياط والغزى والأرجانى والأبيوردى المتوفى سنة ٥٥٧[1]

ب — العوامل المساعدة لأسباب نهوضه

نعنى بهذه العوامل المساعدة ، ما جاء مقوياً لعوامل النهضة الأولى التى شرحناها فى كل من الألفاظ والمعانى والأغراض وهى كثيرة فلنكتف هنا بذكر أهمها : —

١ — تذوق الخلفاء ورجالات الدولة للأدب — فقد كانوا منذ أوليتهم ذوى أذواق أدبية سليمة يعرفون بها الغث والسمين ويميزون الحسن والأحسن ، قال الربيع بن زياد — قلت للمنصور يوماً إن الشعراء ببابك وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم فقال اخرج إليهم فاقرأ عليهم

---

(١) قد اكتفينا فيمن تقدم نسبهم فى النماذج بالاسم المشهور وأكملنا الاسم فى غيرهم

السلام وقل لهم عنى ، من مدحنى منكم فلا يصفنى بالأسد فإنما هو كلب من الكلاب ، ولا بالحية فإنما هى دويبة منتنة تأكل التراب ، ولا بالجبل فإنما هو حجر أصم ولا بالبحر فإنما هو لجب غطامط ، فمن ليس فى شعره هذا فليدخل ومن كان فى شعره فلينصرف ، قال الربيع فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة فإنه قال أنا له يا ربيع فأدخلنى فأدخلته . قال فلما مثل بين يديه قال لى المنصور يا ربيع قد علمت أنه لا يجيبك أحد غيره هات يابن هرمة فانشده قصيدته التى يقول فيها .

له لحظات عن حفافى سريره ... إذا كرها فيها عذاب ونائل
له طينة بيضاء من آل هاشم ... إذا اسود من كوم التراب القبائل
إذا ما أتى شيئاً مضى كالذى أتى ... وإن قال إنى فاعل فهو فاعل

فقال حسبك ها هنا بلغت ، هذا عين الشعر ، قد أمرت لك بخمسة آلاف درهم . وقد تبعه فى ذلك ابنه المهدى وحفيداه الهادى والرشيد وتناهى ذلك فى الرشيد فكان أعلم بالشعر من الشعراء . قال سعيد بن سلم قدم على الرشيد أعرابى فمثل بين يديه فقلت يا أعرابى خذ فى شرف أمير المؤمنين فاندفع فى شعره فقال الرشيد يا أعرابى أسمهك مستحسنا وأنكرك منهما فقل لنا بيتين فى هذين — وأشار إلى الأمين والمأمون وكان حفافيه — فقال يا أمير المؤمنين حملتنى على الوعر القردد وأرجعتنى عن السهل الحدرد ، روعة الخلافة وبهر الدرجة ونفور القوافى على البديهة فأرودنى تتألف لى نوافرها ويسكن روعى ، قال قد فعلت وجعلت اعتذارك بدلا من امتحانك فقال يا أمير المؤمنين نفست الخناق وسهلت ميدان السباق وأنشأ يقول :

بنيت لعبد الله ثم محمد ... ذرا قبة الإسلام فاخضر عودهما
هما طنباها بارك الله فيهما ... وأنت أمير المؤمنين عمودهما

فقال الرشيد وأنت يا أعرابى بارك الله فيك فسل ولا تكن مسألتك دون إحسانك ، قال الهنيدة يا أمير المؤمنين — والهندية مائة من الإبل —

فأمر له بمائة ناقة وسبع خلع . ودخل عليه سهل بن هارون فوجده يضاحك المأمون فقال ، اللهم زده من الخيرات وابسط له فى البركات حتى يكون كل يوم من أيامه موفياً على أمسه مقصراً عن غده ، فقال الرشيد يا سهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده ومن الحديث أصحه وأبلغه ومن البيان أفصحه وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم يعجزه قال سهل يا أمير المؤمنين ما ظننت أحداً تقدمنى إلى هذا المعنى فقال الرشيد بل أعشى همدان حيث يقول .

وجدتك أمس خير بنى لؤى ... وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً ... كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقد كان المأمون كأبيه الرشيد . أنشده مرة مروان بن أبى حفصة قوله . —

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا ... بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فلم يطرب له فساءه ذلك ، وذهب إلى عمارة بن عقيل يقول له أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر فقال له عمارة ومن ذا يكون أعلم به منه فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره ، قال مروان فإنه لم يتحرك لقولى وأنشده البيت السابق فقال عمارة إنك والله ما صنعت شيئاً وهل زدت أن جعلته عجوزاً فى محرابها وفى يدها مسابحها فمن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها ، هلا قلت فيه كما قال عمك جرير فى عبد العزيز ابن مروان .

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه ... ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

فقال مروان الآن علمت أنى أخطأت .

لذلك كان الشعر شفيعاً إليهم فى عظائم الذنوب . خرج محمد بن البعيث على المتوكل فأرسل إليه من أتى به أسيراً فأمر بضرب عنقه فأنشد :

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلى ... إمام الهدى والصفح بالناس أجمل
وهل أنا إلا جبلة من خطيئة ... وعفوك من نور النبوة يجبل
فانك خير السابقين إلى العلا ... ولا شك أن خير الفعالين تفعل

فقال المتوكل لجلسائه إن فيه لأدبا وأمر باطلاقه والعفو عنه .

وقد شايع خلفاء العصر الأول فى ذلك رجالات الدولة وأعيانها، وقصص البرامكة فى هذا أمر يطول ، كان أبان على أيامهم يرتب لهم الشعراء فى التقدم بهم إليهم وإلى الخلفاء . ثم بقى لخلفاء العصر الثانى من ذلك شبه ما كان لأسلافهم فى الأول ، ولكن غض منه وخفض من همتهم جهل الخدم الأتراك المستبدين عليهم ، بمعانى الشعر وأقدار الشعراء ، فلم يظهر بمظهر أسلافه منهم إلا القليل ، كعبد الله بن المعتز صاحب اليد الطولى على الأدب والشعر والفتوح الواسعـــة فى نواحى البديع والمعانى وميادين الخيال . ولكن لما جاء العصر الثالث وتعددت الحواضر نافس ملوك الدويلات وأمراؤها وأعيانها بعضهم بعضاً فى النهوض بالأدب . فرقى الشعر بهذا النهوض .

أما العصر الرابع فقد أخذ حكامه يسيرون نحو الجهل بالأدب إلى الوراء فقلت رغبة الشعراء فيه وإن بقى للشعر على أيامه وجود فى مصر والشام والجزيرة وكذا العراق وبعض فارس دون خراسان .

٢ — عقدهم لمجالس الشعر — لعل أول خليفة إسلامى عقد مجالس للأدب عامة وللشعر خاصة بالمعنى الذى نريده الآن ، عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى العظيم وقد دونا عن مجالسه الأدبية فى الجزء الثانى الشىء الكثير ، وقد جاراه فى شبه ذلك أبناؤه من بعده وخاصة هشام . ثم جاء العصر العباسى ولخلفائه ميل شديد إلى هذه المجالس ولكنه لم يظهر واضحاً أيام أولهم أبى العباس لقصر مدته مع اشتغاله فيها بالسياسة ليل نهار . ثم ظهر فى عهد أخيه المنصور صاحب الرسالة السابقة إلى الشعراء على لسان حاجبه الربيع ، بطلب النزوع عن القديم إلى الجديد . وقد سخا الوقت بهذه المجالس لابنه المهدى فعقد منها الكثير . عقد يوما مجلساً لمروان بن أبى حفصة حشد فيه وجوه بنى العباس فلما تتام الناس دعاه فأنشده .

كأن أمير المؤمنين محمداً لرأفته بالناس للناس والد
على أنه من خالف الحق منهم سقته به الموت الحتوف الرواصد

فأشار إليه فأمسك ، فقال يا بنى العباس هـــذا شاعركم المنقطع إليكم المعادى فيكم فآتوه مايسره ، فأعطاه موسى ابنه خمسة آلاف درهم وأعطاه هرون مثلها وأعطاه سائر البيت، كل على قدر حاله ، فبلغ ما أعطوه أربعين ألف درهم وأعطاه هو ثلاثين ألفاً ثم قال له وسيأتيك منى ما يؤديك إلى الغنى ، فقال لهمروان قد رأيت من قبولك وبشرك وسرورك بما سمعت منى ما سأزادد به شعراً وستسمع ويبلغك ، فلا يبلغ ما أعطيتنى شاعرا بعدى ، قال أجل ، قال فآذنى فى زيارتك قال آذنتك ، فقال لى فيك وفى شل بيتك عدو فإن رأيت ألا تجعل لأحد على سلطاناً دونك ؟ قال لا سلطان عليك دون أمير المؤمنين . وعقد ابنه موسى الهادى حين وقع إليه سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدى وكان معنياً بجمع السلاح مجلساً للشعراء اقترح عليهم فيه وصفه فقال بعضهم .

حاز صمصامة الزبيدى من بيـ ... ـن جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا ... خير ما أغمضت عليه الجفون
أخضر اللون بين حديه برد ... من ذعاف يميس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعق ناراً ... ثم شابت به الذعاف القيون
فإذا ما سللته بهر الشمـ ... ـس ضياء فلم تكد تستبين
ما يبالى من انتضاه لحرب ... أشمال سطت به أم يمين
يستطير الأبصار كالقبس المشـ ... ـعل ما تستقر فيه العيون
وكأن الفرند والجوهر الجا ... رى على صفحتيه ماء معين

فمنحه عشرين ألف درهم . ولما عقد الرشيد البيعة لابنه الأمين أخذ يستمع للشعراء فأنشده سلم .

قد وفق الله الخلافة إذ بنى ... بيت الخلافة للهجان الأزهر
فهو الخليفة عن أبيه وجده ... شهدا عليه بمنظر وبمخبر
قد بايع الثقلان فى مهد الهدى ... لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

فانهالت عليه العطايا من الرشيد والسيدة زبيدة حتى ناء بها ، وكذلك فعل حين عقد البيعة من بعده للمأمون. وحتى المعتصم على أميته كان يطرب للأدب ويعقد مجالس للشعر ، اجتمع الشعراء ببابه مرة فبعث إليهم من يقول لهم ، من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور النمرى فى الرشيد — وأنشد الأبيات التى تقدمت فى المبالغات — فليدخل فقال محمد بن وهيب الحميرى ، فينا من يقول خيراً منه ، ودخل فأنشده قصيدته التى منها .

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر
فالشمس تحكيه فى الأشراق طالعة إذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدر يحكيه فى الظلماء منبلجا إذا استنارت لياليه به الغرر

فهش له وبالغ فى جائزته . وكانت مجالس ابنه المتوكل للشعراء ومكانة البحترى فيها مضرب الأمثال ، ولكن كسدت مجالس الأدب بعده وقع الشعراء حتى أحياها ملوك الدويلات فى فارس والعراق والشام ومصر كما علمت آنفاً . ثم عاودها الكساد فى النصف الأول من العصر الرابع حتى زالت فى نصفه الأخير .

٣ — إثابة المحسنين من الشعراء وقد تقدم الكلام على ذلك مع المدح بما فيه الكفاية .

٤ — رقى الغناء ومجالسه ، لما لذلك من صلة وثيقة برقى الشعر وإشهار الشعراء كما سترى فى الكلام عليه الآن .

جـ — الغناء ومجالسه

قد عرفت مما ذكرنا فى العصر الأموى أن الغناء نهض فيه وأنهض معه الشعر ، لحاجة الحياة المترفة إليه فى مدن الحجاز . وإذا كان الترف منذ العصر العباسى الأول قد بلغ أقصى الغايات فلا بد أن يكون الغناء قد بلغ فيه مثل ذلك ، وأثر فى النهوض بالشعر أوضح تأثير ، وإليك البيان .

اتخذ المغنون أصواتهم من الشعر فدفعوا بالشعراء إلى توخى السهولة والرشاقة فى الأساليب ، وتطلب الجمال والرقة فى المعانى ، وابتكار الجديد اللائق فى الأغراض . وقد كان الغناء بشعر شاعر فى حضرة خليفة ووزير أو ملك وأمير ، يثير فى نفسه من المشاعر الكامنة والوجدانات الخافية ما يقوى فيه ملكة الشعر حتى يظفر كل يوم بمزيد . كما كان التسابق فى هذا المجال يولد لدى كل منهم الطمع فى أن يكون المجلى فى هذا السباق ، وفى ذلك للغناء على الشعر فضل كبير ، على أن له فضلا آخر عليه هو إشاعته فى الناس لما هو طبيعى فى الإنسان من حب الغناء والميل إلى استماعه ، سيان فى ذلك الفرح والمحزون ، لحسن موقعه فى القلب ووصوله أكثر من أى تفاهم إلى أعماق النفوس ، نعم كان ذلك سبباً فى أن يلهج الناس بالشعر الذى يغنى فيه ويكثروا إنشاده فى المجتمعات وفيما بينهم وبين أنفسهم ، بترديد أبياته استمتاعاً بمعانيها أو الترنم بها استعادة لأنغامها ، ولهذا عقد بين المغنين والشعراء إخاء وثيق ، بل لهذا وجد فى المغنين من أجاد الشعر ، وفى الشعراء من أتقن الغناء ، وإن كانت مجالس المغنين أحفل جمعاً وأكثر عددا من مجالس الشعراء .

جمع الرشيد يوما بين المغنين المتعصبين للقديم منهم كإبراهيم الموصلى وابنه إسحق ، ونصراء الجديد كإسماعيل بن جامع[1] ثم أمر إبراهيم أن يغنى فغنى الصوت .

---

(١) كان الغناء كله أول العصر العباسى على القديم ، فلما جاء إبراهيم ابن المهدى لم يتقيد به وقال أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وعلى ما ألتذ ، وانضم إليه جماعة ، منهم إسماعيل المذكور وفليح بن أبى العوراء ويحيى المكى وعمرو بن نابه وحسين بن محرز وغيرهم ، وبقى إبراهيم الموصلى على القديم وانضم إليه جماعة ، منهم إسحق ابنه وسليم بن سلام وزبير بن دحمان ومحمد ابن الرف وأحمد بن يحيى ومحمد بن حمزة وغيرهم . ولم يلبث المجددون أن أتقنوا ما خرجوا فيه فكان فى خروجهم فتح للغناء مبين .

وقفت على ربع لمية ناقتى فما زلت أبكى عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثـــه تكلمنى أحجاره وملاعبه

فكان كل من فى المجلس يجيبه بترديد صوته ، وطرب الرشيد حتى كان يقوم ويقعد ، فأشار مسرور الخادم إلى ابن جامع فغنى :

كأن أحور من غزلان ذى بقر أعارها شبه العينين والجيـــدا
أجرى على موعد منها فتخلفنى فما أمل ولا توفى المواعيدا
كأننى حين أمسى لا تكلمنى ذو بغية يبتغى ما ليس موجودا

فاستخف الطرب الرشيد أيما استخفاف ، ثم غنى إسحق .

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فيا حبها زدنى جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعد الحشر
وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر

فكاد الرشيد يخرج من ثيابه طرباً وقال ، والله ما الغناء الذى يلين العريكة ويفسح فى الرأس والصدر ويحدث فى النفس طرباً إلا غناء إسحق ، ثم أومأ إلى المغنين أن يحلوا صفوفهم وفرق فيهم الجوائز بقدر أهليتهم من ألف دينار إلى خمسمائة إلى ما دون ذلك .

هذا وقد اعتنى الخلفاء بالغناء أكثر من عنايتهم بالشعر ، وأكرموا المغنين أكثر مما أكرموا الشعراء ، واتخذوا منهم الندمان والسمار وأسقطوا الكلفة عنهم ، وكانوا يزورونهم فى منازلهم ويهبونهم أياما ينقطعون فيها إلى لذتهم فلا يطلبونهم مع شغفهم بمجاورتهم ، ثم كان أن أقبل بعضهم على الغناء يتعلمه ، كما أقبل كثير من أقربائهم أيضا حتى أجاده عدد منهم كابراهيم ابن المهدى وأبى عيسى بن الرشيد وعبد الله بن المهدى وعبد الله بن الأمين وأبى عيسى بن المتوكل وعبد الله بن المعتز . بل من الخلفاء أنفسهم من اشتهر بالتلحين كالواثق والمنتصر والمعتز والمعتمد والمعتضد ، كل ذلك ذكره صاحب الأغانى وساق على بعضه الشواهد . ولعل أشد هؤلاء جميعا ولعاً

أبو عيسى بن المتوكل الذى كانت مجالسه فيه تجاوز حدود الوصف ، وإليك واحداً منها .

جمع مرة بين المشدود وزنين ودبيس فغنى المشدود .

لما استقل بأرداف تجـاذبه ... واخضر فوق حجاب الدر شاربه
وأشرق الورد فى نسرين وجنته ... واهتز أعلاه وارتجت حقائبه
كلمته بجفون غير ناطقة ... فكان من رده ما قال حاجبه

ثم سكت وغنى زنين من الوزن والقافية .

الحب حلو أمرنه عواقبه ... وصاحب الحب صب القلب ذائبه
أستودع الله من بالطرف ودعنى ... يوم الفراق ودمع العين ساكبه
ثم انصرفت وداعى الشوق يهتف بى ... ارفق بقلبك قد عزت مطالبه

ثم سكت وغنى دبيس كذلك .

بدر من الأنس حفته كواكبه ... قد لاح عارضه واخضر شاربه
إن يمنح الوعد يوماً فهو مخلفه ... أو ينطق القول يوما فهو كاذبه
عاطيته كدم الأوداج صافية ... فقام يشدو وقد مالت جوانبه

ثم عادوا فغنوا بلحن واحد وقافية واحدة فى كل ، ثلاثة أصوات كما رأيت فى هذه ، حتى تم لكل واحد أحد عشر صوتاً ، فطلب أبو عيسى من المشدود وحده أن يغنى صوتاً يكون ختام المجلس فغناه إياه فأثابهم جميعاً ، ولولا أنه قطعهم ما انقطعوا ، وهذا هو الصوت : —

يا لجة الدمع هل الدمع مرجوع ... أم الكرى من جفون العين ممنوع
ما حيلتى وفؤادى هائم أبدا ... بعقرب الصدغ من مولاى ملسوع
لا والذى تلفت نفسى بفرقته ... فالقلب من حرق الهجران مصدوع
ما أرق العين إلا حب مبتدع ... ثوب الجمال على خديه مخلوع

هذا وقد مال القوم استكمالا للمتعة منذ الصدر الأول أن يؤدبوا الجوارى ويعلموهن الغناء ، فكان من ذلك قينات يجمعن إلى جمال الأنوثة أدب الشعراء وصنعة المغنين ، واتخذ ذلك أرباب هذا الفن تجارة رابحة إذ كانوا يستحضرون الجارية غفلا بنحو مائة دينار ، فإذا ما ثقفوها باعوها

بعشرات الألوف[1] وغالى الناس فى اقتنائهن حتى كان عند الرشيد ثلثمائة من المغنيات ، وإليك حكاية عنان جارية الناطفى فى أدبها رواية بكر بن حماد، وفى وصولها إلى الرشيد رواية ابراهيم بن عمر. قال بكر — وقد انتهى اليه أدبها خرجت معترضاً لها فما راعنى إلا الناطفى مولاها قد ضرب على عضدى فقال ، هل لك فيما سنح من طعام وشراب ومجالسة عنان ، قلت ما بعد عنان مطلب ، فمضينا حتى أتينا منزله فدخل فقال لها هذا بكر شاعر باهلة يريد مجالستك اليوم فقالت لا والله إنى كسلانة فحمل عليها بالسوط ثم قال لى ادخل فدخلت ودمعها يتحدر كالجمان فى خدها فطمعت بها فقلت

هذى عنان أسبلت دمعها كالدر إذ ينسل من خيطه

ثم قلت أجيزى فقالت :

فليت من يضربها ظالماً تجف كفاه على سوطه

فقلت إن لى حاجة فقالت هاتها فمن سببك أوذينا ، قلت بيت وجدته على ظهر كتاب لم أقرضه ولم أقدر على إجازته ، قالت قل فأنشدتها .

فما زال يشكو الحب حتى حسبته تنفس فى أحشائه فتكلما

قال فأطرقت ثم أنشدت .

ويبكى فأبكى رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعا بكيت له دما

فقلت لها فما عندك فى إجازة هذا البيت .

بديع حسن بديع صد جعلت خدى له ملاذا

فأطرقت ثم قالت .

فعاتبوه فعنفوه فأوعدوه فكان ماذا

وقال إبراهيم — جلس الرشيد ليلة ومعه سماره فغناه بعض من حضر من المغنين بأبيات جرير التى يقول فيها .

إن الذين غدروا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا

---

(١) روى أن الرشيد اشترى إحدى الجوارى بمائة ألف دينار، بل روى أن الأمين ثمن أخرى بألف ألف دينار، وليس ذلك على تبذيره فى لهوه ببعيد.

فطرب طربا شديدا وأعجب بالأبيات وقال لجلسائه هـــل منكم أحد يجيز هذه الأبيات بمثلهن وله هذه البدرة — وكانت بين يديه بدرة من دنانير — قال فقالوا فلم يصنعوا شيئا ، فقال خادم على رأسه أنا بها لك يا أمير المؤمنين ، قال شأنك فاحتمل البدرة ثم أسرع إلى الناطفى فقال له استأذن لى على عنان ، فأذنت له فدخل وأخبرها الخبر فقالت ويحك وما الأبيات فأنشدها إياها فقالت اكتب .

هيجت بالقول الذى قد قلته ... داء بقلبى ما يزال كمينا
قد أينعت ثمراته فى طيها ... وسقين من ماء الهوى فروينا
كذب الذين تقولوا ياسيدى ... إن القلوب إذا هوين هوينا

فدفع إليها البدرة ورجع بالأبيات إلى هرون ، فقال له ويحك من قالها قال عنان فقال خلعت الخلافة من عنق إن باتت إلا عندى ، وبعث إلى مولاها فاشتراها منه بثلاثين ألف دينار وباتت بقية الليلة عنده .

بهذا التشجيع وغيره رقيت صناعة الغناء حتى صارت فنا ذا مؤلفات[1] وزادها رقيا اختصاص كل مغن بلحن أو أكثر يضع فيـــه الكثير من الأصوات[2] ، كما رقيت بجوار الغناء مع الشعر الذى هو مدد الأصوات

---

(١) ذكر ابن النديم من مؤلفـــات الغناء كتبا جلها ضائع الآن . منها كتاب النغم للخليل ، وأخبار المغنين لإسحق ، وكتاب آخر له جمع فيه أغانيه ، والآداب الرفيعة فى الغناء والمنادمات لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، كما ذكر أن لجحظة البرمكى وحسن بن موسى النصيبى تآليف فيه أيضاً . والباقى الآن هو الأغانى ولكن أبا الفرج أخلاه من قواعد الغناء إلا ما كان إشارة ورمزا وغلب عليه الصبغة الأدبية فى أخبار المغنين والشعراء .

(٢) كانفراد فليح بن أبى العوراء بالنواقيسى ، وإبراهيم الموصلى بالماخورى وإسحق ابنه بالتخنيث . على أن إسحق افتن جدا فصنع ألحانا لا يقدر عليها شبعان ، وأخرى لا يقدر عليها متكىء حتى يقعد ، وثالثة لا يجيدها قاعد حتى يقوم . وزاد عنه الفارابى بعد ، فقد روى أنه دخل مجلس سيف الدولة فضرب لحناً أضحكهم وآخر أبكاهم وثالثاً أنامهم ، ثم قام .

صناعات استخدام آلات الطرب من عود وناى وطبل وغيرها ، وانبرى الشعراء يصفون هذه الآلات كما يصفون القيان فيأتون بأبدع الأوصاف. قال ابن الرومى يصف القيان وفى أيديهم الآلات .

وقيان كأنها أمهات ... عاطفات على بنيها حوانى
مطفلات وما حملن جنينا ... مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات أطفالهن ثديا ... ناهدات كأحسن الرمان
كل طفل يدعى بأسماء شتى ... بين عود ومزهر وكران[1]
أمه دهرها تترجم عنه ... وهو بادى الغنى عن الترجمان

وكأن القيان أردن أن يقابلن ذلك الجميل من الشعراء بجميل مثله ، فكن ينقشن بعض أبيات الشعر فى أكفهن بالحناء ، أو يكتبنها على ما يرتدين من ملبس ويمسكن من أدوات . نقشت إحداهن بالحناء فى كفها .

ليس حسن الخضاب زين كفى ... حسن كفى زين لكل خضاب

وكتبت أخرى على عصابتها .

ألا بالله قولوا يا رجال ... أشمس فى العصابة أم هلال

وحملت وصيفه للأمين مروحة عليها :

بى طاب العيش فى الصيـ ... ـف وبى طاب السرور
بمسكى ينفى أذى الحر ... م إذا اشتد الحرور
الندى والجود فى وجـ ... ـه أمين الله نور
ملك أسلمه الشبـ ... ـه وأخلاه النظير

هذا وقد دام الرقى للغناء بالغا الأوج فى العصرين الأول والثانى ، وناله فى الثالث ما نال الأدب عامة والشعر خاصة فكان فى إقليم خيرا منه فى إقليم كما ذكرنا عن الشعر آنفا . ثم انحط فى الرابع فكانت حاله أسوأ من حال الشعر لأنه يحتاج فى رقيه إلى مالا يحتاج إليه الشعر من أسباب كانت فى هذا العصر والعدم سواء .

---

(٣) الكران الصنج .

التراجم

لقد رأيت نظرا إلى ما تقدم من شبه ترجمة لكل من أئمة الكتابة بالعهود الأربعة للعصر العباسى ، وهم ابن المقفع والجاحظ وابن العميد والحريرى ، أن أكتفى بترجمة واحدة لكاتب ذى شأن هو بديع الزمان الهمذانى .

أما الشعراء وقد كان بعضهم من أصل عربى وبعضهم من أصل فارسى ، فقد رأيت أن أترجم اثنين منهما ، هما البحترى من شعراء أوائل العصر ممثلا للعنصر الأول ، ومهيار من أواخره ممثلا للعنصر الثانى ، وبالله التوفيق .

البديع

١ — نسبه ومولده ونشأته وسيرته

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذانى ، ولد بهمذان سنة ٣٥٣ هـ ونشأ بها فدرس على أبى الحسن أحمد بن فارس — صاحب كتاب المجمل فى اللغة وأول من ألف مقامات بعد أحاديث ابن دريد كما سبق القول حيث الكلام على المقامات — اللغة والأدب والأخبار ، حتى استنزف بحره واستخرج دره ، ثم فارق همذان وهو مقتبل الشبيبة فورد حضرة الصاحب أبى القاسم بن عباد بأصفهان فتزود من ثمارها وحسن آثارها ، ثم غادرها إلى جرجان فتعيش فى كنف الأسماعيلية واختص من بينهم بأبى سعد محمد بن منصور لما له من الشغف برجال الأدب ، فنال الحظوة لديه ونفقت بضاعته عنده ، ولكن عزيمته استقرت على الرحيل إلى نيسابور تلك المدينة التى استنارت بمقدمه وسعدت بلقائه . ففيها نشر طريفة وتليده وأظهر بزه وطرزه ، حيث أملى مقاماته التى أفضنا فى الحديث عنها سابقا ، تلك المقامات الخمسون التى حذا الحريرى فى مقاماته الخمسين أيضاً حذوها ولكنه

لم يبلغ شأوها ، وفيها ناظر أبا بكر الخوارزمى شيخ تلك الصناعة إذ ذاك ، ففاق عليه كما سيأتى تفصيله بعد ، ولقد زاده الحظ إسعاد بوفاة خصمه هذا عقب ذلك بقليل ، فخلا له الجو . ولم يترك بلدة من خراسان الا وترك فيها أثرا حسنا من رسائل وأشعار ومقامات ، وقد قيل إن مقاماته كانت أربعمائة ولكن لم يصل منها إلا خمسون ، وأنا لا أستسيغ هذا لأن الحريرى جاراه فى العدد كما سبق ، وبعيد أن يكون قد فقد كل هذا الكم الكبير منها والزمن بينهما ليس بالطويل ، وأخيرا ألقى عصا التسيار بمدينة هراة تلك المدينة العظيمة على أطراف خراسان مما يلى الهند ، فاتخذها دار إقامته وصاهر عظيما من عظمائها علما وثروة ، هو أبو على بن الحسين الخشامى ، فازدادت عظمته واقتنى بمعونته الضياع الفاخرة وعاش العيشة الراضية ، حتى إذا بلغ نصف العقد الخامس ناداه الله فلباه يوم الجمعة الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ٣٩٨ ، فعفت بعده أندية الأدب وأقفرت ربوع الكتابة ، وقامت البلاغة تندب حظها والفصاحة ترثى ربيبها ، ولقد كان رحمه الله فى أخلاقه حسن العشرة لطيف المسامرة شريف النفس كريم العهد خالص الود ، وفوق ذلك كان كما قال العائل.

حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت بشدة البأس منه رقة الغزل

٢ — منزلته الكتابية

خلف البديع مقامات ورسائل ، فأما المقامات فقد فصلنا القول فيها حيث الكلام على المقامات وأودعنا النماذج إحداها وهى المقامة الأسدية . وأما الرسائل فإن الذى وصلنا منها فى ديوان رسائله يقف على المائتين والثلاثين ، تناول فيها كل أغراض الرسالة من إخبار واستخبار واستعطاف واعتذار وإهداء واستهداء وعتب وهجاء وتهكم واستهزاء ، إلى غير هذه من كل ما تناولته الرسالة وألمت به المقالة . وهذه نماذج منها غير الرسالتين السابقتين فى نماذج الكتابة وأولاها كانت تعنيفا لصديق هنأه بمرض الخوارزمى والثانية كانت لبعض إخوانه وقد أخبره بموت أبيه ، يعزيه ويحذره التبذير

والتقتير ، وغير رسالته التى كانت أول ما كتب به إلى الخوارزمى وقدمرت بصفحة ١٦٣ وكذا رسالته إليه لما لم يحسن مقابلته بعد تلك الرسالة السابقة وهى بصفحة ١٧٢ ، ثم غير كتابه إلى ابن أخته يوصيه بالجد فى طلب العلم صفحة ١٧٦ وكذا كتابه إلى رجل ألح عليه فى طلب العطاء صفحة ١٨٥ ، وها هى ذى قبل الكلام على تلك المنزلة :

١ ـ كتب يعاتب أبا الفضل الميكالى ويستديم وده :

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة لقد سرنى أنى خطرت ببالك

الأمير أطال الله بقاءه فى حال بزه وجفائه متفضل ، وفى بومى إدنائه وإبعاده متطول . وهنيئاً له من حمانا ما يحله ومن عرانا ما يحله ومن أعراضنا ما يستحله . بلغنى أنه أدام الله عزه استزاد صنيعه فكنت أظنى مجنياً عليه مساء إليه ، فإذا أنا فى قرارة الذنب ومشارة العتب ، وليت شعرى أى محظور فى العشرة حضرته أو مفروض فى الخدمة رفضته أو واجب فى الزيارة أهملته ، وهل كنت إلا ضيفاً أهداه منزع شاسع وأداه أمل واسع ، وحداه فضل وإن قل وهداه رأى وإن ضل . ثم لم يلق إلا فى آل ميكال رحله ، ولم يصل إلا بهم صلته ولم ينظم إلا فيهم شعره ، ولم يقف إلا عليهم شكره . ثم ما بعدت صحبة إلا دنت مهانة ولا زادت حرمة إلا نقصت صيانة ولا تضاعفت منة إلا تراجعت منزلة ، ولم تزل الصفة بنا حتى صار وابل الأعظام قطرة وعاد قميص القيام صدرة ، ودخلت مجلسه وحوله من الأعداء كتيبة ، فصار ذلك التقريب ازورارا وذلك السلام اختصاراً ، والاهتزاز إيماء والعبارة إشارة ، وحين عاتبته آمل إعتابه وكاتبته أنتظر جوابه وسألته أرجو إجابة ، أجاب بالسكوت فما ازددت إلا له ولاء وعليه ثناء ، لاجرم ، إنى اليوم أبيض وجه العهد واضح حجة الود ، طويل لسان القول ، رفيع محكم العذر ، وقد حملت فلانا من الرسالة ، ماتجافى القلم عنه ، والأمير الرئيس أطال الله بقاءه ينعم بالأصغاء لما يورده ، موفقاً إن شاء الله عز وجل .

٢ ـ وكتب الى الأمير فريغون يتعرف به قبل لقائه : ـ

كتابى والبحران لم أره فقد سمعت خبره ، والغيث إن لم ألقه فقد تصورت خلقه ، والملك إن لم أكن لقيته فقد لقينى صيته .

٣ ـ وكتب الى الشيخ الإمام أبى الطيب متشوقاً : ـ

أرانى أذكر الشيخ كلما طلعت الشمس أو هبت الريح أو نجم النجم أو لمع البرق أو عرض الغيث أو ذكر الليث أو ضحك الروض . إن للشمس محياه وللريح رياه وللنجم حلاه وعلاه وللبرق سناؤه وسناه وللغيث يداه ونداه وللليث حماه وللروض سجاياه . ففى كل صالحة ذكراه وفى كل حادثة أراه . . .

٤ ـ وكتب اليه معاتباً : ـ

أنا أعاتب الشيخ الإمام والكلام مجون والحديث شجون ، وقد يوحش اللفظ وكله ود ويكره الشىء وليس من فعله بد . هذه العرب تقول لا أبا له فى الأمر إذا هم ، وقاتله الله ولا يريدون الذم ، وويل امه للمرء اذا تم . ولاولى الألباب فى هذا الباب أن ينظروا من القول الى قائله ، فإن كان ولياً فهو الولاء وإن خشن وان كان عدوا فهو البلاء وإن حسن .

٥ ـ وكتب مهنئاً بمولود : ـ

حقاً لقد أنجز الإقبال وعده ، ووافق الطالع سعده ، والشأن فيما بعده ، وحبذا الأصل وفرعه ، وبورك الغيث وصوبه ، والروض ونوره ، وسماء أطلعت فرقداً ، وغابة أبرزت أسداً ، وظهر وافق سنداً ، وذكر يبقى أبدا ، ومجد سمى ولدا ، وشرف لحمة وسدى .

٦ ـ وكتب يعتذر من تأخير زيارة : ـ

يعز على أطال الله بقاء مولاى أن ينوب فى الخدمة قلمى عن قدمى ، ويسعى بالرؤية رسولى قبل وصولى ، ويرد مشرع الأنس كتابى قبل ركابى ، ولكن ما الحيلة والعوائق جمة ، وعلى أن أسعى وليس على ادراك النجاح . . .

٧ — وكتب وقد أهدى فارتى مسك :

قد أهديت فارتى مسك تصلان بوصول كتابى هذا، وبينهما من السلام أطيب عرفا وأحسن وصفا .

٨ — وكتب على لسان والد إلى ولده يستبقيه على الاستقامة :

ورد كتابك بذكر أحوالك واستقامتها ، وأنت فيما ذكرت بين طرفى جد ولعب وحدى صدق وكذب ، فإن قلته مزاحا فالفرع لا يمازح أصله ، أو كذباً فالرائد لا يكذب أهله ، وإن كان جدا ما ذكرت وصدقاً ما أوردت ، فاستدم الوسيلة التى نلت بها الفضيلة ، واستبق الذريعة التى أسكنتك المنزلة الرفيعة، وهذه نصيحتى لك ووصيتى إليك ، والله حسبى فيك وخليفتى عليك. فهذه رسائل ثمان غير الست المنبه عنها آنفا أقدمها كلها بين يدى وصفى لمنزلته الكتابية .

قرأت فيما ذكرنا عن مقامات البديع ونحن نشرح أدبها آنفا ،وصف الحصرى لكلام البديع وفيه يقول بعنوان — جملة من كلام بديع الزمان — وهذا اسم وافق مسماه ولفظ طابق معناه وكلام غض المكاسر أنيق الجواهر، يكاد الهواء يسرقه لطفا والهوى يعشقه ظرفا — إلى أن قال عن المقامات نفسها — تذوب ظرفا وتقطر حسنا وقد عطف مساجلتها ووقف مناقلتها بين رجلين أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبو الفتح الاسكندرى ، وجعلهما يتهاديان الدر ويتنافثان السحر ،فى معان تضحك الحزين وتحرك الرصين، يتطلع منها كل طريفة ويوقف فيها على كل لطيفة ، وقرأت ما قلته عنها هناك من أنه أبدع فيها الإبداع كله رأنه بعد فيها عن التكلف فى صناعات البديع ،فجاءت قليلة الغريب سهلة التناول ، يتعشق أول الكلام فيها آخره ويرتبط بعضه ببعض ارتباطا يؤذن بصفاء قريحة وطول باع ،وذكرت أنك إذا بدأت فى قراءة واحدة منها تخيلت نفسك قد حللت روضاً ممتعاً ينسيك كل شئ غيره ، وكلما سرحت نظرك فى خميلة من خمائله أو زهرة من أزهاره تطلبتك أجمل منها حتى لا تشعر إلا وقد انتهيت إلى سياجه كما قرأت ما ذكرت أيضاً

من أنه أجاد فيها الوصف والتشبيه وأشرت إلى مواضع كثيرة لذلك ، كما أحسن الكتابة وأحكم الألفاظ مع الاستشهاد لها هناك ، وكذا قولى إن هذا وغيره ليس بغريب على البديع وهو رجل كان لديه من صفاء الخاطر وجودة القريحة وسعة الرواية وكثرة الحفظ ما لم يكن لغيره من كاتب أو شاعر ، وذكرت تأييدا لذلك ما ذكره عنه الثعالبى فى اليتيمة حيث يقول « إنه كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط وهى أكثر من خمسين بيتاً فيعيدها كلها دون أن يترك حرفاً ، وكان ينظر فى أربع الورقات والخمس نظرة خفيفة ثم يسردها سردا ، وكان يقترح عليه عمل قصيدة فى معنى بديع أو إنشاء رسالة فى باب غريب فيفرغ منها فى الوقت والساعة ، وكان ربما بدأ الكتاب المقترح عليه من آخره وانتهى بأوله فيخرج الكتاب جيداً فى نوعه فريدا فى بابه » هذا ما قال الثعالبى وهو قول له شان لأنه قول معاصر أدركه لا محدث سمع عنه .

والآن فاعلم أن البديع كان فى رسائله كما كان فى مقاماته ، كاتبا سلس العبارة عذب الألفاظ ، جيد الصنعة سهلها ، يأتى بها عفو الخاطر وأحياناً على البديهة فتكون جيدة الإيقاع بعيدة عن كل كلفة ، كما رأيت فى رسائله بالنماذج وهنا ، على تنوع أغراضه واتساع فنونه على ما أشرنا آنفا فى الرسائل تلك التى ترى فى معانيها الصحة والسلامة والابتكار والجدة ، وفى ألفاظها وأساليبها السهولة والرقة أو الجزالة والفحولة فى وضوح معنى وقوة أداء ، إلى ما فيها من بدائع ذات صناعة محكمة وسلاسة بادية ، من سجع وجناس ومقابلة وطباق وتورية واستخدام وغيرها وغيرها من سائر البديعيات . ولقد كان له فى السجع تصرفاً عجيب النظير مثله لغيره ، ومع ندرته لم يكن فى مثل سجعه ، كأن يجعله فى الفقرة الواحدة ، تقابل فى نهايتها الكلمة نظيرتها ، كالذى ذكر فى كتاب اعتذاره آنفا إذ يقول « يعز على أطال الله بقاء مولاى ، أن ينوب فى الخدمة قلمى عن قدمى ، ويسعد بالرؤية رسولى قبل وصولى » إلى آخر ما ذكر هناك ، وكان له فى التضمين مجال لم يبلغ شأوه فيه أحد كما رأيت فى أول رسائله إلى الخوارزمى صفحة ١٦٣ ،

تلك التى أعقب كل فقرة نثرية فيها شطر بيت شعرى وقع منها موقع القرن من القرين شدة تشابه وقوة اعتلاق ، ولا يفوتنا فى هذه المنزلة الكتابية الرائعة أن نقول ، إنه قد ساندها فيه أصل عربى أمده بسليقة سليمة ، فهو يرجع فى أصل نسبه إلى تغلب الغلباء ذات الكثرة الكثيرة من الفصحاء والبلغاء شعراء وخطباء ، وقوى هذه المساندة نشوه فى بيئة فارسية جعلته يجيد أدب الفرس نثرا وشعرا كما يجيده ذووه ، هذا إلى رجاحة عقل ووقدة ذكاء وقوة حفظ وسرعة بديهة وبعد خيال ، مما لم يجتمع فى سواه بحال ، ومما جعل لقبه البديع كما قال الحصرى « اسماً وافق مسماه ولفظاً طابق مغزاه ، هذا ولقد كان يتخلل منثوره من الحكم البالغة والأمثال السائرة ما يتفق وهذه المؤهلات ، وذلك كقوله ، المرء لا يعرف ببرده كالسيف لا يعرف بغمده ، وقوله ، المدبر يحسب السيئة عطية ، وقوله ، لا ماء بعد الشط ، وقوله ، لا تحسب الحب ينثر للعصفور نعمة ، وقوله أبعد المشيب أخدع بالزبيب ، وقوله فارقنا خشفا وقانا جفافا ، وقوله ، غضب العاشق أقصر عمرا من أن ينتظر عذرا ، وهكذا .

٣ — شاعريته

كان البديع لا يقصر نظمه عن نثره ولا تنحط قصائده أمام رسائله ، وقد جمع ما تبقى من شعره فى ديوان صغير ضم إلى البداهة والإسراع جمال الخيال وحسن الإبداع . من ذلك قوله يمدح الأمير فريغون

ألم تر أنى فى نهضتى ... لقيت المنى والغنى والأميرا
ولما التقينا شممت التراب ... وكنت أمرأ لا أشم العبيرا
لقيت امرأ ملء عين الزمان ... يعلو سحابا ويرسو ثبيرا
فلا عدم الملك ذا روعة ... يمون المنى ويسر السريرا
لآل فريغون فى المكرمات ... يد أولا واعتذار أخيرا
إذا ما حللت بمغنـــاهم ... رأيت نعيما وملكا كبيرا

ومن مدائحه أيضا

ولما بلوناكم تلونا مديحكم فياطيب ما نبلو ويا حسن ما نتلو
فيامل كا أدنى مناقبه العلا وأيسر ما فيه السماحة والبذل
هو البدر إلا أنه البحر زاخرا سوى أنه الضرعام لكنه الوبل
محاسن يبديها العيان كما ترى وإن نحن حدثنا بها دفع العقل

وما أملح أرجوزته فى آل عصم إذ يقول

يا آل عصم أنتم أولو العصم لم توسموا إلا بنيران الكرم
طابت مبانيكم وطبتم لا جرم يا سادة السيف وأرباب القلم
الجار والعرض لديكم فى حرم والمال للآمال نهب مقتسم

وما أرق قوله فى الشيخ الإمام أبى الطيب

لسهل فى العلا غرر فهلا عندكم لمح
وفيه من الندى بدع فهلا فيكم ملح
تضمن أمة رجل وأودع عالما شبح
فمن جاراه منقطع ومن باراه مفتصح

وقال يمدح الأمير أبا على :

يا سيد الأمراء انخر فلا ملك إلا تمناك مولى واشتهاك أبا
قد كاد يحكيك صوب الغيث منسكبا لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

وقال يرثى صاحباً له :

لئن أحرزك الداعى لقد أحزنى الناعى
وإن بت بجعجاع لقد بتنا بأوجاع
أرب القصر والمنـ ظر ما لك بالقاع
أيا من دونه المو ت بنفسى وبأشياعى
ويا مؤنس آمالى ويا موحش أطماعى
لقد كنت أرجيك لما يسعى له الساعى

وما تسمو له نفسى ولا يدركه باعى

وقد كان يقول الشعر على البديهة أيضاً . اقترح عليه أن يجيز هـذا البيت :

جميع فوائد الدنيـــا غرور وأكثر قولها كذب وزور

فقال على النفس ارتجالا :

إذا الدنيا تأملها حكيم تبين أن معناها عبور
فبينا أنت فى ظل الأمانى بأسعد حالة إذ أنت بور
زمان فى قضيته جثور ودوار بما تأبى دءور
رضيت قضاءه أولست ترضى فغض يديك وانظر ما تضير

وكثيراً ما كان يضمن رسائله ومقاماته الكثير من أشعاره كما رأيت فى رسالته إلى الخوارزمى وكما نراه هنا فى آخر المقامة الكوفية حيث يقول على لسان الإسكندرى يخاطب ابن هشام حين قال له « شد والله ما بلغت منك الخصاصة وهذا الزى خاصة »

لا يغرنك الذى أنا فيه من الطلب
أنا فى ثروة تشق م لها بردة الطرب
أنا لو شئت لاتخذ ت سقوفاً من الذهب
أنا طورا من النبطيـ ط وطورا من العرب

وكيف لا يكون البديع من الشعراء فى المقدمة وهو من أدرى الناس بالأدب وأعلمهم بالشعر ، كما تدل على ذلك مقاماته التسع التى جاءت فى هذه الناحية خاصة . وإليك منها قوله فى المقامة القريضية يصف الشعراء . قال فى امرىء القيس ، هو أول من وقف بالديار وعرصاتها واغتدى والطير فى وكناتها ووصف الخيل بصفاتها ولم يقل الشعر كاسباً ولم يجد القول راغباً ففضل من تفتق للحاجة لسانه وانتجع للرغبة بنانه ، وقال فى النابغة الذبيانى ، يثلب إذا حنق ويمدح إذا رغب ويعتذر إذا رهب ولا يرمى إلا صائباً ، وقال فى زهير ، يذيب الشعر والشعر يذيبه ويدعو القول والسحر يجيبه ، وقال فى

طرفة هو ماء الأشعار وطينتها وكنز القوافى ومدينتها مات ولم تظهر أسرار دفائنه ولم تفتح أغلاق خزائنه ، ثم قال فى جرير والفرزدق، جرير أرق شعراً وأغزر غزراً والفرزدق أمتن صخراً وأكثر فخراً ، وجرير أوجع هجراً وأشرف يوماً والفرزدق أكثر روما وأكرم قوما ، وجرير إذا نسب أشجى وإذا ثلب أردى وإذا مدح أثنى والفرزدق إذا افتخر أجزى وإذا احتقر أزرى وإذا وصف أوفى ، وأخيراً قال فى المتقدمين من الشعراء والمتأخرين منهم ، المتقدمون أشرف لفظا وأكثر من المعانى حظا والمتأخرون ألطف صنعا وأرق نسجا ، وهذه أقوال أخذها مؤرخو الأدب حجة ، وأجمعوا على صدقها ، كما أجمعوا على أن البديع من أبعد الأدباء عن متناول النقد وأقلهم مآخذ ، وقل من شاركه فى ذلك من الأدباء .

هذا بعض ما أردت ذكره عن حياة بديع الزمان الأدبية ، غير أنى أنقصه قدره إن لم أعقب ذلك بخلاصة ما دار من المناظرة بينه وبين أبى بكر الخوارزمى رأس الأدباء فى ذلك العصر ، لما أفضت إليه من قبض البديع على صولجان الأدب وهو فتى صغير من ذلك العيلم وهو شيخ كبير فأقول.

إن تنازع هذين العلمين رياسة الأدب وولع الخاص والعام بمعرفة أحقهما بلبس تاجه ، دعا السيد أبا القاسم فجمع بينهما فى داره للمناظرة فيما تنازعا فيه ، على مشهد من القضاة والفقهاء والأدباء والأشراف وغيرهم من سائر الناس ، حتى إذا ما آن وقت الكلام قال البديع للخوارزمى ، هلم إلى الأدب نتفق يومنا عليه وإلى الجدل نتجاذب طرفيه ، فاسمع خيرا وأسمعنا مثله ، ولنبدأ بالفن الذى ملكت به زمانك وفت فيه أقرانك ، قال وما هو قال الحفظ إن شئت والنظم إن اخترت والنثر إن أردت والبديهة إن نشطت ، فمال الخوارزمى إلى أحد الحاضرين يسأله بيتا ليجيز ، فقال البديع إن كانت الأجازة فهذا شعر أبى بكر الذى دونه فى صحيفة مآثره وجعله ترجمان محاسنه فسلونى أن أقرن كل بيت منه بوفقه وأنظم كل معنى إلى لفقه ، وشريطتى

ألا أقطع النفس ، وإذا تهيأ لأحد تمييز قوله من قولى أو الحكم على بيت بأنه له أولى فله يد السبق ، فقال الخوارزمى وما الذى يؤمننا من أن تكون نظمت من قبل ما تريد إنشاده الآن ، فقال اقترح لكل بيت قافية لا أسوقه إلا إليها ولا أقف به إلا عليها ، حتى يعرف الحالى من العاطل ويفرق بين الحق والباطل فأبى الخوارزمى ذلك ، فسألهما السيد المذكور قول الشعر فى واقعة الحال فقال البديع .

هذا الأديب على تعسف فتكه ... وبروكه عند القريض ببركه
متسرع فى كل ما يعتاده ... من نظمه متباطىء عن تركه
والشعر أبعد مذهبا ومصاعدا ... من أن يكون مطيعه فى فكه
والنظم بحر والخواطر معبر ... فانظر إلى بحر القريض وفلكه
فمتى توانى فى القريض مقصر ... عرضت أذن الامتحان بعركه
هذا الشريف على تقدم بيته ... فى المكرمات ورفعه فى سمكه
قد رام منى أن أقارن مثله ... وأنا القرين السوء إن لم أنكه
وإذا نظمت قصمت ظهر مناظرى ... وحطمت جارحة القرين بدكه
ودبغت منه أديمه وتركته ... نهج الأديم بدبغه وبدلكه
اصغوا إلى الشعر الذى نظمته ... كالدر رصع فى مجرة سلكه
فمتى عجزت عن القرين بديهة ... فدمى الحرام له إراقه سفكه

وأبى أبو بكر أن يبرز ما قال رغم تشديد الحاضرين ، فاقترحوا عليهما أن يقولا على وزن قول المتنبى .

أرق على أرق ومثلى يأرق ... وجوى يزيد وعبرة تترقرق

فابتدر أبو بكر الإجازة بقوله :

وإذا ابتدهت بديهة يا سيدى ... فأراك عند بديهتى تتقلق
وإذا قرضت الشعر فى ميدانه ... لا شك أنك يا أخى تتشقق
إنى إذا قلت البديهة قلتها ... عجلا وطبعك عند طبعى يرفق
ما لى أراك ولست مثلى عندها ... متموها بالترهات تمخرق

إنى أجيز على البديهة مثل ما ... تريانه وإذا نطقت أصدق
لو كنت من صخر أصم لهاله ... منى البديهة واغتدى يتفلق
أو كنت ليثا فى البديهة خادرا ... لرئيت يا مسكين منى تفرق
وبديهة قد قلتها متنفسا ... فعل الذى قد قلت ياذا الأخرق

ثم أخذ يعتذر ويقول ،إن هذا كما يجىء لا كما يجب ،فقال له البديع قبل الله عذرك ولكن مالى أراك بين قواف مكروهة وقافات خشنة كل قاف كجبل قاف ، وماذا عنيت فى بيتك الأول أمدحت أم قدحت وزكيت أم جرحت : فقد بدأت فخاطبت بيا سيدى ، وختمت فقفيت بتتقلق ، وهما لا يركضان فى حلبة ، خذ الآن جزاء قرضك وأداء فرضك ثم أنشد :

مهلا أبا بكر فزندك أضيق ... فاخرس فان أخاك حى يرزق
دعنى أعرك إذا سكت سلامة ... فالقول ينجد فى ذويك ويعرق
ولفاتك فتكات سوء فيكم ... فدع الستور وراءها لا تخرق
وانظر لأشنع ما أقول وأدعى ... أله إلى أعراضكم متسلق
يا أحمقا وكفاك ذلك خزية ... جربت نار معرتى هل تحرق

فقطع عليه أبو بكر شعره بقوله :

إن قولك يا أحمقا لا يجوز لأنه لا ينصرف ،فقال له البديع أما الأحمق فى هذا المقام فلا يزال يصفعك لتصفعه حتى ينصرف وتنصرف معه ، ألا تعرف أن للشاعر رد ما لا ينصرف إلى الصرف كما أن له الرأى فى القصر والحذف ، ثم أنشده الشواهد على ذلك من أشعار العرب ، فعجب منه الحاضرون وأشاروا عليهما بالنسج على منوال قول المتنبى :

أهلا بدار سباك أغيدها ... أبعد ما بان عنك خردها

فقال البديع :

يا نعمة لا تزال تجحدها ... ومنة لا تزال تكندها

ولكن أبا بكر قاطعه بقوله وما معنى تكندها قال تكفرها وتجحدها قال معاذ الله أن يكون كند بمعنى جحد فأقبلت عليه الجماعة بالتخطىء تالية

قول الله تبارك وتعالى « إن الإنسان لربه لكنود » فملأه الغيظ حتى مال إلى السفه والسخف ، فقال البديع يا أبا بكر إن الحاضرين قد عجبوا من حلمى أضعاف ما عجبوا من علمى وتعجبوا من عقلى أكثر مما تعجبوا من فضلى ، أسمعنا يا قوال فغنى المغنى ابيانا منها .

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم فى الخد الرقيق

فقال أبو بكر أحسن ما فى الأمر أنى احفظ قصيدة هذا البيت وهو لا يعرفها فقال البديع إنى أعرفها ولكن برواية اخرى وأنشد .

وشبهنا بنسفج عارضيه بقايا الوشم فى الوجه الصفيق

وكان وجه الخوارزمى موسوما بالوشم فعلم أنه المقصود بالنكتة وأتته السكتة فأطرق مليا ثم قال والله لأضربنك وإن ضربت ولأشتمتك وإن شتمت ولتعلمن نبأه بعد حين ، فقال البديع مهلا أبا بكر فانك بين ثلاثة فصول لم تتخطها من عمرك لأنك كهل وأنت شاعر وكنت شابا وانت مقامر وكنت صبيا وأنت مؤاجر ، فزاد أبو بكر فى سفهه ولم يزد البديع على أن أنشد قول ابن الرومى .

إن كان شيخا سفيها يفوق كل سفيه
فقد أصاب شبيها له وفوق الشبيه

وتمثل بقول الآخر .

وأنزلنى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكله
أحامقه حتى يقال سخيفة ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

وبذلك ارفض المجلس ولهج الخاص والعام بعجز الخوارزمى ، فلم تكن إلا أيام حتى أوفد رسولا إلى البديع بكتاب يقول فيه . قد تواترت الأخبار وتظاهرت الآثار فى أنك قهرت وأنى قهرت ، ولا شك أن ذلك التواتر عنك صدرت أوائله ، والخبر إذا تواتر به النقل قبله العقل ، فلا بد أن نجتمع فى مجلس بعض الرؤساء فنتناظر بمشهد الخاصة والعامة أو تقر بعجزك عن بلوغ أمدى وقصورك عما أبدى . فكتب إليه البديع كتابا طويلا منه .

أما قولك قد تواتر الخبر بأنك قهرت وإنى قهرت وأن ذلك عن جهتى صدر ومن لسانى سمع ، فبالله ما أتمدح بقهرك ولا أتبجح بقسرك ، ولو قدرت على الناس لخطت أفواههم ولقبضت على شفاههم ، ولكن ما الحيلة وهل إلى ذلك من سبيل ، فأما هذا الوعيد فقد عرضته على جوانحى أجمع وجوارحى كلها فلم تلشده إلا بيت القائل .

وعيد تخرج الآرام منه ... وتكره نيـة الغنم الذئاب

وإن أحببت أن تطير الواقع وتهيج الساكن فرأيك موفقا . فلما قرأه لم يزل فى هرج ومرج حتى نشط السيد المذكور للفصل بينهما فاستدعاهما ثانية بداره فكان البديع أول من حضر ، وحضر بعده جمع من أكابر الفقهاء والأعيان ، ثم حضر الخوارزمى والجمع حافل فأخذ يتخطى الرقاب يريد الصدر ، فقال له البديع تزحزح عن الصدر إلى مقابلة أخيك فقال لست برب الدار فتأمر على الزوار ، قال ياعافاك الله حضرت لتناظرنى والمناظرة مأخوذة من النظر أو النظير ، ومن حسنها وتمامها أن يكون مقعدنا واحداً حتى يتبين الفاضل من المفضول فيتطاول السابق ويتقاصر المسبوق ، فقضت عليه الجماعة بذلك حتى قابل البديع بوجهه فقال له البديع أراك حريصاً على اللقاء سريعا إلى الهيجاء ولو زبنتك الحرب لم تترمرم ، فى أى علم تريد أن نتناظر فأومأ إلى النحو ، فقال إن شئت ذلك فسلم الآن ما كنت تدعيه ونتناظر فيه من سرعة فى البديهة وجودة فى الرواية وقدرة على الحفظ ونفاذ فى الترسل ، فقال لا أسلم ذاك ولا أتناظر فى غير هذا فانبرى إليه أحد الحاضرين قائلا أيها الأستاذ أنت أديب خراسان وشيخ هذه الديار ، وبهذه الأبواب التى قد عدها هذا الشاب كنا نعتقد لك السبق والحذق فتثاقلك عن مجاراته فيها مما يتهم ويوهم ، فلم ير بدا من منازلته فنازله بادئا بالحفظ فقال له البديع أنشدنى خمسين بيتا من قبلك مرتين حتى أعيدها وأنشدك عشرين بيتا من قبلى عشرين مرة وتعيدها ، فلم يرض وسلم الحفظ فتمثل البديع بقول القائل .

ومستلئم كشفت بالرمح ذيله أقمت بعضب ذى شقاشق ميله
فجعت به فى ملتقى الحى خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله

ثم قال كفيتنا مئونة الامتحان فى الحفظ فلو تفضلت وسلمت البديهة أيضا فأبى ، فقال له أحد الحاضرين إذا فهات على شعر أبى الشيص .

أبقى الزمان به ندوب عضاض ورمى سواد قرونه بياض

فقال

يا قاضيا ما مثله من قاض أنا بالذى تقضى علينا راضى
فلقد ليست ضفية ملومة من نسج ذاك البارق الفضفاض
لا تغضين إذا نظمت تنفسا إن الغضى فى مثل ذاك تغاضى
فلقد بليت بشاعر متقادر ولقد بليت بناب ذئب غاضى
ولقد قرضت الشعر فاسمع واستمع لنشيد شعر طائع وقراض
فلأغلبن بديهه ببديهتى ولأرمين سواده ببياضى

فقال له البديع ما معنى قولك ضفية والوصف لا يكون على فعيل بل على فاعل كضاف ، وقولك الفضفاض والفضفاض الواسع من الثياب لا من المطر ، وقولك إن الغضى فى مثل ذاك تغاضى والغضى لا يستعمل مصدرا بمعنى الأغضاء ، وقولك ذئب غاض والذئب لا يكون جملا يأكل الغضا ، وقولك لنشيد شعر طائع وقراض والقراض لا يكون بمعنى الشعر أبدا هلا قلت وقريض ، إلى غير ذلك من أغلاط أخذ يعددها عليه حتى أفحمه ، فدهش الحاضرون وقالوا قد عرفنا نقدك فقل أنت فى الربيع فقال .

برز الربيع لنا برونق مائه فانظر لروعة أرضه وسمائه
فالترب بين ممسك ومعنبر من نوره بل مائه وروائه
والماء بين مصندل ومكفهر فى حسن كدرته ولون صفائه
والطير مثل المحصنات صوادح مثل المغنى شاديا بغنائه
والورد ليس بممسك رياه إذ يهدى لنا نفحاته من مائه
زمن الربيع أتى بأزكى متجر وأضاء للرائين خير ضيائه

فكأنه هذا الرئيس إذا بدا ... فى خلقه وصفائه وعطائه
بحمى أعز محجر وندى أغر ... محجل فى خلقه ووفائه
يعشو إليه المجتوى والمجتدى ... والمحتوى هو هارب بذمائه
ما البحر فى تزخاره والغيث فى ... إمطاره والجو فى أنوائه
بأجل منه مواهبا ورغائبا ... لا زال هذا المجد حلف فنائه
والسادة الباقون سادة عصرهم ... متمدحون بمدحه وثنائه

ثم قال لأبى بكر انقد على كما نقدت فقال ،قلت فانظر لروعة أرضه ولا يقال نظرت له فردت عليه الجماعة بقول العرب نظرت إليه وله وفيه وبأن اللام كثيراً ما تأتى بمعنى إلى ،فقال شبهت الطير بالمحصنات والمغنى وأى وجه فى ذلك فقال إذا جاء الربيع شدت الأطيار تحت ورق الأشجار فكن كالمحصنات فى الخدر وكالمغنى فى الشدو ، فقال وما معنى قولك الغيث فى إمطاره والغيث هو المطر بعينه فقال لا سقى الله الغيث أديبا لا يعرفه كما يكون الغيث المطر يكون السحاب ، فقالت الجماعة وقد سئمت هذا النقد على غير حقيقة ، قد عرفنا أى الرجلين أشعر وأى الخصمين أقدر وأى البديهتين أسرع وأى الروايتين أصنع ، ميلوا بنا إلى الترسل فقال البديع للخوارزمى اقترح على غاية ما فى طوقك ونهاية ما فى وسعك حتى أقترح عليك أربعمائة صنف فى الترسل، فان سرت فيها برجلين ولم أطر أنا بجناحين فلك يد السبق وقصبه ، ثم أخذ يعدد له بعضاً من تلك الأصناف فيقول هل يمكنك أن تكتب كتابا إذا قرىء من آخره كان جواباً . أو كتابا إذا قرىء معوجا كان شعرا أو كتابا ليس فيه حرف منفصل كراء يتقدم ، أو كتابا خاليا من الألف واللام أو من الحروف العواطل أو أو إلى آخر ما ذكر، فقال أبو بكر هذه شعبذة ،فقال وهذا القول طرمذة فما الذى تحسن أنت حتى أباحثك فيه قال الكتابة التى يتعاطاها أهل الزمان ويتعرفها الخاص والعام ،فقال ألا تحسن إلا هذه الطريقة الساذجة قال نعم قال هات أطاولك فيها ، فاقترح عليهما الحضور أن يكتبا فى طلب النجدة من النقود وفسادها والتجارات ووقوفها ، فكتب أبو بكر بعد التسمية .

الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة بهما يتوصل إلى جنة النعيم ويخلد فى نار الجحيم قال الله تبارك وتعالى خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه أشد الإكبار وأنكرناه أعظم الإنكار لما نراه من الصلاح للعباد وتنويه من الخير للبلاد ، فعرفنا فى ذلك ما يربح الناس فى الزرع والضرع ويعود إليه أمر الضر والنفع .

وكتب البديع كتاباً ابتداه من آخره حتى انتهى بأوله ثم أومأ إلى الجماعة أن تقرأه معكوساً فبهتوا منه وأمروه بقراءته فإذا فيه .

إن رأى الأمير الجليل أطال بقاءه وأداه تأييده ونعماه أن يتدارك بجميل نظره ويسعفنا بعظيم همه فقد بعثنا إليه وفود آمالنا وكشفنا له وجوه أحوالنا ، وشمنا بارقة كرمه وانتجعنا مصات شيمه ، لينظر نظراً كريما ، فقد صار الناس أجمع صيارفة والنقود زائفة والتجارات واقفة ، ونحن نتضرع إليه فى أن يحط هذا الكل عن أهل الدين ويرفع هذا الثقل عن ظهور المسلمين ، فإذا جرى الأمير أدام الله تأييده فى أياديه على مقتضى آمالنا فيه ، كانت له آثار ترشق لها بطون المحابر وتمشق بها وجوه الدفاتر وتفرع لها ظهور المنابر وتملأ بها صدور المحاضر إن شاء الله (١) .

فقال الحاضرون قد عرفنا الترسل أيضا مل بنا إلى اللغة فقال البديع يا أبا بكر هذه كتب اللغة وتلك مؤلفاتها خذ غريب المصنف أو إصلاح المنطق أو ألفاظ ابن السكيت أو مجمل اللغة أو أدب الكاتب واقترح على أى باب شئت حتى اسرده لك سرداً فقال اقرأ من غريب المصنف (رجل ماس خفيف على مثال مال وما أمساه إلى آخره) فاندفع فى الباب حتى أتمه دون تردد وأتى على الباب الذى يليه ، ثم قال اقترح غيره فقال القوم كفى وقال البديع اقرأ أنت باب المصادر من أخبار فصيح الكلام فقرأ قليلا ثم توقف ، فقال القوم للبديع واللغة مسلمة لك أيضا هات غيرها ، فقال

---

(١) يظهر أن البديع بدأ هذا الكتاب من آخر الورقة حتى انتهى به فى أولها وهذا سهل .

يا أبا بكر هلم إلى العروض فهو أحد أبواب الأدب فسأله فيه جملة أسئلة سرد للأجابة عليها خمسة أبحر بقوافيها وضروبها وعللها وزحافها، ثم سأله هو فعجز كما عجز فى اللغة . وبهذا انفض المقام حيث نضب معين الكلام، وأخذ الناس يفدون البديع بالأم والأب وينحون على الخوارزمى باللعن والسب ، فغشى على أبى بكر لما لاقاه وقام البديع ينشد فى سوء عقباه .

يعز على فى الميدان أنى قتلت مناسبى جلدا وقهرا
ولكن رام شيئا لم يرمه سواء فلم أطق يا قوم صبرا

ثم مسح بالماء وجهه وعينيه حتى أفاق ، فتفرق العام وحبس الخاص للطعام ،فلما حلقوا على الخوان قال البديع يا أبا بكر بقيت لك منة وفيك مسكة وأنشده :

يا قوم إنى أرى الأموات قدنشروا والأرض تلفظ موتاكم إذا قبروا

ثم أخذ يوجه إلى قرينه ضروب السخرية والاستهزاء ، حتى أوشك أن يغوص فى الأرض حياء وخجلا ، فقال القوم للبديع قد ملكت فأسجح فعفا عنه عفو المحسن وحلم عليه حلم القادر ، وصار البديع فى صناعة الكلام غير مدافع ، ولم يزل خصمه فى حسرات وزفرات حتى أعجل عما قليل براحة الممات .

هذه خلاصة المناظرة ، ومنها يوقف على مقدرة البديع الأدبية هذا وإن كتابه إلى صديقه الذى هنأه بمرض الخوارزمى وقد سلف ليدل على منزلته الخلقية بجوار الأدبية ،وفى الحق أن الرجل قد حاز الثقة فى كلتا الناحيتين وأمسك بكلا الطرفين . رحمه الله رحمة واسعة وأدام الانتفاع بأدبه وفضله ما كر الجديدان وتتابع الملوان من ليل ونهار والسلام .

البحتري [1]

هو أبو عبادة الوليد بن عبد الله بن يحيى ، ينتهي نسبة إلى بحتر الجد الثاني عشر فألى طيء الجد التاسع عشر ثم إلى قحطان الجد السادس والعشرين، وسلسلة هذا النسب كله في أول ترجمته بالأغاني ، وإلى طيء فقط في أول الجزء الثاني من ديوانه المنبه عنه بالهامش وكان ينبغي أن تكون في أول الجزء الأول ، فهو عربي الآباء من قحطان وكذلك كان عربي الأم ولكن من عدنان فأمه من بني ناهل من تغلب ، وقد كان يعتز بهذه العروبة ويفخر بآبائه وأجداده من طيء وتغلب أيما فخر . على أنه كان يتعصب لعمومته ويعلو بهم على خئولته كما كان أحياناً يترك هذه العظامية النسبية ويفخر بالعصامية النفسية ،وستأتي على ذلك شواهد في فنونه بعد .

وقد ولد البحتري بمدينة منبج سنة ٢٠٦ هـ وبها توفي سنة ٢٨٤ بعد عودته إليها عقب إقامته معظم عمره في بغداد كما سترى في نشأته وسيرته ، ومن هذين التاريخين ترى أنه من المعمرين وأنه من المخضرمين الذين عاشوا دهراً في كلا العهدين العباسيين أواخر الأول وأوائل الثاني ، حيث ازدهار الأدب عامة والشعر خاصة ، كما رأيت آنفا في هذا الجزء الثاني من تاريخ الأدب .

---

(١) اعتمدنا في هذه الترجمة على الديوان بعد استيعابه وتفحصه طبعة أمين هندية سنة ١٣٢٩ هـ الموافقة لسنة ١٩١١ م وهذه الطبعة منقولة عن نسخة مخطوطة قديمة كتبت سنة ٤٢٤ هـ بخط علي بن عبد الله الشيرازي بتبريز ، وقد تولى الأصلاح لهـا والتعليق عليها الأديب المرحوم عبد الرحمن البرقوقي .

١ — نشأته وسيرته

نشأ البحترى بمدينة منبج حيث ولد ، وهى مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة ، فى فضاء من الأرض ، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة ، وقد جعلها الرشيد حين أفرد العواصم عاصمة إقليمها ، وأسكنها عبد الملك بن صالح أجل قريش ولسان بنى العباس ، وقال له ، هذا البلد منزلك ، فقال يا أمير المؤمنين هو لك ولى بك ، فسأله أن يصفها فقال ، طيبة الهواء قليلة الأدواء ، قال كيف ليلها قال سحر كله ، قال صدقت إنها لطيبة ، قال بك طابت يا أمير المؤمنين وأين يذهب بها عن الطيب وهى برة حمراء وسنبلة صفراء وشجرة خضراء ، فى فياف فيح بين قيصوم وشيح ، فقال الرشيد هذا الكلام والله أحسن من الدر النظيم ، ولمنبج فى قلوب قاطنيها وبخاصة أبناؤها الناشئون فيها هوى حاد مقيم ، انظر إلى إبراهيم بن المدبر وكان قد أقام بها عاملا مدة حين ولى الثغور الجزرية يقول إذ فارقها ، متشوقا إليها وإلى حبيب له فيها :

وليلة عين المرج زار خياله ... فهيج لى شوقا وجدد حزانى
فأشرفت أعلى الدير أنظر طامحا ... بألمح آماقى وأنظر إنسانى
لعلى أرى ابيات منبج رؤية ... تسكن من وجدى وتكشف أشجانى
فقصر طرفى واستهل بعبرة ... وفديت من لو كان يدرى لفدانى
ومثله شوقى إلى مقابلى ... وناجاه عنى بالضمير وناجانى

فى هذه المدينة نشأ البحترى ، فكان إذا امتد بصره شرقا رأى الفرات ووديه ، وإذا غرب غرباً مر بحلب وجاوزها إلى لبنان ، وفى هذه المناحى الغنية بآيات الجمال ترعرع وهو المفطور على قوة الخيال المقدور له أن يكون فى حياته الأولى شاعر تلك الديار ، فاتسع خياله وبلغت شاعريته ، وقد كان له — فوق ما يجد فيها من المدد الحسى لخياله وشاعريته — مدد آخر معنوى ، به يفخر ومنه يأخذ ، هو عشائر طيء أجداده لأبيه وعشائر تغلب

أجداده لأمه الضاربة هناك فى عز راسخ وسؤدد مقيم ، ولعل مما حبب إليه هذه الديار خاصة وإقليم الشام عامة فوق أنها وطنه عشقه بها علوة بنت زرعة من حلب ، تلك التى أكثر النسيب بها فى معظم قصائده كما سترى حيث الكلام على النسيب فى فنون شعره ، وقد أفاض البحترى فى تمجيد هذا الوطن الأول إفاضة واسعة ، مما يدل على مكانته عنده ، وعلى أنه كان يخشى أن ينسيه إياه وطنه الثانى بالعراق وبغداد ، وكثيراً ما صرح بفضل الشام عنده على العراق كما سترى فى فنونه بعد .

وقد اتصل البحترى أول نشأته فى الشام بأبى تمام ، وكلاهما طائى ، اتصالا طويلا فإن البحترى ولد كما سبق سنة ٢٠٦ وتوفى أبو تمام سنة ٢٣١ ، وإنا لتاركوه يتحدث عن ذلك — وهو أمر جدير كل الجدارة أن يذكر فى نشأته — على ما ذكر الأغانى عنه بأسانيده ص ١٦٩ ج ١٨ .

قال : « أول ما رأيت أبا تمام أنى دخلت على الأمير أبى سعيد محمد بن يوسف وقد مدحته بقصيدتى :

أ أفاق حب من هوى فأفيقا أم خان عهداً أم أطاع شفيقاً[1]

فسر بها أبو سعيد وقال أحسنت والله يا فتى وأجدت قال وكان فى مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس فوق من حضر عنده تكاد تمس ركبته ركبته ، فأقبل على ثم قال يا فتى أما تستحى منى وهذا شعر لى تنتحله وتنشده بحضرتى ، فقال له أبو سعيد أحقاً تقول قال نعم وإنما علقه منى فسبقنى به إليك وزاد فيه ، ثم اندفع فأنشد أكثر هذه القصيدة حتى شككنى علم الله فى نفسى وبقيت متحيرا ، فأقبل على أبو سعيد فقال يا فتى قد كان فى قرابتك لنا وودك إيانا ما يغنيك عن هذا ، فجعلت أحلف له بكل محرجة من الأيمان أن الشعر لى ما سبقنى إليه أحد ولا سمعته منه ولا انتحلته ، فلم ينفع ذلك شيئاً ، وأطرق أبو سعيد وفظع بى حتى تمنيت أنى سخت فى الأرض ، فقمت منكسر البال

---

(١) عدة هذه القصيدة ٧٣ بيتاً وهى بالديوان صفحة ١٤٥ جزء ٢ .

أجر رجلى فخرجت ، فما هو إلا أن بلغت الباب حتى خرج الغلمان فردونى، فأقبل على الرجل فقال الشعر لك يا بنى والله ما قلته قط ولا سمعته إلا منك، ولكننى ظننت أنك تهاونت موضعى فأقدمت على الإنشاد بحضرتى من غير معرفة كانت بيننا تريد بذلك مضاهاتى ومكاثرتى ، حتى عرفنى الأمير نسبك وموضعك، ولوددت ألا تلد أبدا طائية إلا مثلك ، وجعل أبو سعيد يضحك، ودعانى أبو تمام وضمنى إليه وعانقنى وأقبل يقرظنى ،ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه واقتديت به ، وفى رواية أخرى عن البحترى أن أبا تمام قال للأمير وكان قد أنشده قصيدة له قبل البحترى قد جعلت له جائزتى فأمر فضمت إلى جائزة البحترى وأعطى أبا تمام مثلها .

بهذا بدأت صلة البحترى بأبى تمام وهناك سبب آخر عن هذا البدء حدث البحترى عنه أيضا فقال، كان أول أمرى فى الشعر ونباهتى فيه أنى صرت إلى أبى تمام وهو بحمص ، فعرضت عليه شعرى وكان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فأقبل على وترك سائر الناس ، فلما تفرقوا قال أنت أشعر من أنشدنى فكيف حالك فشكوت إليه خلة فكتب إلى أهل معرة النعمان وشهد لى بالحذق فى الشعر وشفع لى إليهم ، وقال امتدحهم فصرت إليهم بكتابه فأكرمونى ووظفوا لى أربعة آلاف درهم فكان أول ما أصبته من الشعر ، وهذا هو كتاب أبى تمام المذكور « يصل كتابى مع الوليد أبى عبادة الطائى وهو على بذاذته شاعر فأكرموه » والبذاذة سوء الحالة ورثاثة الهيئة . على هذا كان أبو تمام يرفع من شأن البحترى وكان البحترى يعرف ذلك الصميع ويقدره . قال أبو محمد عبد الله بن الحسين القطربلى للبحترى وقد أنشده شعرا فى معنى قال فيه أبو تمام على مسمع من جماعة فيهم المبرد « أنت فى هـــذا أشعر من أبى تمام » فقال كلا والله ذاك الأستاذ الرئيس ،والله ما أكلت الخبز إلا به ،فقال له المبرد تأبى إلا شرفا من جميع جوانبك ، وحقيقة كان البحترى يقف من أبى تمام موقف التلميذ من الأستاذ كما يقف أبو تمام منه موقف الأستاذ من التلميذ ،استمع إلى البحترى يقول أنشدنى أبو تمام يوما لنفسه .

وسابح هطل التعداء هتان على الجراء أمين غير خوان
أظما الفصوص وما تظما قوائمه نخل عنك إلى ظمآن ريان
فلو تراه مشيحاً والحصا زيم بين السنابك من ثنى ووحدان
أيقنت إن لم تثبت أن حافره من صخر تدمر أومن وجه عثمان

ثم قال لى ما هذ الشعر قلت لا أدرى قال هذا هو المستطرد ، قلت وما معنى ذلك قال يريك أنه يريد وصف الفرس وهو يريد هجاء عثمان ، قال محمد بن على الأنبارى المحدث بهذا الخبر فى الأغانى . وقد فعل البحترى ذلك فى صفة الفرس أيضاً فقال :-

ما إن يعاف قذى ولو أوردته يوما خلائق حمدويه الأحول

وكان حمدويه هذا عدوا لمحمد بن على القمى الممتدح بهذه القصيدة فهجاه فى عرض مدحه محمدا .

وكان البحترى لا يعرف لشاعر قبله إحسانا كأحسان أبى تمام ، قال إسماعيل بن على ، أنشدت يوما والبحترى عندنا :-

نسب كان عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمودا
عريان لا يكبو دليل من عمى فيه ولا يبغى عليه شهودا
شرف على أولى الزمان وإنما خلق المناسب ما يكون جديدا

فقال لمن هذا قلت لأبى تمام فقال فرجت والله عنى وأذكرتنى ، عجبت أن يكون هذا الإحسان لغيره ، وكان يعرفه ولكنه نسيه .

تخرج البحترى على أبى تمام حقا ، وعلم أبو تمام أن البحترى قد تم تخريجه حقاً ، وأنه سيخلفه على إمارة الشعر من بعده حقاً . وفى الأبانة عن هذه النواحى الثلاث يقول البحترى كما فى الأغانى ، قال لى أبى تمام بلغنى أن بنى حميد أعطوك مالا جزيلا فيما مدحتهم به ، فأنشدنى بعض ما قلته فيهم ، فأنشدته فقال كم أعطوك قلت كذا وكذا فقال ظلموك والله ما وفوك حقك ، ثم قال ، لعمرى لقد استكثرت واستكثر لك ، لما مات الناس وذهب الكرام وغاضت

المكارم ، فكسدت سوق الأدب ، أنت والله يابنى أمير الشعراء غداً بعدى ، قال فقمت فقبلت رأسه ويديه ورجليه وقلت له ، والله لهذا القول أسر إلى قلبى وأقوى لنفسى مما وصل إلى من القوم .

وقد كان أبو تمام يرى أن البحترى قد بلغ الذروة ونال الأوج ولما يبلغ الخامسة والعشرين ، فكيف وقد عاش بعده أكثر من خمسين سنة كما يتضح ذلك من حديث للبحترى عنه قال :-

أنشدت أبا تمام شيئاً من شعرى فتمثل ببيت أوس بن حجر .

إذا مقرم منا ذرا حد نابه تمخط فينا ناب آخر مقرم

ثم قال لى نعيت والله إلى نفسى فقلت أعيذك بالله من هذا القول ، فقال إن عمرى لن يطول ، وقد نشأ فى طيء مثلك ، أما علمت أن خالد بن صفوان رأى شبيب بن شيبة وهو من رهطه يتكلم فقال له يابنى لقد نعى إلى نفسى إحسانك فى كلامك لأنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب قط إلا مات من قبله . فقلت له بل يبقيك الله ويجعلنى فداءك . قال البحترى ومات أبو تمام بعد سنة

وقد كان البحترى حيث فدى أبا تمام فيما دلف من حديث يفديه عن عقيدة وإخلاص ، فقد رثاه فأجاد ، وكان يذكره عند كل حادث يشبه حدثه ، انظر إليه يقول يوم مات دعبل الخزاعى بالأهواز ودفن فيها سنة ٢٣٦ فيذكر أبا تمام حين مات بالموصل ودفن فيها سنة ٢٣١ .

قد زادنى كلفى وأوقد لوعتى مثوى حبيب يوم مات ودعبل

وسيتضح كثير من اقتفاء البحترى لأبى تمام حيث نتكلم على سرقاته منه ، كما ستتضح كذلك مشابه للبحترى بأبى تمام حيث نوازن بينهما بعد تلك السرقات :-

هذا ولما كانت بغداد وحدها حيث يعيش البحترى بالشام مركز كل حركات النهضة وبخاصة الأدب وأهمه الشعر ، كان طبيعياً والآداب لما تتوطن بعد أن يقصدها شاعر ضليع كالبحترى ، فقصدها ، وحين هبط كان همه أن يتصل

بالخليفة المتوكل، ولكن بدأ بمدح أعيانها وكبرائها، وكان يغادرها مع هؤلاء إلى « سر من رأى » ثم اتصل بالفتح بن خاقان وزير المتوكل وطلب إليه أن ينشده فسمح له، وهنا أنشده أول ما أنشده لاميـــة اهتز لها وطرب — كان منها :-

وقد قلت للمعلى إلى المجد طرفه ... دع المجد فالفتح بن خاقان شاغله
سـان أمير المؤمنين وسيفه ... وسيب أمير المؤمنين ونائله
تشب به للناكثين حروبه ... وتدنو به للخابطين نوافله
أطل بنعماه فمن ذا يطاوله ... وعم بجدواه فمن ذا يساجله
ضمنت عن الساعين أن يلحقوا به ... إذا ذكرت آلاؤه وفواضله
أيبلغه بالسعى قوم وقد سعوا ... فما بلغوا بعض الذى هو باذله

وعندئذ أكرمه الفتح ووصله وأخذ يرفعه إلى العلا، فنال قسطاً جماً من شعره كان جله فى المدح وبعضه فى الاعتذار، الذى بلغ معه فيه مبلغ النابغه مع النعمان كما سترى بعد، وقد توسل البحترى إلى الفتح أن يصله بالمتوكل فأجابه وكان المتوكل على خروج لصلاة عيد الفطر بالناس وخطبتهم، فطلب إليه الفتح أن يمدح المتوكل فى ذلك فعمل رائيته ذات الشهرة الفائقة التى تقدمت بالنماذج، ولما أنشدها إياه أمر له بعشرة آلاف درهم، ثم تدفق فى مدائح المتوكل حتى صار من جلسائه، وكثيراً ما كان يكلفه قول الشعر فى أمور تعرض له، وأخبرا اتخذه من جلسائه وكان يفضى إليه بذات نفسه وبما بينه وبين جواريه، ولما قتل المتوكل وقتل معه الفتح، بكاهما أحر بكاء، ورثاهما أبقى رثاء، على ما كان يتعرض له بذلك من عقاب قد يكون القتل ولما لم يجد فى بغداد منهما عوضاً وأظلمت فى وجهه بعد إشراق، غادرها إلى مدينة منبج بالشام، ولكنها لم تنسه بغداد، فكان يتردد عليها ويمدح من فيها توصلا إلى طلب المال وعيش الدعة الذى كان، وقد تحايل على إرضاء المنتصر الخليفة بعد أبيه المتوكل واتخذ سبيلا لذلك ما كان للمنتصر من رد مظالم العلويين وإعادة قبر الحسين الذى كان قد هدمه أبوه لأنه كان ضد

الشيعة فمدحه وقبل المنتصر منه ، ولما تولى المستعين من أبناء المعتصم وقتل تامش الوزير وشجاعا الكاتب وكانا ظالمين ، مدحه وجعله مخلص الدولة من الفتن والمظالم ، أما حين أرغم المعتز من أبناء المتوكل المستعين على التنازل وتولى الخلافة بعده ، فقد وسع رد الملك إلى أبناء المتوكل القول أمام البحترى فى مدح المعتز ، ولكن لم يلبث الملك أن خرج من بيت المتوكل إلى المهتدى ابن الواثق ، غير أن البحترى مدحه لصلاحه الذى جعله ينادى دون من قبله ومن بعده من بنى العباس باسم « عمر بن عبد العزيز » ، أن الملك لم يلبث أن عاد إلى المعتمد من أبناء المتوكل ومكث خليفة ثلاثا وعشرين سنة كانت فسحة لمدائح البحترى وملازمته إياه ، ولم يعرف له بعد وفاة المعتمد سنة ٢٧٩ فى السنين الثلاث التى عاشها بعده بمنهج مدح فى إنسان. وستأتى نماذج من هذه المدائح فى فنونه بعد .

ثانياً — شاعريته واتساع فنونه ومنزلته

خلق البحترى موهوب الاستعداد للشعر فضلا عن أنه عربى الأبوين ، ونشأ فى بيئة مساعدة على الشاعرية من حيث جمالها الحسى ومن حيث امتلاؤها بالقبائل العربية وأهمها طيء التى ينتمى إليها ، وقد تتلمذ طويلا على أبى تمام الذى أعانه على الشعر وعمل على إشهاره بين الناس ، كما سبق فى كتابته له إلى أهل المعرة ، حيث وظفوا له عطاء سنويا ، كما عمل معه على أن يجود شعره ، يدل على ذلك الوصية التى حفظها البحترى عنه فى كيفية معالجته الشعر ومنها « فان أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا والمعنى رشيقا وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الأشواق ولوعة الفراق ، وإذا أخذت فى مدح سيد ذى أياد فأشهر مناقبه وأظهر مناسبه وأبن فعاله وشرف مقامه وتقص المعانى واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام »

كل هذا جعل البحترى ينبغ فى الشعر ويتخذ لنفسه طريقة فيها محاسن

أبى تمام من الدقة فى المعانى ولطف الأخذ من المتقدمين ، إلى ما حاكى فيه البدو من صدق التعبير ، وحسن الأداء ، ووضوح الدلالة ، فألى ما امتاز به من رقة الألفاظ وسهولة الأساليب ، مع تجنب الأغراق فى المعانى والأرهاق فى الصناعة ، مما وقع فيه أبو تمام .

هذا وقد قال البحترى فى جميع أغراض الشعر وأجاد فيما قال ، وديوانه الذى لا يزال ضخما بين أيدينا على رغم ما ضاع منه عن يقين ، يساعدنا على هذا الحكم ، ففيه ما يقرب من خمسة عشر ألف بيت ، وليس هناك غرض لم يقل فيه كما ترى فى هذه الالمامة اليسيرة بفنونه الشهيرة .

١ — المـــدح

استغرق المدح جزءا كبيراً من الديوان ، وقد تناول فيه ستة خلفاء ذكرنا أسماءهم فى سيرته ، أولهم المتوكل وقد سبقت بالنماذج رائيته فيه ، وثانيهم المنتصر وكان خير ما يمتدحه به رده لمظالم آل أبى طالب كقوله من رائية طويلة :

حججنا النية شكرا لما حبانا به الله فى المنتصر
من الحلم عند انتقاض الحلو م والحزم عند انتقاض المرر
تطول بالعدل لما قضى وأجمل فى العفو لما قدر

إلى أن قال

رددت المظالم واسترجعت يداك الحقوق لمن قد قهر
وآل أبى طالب بعد ما أذيع بسربهم فابذعر
ونالت أدانيهم جفوة . . . تكاد السماء لها تنفطر
وصلت شوابك أرحامهم وقد أوشك الحبل أن ينبتر
فقربت من حظهم ما نأى . . . وصفيت من شربهم ما كدر

وثالثهم المستعين وكان مدحه له يتكىء على قتله تامش الوزير وشجاعا الكاتب ، لما نشرا من ظلم وعدوان كأن يقول :

لقد نصر الأمام على الأعادى وأضحى الملك موطود العماد
وعرفت الليالى فى شجاع وتامش كيف عاقبة الفساد
تمادى منهما غىٌ فلجا وقد تردى اللجاجة والتمادى
بدار فى اقتطاع الفىء جسم وسعى فى فساد الملك باد
بهضم للخلافة وانتقاض وظلم للرعية واضطهاد
أمير المؤمنين اسلم فقدما نفيت الغى عنا بالرشاد
تدارك عدلك الدنيا فقرت وعم نداك آفاق البلاد

ورابعهم المعتز الذى عاد به الملك إلى بيت المتوكل وفيه يقول من قافية باسقة :

يتقيل المعتز فضل جدوده بخلال محمود الخلال موفق
ملك تدين له الملوك وتقتدى لجج البحار بسيبه المتدفق
لهج بإصلاح الأمور يروضها تدبيره فى منهج متوثق
ومهذب الأخلاق يعطفه الندى عطف الجنوب من القضيب المورق
طلق فان أبدى العبوس تطأطأت شوس الرجال وخفضت فى المنطق
يعشى العيون الناظرات إذا بدا قمر مطالعه رباع الجوسق

وخامسهم المهتدى وهو وان كان الملك خرج به من بيت المتوكل إلا أن صلاحه وتقواه وهجره الملاهى والملذات جعل البحترى يدخل إلى مدحه من هذه الناحية كأن يقول مخاطبا له :

هل الدين إلا فى جهاد تقودنا اليه عجالا أو صلاة تقيمها
تقضت ليالى الشهر إلا بقية تهجد فيها جاهداً أو تقومها
وأيسر ما قدمت لله طالبا لمرضاته أيام فرض تصومها
هجرت الملاهى حسبة وتفردا بآيات ذكر الله يتلى حكيمها
وأخللت باللذات وهى أوانس مرابعها مستحسنات رسومها
وما تحسن الدنيا إذا هى لم تعن بآخرة حسناء يبقى نعيمها

بقاؤك فينا نعمة الله عندنا فنحن بأوفى شكره نستديمها

أما الأخير فهو المعتمد من أبناء المتوكل، وقد مكث خليفة ثلاثا وعشرين سنة انفسح فيها المجال لمدائح البحترى له كما تقدم.

وهذه أبيات يسيرة من بعض مطولاته فيه :

أيها الجازع أجواز الفلا يطلب الجدوى من القوم الجمد
خل عنك الناس لا تغرر بهم واعتمد نحو الأمام المعتمد
ملك يكفيك منه أنه وجد الدنيا وأعطى ماوجد
لو من الغيث الذى تجرى به راحتاه من عطاء لنفد
همة نعرفها فى جعفر وخلال منه يكثرن العدد
أشرقت أيامنا فى ملكه وازدهت حسنا لياليا الجدد

ولما مات المعتمد هجر البحترى بغداد إلى مسقط رأسه منبج وعاش بعد ذلك ثلاث سنوات لم يعرف له فيها مدح لإنسان ، هذا ولم يدع البحترى مع مدائحه هؤلاء الخلفاء الستة أميرا ولا وزيرا ولا ذا مكانة إلا مدحه ، كما تدل على ذلك عناوين القصائد بالديوان ، ولذلك خلف لأولاده وأحفاده ثروة جعلتهم من ذوى الرياسة الممدحين ، ويكفى أن تعلم أن المتلبى على كبريائه كان من مداحى حفيديه أبى عبادة بن يحيى وأخيه عبد الله ، وقد سبق بعض هذه المدائح فى الفتح بن خاقان ، وعلى هذا النحو كان يقول فى غيره .

٢ - الهجاء

لست من الذين يقولون إن البحترى لم يجد الهجاء ، بل من القائلين إنه أجاده وأكثر منه ، ولكن الذى غض من هجائه أنه لم يبلغ درجة مديحه لا فى الكم ولا فى الكيف ، وليس ذلك بمسوغ الحط من قيمته ، ها هو ذا يقول فى عبد الرحيم بن أبى قماش وقد كان يتصابى ويتودد النساء على كبر سنه وقبح خلقه ، من قافية طويلة :

أنت كما قد علمت مضطرب الهـ ـيئة والقد ظاهـ ـر الجلف
والسن قد بينت فناءك فى شدق على ما ضغيك منخسف
وجه لعين القسيمين يقطعه أنف طويل محدد الطرف
ودتة نحت غنة قـ ـذرت من هالك الراء ذامر الألف
كأن فى فيه لقمة عقلت لسانه فالتوى على جنف
تناصر النوك والركاكة مخبل الأنحناء والحنف
وأعرضت ظلمة الخضاب على عثنون تيس باللوم منعقف
محرك رأسه توهمـ ـه قد قام من عطسة على شرف
سماجة فى العيون فاحشة خلفت فى جلها أبا خلف
تروم وصل المها وأنت كذا هذا لعمرى ضرب من الخرف

وها هو ذا يقول أيضا فى يعقوب بن الفرج النصرانى وقد ماطله فى مال له ، من جيمية طويلة :

أيتلف يعقوب مالى لديه ويعقوب متئـ ـد لم يهج
وإنى ملىء بالأيسـ ـر بما نال منى ولا يبتهج
إذا شد عـ ـروة زناره على سلحة ضخمة وانتفج
توهم أنى لا أستطيـ ـع مساءة أعثر بادى الهوج
فهلا تورع عما جنى على الخبيث والا حرج

وقد تناول فيها زوجته بأقذاع شديد . ولست مع الأغانى فى أنه لم يجد الهجاء إلا فى هذين ، فقد أجاده فى كثير غيرهما كالخثعمى وعلى المكفوف وأبى خالد محمد بن على والمسدود وسعد الحاجب وإسماعيل بن شهاب وعلى بن الجهم وصالح الهاشمى وابن رياح وعبيد الله بن عبد الله وابن أبى العلاء المغنى إلى غير هؤلاء . وكثيرا ما كان يجمع فى القصيدة الواحدة بين هجو شخص ومدح آخر كما ترى فى نونيته ص ٢٨٨ / ٢ التى مدح فيها أبا عيسى ابن صاعد وهجا ابن البريدى ، كما كان يتقلب مع الشخص الواحد بين الهجاء والمدح فيكون قولاه كفرسى رهان ، انظر فى ذلك أشعاره فى آل ، ثوابة ذاما

أولا ومادحا ثانياً ،وهى ذات كثرة وطول فى الديوان .

٣ — الرثاء والعتب والاعتذار

لقد دارت هذه الفنون الثلاثة فى فلك الجودة مع المدح والهجاء ، ومن أروع مراثيه ما كان منه فى الخليفة المتوكل بعد قتله ، على ما فى ذلك من تعريضه للقتل ، ولكن الوفاء له جعله يرثيه كما قلنا أحر رثاء وأبقاه ، فمن ذلك قوله لائماً المعتز على خيانته :

تخفى له مغتاله تحت غرة ... وأولى لمن يغتاله لو يجاهره
فما قاتلت عنه المنايا جنوده ... ولا دافعت أملاكه وذخائره
ولا نصر المعتز من كان يرتجى ... له وعزيز القوم من عز ناصره
أكان ولى العهد أضمر غدرة ... فمن عجب أن ولى العهد غادره
فلا ملى الباقى تراث الذى مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره
حرام على الراح بعدك أو أرى ... دما بدم يجرى على الأرض مائره

وله فى غير المتوكل مراث كثيرة وطويلة فى الديوان .

ولقد كان عتبه واعتذاره للفتح بن خاقان لا يقل روعة وكثرة عما كان للنابغة فى النعمان ، استمع إليه يقول :

فديناك من أى خطب عرا ... ونائبة أوشكت أن تنوبا
وإن كان رأيك قد حال فى ... فلقيتنى بعد بشر قطوبا
أكذب ظنى بأن قد سخطت ... وما كنت أعهد ظنى كذوبا
ولو لم تكن ساخطاً لم أكن ... أذم الزمان وأشكو الخطوبا
ولو كنت أعرف ذنبا لما ... كان خالجنى الشك فى أن أتوبا
سأصبر حتى ألاقى رضا ... ك إما بعيداً وإما قريبا
أراقب رأيك حتى يصح ... وأنظر عطفك حتى يثوبا

٤ — الفخـــر

كان فخر البحترى أكثر مايكون بأبوته فى طيء وقحطان ، كهذا الذى يقول من دالية طويلة :

ذهبت طيء بســابقة المجـ ـد على العـالمين بأساً وجهوداً
معشر أمسكت حلومهم الأر ـض وكادت من عزمهم أن تميدا
نزلوا كاهل الحجاز فأضحى لهم ساكنوه طراً عبيدا . . .
منزلا قارعوا عليه العمالـيـ ـق وعادا فى عزها وثمودا
إن قومى قوم الشريف قديما وحديثا أبوة وجـدودا . . .
يحسن الذكر عنهم والأحاديـ ـث إذا حدث الحديد الحديدا
فهم قوم تبع خـير قوم لهم الله بالفخـار شهيدا
نحن أبناء يعرب أعرب النا س لسانا وأنضر الناس عودا
وكأن الإله قال لنـا فى الحر ب كونوا حجارة أو حديدا

وهو وإن كان يفتخر بأمومته فى تغلب وعدنان كأن يقول ..

ما حديثى إلا حديث كليب وبجير والحـارث بن عبـاد

كان ذا عصبية لقوم أبيه على قوم أمه ، استمع إليه يقول :-

نبى ناهل مهلا فإن ابن أختكم له عزمات هزل آرائهـا جد
متى هجمتموه لاتهيجوا سوى الردى وإن كان خرقا ما يحل له عقد
مهيبا كنصل السيف لو ضربت به ذرا أجأ ظلت وأعلامها وهد
يود رجال أننى كنت بعض من طوته الليالى لاأروح ولاأغدو
ذرينى وإياهم فحسبى صرامتى إذا الحرب لم يقدح لمخمدها زند

على أنه كان يترك فى بعض مفاخره تلك العظامية إلى العصامية معتداً بنفسه كأن يقول :

نكرتنى فقلت لا تنكرينى لم أحل عن خلائقى و اعتيادى
إن ترينى ترى حساماً صقيلا مشرفيا من السيوف الحداد

ثانى الليل ثالث البيد والسـ ـير نديم النجوم رب السهاد
ليـلة بالشـآم نمت وبالأهـ ـواز يوما وليـلة بالسـواد
وطنى حيث حطت العيس رحلى وذراعى الوساد وهو مرادى
لى من الشـعر نجوة واعتزاز وهجوم على الأمور الشداد

هذا وقد كان كثير الفخر بوطنه الأول الشام ، وإن كان وطنه الثانى العراق قد أثر فيه من تلك الناحية حتى كاد ينسيه إياه ، كأن يقول من مدحه للفتح :

جفوت الشام مرتبعى وأنسى وعلوة خلتى وهوى فؤادى
ومثل نداك أذهلـنى حبيبى وأكسبنى سـلوا عن بلادى

٥ — الغـزل

لقد ساعد البحترى على إجادته الغزل، صفاء فطرته الذى سهل ألفاظه وأسلس أساليبه ، ثم نشأته نشأة بدوية تتراءى له فيها محاسن البادية وتنكشف أمامه آيات الجمال فيها ، ولذلك أكثر من الغزل واتبع طريقة المتقدمين، فى بدء معظم قصائده به ، حتى لا يكاد يبدأ قصيدة فى غير الرثاء بدونه ، وقد أحب علوة بنت زرعة من حلب والحب المفتاح الأول لباب الغزل، استمع إليه يقول فيها :

كم ليلة فيك بت أسهرها ولوعة من هواك أضمرها
وحرقة والدموع تطفئهـا ثم يعود الجوى فيسعرها
ياعلو عـل الزمان يعقبنا أيام وصـل نظل نشكرها
بيضاء رود الشباب قد غمست فى خجل دائب يعصفرها
مجدولة هزها الصبا فشجا قلبـك مسموعها ومنظرها
لا تبعث العود تستعين به ولا تبيت الأوتار تخفرها
الله جار لها فمـا امتلأت عينى الا حيث أبصرهـا

وقد تعمد أن يذكرها فى كثير من مطالع قصائده كما ترى فى مدحته

المعتز ص ٢٦٢ ج ٢ ، وقد كان يشوقه فى هذه المطالع أن يذكر البادية ومعالمها كما كان يفعل الأعراب فى غزلهم ، ترى ذلك فى مدحته المتوكل ص ١٢٥ ج ١ كما كان يكثر فى غزله بالمطالع ، الشكوى والعتب وطلب الترضى ، أنظر فى ذلك قصيدته ص ١٢٧ ج ١ هذا ومما لا يصح أن يغفل حيث الكلام على غزله ، غزله فى المذكر ، وقد أكثر ذلك فى غلامة الرومى « نسيم » ، وإن كان أفسد ذلك حيث اتخذه متجراً ، فكان يبيعه من ذوى الرياسة والثراء ثم يتحرق وجداً عليه حتى يردوه إليه ، ومن قوله فيه فى إحدى تلك الحالات .

دعا عبرتى تجرى على الجور والقصد ... أظن نسيما قارف الهم من بعدى
خلا ناظرى من طيفه بعد شخصه ... فيا عجبا للدهر فقد على فقد

٦ — الوصف

لقد بلغ البحترى الأوج فى الوصف بدويه وحضريه ، فأما البدوى فتراه فى مطالع القصائد حيث يشبب بالديار وآثارها ورحلة أهلها عنها ، وما إلى ذلك مما يشبب فيه الشعراء الأقدمون . وأما الحضرى فقد نما فيه فى ناحيتين ، إحداهما وصف معالم الحضارة وتمتع أهل الثراء بها وصف الفرح المرح ، وأخص ذلك القصور كالصبيح والمليح قصرى المتوكل ص ٢٦٨ ج ٢ والزو قصر المعتز ص ٢ ج ٢ وكذا البرك كبركة المتوكل ص ٣١٨ ج ٢ ، والناحية الأخرى وصف الديار التى ذهب أهلوها حيث كان يبكيها كما يبكى أصحابها ، ومن معجزاته فى ذلك سينيته فى إيوان كسرى ص ٥٦ ج ٢ ورائيته فى الجعفرى قصر المتوكل بعد قتله ص ٥٦ ج ١ ، ومما أجاد فيه من الأوصاف أيضاً وصفه حرب المراكب فى البحر كرائيته فى ابن دينار ص ٢٢ ج ٢ ، ووصفه الحيوان الضارى كالذئب فى حديثه عن نفسه عنه ص ١٨٥ ج ١ وكالأسد حين نازله الفتح بن خاقان ص ٥٦ ج ١ ، وهذا بعض الشواهد لما ذكرنا .

قال يصف قصر الزو من مدحة لصاحبه المعتز :

تعجبت من فرعون إذ ظن أنه إله لأن النيل من تحته يجرى
ولو شاهد الدنيا وجامع ملكها لقل لديه ما يكثر من مصر
ولو بصرت عيناه بالزو لازدرى حقير الذى نالت يداه من الأمر
إذن لرأى قصراً على ظهر لجة يروح ويغدو فوق أمواجها تجرى
تصاد الوحوش فى حفاتى طريقه وتستنزل الطير العوالى على قسر
ولم أر كالمعتز إذ راح مرفيا عليه بوجه لاح فى الرونق النضر
مليا بأن يجلو الظلام بغرة تخاضع إكباراً لها غرة الفجر

ومما يتصل بهذه الناحية أو هى التى تتصل به، وصفه الربيع كأن يقول:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النوروز فى غلس الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوما
يفتقها برد الندا فكأنه يبث حديثا كان قبل مكتما
ومن شجر رد الربيع لباسه عليه كما وشياً نشرت منمنما
أحل فأبدى للعيون بشاشة وكان قذى للعين إذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته يجىء بأنفاس الأحبة نعما

وقد تقدم شىء من وصفه بركة المتوكل حيث الكلام على الوصف من فنون الشعر.

وقال من سينيته فى إيوان كسرى بالمدائن وهى ذات طول وإبداع.

حضرت رحلى الهموم فوجهـ ت إلى أبيض المدائن عنسى
أتسلى عن الهموم وآسى لمحل من آل ساسان درس
لو تراه علمت أن الليالى جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وهو يلبيك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس
يتظى من الكآبة أن يبـ دو لعينى مصبح أو ممسى
مزعجاً بالفراق عن أنس ألف عز أو مرهقاً بتطليق عرس
عكست حظه الليالى وبات الـ ـمشترى فيه وهو كوكب نحس
فهـــو يبدى تجلداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسى

وقال من مدحة لأحمد بن دينار والى البحر يصف مركبا غزا فيه بلاد الروم .

غدونا على الميمون صبحا وإنما ... غدا المركب الميمون تحت المظفر
إذا زجر النوتى فوق علاته ... رأيت خطيباً فى ذؤابة منبر
وإن عصفت فيه الجنوب اعتلى له ... جناحا عقاب فى السماء مهجر
إذا ما انكفا فى هبوة الماء خلته ... تلفع فى أثناء برد محبر

إلى أن قال يخاطب الممدوح

وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده ... ملماً بأن توهى صفاة ابن قيصر
وحولك ركابون للهول عاقروا ... كئوس الردى من دارعين وحسر
تميل المنايا حيث مالت أكفهم ... إذا أصلتوا حد الحديد المذكر
يسوقون أسطولا كأن سفينه ... سحائب صيف من جهام وممطر
تقارب من زحفيهم فكأنما ... تؤلف من أعناق وحش منفر
فما رمت حتى أجلت الحرب عن طلى
مقطعة فيهم وهام مطير
على حين لا نقع تطوحه الصبا ... ولا أرض تلقى للعريع المقطر

وقال يماقال فى وصف الذئب

وأطلس ملء العين يحمل زوره ... وأضلاعه من جانبيه شوى نهد
له ذنب مثل الرشاء يجره ... ومتن كمتن القوس آنوج منأد
طواه الطوى حتى استمر مريره ... فما فيه الا العظم والروح والجلد
يقضقض عصلا فى أسرتها الردى ... كقضقضة المقرور أرعده البرد
سمالى وبى من شدة الجوع مابه ... ببيداء لم تعرف بها عيشة رغد

وهذا بعض ما قال فى وصف الأسد حيث لاقاه الفتح بن خاقان .

وما نقم الحساد إلا أصالة ... لديك وفعلا أريحيا مهذبا
وقد جربوا بالأمس منك عزيمة ... فضلت بها السيف الحسام المجربا
غداة لقيت الليث والليث مخدر ... يحدد نابا للقاء ومخلبا

شهدت لقد أنصفته يوم تنبرى ... له مصلتا عضبا من البيض مقضبا
فلم أر ضرغامين أصدق منسكما ... عراكا إذا الهيابة النكس كذبا
هز رامشى يبغى هزيرا وأغلبا ... من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
أدل بشغب ثم هالته صولة ... رآك لها أمضى جنانا وأشغبا
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا ... وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه أن كر نحوك مقبلا ... ولم ينجه أن حاد عنك مغلبا
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى ... ولا يدك ارتدت ولا حده نبا

ثالثا — موازنات

لقد وقع الإجماع على أن أشعر المولدين أبو تمام والبحترى والمتنبى وإنما وقع الخلف على أيهم يفضل صاحبيه ؟ والحق فى ذلك أن لكل منهم ميزة يفضل بها الآخرين ، ولعل من خير ما جاء فى هذا التفضيل ، كلمة ابن الأثير الموصلى فى كتابه « المثل السائر » وفيها يقول : هؤلاء الثلاثة هم الآت الشعر وعزاه ومناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته . فقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء .

فأما أبو تمام فأنه رب معان ، وصيقل ألباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الأغراب ، الذى برز فيه على الأضراب ، ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير ، فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضة ، وراض فكره برائضه ، أطاعته أعنة الكلام وكان قوله فى البلاغة ماقالت حذام ، فخذ منى فى ذلك قول حكيم ، ففوق كل ذى علم عليم .

وأما البحترى فانه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الأطلاق ، فبينا يكون فى شظف نجد إذا هو متشبث برين العراق ، سئل أبو الطيب المتنبى عنه وعن أبى تمام

وعن نفسه فقال : أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى : ولعمرى إنه أنصف فى حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن أبا عبادة أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخت الصماء ، فى اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الأفهام ، وما أقول إلا أنه أتى فى معانيه بأخلاط الغالية ، ورقى فى ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية .

أما المتنبى فانه أراد أن يسلك مسلك أبن تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنه حظى فى شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالأبداع فى وصف مواقف القتال ، وأنا أقول قولا لست فيه متأثما ، ولا منه ملثما ، إنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع أبطالها ، وقامت أقواله لك مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا ، فطريقه فى ذلك تضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه ، ولاشك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ، ما أدى إليه عيانه ، ومع هذا فأنى رأيت الناس عادلين فيه عن سنن التوسط ، فأما مفرط فى وصفه وإما مفرط ، وهو وإن انفرد بطريق صار أبا عذره ، فان سعادة الرجل كانت أكبر من شعره ، وعلى الحقيقة فأنه خاتم الشعراء ، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الأطراء ، ولقد صدق فى قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة .

لا تطلبن كريما بعد رؤيته ... إن الكرام بأسخاهم يدا إختموا
ولا تبالى بشعر بعد شاعره ... قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

هذا وقد كان للبحترى رأى فى موقفه من أبى تمام على الرغم من اعترافه له بالأستاذية ، حدث الحسين بن على الكاتب قال .

قلت للبحترى أيكما أشعر أنت أم أبو تمام فقال : جيده خير من جيدى ورديئى خير من رديئه ، قال الصولى « وقد صدق فجيد أبى تمام لا يتعلق به أحد من أهل زمانه وانما يختل فى بعض قصائد لفظه لا معناه والبحترى لا يختل فى لفظ ولا معنى إلا اختلالا قريبا » على أن الصولى كان يأخذ برأى من

يقول بتفصيل أبى تمام على البحترى فقد قال، كنا يوما عند أبى الحسين بن فهم فجرى ذكر أبى تمام فسأله رجل أيهما أشعر أبو تمام أو البحترى فقال : سمعت بعض العلماء بالشعر وقد سئل عن مثل هذا فقال، يقاس البحترى بأبى تمام وهو به وكلامه منه، وليس يقاس أبو تمام بالبحترى ولا يلتفت إلى كلامه، هذا موقف الرجلين بعضهما من بعض ، أما موقف المتنبى منهما ومن نفسه فقد تقدم فيما ذكره الموصلى من أنه سئل عنهما وعن نفسه فقال : « أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى ، مشفوعا بقول الموصلى . ولعمرى إنه أنصف فى حكمه .

وأخيراً إن هذه الموازنات لتقضينا أن نذكر مآخذ البحترى من أبى تمام ومآخذ المتنبى من البحترى :

(١) أكثر البحترى من سرقات المعانى من أبى تمام فكان يحسن الأخذ فى أغلب الأحيان .

قال أبو تمام :

لا أظلم الناس قد كانت خلائقها ... من قبل وشك النوى عندى نوى قذفا

فقال البحترى :

أعاتك ما كان الشباب مقربى ... اليك فألحى الشيب إذ هو مبعدى

وقال أبو تمام :

كأن عليها كل عقد ملاحة ... وإن أصبحت يوما وأمست بلا عقد

فقال البحترى .

إذا أطفأ الياقوت إشراق نحرها ... فان عناء ماتوخت عقودها

وقال أبو تمام :

كلف برب المجد يعلم أنه ... لم يبتدأ عرف إذا لم يتمم

فقال البحترى :

ومثلك إن أبدى الفعال أعاده ... وإن صنع المعروف زاد وتمما

وقال أبو تمام :

اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها ... تذكرت القتلى ففاضت دموعها

فقال البحترى :

جذلان من ظفر حران أن رجعت مخضوبة منكم أظفاره بدم

وقال أبو تمام :

إن الكرام كثير فى البلاد وإن قلوا كما غيرهم قلوا وإن كثروا

فقال البحترى :

قل الكرام فصار يكثر عدهم ولقد يقل الشىء حتى يكثرا

وقال أبو تمام :

وكذاك لم تفرط كآبة عاطل حتى يجاورها الزمان بحالى

فقال البحترى :

وقد زادها إفراط حسن جوارها خلائق أصفار من الحسن خيب

وحسن دراري الكواكب أن ترى طوالع فى داج من الليل غيهب

(٢) وكما استمد البحترى كثيراً من أبى تمام، استمد المتنبى من البحترى كثيراً كذلك .

قال البحترى :

قد كان فى جسمى الذى فى ناظريك من السقم

فقال المتنبى :

أعارنى سقم جفنيه وحملنى من الهوى ثقل ما تحوى مآزره

وقال البحترى :

تعنو له وزراء الملك خاضعة وعادة السيف أن يستخدم القلما

فقال المتنبى :

حتى رجعت وأقلامى قوائل لى المجد للسيف ليس المجد للقلم

أكتب بنا أبداً بعد الكتاب به فإنما نحن للأسياف كالخدم

وقال البحترى :

أضرت بضوء البدر والبدر طالع وقامت مقام البدر لما تغيبا

فقال المتنبى :

وما حاجة الأظعان حولك فى الدجى
إلى قمر ما واجد لك عادمه

وقال البحترى :

كالشمس فى كبد السماء وضوءها يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

فقال المتنبى :

كالبدر أفرط فى العلو وضوءه للعصبة السارين جد قريب

وقال البحترى :

عطاء كضوء الشمس عم فمغرب يكون سواء فى سناه ومشرق

فقال المتنبى :

كالبدر من حيث التفت رأيته يهدى إلى عينيك نوراً ثاقبا

(٣) على أن الثلاثة كانوا كثيراً ما يعتورون المعنى الواحد ، فيجزم بأن البحترى أخذ من أبى تمام ، ولكن لا يعرف من أيهما أخذ المتنبى ، وهذى طائفة من ذلك :

قال أبو تمام

وحن للموت حتى ظن جاهله بأنه حن مشتاقا إلى الوطن

وقال البحترى :

تسرع حتى قال من شهد الوغى لقاء أعاد أم لقاء حبائب

ثم قال المتنبى :

مقيم من الهيجاء فى كل منزل كأنك من كل الصوارم فى أهل

وقال أبو تمام :

تجاوز غايات العقول رغائب يكاد بها لولا العيان يكذب

فقال البحترى :

وحديث مجد عنك أفرط حسنه حتى ظننا أنه موضوع

ثم قال المتنبى :

كرما فلو حدثته عن نفسه بعظيم ما صنعت لظنك كاذبا

وقال أبو تمام :

وأرى سماحك يابن وهب شاعرا يلقى المديح من الندى برغائب

فقال البحترى :

ورغائب فى المجد تعلم أنها من شاعر أو عالم أو كاتب

ثم قال المتنبى :

شاعر المجد خدنه شاعر اللف ظ كلانا رب المعانى الدقاق

هذا وليس يفوتنا فى ختام هذه الترجمة لشاعرنا البحترى ، أن نلفت نظر قرائها إلى مراجعة ما عقد الآمدى من موازنات بينه وبين أبى تمام فى كتابه « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » وكذا ماعقد الموصلى بينه وبين المتنبى فى وصف الأسد ، وبينه وبين الشريف الرضى فى وصف الذئب فوق ماقدمنا من كلمته فى كتابه « المثل السائر » لما فى هذه وتلك من رياضة أدبية شائقة ذات متعة وجمال ، ورحم الله الجميع .

مهيار الديلمى

تمهيد

لعلنا لا نجد لمهيار بن مرزويه الديلمى الفارسى ، شاعرا يشبهه فى جهالة نشأته وعدم معرفة شىء عن أوائل حياته ، فقد هبط بغداد فى سن العشرين مجهول ماقبل ذلك ، فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، فإذا الشعب البغدادى يرى فيه فتى مستكمل الأداة العربية والموهبة الشعرية ، يهوى مجالس الأدباء والشعراء ، ويتصل بهم اتصال الطامع فى أن يعظم من تلك الأداة ويرفع من هذه الموهبة ، وعاش فيها على تلك النزعة نحو سنوات عشر ، انتهت به إلى الاتصال أوثق اتصال بالشريف الرضى ، رأس الطالبيين وعمدة الأدب وزعيم الشعر ، ورأى فيه الرضى ما ذكرنا من مقدرة لغوية وموهبة شعرية ، فأوسع له فى مجلسه حتى حل منه مهيار محل التلميذ من أستاذه ، وكان أن أسلم على يديه سنة ٣٩٤ هـ وببغداد توفى سنة ٤٢٨ وهو حوالى الستين على ماذكرنا آنفاً ، وقد كان سعيداً كل السعادة بنعمة الإسلام كما نراه يقول ، متحدثاً بهذه النعمة ومسفهاً قومه الفرس على عبادتهم النار :

تبدلت من ناركم ربها ... وخبث مواقدها الخلد طيبا
حبست عنانى مستبصرا ... بآية يستبقون الذنوبا
نصحتكم لو وجدت المصيخ ... وناديتكم لو دعوت المجيبا
أفيقوا فقد وعد الله فى ... ضلالة مثلكم أن يتوبا
وإلا هلموا أباهيكم ... فمن قام والفخر قام المصيبا
أمثل محمد المصطفى ... إذا الحكم وليتموه لبيبا
بعدل مكان يكون القسيم ... ونصل مكان يكون الخطيبا
وثبت إذا الأصل خان الفروع ... وفضل إذا النقص عاب الحسيبا

وصدق بأقرار أعدائه إذا نافق الأولياء الكذوبا
أبان لنا الله نهج السبيل ببعثته وأرانا الغيوبا
لئن كنت منكم فإن الهجين يخرج فى الفلتات النجيبا

ديوانه وشعره وفنونه

خلف مهيار الديلمى ديواناً ضخماً من الشعر، أخرجته دار الكتب المصرية فى ست سنوات من سنة ١٩٢٥ — ١٩٣١ فى أربعة أجزاء يقارب عدد صفحاتها ١٤٠٠ صفحة، وقد قال فيه على جميع حروف الروى التسعة والعشرين إلا سبعة فقط هى الثاء والخاء والذال والزاى والشين والظاء والغين، فقافيانه اثنتان وعشرون، وقال على أوزان جميع البحور تقريباً، كما جاء فى شعره الكامل والمجزوء والمنهوك، وأكثر من الرجز، مما يدل على سعة تصرفه قافية ووزنا، وعلى بالغ ثرائه فى اللغة بلوغا مكنه من هذا كله، وهو من هذه الناحية يعتبر فذا فى الشعراء، من حيث الكيف والكم وإن لم يكن من المعمرين كما ذكرنا، وقد بذهم فى طول القصائد إلى المائة والمائة والخمسين بيتاً فى الكثير منها.

أما فنونه الشعرية فهو فيها محدود العدد، ويعتبر المدح وما يتصل به من تهنئة وشكر واستنجاز وعتب، فنه الأوحد الذى لم يشاركه فيه شاعر، فإن ديوانه الذى يشتمل على نحو ٤٠٠ ما بين قصيدة ومقطعة، قد جاء فيه من المدح وتوابعه أكثر من ٣٠٠ قصيدة، والمائة الباقية على مابها من مقطعات جاء ربعها للرثاء وهو مديح وثلاثة أرباعها للفنون الأخرى، على ماسيأتى.

١ — المدح وتوابعه

نشأ مهيار وعاش ومات خلال الدولة البويهية، التى حكمت من سنة ٣٣٠ — ٤٤٧ والتى تعتبر فى التاريخ دولة الألقاب والرتب، فهى تشملها من

رجالها الذين سموا أنفسهم الملوك وتلقبوا بأفخم الألقاب ، ثم تنازلوا بهذه الألقاب منهم إلى وزرائهم وكل ذوى المناصب فيهم ، وقد سحرت هـذه الألقاب مهيارا وأخذت بلبه وعقله ، وكان هؤلاء فرساً وهو فارسى ، فاتصل أوثق اتصال بهؤلاء الملوك ورجالات دولهم ، حتى كان المقرب إليهم المدعو منهم ، كما ترى فى عناوين قصائده بالديوان وكانت فيه استجابة ومقدرة وإنه ليعيينا حصر ممدوحيه من ملوك ووزراء وذوى ألقاب ، استمع إليه يقول فى شاهنشاه جلال الدولة ركن الدين أبى طاهر بن بويه وقد وشى به إليه ، فاعتقله ليلة كشف فيها عن براءته وأنعم عليه ، فأنشده اللامية التى مطلعها

أما وهواها عذرة وتنصلا لقد نقل الواشى إليها فأمحلا

وقد أنشده إياها فى عيد فطر وهى أكثر من مائة بيت وفيها يقول .

نعم عند ركن الدين وابن قوامه غنى ومراد أن أضام وأهملا
وفى يده البيضاء يقطر ماؤها ربيع يرد الجدب أخضر مبقلا
وبالقصر من دار السلام متوج بأشراقه أخزى البدور وأخجلا
ترى خرزات الملك فوق جبينه كواكب نور ضوءها يملأ الفلا
يميت النفوس قاطباً متنمرا ويحيى أواناً باسماً متهللا
أطاعته أعناق البلاد وأقبلت اليه القلوب رغبة لا تعملا
سيعلم من جر السعاية أنه بكرهى إلى ما ساق ، نفعى توصلا
لبست به ثوباً صفا لى فخره بمدحك مجروراً على مذيلا
هو اليوم أعطاك الإله فضيلة كما كنت ممن يحمل الأمر أفضلا
فكن مفطراً بالبر والبس على التقى ثوابك وانزع صومك المتقبلا
إذا ما انجلى صبح ولست مملكا علينا فلا انشق الظلام ولا انجلى

وعلى هذا النهج كان يمدح سائر ملوك آل بويه ، ومن ممدوحيه غيرهم من ذوى الألقاب والرياسات ، الصاحب أبو القاسم بن عبد الرحيم وأخوه أبى سعد ، والصاحب ذو السياستين أبو محمد بن مكرم وابنه ذو النباهتين ، وأبو القاسم سعد بن أحمد الوزير الكافى ، والأمير سند الدولة أبو الحسن

ابن مزيد، والرئيس أبو الحسن الهمانى، وعميد الرؤساء أبو طالب بن أيوب، ومؤيد الملك أبو على الرخجى، والوزير أبو غالب بن منصور، والوزير أبو القاسم الحسين بن على المغربى، والرئيس سعد الملك أبو الحسين بن حاجب النعمان، وعميد الدولة ابو سعد، وأبو منصور بن ماسرجيس النصرانى، والشريف الرضى، والشريف المرتضى، والأمير نور الدولة دبيس بن مزيد، والوزير كمال الملك أبو المعالى، والكافى الأوحد أبو عبد الله القنانى، والوزير أبو القاسم بن ماكولا. وقد كان مهيار لا يبخل بالمدح على أصدقائه وهم كثير، كأبى الحسين على بن محمد البندارى، والمحسن بن إبراهيم الصابى، وأحمد بن عبد الله، وعبد العزيز بن عمر بن نباتة السعدى، إلى غير هؤلاء وهم كثير. فمن مدحه للوزراء ما تقدم بالنماذج فى ابى القاسم الحسين بن على المغربى عند تقلده الوزارة، ومنه فى عميد الرؤساء أبى طالب بن أيوب قوله

ما جد السعى أتاه ما سعى له ... ومعان طلب العز فناله
يا بنى أيوب بشرى أعظم ... لكم من فوقها الأرض مهاله
وهنا أسلافكم ما أعقبت ... تلكم الأصلاب من هذى السلاله
بعميد الرؤساء اعتدلت ... لكم أعمدة المجد المماله
بأبى طالب ترتاح غداً ... دولة من ظاهر الجور مداله
ياوزير الخلفاء انهض بها ... مثلما تنهض بالسيف الحماله

ومن مدحه فى أصدقائه قوله فى أبى الحسين بن على بن محمد البندارى الكاتب:

أخى فى الود فوق أخى النسيب ... وخلى دون كل هوى حبيبى
ومولاى البعيد يقول خيرا ... قريب قبل مولاى القريب
قد اعتذر الزمان بود خل ... محا ما كان أسلف من ذنوب
أتتنى طاب ما أتت ابتداء ... بلا حق عليه ولا وجوب
يد منه وفت بيد الغمام الـ ... مصيب همت على العام الجديب
فمثله التصور لى بقلب ... يرى بالظن من خلل الغيوب

ومن ظواهر مدائحه أنه كان لا يتقدم بها فى الأغلب الأعم إلا فى عيدى النيروز والمهرجان ، وأحيانا كان يقدمها فى عيدى الفطر والأضحى ، وقلما كانت تقدم فى غير هذه الأعياد ، وقد رأيت أنه قدم تهنئته السابقة لركن الدين فى عيد فطر ، وتقدمت بالنماذج تهنئته لأبى القاسم الحسين بن عبد الرحيم المغربى فى النيروز ، واستمع إليه يقول من قصيدة له أيضاً فى التهنئة بعيد الأضحى :

فى كل يوم لك عيد فما يغرب فى عينيك عيد أتى
فخذ من الأضحى بسهميك من حظين فى آخرة أو دنا
ما طيف بالأستار فى مثله ودامت المروة أخت الصفا

وها هو يقول فى هبة الله بن ماكولا وهو يهنئه بمهرجان معجبا بقصائده :

تسلفت ود الملوك قبلكم وعقدت لى فى الرقاب المننا
لو مسح الجو ببطن كفه قائلها كنت بذلك قمنا
فاسع لهن سابقا ولاحقا سوائر فيك يطبقن الدنيا
وجل يوم المهرجان ، هذه قلادة تنظم درا مثمنا
لم ير مذ فارق كسرى مثلها أجمل فوق جيده وأزينا
واستوف أقصى غاية من سعده وابق له والمعالى ولنا
وكن بذاك من ضمان الله لى فى أن تعيش وضمانى مؤقتا
واندب لها بين يديك ناهضا يخلفنى فى ذا الدعاء والهنا

ولقد كان يجذل ويطرب إذا اجتمع من أعياد الفرس والعرب وبيدان ، فيجلى فى القول ويبدع أيما إبداع ، استمع إليه يقول فى آخر مدحة لعميد الدولتين الوزير شرف الدين أبى سعد الدين ، وقد رفعها أبيه فى عيدى فطر ومهرجان ، مفاخراً بقصائده إليه :

فاستجلها يا عميد الدولتين فقد وافى بها الشوق من عون وأبكار
عرائساً أنت مولى الناس خاطبها وبعلها وأبوها عفو أفكارى

وانظر إليها وما قد أعطيت شرفا مرددا بين أحماء وأصهار
والمهرجان وعيد الفطر قد وليا زفافها بين صواغ وعطار
يومان للفرس أو للعرب بينهما حظ السعادة مقسوم بمقدار
هذا بتاج أبيه عاصب وعلى هذا اختيال فتى بالسيف خطار
تصاحبا صحبة الخلين واتفقا سلما ولم يذكرا أيام ذى قار
فالبسهما بين عيش ناعم وتقى وبين صوم تزكيه وإفطار

ولقد علقت بمدائحه فنون أخرى دعا إليها المدح على ما سبق منها التهنئة. وقد حملها بعض مدائحه أكثر ما تكون ، لأن المدح كان يرفع فى الأعياد غالباً ومن ثم كان يخلطه بالتهنئة بها ، كما قد سمعت ذلك فى عيد فطر وعيد نيروز وكما أشرنا إليه فى عيد فطر وعيد مهرجان، فارجع إليه حيث كان .

ومنها الشكر وقد كان يدعو إليه ما يستدعى المدح من صلات ، كما هو واضح فى أغلب مدائحه ، وقد كانت تدعو إليه أمور أخرى كعيادة فى مرض مثل قوله لأبى الحسين أحمد بن عبد الله الكاتب الواسطى من مطولة :

ملكت فؤادى عند أول نظرة كما صاد عذريا أغن ربيب
وكنت أخاف البابلى وسحره ولم أدر أن الواسطى خلوب
رفعت منار الفخر لى بزيارة وسمت بها مغناى وهو جديب
وكنت لداء جئتنى منه عائدا شفاء وبعض العائدين طبيب
وأهلتنى من خلقك العذب شربة حلت لى وما كل الدواء يطيب
ولما جلا لى حسن وجهك بشره تبين فى وجه السقام قطوب
ستعلم أن الصنع ليس بضائع لدى ولا الغرس الزكى يخيب

ومنها الاستنجاز وكان يقوله حين يستبطىء الصلة ولا سيما إذا كانت ذات وعد ، كهذا الذى يقول لأحد ممدوحيه :

سواك ومن وثقت به يخون وغيرك يوم أسأله الضنين

أعيذك أن تنافيني مطالا وقد قضيت سوى ديني ديون
وتقبح يا مكذب فيك ظني إذا صدقت سواى بك الظنون
وكان الحق لو أنصفت أني إذا أنجزت أولهم أكون
يعز علي أن ترضى بسخطي على زمني وإرضائي يهون
ذوى غصني بحبسك من سمائي وكم تبقى على العطش الغصون
ومن غلط إذا أبردت نفسي حرارة ما يعالجه الحزين
سأسكت ثم تحسبني سواء وأنت وبيننا في الحال بون
وأستر تحت أثواني هزالا إذا أبديته شمت السمين
ومهما يستعن غيري فاني عليك بحسن رايك أستعين

وأخيراً منها العتب وكان إذا لم يجد الاستنجاز تحول عنيفا في لباقة وشديدا في رقة ، استمع إليه يقول في الكافي الأوحد وقومه حين حبسوا عنه عطاءهم عامين ، من آخر مطولة ليس أولها ، بأقل من هذا الذي كان في آخرها :

أأرباب نعماي التي مذ عدمتها علمت وقد أثريت أني معدم
وخطاب أفكاري التي ولدت لهم ذكورا كراما والقرائح تعقم
متى اعتضتم مني خطيبا بفضلكم وهل مثل شعري عن علاكم مترجم
وما غير مدحي طبق الأرض فيكم
وإن كان ملء الأرض ماقد مدحتم
سواء إذا لم تسر قبل أوانسي وشاعر مالم يروه الناس مفحم
فما بال عامي هجركم لي جفاهما جديدين عام الهجرة المتقدم
أثقلت أم كنت المعيدي بعدكم سمعتم به غير الذي قد نظرتم
فلا تشكروا فضل العتاب فانه فضالات داء الصدر والداء يكظم
وما فاض حتى ضاق عنه إناؤه وقد يملأ القطر الإناء فيفعم
صبرت لكم حولين تلوين راجيا أخيب ووقع الجرح في الجرح مؤلم

وأشهد إن لم تغنى العام هذه فلا ربع ممنوع ولا جاد منعم
إذا شئتم أن تنظروا كيف يبتنى الـ علاء الثناء فانظروا كيف أنتم

وعلى ذكر ما أسلفنا عن المدح وتوابعه نقول إن مهيارا لم يكن للهجاء «كفن» مجال فى شعره، وليس ذلك لأنه كان عاجزا عنه، بل لأن نقاء نفسه من الخبائث وحسن اتصاله بالناس، جعلاه يكف عنه، أو جعلاه فى غير حاجة إليه، إذ كان يكفيه العتب على اللون الذى أسلفنا.

٢ — شعر العصبية والتشيع

نعنى بشعر العصبية ما كان يصدر عنه فى الافتخار بآبائه الفرس والتغنى بمجدهم وسالف ملكهم، ونعنى بشعر التشيع ما كان يقوله فى الطالبيين آل على كرم الله وجهه، من مدحهم وذكر مناقبهم، ومن رثائهم وتعداد مصائبهم، وكان ميسوراً أن ندرج الأول تحت الفخر والثانى تحت المدح، لولا أنه سلك فى كل مسلكا خاصا جعلنا نفضل العنونة له على الوجه الذى ذكرنا، وهذه كلمة عن كل.

— فأما التعصب فقد أذكاه فيه حبه لقومه الفرس، وغذته فى نفسه الشعوبية التى سادت العصر البويهى، حيث أصبح فيه السلطان كله لآل بويه الفارسيين، وهذا مثل لغلوه فى التعصب الذى كان يزرى فيه بالعرب غير مبال أيام مجوسيته.

أتعلمين يابنة الأعاجم كم لأخيك فى الهوى من لائم
وهو مع المجد على سبيله ماض مضاء المشرفى الصارم
ممتثلا ما سنه آباؤه إن الشبول شبه الضراغم
من أيكة مذ غرستها فارس مالان غمزا فرعها لعاجم
من فرس الباطل بالحق ومن أرغم للمظلوم أنف الظالم؟
إلا بنو ساسان أو جدودهم طر بخوافيهم وبالقوادم

لا غرو والدنيا بهم طابت إذا لم تحل فيها بعدهم لطاعم
ما اختصمتنى فيهم قبيلة الا وكنت غصة المخاصم
إن يجحد الناس علاهم فبما أنكر روض نعم الغمائم
يانا حلى مجدهم أنفسهم هبوا فللأضغاث عين الحالم
شتان رأس يفخر التاج به وأرؤس تفخر بالعمائم

وإليك مثلا آخر كان يختلط فيه فخر الفرس بفخر العرب بعد إسلامه .

أعجبت بى بين نادى قومها أم سعد فضت تسأل بى
سرها ما علمت من خلقى فأردادت علمها ما حسبى
لا تخالى نسباً يخفضنى أنا من يرضيك عند النسب
قومى استولوا على الدهرقتى ومشوا فوق رءوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبى كسرى على إيوانه أين فى الناس أب مثل أبى
سورة الملك القدامى وعلى شرف الإسلام لى والأدب
قد قبست المجد من خير أب وقبست الدين من خير نبى
وضممت الفخر من أطرافه سودد الفرس ودين العرب

وهذه الظاهرة التى تراها فى آخر الأبيات — وهى شفع قديمه الفارسى بجديده العربى — كانت من لوازمه فى مفاخره ، وكثيراً ما كان يجعل لسلمان الفارسى ذى القدم الراسخة فى إسلامه ودينه أيام النبى وصحبه الكرام ، مجالا كأن يقول من بعض ما قال فى آل البيت ثم على .

أبای فی فارس والدين دينكم حقا لقد طاب لى أس ومرتبع
ما زلت مذ يفعت سنى ألوذ بكم حتى محا حقكم شكى وأنتجع
وقد مضت فرطات إن كفلت بها
فرقت عن صحفى البأس الذى جمعوا
سلمان فيها شفيعى وهو منك إذا الآباء قاموا وفى أبنائهم شفعوا
فكن بها منقذاً من هول مطلعى غدا وأنت من الأعراف مطلع

سولت نفسى غروراً إن ضمنت لها أنى بذخر سوى حبيبك أنتفع

وأما التشيع فقد غرسه فى نفسه منذ أيام مجوسيته ما رآه فى الطالبيين من تحبب إلى الفرس واندماج فيهم عقب ما كان من العباسيين ، حين تملكهم الأمر دونهم من اضطهادهم إياهم وقتلهم رجل الفرس الأول أبامسلم الخراسانى ، ثم نماه بها حتى ملأعليه جوانب صدره ، الشريف الرضى الذى لازمه مهيار ، وكان منه مكان التلميذ من الأستاذ كما سبق . وقد غالى فى حبهم مغالاة شديدة جعلته يقول القصيدة تلو القصيدة فى مناقب على ، والأخرى تلو الأخرى فى رثاء آل البيت ، والحمل على خصومهم من أمويين وعباسيين ، وها أنت ذا سمعت بعض أبيات من إحدى مطولاته فى على ، وها هو ذا يخاطبه فى أخرى كأنه حى .

سمعا أمير المؤمنين إنها كناية لم تك فيها منتحل
ما لقريش ماذقتك عهدها ودانجتك ودها على دخل
وطالبتك عن قديم غلها بعد أخيك بالنزات والذحل
وكيف ضموا أمرهم واجتمعوا فاستوزروا الرأى وأنت منعزل
وليس فيهم قادح بريبة فيك ولا قاض عليك بوهل
ولا تعد بينهم منقبة إلا لك التفصيل منها والجمل

إلى أن قال

عاديت فيك الناس لم أحفل بهم حتى رمونى عن يد إلا الأقل
ولو يشق البحر ثم يلتقى فلقاه فوقى فى هواك لم أبل
علاقة بى لكم سابقة بمجد سلمان إليكم تتصل
ضاربة فى حبكم عروقها ضرب فحول الشول فى النوق البزل
تضمنى من طرفى حبكم مودة شاخت ودين مقتبل

ولقد كان هذا التشيع لآل البيت يطغى فى نفسه على عصبيته لقومه الفرس ، كما ترى فى قوله من هذه المطولة نفسها مفتخراً بقصائده فى الدفاع عنهم

فضلت آبائى الملوك بكم فضيلة الإسلام أسلاف الملل
لذاكم أرسلها نوافذا لأم من لا يتقيهن الهبل
يمرقن زرقا من يدى حدائدا تنحى أعاديكم بها وتنتبل
صوائبا إما رميت عنكم وربما أخطأ رام من ثعل

ذاك طرف من قصائده فى على ومناقبه ، وما كان رثاؤه له ولهم بأقل من هذه جودة وطولا كما سترى بعد

٣ — الرثاء

لقد كان فن الرثاء لدى مهيار على ضآلته بجانب المديح كثير القصائد طويلها ، كما كان متنوعا من حيث شخصيات المرثيين ، ومن حيث خلوه من تعزية الأحياء أحياناً واشتماله عليها حينا ، وكل من ذكرنا فى مدائحه من بيوتات وشخصيات له فيهم من المراثى الكثير أو القليل ، وإن أعز بيت أخلص فيه الرثاء وأطال كان البيت العلوى الكريم ، وإنا لنبدأ بمراثيه فيهم تحقيقاً لما أشرنا إليه فى علويانه آنفا ، قال من إحداها وهن كثيرات يذكر قدامى موتاهم .

ياندىّ كنتما فافترقنا فاسلوانى لكل شىء زوال
لى فى الشيب صارف ومن الحز ن على آل أحمد إشغال
معشر الرشد والهوى حكم البغ ى عليهم سفاهة والضلال

إلى أن قال

يالقوم إذ يقتلون عليا وهو للمحل فيهم قتال
ويسرون بغضه وهو لا تقـ بل إلا بحبه الأعمـال
ولسبطين تابعيه فمسـ موم عليه ثرى البقيع يمال
درسوا قبره ليخفى عن الزو ار هيهات كيف يخفى الهلال
وشهيد بالطف أبكى السموا ت وكادت له تزال الجبال

يا غليلى له وقد حرم الما ء عليه وهو الشراب الحلال
قطعت وصلة النبى بأن تق طع من آل بيته الأوصال
لم ينج الكهول سن ولا الشبـ ـان زهد ولا نجا الأطفال
لهف نفسى يا آل طه عليكم لهفة كسبها جوى وخبال
وقليل لكم ضلوعى تهتز مع الوجد أو دموعى تسال

وله فى موتاهم على حياته ، المبكيات الشامخات ، قال من قصيدة يعزى الشريفين الرضى والمرتضى عن خالهما أبى الخير الناصر بن موسى العلوى وقد توفى فجأة عن غير ولد .

يا عاشق الدنيا النجاء فإنها إن ساعدت وصلت بلية هاجر
خذل المحدث نفسه بوفائها تصريحها بالغدر فى ابن الناصر
مشت المنون إليه غير محصن الجـ ـنبات واغتالته غير محاذر
لم ينجه البيت المطنب بالكوا كب والمعمد بالهلال الزاهر
ولنسبة العلياء إن هى شجرت زلقت معارجها بكل مفاخر
كلا ولا أغنته عفة نفسه عن عاجل يرضى سواه وحاضر
ولقاؤه شهواته ببصيرة معصومة عنها وذيل طاهر
سقت الغيوث أبا الحسين ثراك ما سقت الحسين أباك عين الزائر
أبكيك لا ما تستحق وجهد ما تسع الصبابة أن تسيل محاجرى
وأشارك النواح فيك بأننى أرثيك فالتأبين نوح الشاعر
وأما وبدرا هاشم ولداك ما مبقيهما ذكرا له بالداثر
وإذا الفتى عزت مؤازرة ابنه فى الأمر فابن الأخت خير مؤزار

وقد شرفت مراثيه للشريف الرضى وغربت ، ها هو يقول فيه وهو أول ما قال .

صدع الحمام صفاة آل محمد صدع الرداء به وحل نظامها
بالفارس العلوى شق غبارها والناطق العـــربى شق كلامها

سلب العشيرة يومه مصباحها ورمى الردى عمالها علامها
برهان حجتها الذى بهرت به أعداءها وتقدمت أعمامها

إلى أن قال يخاطبه :

فض الحمام اليك حلقة هيبة ما خلت حادثة تفض ختامها
أفلا تطاعن دون مبلغك الردى خيل أطلت لحاجة إلجامها
قد كنت ترضانى إذا سومتها تبعا وأرضى أن تسير أمامها
فتركتنى ترك اليمين شمالها فردا أعالج فاتلا إبرامها
حيران أسأل أين منك وفادتى دهش البنان تفقدت إبهامها
لأساهرن الليل بعدك حسرة إن ليلة غابت حزينا نامها
ولأبدلن الصبر عنك بقرحة فى الصدر لا يجد الدواء لحامها

الى نحو ذلك مما يمثل الوفاء من رثاء العظماء ، وهذا لون آخر يمثل المودة الحقة والأخوة الصادقة ، يقوله من قصيدة فى سلافة إخوانه أبى الحسين أحمد بن عبد الله :

أبعد ابن عبد الله أحظى براجع من العيش أو آسى على إثر ذاهب
سلافة إخوانى وصفوة إخوتى ونخبة أحبابى وجل ترائبى
ذخيرة أنسى يوم يوحشنى أخى وبابى إذا سدت على مذاهبى
وكم من أخ بر وإن أنا لم أجد كأنت أخا فى أسرتى والأجانب
سرى الموت من أوطانه فى مآلفى ونقب من أخلافه عن حبائبى

وهذا ثالث من رثائه زميلاله ، هو عبد العزيز بن نباتة السعدى الشاعر وكان يعلو شاعرنا فى السن :

وصف الرجال المعجبون نفوسهم سرف المقال وكنت حيث تقول
ياناشد الكلم الغرائب أعرضت شبها فليس لآيها تأويل
قم نادفى النادى ألابن نباتة أذن فيسمع أو فم فيقول
واسأل غطارف من تميم أمهم يوم انطوى عبد العزيز ثكول
لم أغمدت عن نصره أسيافكم ولسانه من دونكم مسلول

أو ما نبستم ماكسا أعراضكم رقشاء يعرض نسجها ويطول
ضيعتم رحما رعاها برهة ويبيسها بكلامه مبلول

إلى أن قال .

منى أخ إن ينأ عندك ولاده فسواده بك لاحق موصول
قالوا طويل العمر قلت لذاكم حزنى عليه كما ترون طويل
أكل الزمان جماله شرها فلا شبع الزمان وشلوك المأكول

ثم هذا رابع يمثل الحنو أحنى ما يكون على الشبان . استمع اليه يقول من قصيدة فى البكاء على فتى رباه يدعى « كاملا » مات غريقا فى دجلة من نونية باسقة .

كم النحت فى جنبى والحزن فى متنى أما يشبع الأيام ما أكلت منى
تسل جنحى ريشة بعد ريشة
وتخلس غصنا من فروعى إلى غصن
مصاب ولم أمسح يدى من قسيمه
وجلى وما نفضت من أختها ردنى
كأنى لم تؤمر بغيرى صروفها ولا وجدت بالشر مندوحة عنى

الى أن قال .

خليلى إذا اعتل الخليل وصاحبى الصـ ريح إذا مل الفتى صحبة الهجن
جمعت به غض الشمائل والهوى مسن الحجا والفضل مقتبل السن
وتم فسمته النجابة كامـــلا إذا مال فى فن بها مار فى فن
وصرت إذا طالبت دهرى بمثله طلبت ولاد العقم من أظهر العن
ولم أدر أن الموت فيه مراصدى يقرف ما آسو ويهدم ما أبنى
عذيرى من أمواه دجلة بدلت
من الغدق السلسال بالراكد الآجن
شربت وقد غالتك دمعى وماءها فما افترقا لى فى الملوحة والسخن

ولقد كانت له عاطفة رءوم نحو فقد الإناث على العكس مما هو معروف لدى الناس ومقبول من الشعراء . استمع اليه يعزى أبا الحسين ابن روح النهروانى عن ابنتين له توفيتا تباعا

رزئتهما شمسين أقسم فيهما ... ظلام الأسى ألا تجلى غياهبه
يعدون خرقا بالفتى فى بناته ... إذا مابكى أو ذل للحزن جانبه
وكم من كريم عزه نجباؤه ... فعز بما ساقت اليه نجائبه
وبعض البنات من بها تنتج العلا ... وبعض بنى الانسان فى الحى عائبه
تعز ابن روح إنما الموت مدلج ... إلى أمد فيه النفوس مراكبه
ومن أخرته شمس يوم فلم يمت ... يمت حوله أحبابه وحبائبه

٤ — الغزل

لو تقصينا الشعراء نتلمس لمهيار شبيها فى الغزل لكان المتنبى . ما كان أحد منهما عاشقا ولا خلق ليكون غزلا ، ولكنه جرى على عادة العرب من بدء القصائد بالغزل فى كثير من الأغرض ، ومن عجب أن يكون مهيار الفارسى كالمتنبى العربى ، يحب البادية ويتعشق صفات أهليها فيقف على الطلول باكيا ويشبب بالمرأة واصفا وناسبا ، ومن هنا كان لمهيار ، غزل كما كان للمتنبى غزل ، قصره مثله على مبادىء القصيد إلا فى بضع مقطعات قصيرة ، على أن إجادته فيها لم تكن كإجادته فى غزل المطالع الذى جاد وطال ، وتناول محاسن المرأة الحسية من إشراق وجه وحسن قامة ونحول خصر وهكذا .. كما تناول مواقف وداع على الأطلال يصف فيها الفراق ويتألم له ، ويذرف الدمع ويرتاح اليه ، ويصور الهجر والصد والتطيف وعدم الاصغاء إلى اللوم والعذل ، تأثرا بالحب المتملك للقلب إلى غير ذلك كله مما جرى فى وادى الشعراء الغزلين ، قال يتناول ألوانا من الغزل فى مطلع مدحة طويلة ، فى كمال الملك أبى المعالى بن عبدالرحيم .

وقال مغتبطا بليلة سرور :

يا ليلة ما راتها أعين الغير ... لم ينج لى قبلها صفو من الكدر
كأنها ساهمتنى فى السرور بما ... أولت فطالت وعمر الليل فى القصر
يئست من صبحها حتى التفت إلى ... وجه العشاء أعزيه عن السحر
كم يوم سخط صفا لى فيه ليل رضا ... حتى وهبت ذنوب الشمس للقمر

وقال يصف جواداً :

وغضبان من جن البراح كأنه ... عصا النبع لولا رادف وحزيم
له عنق فى صفحة الجو شارف ... وذيل على خد التراب عميم
تقابل فى أطرافه العتق والتقى ... عليه خئول سبق وعموم
أغر تقول الفجر شق جبينه ... ومن لونه ليل عليه بهيم
كأن الهلال بين جنبيه طالع ... ورصع الحلى من جانبيه نجوم

وقال يصف الأســـد وقد لاقاه الأمير أبو الذواد المفرج بن على ابن مزيد فى مطولة .

ويوم لقيت الأدرع الجهم واحدا ... جرى ملبد يشتد فى إثر ملبد
نصبت له لم تستعن بمؤزر ... عليه ولم تنصر بكثرة مسعد
وقفت وقد طاش الرجال بموقف ... متى تتمثلة الفرائص ترعـــد
فأوجرته نجلاء أبقت بجنبه ... فتوقا إذا رقعت لم تسدد
تحدر منها لبتاه وصدره ... على ساعد رخو وساق مقيد
فلم تغنه إذ خان وثبة غاشم ... ولم ينتقذه منك إقعاء مرصد
رأى الموت فى كفيك رأى ضرورة ... فأورد فيه نفسه شر مورد
وأحرزتها ذكراً يخصك فخره ... تناقله الأفواه فى كل مشهد

وقال يصف الشيب ومطاردته الشباب على كره منه .

ركب الدجى فسعى بغير رفيق ... عجلا فأصبح قاطعاً لطريق
أبكى لغاربه ويضحك مظهرا ... برى بما يأتى وفيه عقوق

مستصحباً فرقا خلال صحابتى ضعفاً ويفتك بالقوى رفيقى
متجاريان فأبت مغلوبا يسا بقى وجاز الخصل بالمسبوق
يرمى جنابا كنت عنه أذوده بالمرهفات مقيمة للسوق

وقال يصف قصور بعض الشعراء المحدثين فى الشعر وزعمهم أنهم فيه ذوو مكان .

رحمت قوما وما مالت رقابهم تحت القريض فظنوا أنهم حملوا
وقعقعوا دونه الأبواب فاعتقدوا بطول ما قرعوها أنهم وصلوا
وحظهم منه حظ الناقفات رجت أن يجتنى من هبيد الحنظل العسل
تسرعوا فى بحور منه طامية والمنبع العذب فيما بيننا وشل
محجة سبلها البيضاء خافية وكلها فى مرائى أعين سبل
والصحف تملأ والأقلام متعبة وكلما سمعوا من حاطب نقلوا
والقول والنقد مخلوقان فى عدد قل كما تخلق الأسماع والمقل
لا يكسبان بتقليد ولا دأب ولا يفيدهما علم ولا عمل

وأخيراً ها هو ذا يلغز فى صنم متلاعبا فى اسمه بالتصحيف وغيره أيما تلاعب ، فيقول .

سألت غزالا شف قلبى عن اسمه فدافع عنه ثم قال وعماه
هو اسم يعاف الصالحون استماعه لأن الذى يهواه يبغضه الله (١)
وتصحيفه مر على المرء طعمه يمر على سمع الكريم فيأباه (٢)
ولو قيل لى ثلثاه من فعل صاحب تجافيته من بعد ما كنت أهواه (٣)
ولو قيل فى أخرى سمعت بصيحة لساهر ليل بالهموم تغشاه (٤)
ولكن إذا شبهته باسم غادة فذلك مما تشتهيه وترضاه (٥)

---

(١) يعنى الصنم (٢) يعنى كلمة ضيم
(٣) يعنى كلمة نمّ (٤) يعنى كلمة نمْ
(٥) يعنى كلمه دمية

وبعـــد

فقد كان مهيار يغالى بشعره كما ترى من قوله فى أخريات معظم قصائده، وكان يعتقد أنه الشاعر وحده بعد موت الشريف الرضى وابن نباتة السعدى، كما تراه يقول من قصيدة لفخر الملك أبى غالب مفتخراً بشعره وطالبا إليه تقريبه منه كما كان.

أعيذك بالمجد المحسد أن يرى ... جنابك عنى ضيقا وهو واسع
وأعجب ما حدثته حفظك العلا ... ومثلى فى أيام ملكك ضائع
أأنطق منى بالفصاحة يجتبى ... وأمدح إن لفت عليك المجامع
أبى الله والفضل الذى أنت حاكم ... به لى لو قاضى إليك منازع
وما الشعر إلا النشر بعد أو صورة ... فلو شاء لم يطمع يدأ فيه رافع
وقد أقل النجمان منه فلا يضع ... على غير سير ثالث منه طالع
بقيت لكم وحدى وإن قال معشر ... ففى القول ما تنهاك عنه المسامع

ولعله محق فيما يعتقد عن شاعريته، كما يعرف ذلك من قرأ ديوانه، فقد اعترف له من تناوله من القدامى فى كتب التراجم، بما لم يعترفوا به إلا للقليل غيره، ويكفى أن تدون عنه هنا بعض ما قال فيه رأس المترجمين ابن خلكان فى كتابه (وفيات الأعيان) قال « هو أبو الحسن مهيار بن مرزويه الكاتب الفارسى الديلمى الشاعر المشهور، كان مجوسيا فأسلم، ويقال إن إسلامه كان على يد الشريف الرضى أبى الحسن محمد الموسوى، وهو شيخه وعليه تخرج فى نظم الشعر، وقد وازن مهيار كثيراً من قصائده، وكان شاعرا جزل القول مقدماً على أهل وقته، وله ديوان شعر كبير، وهو رقيق الحاشية طويل النفس فى قصائده ».

فرحمه الله رحمة واسعة، ونفع المتأدبين والشعراء بما خلف من أدب جم وشعر رائق.

العصر المغولى بالمشرق

الحال السياسية للممالك الإسلامية فى عهده

بدأ العصر المغولى منذ أن سقطت بغداد فى يد المغول على يد قائدهم هولاكو سنة ٦٥٦ هـ ومكث قرابة ثلاثة قرون امتدت إلى ما بعد نهاية القرن العاشر بقليل ، فكان ذلك شرقا يقابل عهد ملوك الطوائف بالأندلس غرباً ، حيث بقى لهم هناك ملك لم ينقرض إلا بزوال بنى الأحمر ملوك غرناطة إثر فرار آخر ملوكهم أبى عبد الله محمد بن على من الأندلس سنة ٨٩٧ هـ ، كما يقابل فى وسط الدولة حكم المماليك من أتراك وشراكسة بمصر والشام والحجاز ، هذا الذى لم يزل إلا على يد السلطان سليم حين فتح مصر سنة ٩٢٣ هـ بعد أن امتلك الشام والحجاز قبل ذلك بقليل ، فالأقاليم التى كانت واقعة تحت يد المغول من الممالك الإسلامية بالمشرق هى فارس والعراق طوال هذه القرون الثلاثة ، الا فترتين قصيرتين وقعت خلالها فارس فى يد أهلها الفرس ، ووقعت العراق فى يد الأتراك ، ثم عادتا بعدها إلى المغول كما كانتا ، وكانت آسيا الصغرى خلال عصر المغول فى يد السلاجقة أولا ثم الأتراك العثمانيين ثانياً . وإذن كل هذه الأقاليم كانت مملوكة لغير العرب ولم يكن للعرب حكم ونفوذ إلا فى الأندلس كما ذكرنا وفى المغرب واليمن على شكل إمارات .

هذا ولما كان من دأب المغول فى فتوحهم ، التخريب والتدمير بالقتل والسلب والنهب والتحريق ، فقد كان اكتساحهم للمملكة الإسلامية بالمشرق على يد هولاكو كما سبق ، مؤثراً أشد التأثير فى الثقافة عامة والأدبية خاصة ، كما كان شأنهم قبل ذلك ببلاد التركستان على يد جنكيزخان وبعده على يد تيمورلنك فى الشام ، ولولا رسوخ النزعة الدينية فى قلوب المشارقة ، ومناعة اللغة العربية لأنها لغة القرآن والحديث ، لقضى هذا الغزو

فى قرون المغول الثلاثة ، على الدين واللغة هناك القضاء الأخير ، ولكن الثقافة العربية لهذا وذاك بقى فيها ذماء خلال تلك القرون بالمشرق ، على حين كانت لها قوة بمصر والشام أيام المماليك ، وبالمغرب والأندلس على يد البربر والعرب هناك ، ولا يفوتنا أن نقول إن هؤلاء القوم قضوا على مكتبات بغداد بالتغريق فى دجلة كما قضوا بالتحريق قبلها على مكتبات التركستان ، وبعدها على مكتبات الشام . وهذى كلمة عن الثقافة العلمية ثم الثقافة الأدبية بالمشرق ، أيام هذا العهد المشئوم .

أولا — الثقافة العلميـــة

تتمثل الثقافه العلمية على ما سبق بيانه بالعصر العباسى ، فى العلوم الشرعية والعلوم اللسانية والعلوم الكونية ، وقد كانت وطأة المغول على اللسانية عنيفة ، فى حين كانت على الشرعية متوسطة وعلى الكونية خفيفة كما سترى بعد :

١ — العلوم الشرعية

تتمثل العلوم الشرعية فى القرآن الكريم من تفسير وقراءات وفى الحديث من متن ومصطلح وفى الفقه وأصوله ثم فى علم الكلام ومن أجله كان المنطق .

فأما علوم القرآن فالقراءات لم يزد فيها شيء ، والتفسير وجدت له بعض المؤلفات ، ولعل أبرزها وأشهرها « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » تأليف عبد الله بن عمر البيضاوى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ وقد تولى قضاء شيراز ثم تبريز وفيها كانت وفاته ، وهو تفسير سامى المكانة ولا سيما عند أهل السنة وله شروح كثيرة ، وقد طبع مراراً وتدول فى كافة الأقطار .

وأما الحديث فلم تقع فيه بتلك الأقاليم تآليف ذات شأن ، لا متنا ولا مصطلحا على أن مما يعد فيه من تآليف الحديث كتاب « الرياض النضرة فى مناقب العشرة »

اصاحبه محب الدين الطبرى [1] المتوفى سنة ٦٩٤ هـ يعنى الصحابة العشرة الذين وعدوا بالجنة ، وقد تكلم عليهم من وجهات استدعت ذكر كثير من الحديث [2] وهو مطبوع بمصر فى جزأين .

وأما الفقه وأصوله، فالاصول كان مما ألف فيها «منار الأنوار فى أصول الفقه» لحافظ الدين النسفى المتوفى سنة ٧١٠ هـ وله أيضاً كتاب «الوافى فى الفروع» وكلاهما له شروح عديدة ومطبوع مراراً فى مصر وغيرها ، والفقه لم يكن ذا ظهور بالمشرق إلا فى المذهب الحنفى ومن خيرة مؤلفاته هناك «مجمع البحرين وملتقى النهرين» لمظفر الدين بن الساعاتى البغدادى المتوفى سنة ٦٩٦ هـ [3] وهو من الكتب ذات الشهرة الواسعة وله شروح كثيرة وكلها مطبوع .

أما علم الكلام ومن أجله كان المنطق ، فما كان فى الأول «المواقف فى علم الكلام» لعضد الدين الأيجى المتوفى سنة ٧٥٦ هـ وعليه شروح للتفتازانى الجرجانى وغيرهما ، ومما كان منه فى الثانى كتاب «قسطاس الميزان فى المنطق» لشمس الدين بن شرف السمرقندى المتوفى سنة ٦٩٠ هـ وكذا «الرسالة الشمسية فى القواعد المنطقية» لنجم الدين القزوينى المتوفى سنة ٦٧٥ هـ وعليها شروح مطبوعة بالقاهرة وغيرها « ومما حي مع هذين العلمين ، الجدل وآداب البحث ، وقد جاء فيهما آداب البحث «للسمرقندى»

---

(١) نسبة إلى طبرستان إحدى بلاد العجم ، أما طبرية الشام فنسبة الإنسان إليها طبرانى بزيادة ألف ونون على غير قياس ، وإذا نسب إليها غير الإنسان قيل طبرى على القياس ومن ذلك الدراهم الطبرية .

(٢) هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن مالك وسعيد بن زيد، وأبو عبيده ابن الجراح

(٣) هو غير ابن الساعاتى الشاعر المصرى المتوفى قبله سنة ٦٠٤ هـ

المذكور وكتاب « الفصول فى علم الجدل » لبرهان الدين النسفى المتوفى سنه ٦٨٧ هـ .

ومما ينبغى أن يذكرهنا حيث الكلام على العلوم الشرعية ، نشاط الشيعة فى التآليف الدينية ، كحسن بن على بن داود من علماء أواخر القرن السابع صاحب كتاب « رجال الحديث من الشيعة » وجمال الدين بن المطهر الحلى المتوفى سنة ٧٢٦ هـ صاحب كتاب « نظم البراهين فى أصول الدين » وله عليه شرح باسم « معارج الفهم فى شرح النظم » .

٢ — العلوم اللسانية

تتمثل العلوم اللسانية فى النحو والصرف ومتن اللغة والبلاغة والأدب ومنه التاريخ كما سبق بيانه حيث الكلام عليها فى العصر العباسى ، وقد كانت وطأة المغول على العلوم أشد ما تكون على علوم اللسان كما ذكرنا ، لأنها ليست شرعية يلحظ فيها شعور الناس ولا كونية هم فى حاجة اليها .

ففى النحو والصرف بقى الاعتماد على أمهات كتبه التى وضعت فى العصر العباسى الرابع ولم يظهر لها فى هذا العصر إلا الضئيل النادر ، مثل كتاب « لباب الأعراب » لتاج الدين الأسفرائينى المتوفى سنة ٦٨٤ هـ ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية وعليه شروح بعضها فى بعض مكاتب أوربة ، ولم نظفر بشىء للصرف فيه .

وفى متن اللغة ألف أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ كتابه « القاموس المحيط » وهو أكثر المعاجم اللغوية تداولا فى العالم الآن ، وعليه شروح كثيرة وانتقادات أكثر ، وطبع كما طبعت هذه الشروح والانتقادات بمصر وغيرها مراراً .

وفى البلاغة ظهر سعد الدين مسعود بن عمر التفتازانى المتوفى سنة ٧٩١ هـ وهو أحد شارحى كتاب الخطيب القزوينى « ملخص مفتاح العلوم للسكاكى »

وإن كان خاصاً بقسم البلاغة منه دون الأقسام الأخرى الخاصة بالنحو والصرف والعروض، وهذا الشرح للتفتازانى أشهر شروح التلخيص وأطولها ولذا سماه « المطول » ثم اختصره فى كتاب سماه « المختصر » ومن بعده جاء أبو القاسم السمرقندى المتوفى سنة ٨٨٨ هـ وألف كتاب « فرائد الفوائد لتحقيق معانى الاستعارة » المشهور بالرسالة السمرقندية، وعليها شروح كثيرة طبع كثير منها فى مصر وغيرها .

أما الأدب والتاريخ، فعلى ما كان لهما فى عالم التأليف أيام العصر العباسى حتى آخر عهوده من رواج كبير، قد اعتراهما فى هذا العصر المغولى من الكساد الشيء الكثير، ففى الأدب عجزت القرائح أن تؤلف فى موضوعاته الخاصة ذات البحث والاختراع، فوقفت عند حدود الجمع الضيق الذى لا يصدق معه اسم الموسوعات، وكان من الكتب الأدبية التى تركت عنه، مجموعة ياقوت[1] وهى منتخبات فى الأخبار والأشعار والملح والحكم والوصايا والعظات، وياقوت هذا هو أبو الدر جمال الدين ياقوت المستعصمى البغدادى المتوفى سنة ٦٩٨ هـ. ولجمال الدين الوطواط المتوفى سنة ٧١٨ هـ مجموعة معروفة باسم « غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص «والفاضحة » فى المحامد والمذام المختلفة نثراً ونظماً، وهى فى ستة عشر باباً وقد طبع بمصر مراراً، ولمحمد بن أحمد الخطيب الأبشيهى من النصف الأول من القرن التاسع الهجرى كتاب «المستطرف فى كل فن مستظرف» على شكل موسوعة فى معلومات عامة، وهو يشتمل على ثمانية وأربعين باباً وقد طبع مراراً بمصر وغيرها كما ترجم إلى الفرنسية .

وكما عجز أدباء هذا العصر عن مجاراة أسلافهم، عجز كذلك مؤرخوه، فلم يتركوا لنا فى عالم التاريخ الا القليل على أنه فى التاريخ العام وحده مثل .

---

(١) هو غير ياقوت الرومى صاحب معجم لبلدان، ومعجم الأدباء المتوفى قبله سنة ٦٢٦ قبل انتهاء العصر العباسى .

«مختصر أخبار الخلفاء» لتاج الدين أبى طالب بن أنجب البغدادى المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ، والخلفاء الذين تكلم عنهم هم الخلفاء العباسيون منذ ظهور دولتهم إلى انقراضها ببغداد ، ومثل «الآداب السلطانية والدول الأسلامية» لمحمد بن على بن طباطبا المتوفى سنة ٧٠١ هـ وهو المشهور باسم الفخرى ، لأنه ألفه لفخر الدين عيسى بن إبراهيم صاحب الموصل ، وهو يبدأ من الخلفاء الراشدين إلى نهاية العباسيين ، وله فيه آراء وانتقادات .

٣ — العلوم الكونية

تتمثل هذه العلوم فى العلوم الطبيعية من طبيعة وكيمياء وطب وصيدلة وفلاحة ومواليد ، وفى العلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة وفلك وحيل (ميكانيكا) وفى العلوم السياسية من تنظيم الملك وتدبير المنزل والاقتصاد والأخلاق ، ثم العلوم الألهية من صفات الاله والسمعيات وقوى النفس وماوراء الطبيعة .

وقد عنى المغول من العلوم الطبيعية بالطب والصيدلة محافظة على أبدانهم وأمزجتهم وصحة قوادهم وجنودهم ، ومما تركه عهدهم فى ذلك كتاب «مالا يسع الطبيب جهله» للجوينى الخراسانى المعروف بابن الكتبى وبابن الكبير المتوفى سنة ٧١١ هـ ،

وعنوا بالعلوم الرياضية جميعا ، فكان من كبار الرياضيين على عهدهم بدر الدين محمد المارديني الرياضى الشهير المتوفى سنة ٨٩١ هـ صاحب المؤلفات العديدة فى الرياضة عامة وفروعها العالية خاصة ، وأبو العز بن إسماعيل الجزرى صاحب كتاب الجامع بين العلم والعمل فى الرياضيات والحيل وقد ألفه لآل قرا أرسلان أصحاب ديار بكر بعد أن خدم بيتهم نحو ثلث قرن ، وفيه أكثر من مائة رسم هندسى وحيلى ومئات من المصطلحات الهندسية علما وعملا ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية فى مكتبة المرحوم أحمد زكى باشا ، ومن علماء عهدهم فى الفلك ، قطب الدين محمود

الشيرازى المتوفى بتبريز سنة ٧١٠ هـ صاحب كتاب « نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك » وهو تلميذ نصر الدين الطوسى المتوفى سنة ٦٧٢ هـ أشهر فلكي عصره .

والعلوم السياسية على مالها من اعتبار بوسط الدولة وغربها لم تكن ذات شأن عندهم فى فرع من فروعها التى ذكرنا ، لأنهم كانوا همجيين لا يدينون بالنظام فى إدارة الملك ولا يعترفون بفائدته ، على أنه قد عثر فى هذا العهد على كتاب فى الأخلاق لعضد الدين الأيجى السابق ذكره فى علم الكلام على شكل رسالة سماها « الشاهية » ومنها نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

أما العلوم الإلهية بفروعها السابقة فقد كانت على مالها من شأن فى ممالك غرب الدولة ووسطها كالسياسية شبه معدومة بهذا العهد فى الشرق ، إلا فى بعض أبحاث قليلة فى التصوف تتراءى ضئيلة هزيلة إزاء أبحاثه الواسعة العميقة فى ممالك الوسط والغرب .

ثانياً — الثقافة الأدبية

تتمثل الثقافة الأدبية على ما عرفت فى الخطابة والكتابة والشعر ، وقد كانت فى عهد المغول بالمشرق أشد ألوان الثقافات تأثراً لبعد أولئك القوم عن الأدب وجهلهم إياه بله تذوقهم لجماله ، وعلى عكس ما كانت عليه حال الخلفاء والملوك والوزراء وذوى النفوذ والسلطان من قبل ، وهذا تصوير خاطف لحال كل من مظاهر الأدب المذكورة على عهدهم .

١ — الخطابة

كانت الخطابة فى هذا العهد شبه معدومة ، فقد انحصرت فى الخطب الدينية يلقيها خطباء مأجورون بالمساجد على أشد مما كانت عليه الحال فى أخريات العهد العباسى ضعفاً ، حيث منع الخلفاء منها وكف ذوو السلطان والنفوذ عنها ،

ثم كانت فوق ذلك تلقى من دواوين ألفها لعجز الخطباء مؤلفون لجميع جمع السنة، فى عبارات سقيمة ومعان هزيلة ولمناسبات تافهة، ليس بينها وبين فضيلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر صلة، ولا بمواعاة مقتضيات الأحوال الدنيوية والأخروية رباط، بل لم تكن ترتبط فى أحوال المعاد إلا بذكر الجنة والنار والحشر والحساب، وقد استمر الضعف ينكى بها على هذا العهد بالمشرق حتى كانت من الموت قاب قوسين أو أدنى.

٢ — الكتابة

قد كان هذ العهد شديد الوطأة على الكتابة أيضاً ديوانية وإخوانية، فأما الديوانية فلأن الدواوين على عهده درست معالمها وعفا أثرها، لأن رجال حكمه لم يكن عندهم للدواوين شأن، إذ كان تدبير أمورهم صادرا منهم وراجعا إليهم، وهم قوم لم يرثوا ملكا ذا نظام، ولا مرنوا على حكم ذى إدارات ورياسات، إنما هم غزاة فاتحون مخربون، لا يقيمون وزنا لثقافة ولا يعبئون بأدارة، كل همهم من الفتح، الغلب والقمع والأذلال والقهر، ولهذا لم يكن عجباً أن يقوضوا إدارات الملك ونظامه ويقضوا على مصالحه ودواوينه ولا سيما ديوان الإنشاء، وإذن فقد انقرضت الكتابة الديوانية تقريباً اللهم إلا فى أشباح دواوين كما كانت الحال أيام مظفر الدين شاه يحيى سلطان كرمان وكاتبه جنيد بن محمود المتوفى سنة ٧٩٠ هـ،

أما الكتابة الأخوانية فقد ضعف شأنها وقل رجالها، لأن هذا الغزو على تلك الصورة البشعة التى ذكرنا، كان من شأنه إلقاء الفزع والرعب فى النفوس، وتفكيك أواصر الاتصال بين أفراد المجموع، إلى درجة تنسى الناس الإبقاء على اجتماعهم بأمثال هذه المكاتبات، وقلما وجد به كاتب ذو ديوان كما كانت الحال قبل، وإذا وجد كان ذلك فى أوائله كرسائل محمد بن إبراهيم الأنصارى الملقب بجمال الدين الوطواط المتوفى سنة ٨١٧ هـ وقد طبعت بمصر منذ سنين.

ولعجز الناس عن الكتابة الإخوانية فى هذا العهد ، بدأت تظهر المنشئات التى يستعان بها ، أسوة بظهور دواوين خطب المساجد ، ومن ذلك « ديوان المنشئات » لنظام الدين الأصفهانى المتوفى سنة ٦٧٨ هـ . ولم يعدم هذا العصر ظهور بعض المقامات على قصورها فيه ، كالمقامات الاثنى عشرية لمنشئها أحمد بن محمد المعظم الرازى المتوفى سنة ٧٣٠ هـ . وقد نشرها سليمان الحريرى بباريس فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى

٣ — الشعـــر

كان ضعف الشعر بادياً جداً ، ألفاظا وأساليب ، معانى وأخيلة ، أغراضاً وفنوناً ، فى هذا العصر المغولى بالمشرق ، على حين كان مرضياً عنه فى تلك النواحى الثلاث ، بغرب الدولة أندلسها ومغربها ، وبوسطها مصرها وشامها ، حيث كان يجد المدد والعون من أمراء العرب ورجالات البربر فى الأوليين ومن المماليك فى الثانيتين ، ويفقدهما بالمشرق أيام المغول ، لأن بطشهم وعسفهم قيد الألسنة وشغل الخواطر وعقل العقول ، فاشتد جمود القرائح وعجز الأقليم أن يخرج أحدا من نبغاء الشعر بله الشعراء العاديين ، وهل ينتظر من بيئة هذا وصفها وحكام جهلوا العلم وفقدوا ذوق الأدب ، غير الذى ذكرنا من ضعف العلم وفقد الأدب ، وإنك على كثرة ما تجد من شعراء فى غرب الدولة ووسطها فى هذا العهد ، لا تكاد تجد أحداً فى الشرق ، ولعلنا إذا ما شرطنا فى الشاعر شاعرية تكسبه هذا الوصف بحق ، لانجد بهذه الأقاليم المشرقية إلا عبد العزيز بن سرايا الملقب بصفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ شاعر الدولة الأرتقية فى ماردين بالعراق ، فانه كان شاعرا فحلا ذا مطولات كثيرة وأغراض متنوعة ، وقد كان على شغفه بالبديع ، سهل اللفظ حسن السبك جيد الفكر واضح المعنى ، وله ديوان شعر ضخم جمعه ووزعه على أحد عشر بابا أودع كل باب فنا من فنون الشعر ، كالفخر والمدح والهجاء والوصف والغزل والرثاء وغيرها . وقد طبع

ببيروت سنة ١٨٩٢ م فى أكثر من خمسمائة صفحة ، ومن طوال قصائده ومشهوراتها «الأرتقيات» فى مدح الملك المنصور أبى الفتح بن أرتق الغازى صاحب ماردين ، وهى تسع وعشرون قصيدة التزم فى كل منها حرفا فى أول البيت وفى آخره ، فهى بعدد حروف الهجاء ، وقد طبعت وحدها بالقاهرة سنة ١٢٨٣ هـ فضلا عن وجودها بديوانه المطبوع فى بيروت كما سبق ، هذا وقد كان ذا صنعة للشعر وتلاعب به ، ظهر فى تلك الأرتقيات على ما وصفنا. وظهر فى التخميس كما فعل فى لامية السموءل المشهورة وهى ثلاثة وعشرون بيتا قال فى أولها :

قبيح بمن ضاقت عن الرزق أرضه ... وطول الفلا رحب عليه وعرضه
ولم يبل سربال الدجى منه ركضه ... إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

وقال فى آخرها :

لئن ثلم الأعداء عرضى بلومهم ... فكم حلموا بى فى الكرى عند نومهم
فأن أصبحوا قطبا لأبناء قومهم ... فانا بنى الديان قطب لقومهم
تدور رحاهم حولهم وتجول

وقد كان أكثر نبوغه فى الفخر والوصف ، وهاك نموذجا من كل يريك تفوقه فيه . قال يفتخر ويعارض نخرية بشامة بن حزن النهشلى التى مطلعها :

إنا محيوك يا سلمى فحيينا ... وإن سقيت كرام الناس فاسقينا

وهى على قصرها ذات شأن فى المفاخر كبير ، قال :

سلى الرماح العوالى عن معالينـــا
واستشهدى البيض هل خاب الرجا فينا
وسائلى العرب والأتراك ما فعلت ... فى أرض قبر عبيد الله أيدينا
لما سعينا فما رقت عزائمنا . . ... عما نروم ولا خابت مساعينا
يا يوم وقعة زوراء العراق وقد ... دنا الأعادى كما كانوا يدينونا

بضمر ما ربطناها مسومـــة ... إلا لنغزو بها من بات يغزونا
وفتية إن نقل أصغوا لسامعهم ... لقولنا أو دعوناهم أجابونا
قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة ... يوما وإن حكموا كانوا موازينا
تدرعوا العقل جلبابا فان حميت ... نار الوغى خلتهم فيها مجانينا
إذا ادعوا جاءت الدنيا مصدقة ... وإن دعوا قالت الأيام آمينا
إن الزرازير لما قام قائمها ... توهمت أنها صارت شواهينا
ظنت تأنى البزاة الشهب عن جزع ... وما درت أنه قد كان تهوينـــا
ذلوا بأسيافنا طول الزمان فمذ ... تحكموا أظهروا أحقادهم فينا
لم يغنهم مالنا عن نهب أنفسنا ... كأنهم فى أمان من تقاضينا
أخلوا مساجد من أشياخنا وبغوا ... حتى حملنا فأخلينا الدواوينا
ثم انثنينا وقد ظلت صوارمنا ... تميس عجبا وتهتز القنا لينا
وللدماء على أترابنا علـــق ... يشره عن عبير المسك يغنينا
إنا لقوم أبت أخلاقنا شرفا ... أن نبتدى بالأذى من ليس يؤذينا
بيض صنائعنا سود وقائعنا ... خضر مرابعنا حمر مواضينا
لا يظهر العجز منا دون نيل منى ... ولو رأينا المنايا فى أمانينا

وقال يصف إقبال الربيع وفيها من البديع الشيء الكثير :

ورد الربيع فمرحباً بوروده ... وبنور بهجته ونور وروده
وبحسن منظره وطيب نسيمه ... وأنيق ملبسه ووشى بروده
فصل إذا افتخر الزمان فأنه ... إنسان مقلته وبيت قصيده
يغنى المزاج عن العلاج نسيمه ... باللطف عند هبوبه وركوده
ياحبذا أزهـــاره وثماره ... ونبات ناجمه وحب حصيده
وتجاوب الأطيار فى أشجاره ... كبنات معبد فى مواجب عوده
والغصن قد كسى الغلائل بعدما ... أخذت يدا كانون فى تجريده
نال الصبا بعد المشيب وقد جرى ... ماء الشبيبة فى منابت عوده
والورد فى أعلى الغصون كأنه ... ملك تحف به سراة جنوده

وكأنما القداح سمـــط لآلئ هو للقضيب قلادة فى جيده
والياسمين كعاشق قد شفه جور الحبيب بهجره وصدوده
وانظر لنرجسه الجنى كأنه طرف تنبه بعد طول هجوده
وأعجب لآذريونه وبهاره كالتبر يزهو باختلاف نقوده
وانظر إلى المنظوم من منثوره متنوعاً بفصـــوله وعقوده
أو ما ترى الغيم الرقيق وما بدا للعين من أشكاله وطروده
والسحب تعقد فى السماء مآتماً والأرض فى عرس الزمان وعيده
ندبت فشق لها الشقيق جيوبه وازرق سوسنها للطم خدوده
والماء فى تيار دجلة مطلق والجسر فى أصفاده وقيوده
والغيم يحكى الماء فى جريانه والماء يحكى الغيم فى تجعيده
فابكر إلى روض الصراة وظلها فالعيش بين بسيطه ومديده

ولصفى الدين فى التواشيح والموالياً وسائر المستحدثات فى الشعر أوزانه وقوافيه مجال ، وترى له بالديوان الكثير من الأمثال ، كما ترى فى ذيله ألوانا من نثره الشعرى وحله المنظوم هذا وإذا ما التمسنا شعراء غيره حتى المعاديين بالمشرق على هذا العهد لم نجد إلا القليل الضئيل ، كالأمير خليل ابن أحمد الأيوبى صاحب حصن كيفا المتوفى سنة ٨٤٦هـ ، وشاعره علاء الدين الماردينى الذى له فيه وفى غيره مجموعة أشعار ، هى إلى النظم أقرب من أن تسمى بالشعر .

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤	٢	كانت	كان
٤	٤	بما	عما
١١	١٣	المجنون	المجون
١٢	٢٤	الشعر	النثر
١٥	٢٦	فعلك	فعلك فعلك
١٧	١٥	اختط	اختلط
٢٥	١٢	تعج	تعج بها
٣٠	١	التأثر	التأثير
٣١	٧	الفرس	للفرس
٣٢	٢٤	كنجق	وسنجق
٤٢	٢	سلنه	سلبه
٤٣	١	يحرض	يحرص
٤٥	٣	والأعجميات	الأعجميات
٤٥	٩	نروح	نزوح
٥٧	٢	له	لله
٦٧	١٠	ويضع	، يضع
٦٨	٢٤	الانتصار	الانتصار عليهم
٧٦	٨	الله	لله
٧٦	٢٤	يجملون	يجلون
٧٧	١٨	اطردوا اياها	اطرد وإياها
٧٨	٢١	ألن	من
٩٥	٢٥	والعراقى	العراقى
٩٥	٢٥	١٦٣	٦٦٣
١٠١	١١	الآباء	الأماء
١٠٢	١٣	رجلا	رحلا رجلا
١٠٧	٧	ينتقض	ينتقص
١١٠	٢	بولود	بمولود
١١٢	١٧	أبد	يداً
١١٨	١٥	طرفها	طرقها
١١٨	٢٠	بن ، نداد	بن ونداد
١٢٠	١٢	أكنف	أكثف
١٢١	٢	أقراظها	أقرظهما
١٢٥	٧	الله	لله
١٢٧	٢١	وأهيء	أهنيء
١٢٧	٢٣	وهى	وهو
١٢٩	٥	سفره	سفر
١٢٩	١٧	ومنة	ودمنة
١٣٠	٨	الأزار	الرداء
١٣١	٤	ماين	عاين
١٣٤	١٤	بالأمس	بالأمراس
١٣٦	٦	السرج خطمها	السروج خطمها
١٣٦	٢١	اطلعها	اخلعهما
١٣٧	٩	وهو	وهى
١٣٧	١٢	ردهم	درهم
١٣٩	١٠	لأسحى	لأسحق
١٤٠	١٥	سبيل	سبل

(تابع) جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤٢	١٢	انصراف	بالانصراف
١٤٧	٦	العجم	كتب العجم
١٥١	٢٠	خلطيك	خليطك
١٥١	٢٤	فى	على
١٥٢	١١	فقاك	فقال
١٥٩	٢٢	يد	يد أحد
١٦٠	٩	الأطناب	والأطناب
١٦٤	١	وعتبة	وعتيبة
١٦٤	٢	عنده	عندى
١٦٩	٢	الأسير	الأثير
١٧٢	٢٣	حق يعثر لهم	حق من يعتريهم
١٧٣	٣	فكيف	فكتب
١٧٥	١٥	العادة	السعادة
١٧٥	١٦	ديونك	ديوانك
١٧٧	٢٤	أهلكتوه	أهلكتموه
١٧٩	١	قبله	بعده
١٧٩	١٠	أمير	يا أمير
١٧٩	١٧	شغفت	شغف
١٧٩	٢٤	ومن	من
١٨١	٨	يمدو	يجدد
١٨٢	٢٤	عاقته	عاقبة
١٨٣	٢	كنت	كتب
١٨٤	٤	أشكوى	أشكو
١٩٩	٢	جميع	جمع
٢٠٢	٦	النوفع	التوقيع
٢٠٣	٢	رسلتك	وسيلتك
٢١٤	٢	داود	بن داود
٢١٧	٢٣	الأدوية	الأودية
٢١٧	٢٢	الأساتير	الأساطير
٢٢١	٢٣	الموضوعية	الموضوعة
٢٢٧	١٧	أفراد	أفرد
٢٣٤	١٨	وهموم ناضبة	وهموم ناصبة
٢٣٩	٥	تعدد	تعددت
٢٣٩	١٤	كثير	كبير
٢٤٢	١٥	شيخوخه	شيوخه
٢٤٧	١٦	فألف الفيروزابادى القاموس المحيط	فألف الزمخشرى
٢٤٨	١٥	المتز	الممتز
٢٥٤	٢١	والمروف	والمعروف
٢٥٦	٩	الجديد	الجديدة
٢٧٨	٤	أطرق	أطلق
٢٨٠	١	أقبر	قبر
٢٨٥	٤	يتعوق	يتوق
٢٨٥	٢٤	يوان	ديوان
٢٨٦	٦	رد	در
٢٨٨	١	التعاويذ	التعاويذى

(تابع) جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٨٨	١٢	تقى	نقا
٢٨٩	٥	ووجدانا	وإحساسا
٢٨٩	١٠	السياسية	السياسة
٢٩٠	٥	«	«
٣٠٧	٣	لم	،
٣٠٨	١	فيه	منه
٣٢٥	٢٢	القسلب	القلب
٣٢٨	١٧	تبز	تبر
٣٢٩	١٤	كما	ما
٣٣٩	٢٣	سواد	سوداء
٣٤١	٢٥	شأن	شان
٣٤١	٢٥	ودانى	ودان
٣٤٢	٢٥	وهل	هل
٣٤٣	٢٤	صدعنى	يصدعنى
٣٤٥	٢٥	طرائع	طرائق
٣٥٢	٢٥	الهندية	الهنيدة
٣٥٥	٧	ثل	أهل
٣٥٨	١٢	قليل	قيل
٣٦٠	٩	دمعهما	دمعها
٣٦٢	١٢	الخطاب	الخضاب
٣٦٤	٢	إسعاد	إسعادا
٣٦٨	٢	السكتابة	السكناية
٣٦٨	٢٠	تصرفا	تصرف
٣٦٩	٨	مغزاه	معناه
٣٦٩	١١	السيئة	المسيئة
٣٧١	١٧	النبطيط	النبيط
٣٧٢	٥	أنثى	أسنى
٣٧٢		بين ١٠، ١١،	بمناظرته الخوارزمى
٣٧٥	١٩	سنية	سجية
٣٧٧	١٠	شفائق	سفاسق
٣٧٩	١٠	مصاث	مصاب
٣٨١		بين ١، ٢	تمهيد
٣٨١	١٥	الثانى	الثالث
٣٨٢	١٤	حزان	أحزانى
٣٨٣	١٤	حب	صب
٣٨٥	٢٥	(م - ٢٤)	(م - ٢٥)
٣٨٦	١٨	زادنى كلفى	زاد فى كلفى
٣٩٢	٦	ودتة	ورتة
٣٩٢	٦	والركاكة	والركاكة فى
٣٩٤	٣	وجهودا	وجودا
٣٩٩	١٢	الاث	لات
٤٠٠	٣	الصخت	الصخرة
٤٠٠	١٢	أبطالها	من أبطالها
٤٠٥	٢٤	نصل	فصل
٤٠٥	١٣	الدنيا	الدنا
٤٠٩	٢١	أبيه	إليه
٤١٠	١	وأصرار	وأصهار
٤١١	٢٣	تشكروا	تنكروا

(تابع) جدول الخطا والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤١٣	٨	فاردادت	فأرادت
٤١٥	٢٥	تزال	تزول
٤١٦	١١	الج —	الـــج
٤١٦	١٣	ولنسبة	والنسبة
٤١٨	١١	جنحى	جناحى
٤٢٠	٥	بلبابه	بلباله
٤٢٠	١٦	المقتـــول	المقـــتول
٤٢٢	١٧	إذا	إذا ما
٤٢٣	١	خلال	خلاف
٤٢٦	٢١	ندول	تدوول
٤٢٩	١٦	« والفاضحة	الفاضحة «
٤٣١	٤	مالها	ما كان لها

رجاء

نرجو من القارىء أن يصلح جميع الخطأ قبل قراءة الكتاب .

الفهرس

العصر العباسى بالمشرق

الصفحة	الموضوع
٣ — ٥٢	مقدمات
٣ — ٨	تصوير عام للحالة السياسية فى هذا العصر الطويل الذى صار أربعة عصور
٩ — ١٩	طابع كل عصر وأثره العام فى حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم
٢٠ — ٢٩	ما طرأ على العرب ولغتها من جراء امتزاج الأعجام بها
٣٠ — ٤٠	غلبة الفرس فى هذا التأثير وإلى أية درجة كان فى اللغة مداه
٤١ — ٥٢	انتشار العامية واختلافها باختلاف الأقاليم
٥٣ — ٩٦	— الخطابة —
٥٣ — ٧٤	نماذجها « ٢٣ نموذجا »
٧٥ — ٩٦	حياتها « دواعيها وأغراضها ومميزاتها »
٩٧ — ٢٦٥	— الكتابة —
٩٧ — ٩٨	تمهيد فى بيان أنواعها
٩٩ — ١٢٩	نماذج الرسائل « ٤٥ نموذجا »
١٢٩ — ١٤٢	نماذج القصص والمقامات « ٤ نماذج »
١٤٣ — ١٧٠	حياتها من حيث أساليبها ومميزاتها وطبقات رجالها « مع إشباع القول فى أئمتها الأربعة فى العصور الأربعة وهم ابن المقفع والجاحظ وابن العميد والحريرى »
١٧٠ — ١٩٧	دواعى الرسائل وأغراضها ومكانة الكتابة ومنزلة رجالها
١٩٧ — ٢٠٨	التوقيعات « نماذجها وحياتها »
٢٠٨ — ٢٢٦	القصص من حيث نشأتها وأنواعها ومدى انطباقها على ما يراد بالقصة الآن
٢٢٦ — ٢٣٧	المقامات من حيث نشأتها والتعريف بها مع إشباع القول فى مقامات البديع ومقامات الحريرى

الصفحة	الموضوع
٢٣٨ — ٢٥٩	تدوين العلوم من شرعية ولسانية وكونية
٢٥٩ — ٢٦١	الكتابة العلمية أو لغة التأليف
٢٦١ — ٢٦٥	مجالس العلم والمناظرة وإنشاء المدارس
٢٦٦ — ٣٦٢	— الشعر —
٢٦٦ — ٢٨٨	نماذجه « ٢٣ نموذجا »
٢٨٩ — ٣٤٧	حياته من حيث الأغراض والفنون ، والمعانى والأخيلة ، والألفاظ والأساليب
٣٤٨ — ٣٥١	مواطن الشعر وطبقات رجاله
٣٥١ — ٣٥٦	العوامل المساعدة لأسباب نهوضه
٣٥٦ — ٣٦٢	الغناء ومجالسه
٣٦١ — ٤٢٤	— التراجم —
٣٦٣ — ٣٨٠	البديع
٣٦٣ — ٣٦٤	نسبه ومولده ونشأته وسيرته
٣٦٤ — ٣٦٩	منزلته الكتابية
٣٦٩ — ٣٧٢	شاعريته
٣٧٢ — ٣٨٠	مناظرته الخوارزمى
٣٨١ — ٤٠٤	البحترى
٣٨١ — ٣٨٢	تمهيد
٣٨٢ — ٣٨٨	نشأته وسيرته
٣٨٨ — ٤٠٤	شاعريته واتساع فنونه ومنزلته
٤٠٥ — ٤٢٤	مهيار الديلمى
٤٠٥ — ٤٠٦	تمهيد
٤٠٦ — ٤٢٣	ديوانه وشعره وفنونه
٤٢٤ — ٤٢٤	مغالاته بتنفسه ومنزلته

بيومي ،السباعي
تاريخ الادب العربي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01032907

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت

892.709
B36LA
V.3

General Library

892.709
B36trA
v.2